المجلس الأعلى للغة العربية

تحت الرعاية السامية لفخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة

نظم المجلس ندوة دولية حول:

مكانة اللغة العربية بين اللغات العالمية

(نصوص أعمال الندوة)

الجزائر أيام 10 - 12 شعبان 1421 هـ الموافق 6 - 8 نوفمبر 2000

منشورات
المجلس الأعلى للغة العربية
الجزائر 2001

المجلس الأعلى للغة العربية

تحت الرعاية السامية لفخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة

نظم المجلس ندوة دولية حول:

مكانة اللغة العربية بين اللغات العالمية

(نصوص أعمال الندوة)

الجزائر أيام 10 - 12 شعبان 1421 هـ الموافق 6 - 8 نوفمبر 2000

منشورات

المجلس الأعلى للغة العربية

الجزائر 2001

فهرست

استهلال..... 07

الأستاذ الدكتور عبد الملك مرتاض

رئيس المجلس الأعلى للغة العربية

- الأستاذ الدكتور عبد الرحمن حاج صالح.....24

اللغة العربية وتحديات العصر

في البحث اللغوي وترقية اللغات.

- الأستاذ الدكتور أحمد مطلوب.....39

دور اللغة العربية في الإشعاع الحضاري.

- الأستاذ الدكتور أحمد حساني.....69

المرتكزات اللسانية لتعليمية اللغة العربية

في وسط تعدد الثقافات واللغات.

- الأستاذ الدكتور سعيد السريحي 94

شجاعة العربية وأوهام النقاء.

- الأستاذ الدكتور فكتور الكك.....108

اللغة العربية في إيران ماضيا وحاضرا ومستقبلا.

- الأستاذ الدكتور رشيد عبد الرحمن العبيدي.....142

موقع العربية بين اللغات البشرية.

- الأستاذ الدكتور عبد الرؤوف فضل الله.....163

اللغة العربية وعاء الوجدان القومي

والركيزة التوحيدية في الثقافة العربية.

- الأستاذ الدكتور تمام حسان.....172

اللغة العربية بين العوربة والعولمة.

- الأستاذ علي القاسمي.....195

شروط عالمية اللغة وكيفية توفيرها للغتنا العربية.

- الأستاذ عبد الفتاح أبو مدين.....207

العربية بين العوربة والعولمة

- الأستاذ أحمد الأخضر الغزال.....227

الحلول العلمية لمشاكل اللغة العربية.

- الأستاذ الدكتور أحمد يوسف.....248

اللسانيات العامة وواقع اللغة العربية.

- الأستاذ الدكتور رمضان عبد الثواب.....270

الدرس اللغوي في العربية بين التراث والمعاصرة.

- الأستاذ الدكتور اسلموا ولد سيدي علي.....284

دور مكتب تنسيق التعريب في خدمة اللغة العربية

وإغنائها بالمصطلحات العلمية الموحدة على مستوى الوطن العربي

- الأستاذ الدكتور صالح بلعيد.....306

تحديات اللغة العربية في الألفية الثالثة.

- الأستاذ الدكتور يوسف الصيداوي.....327

اللغة العربية في تحديات العصرنة.

- الأستاذ الدكتور إبراهيم بدران.....340

اللغة العربية وتحديات القرن الحادي والعشرين.

- الأستاذ الدكتور محمد بطاز.....360

المدرسة الرياضية العربية

وعلوم الحاسوب حاضرا ومستقبلا.

- الأستاذ الدكتور شحادة الخوري.....366

واقع اللغة العربية عربيا ودوليا.

- الأستاذ الدكتور نهاد الموسى.....389

التوصيف: مقاربة في حوسبة العربية.

- الأستاذ الدكتور علي بوعمامة 423

مكانة اللغة العربية ضمن اللغات الحية في فرنسا.

- الأستاذ الدكتور عبد الجليل مرتاض 433

هذه العربية: واقع وآفاق.

- الأستاذ الدكتور زكا نجيب 460

رحلة اللغة والثقافة العربية إلى فرنسا

تعليمها في المعاهد العليا والجامعات.

وإنّما يدلّ ذلك على العناية الكريمة التي يوليها فخامتُه لترقية اللّغة العربيّة كيما تغتديَ لغةَ علمٍ وتقنولوجيا؛ فله منّا فائق التّقدير وعظيم العرفان.

أيّها الضّيوفُ الأكارم،

إنّه ليسعدني، باسميَ الخاصّ، وباسم زملائي في المجلس الأعلى للّغة العربيّة، أن أرحّب بكم ترحيباً حارّاً خالصاً يليق بجَنابكم، ويجدُر لِمَقامِكم: ضيوفاً كِراماً، وإخوةً أعزّاءَ، في الجزائر: أرضِ المليون ونصف المليون شهيد. كما نشكركم على تفضّلكم بقَبول الإسهام في هذه النّدوة الْمُتمحِّضة لقضايا اللّغة العربيّة بأبحاثكم ودراساتكم المتألّقة التي ستُلْفِي سبيلها إلى النّشر في أقرب الآجال المكنة: تعميماً للفائدة، وتخليداً لفعاليات هذه النّدوة. لقد امتطيتم الأجواء السّحيقة مع ما في ذلك من العَنَت والمشقّة من أجل أن تكونوا اليوم بيننا؛ فجزاكم اللّه خيراً كثيراً. ولْتَثِقوا، إخوتَنا الأكارمَ، بأنّكم، بين أهليكم وذويكم؛ ولْيَطِبْ بيننا مُقامُكم، ولْتَدُمْ لدينا مسرّاتُكم.

أيّها السّادة العلماء،

تنعقد هذه النّدوة الدّوليّة في رحاب أرض الشّهداء، ووطن الإباء؛ وقد تصادَفَ انعقادُها مع احتفال الشّعب الجزائريّ بالذكرى السّادسة والأربعين لاندلاع ثورة نوفمبر المجيدة: حول موضوع يُعَدّ المقوِّمَ الأوّلَ للأمّة، والوسيلةَ الأزليّةَ للتّواصل فيما بين جناحيْها: ألاَ وهو موضوع اللّغة العربيّة

الكلمة الافتتاحيّة لأعمال النّدوة

بقلم الأستاذ الدّكتور عبد الملك مرتاض
رئيس المجلس الأعلى للّغة العربيّة

بسم اللّه الرحمن الرّحيم. وبه أستعين؛ وأصلّي وأسلّم على سيّدنا محمّد النّبيّ الأمين.

أصحابَ المعالي والسّعادة،

أيّها العلماء والأدباءُ والمفكّرون،

أيّها السّادةُ الضّيوف الأكارم،

أيّها السّادة أعضاء المجلس الأعلى للّغة العربيّة،

أيّها الإعلاميّون المتألّقون،

أيّتُها السّيّدات، أيّها السّادة،

إنّنا، مطلعَ هذه الكلمة، نَثني أعطر الثناء وأطيبَه، ونَزْدجي أحرّ الشّكر وأخلصَه، لفخامة رئيس الجمهوريّة السّيّد عبد العزيز بوتفليقة على تكرّمه بمنح هذه النّدوة الدّوليّةِ رعايتَه السّاميةَ؛ وهي اللّفتة الكريمة التي يسّرت لنا كثيراً ممّا كنّا نتوقّع أنّه سيكون شاقّاً في التّحضير والتّنظيم؛

التي جمعت ما بين أهل المشرق وأهل المغـرب فوحّدت بينـهم العواطـف، فأمسَوْا بنعمة اللّه إخواناً؛ يربطهم شـعور واحـد، وتـاريخ واحـد؛ بعـد أن تكوّن لديهم كِيَانٌ واحد؛ كلّ ذلك كان بفضل العربيّة أساساً.

ولقد بُعِدَ العهدُ بأوّليّات هذه اللّغة في أعماق الدّهر السّحيق؛ حتّى لا أحدَ من المؤرّخين يعرف أوّليّاتِـها علـى وجـه التّحقيـق والتّدقيـق؛ وأغلـب الظّنّ أنّ طلائع العربيّة الأولى، عربيّـةِ الأمـم العربيّـة البـائدة قـد تعـود إلى عشرات القرون قبل أن يجيء اللّه بالإسلام؛ وإذا كان التّاريخ لا يعرف من عمر العربيّة الشّعريّة إلاّ زُهاءَ ستّةَ عشـرَ قرنـاً، معرفـةً حقيقيّـة؛ فذلـك لا يعنـي أنّ أوّليّات الشّعر العربيّ التي بلغتْنا بذلـك الرُّقِـيّ، وبذلـك الجمـال الفنّـيّ الطّافح، وبذلك التّحكّم العجيب في اللّغة واللّعِب بها: تجعلنا نصدّق بكلّ سذاجة بأنّ عمر العربيّة لا يزيد عمّا ذكره المؤرّخون من قرون...

وكانت العربيّة الأولى لا تكاد تعبّر إلاّ عن العواطف، ولا تكـاد تُعْنَـى إلاّ بخَلَجات النّفوس، ولا تكاد تَصِف إلاّ خَفَقاتِ القلوب؛ ثم تدرّجَـت إلى الْمُرْتَفَقات الحضاريّةِ المادّيّة التي كانت تنبُت في بيئتها الاِجتماعيّة، قليـلاً قليلاً، فألْفَتْ لها أسماءً، وأوجدتْ لها إطلاقاتٍ تسمّيها بها؛ فكانت اللّغةَ الحضاريّة الأولى...

لأرسطو تُرجِمَ زهاءَ خمسِ مرّات في زمن قصير نسبيًّا)؛ ثم لم تلبث العربيّة أن تأنّقَتْ، فتألّقتْ، فحلّقتْ؛ وذلك بإيجاد المصطلحات اللاّئقة لكلّ حقول المعرفة المترجَمِ منها. وتلك دورة العربيّة الثانيةُ وقد اسْتمازتْ بالأخْذِ أساسا.

وبعد هضْم تلك العلوم والرّياضيّات وعلْم الفَلَك انتقلت العربيّة من التّقليد إلى الإبداع، وقلْ: إنّها انتقلت من مرحلة الأخذ من اللّغات، إلى مرحلة تقديم الثمار الفكريّة والعلميّة إلى سائر اللّغات؛ فلأوّل مرّةٍ في التّاريخ شرَع العرب في إنتاج المعرفة في مستواها الأرقى؛ فاخترعوا الأرقام التي تُستعمل اليوم في العالم كلّه، وتوصّلوا إلى ابتداع فروع في الرّياضيّات لم تكن موجودة قبلهم كالجبر والمقابلة (الخوارزمي). وفعل مثلَهم علماءُ الكيمياء (جابر بن حيّان)، وعلماءُ الفيزياء (ابن الهيثم). أمّا الفلاسفة فبعد أن هضموا الفلسفة الإغريقيّةَ ونظريّاتِها شرعوا في كتابة فلسفة قائمة على الإيمان بالعقيدة الإسلاميّة فأضاف الفارابي، وابن سينا، وابن رشد، معرفة جديدة، وحاولوا أن يوفّقوا بين المادّة والرّوح بإخراج الفلسفة من الاشتغال بالأرض وحدَها إلى الاهتمام بالسّماء أيضا. وقد استطاع العلماء العرب في بضعة قرون أن يُسْهِموا، برُقِيّ ووعْيٍ وكفاءة، في ترقيَة العلوم في كلّ حقول المعرفة.

ثم جاءت دورة الانحطاط والسُّبات؛ فكان من أمر الأمّة العربيّة ما كان؛ فغطّت العربيّة، هي أيضاً، مع أهلها في سُبات عميق دام قرونا؛ إلى

أن بزغت النّهضة الحديثة -ممّا هو معروف بين النّاس- فبدأت تقوم بما كانت تقوم به في العهد الأوّل من ترجمة العلوم والتّقنولوجيا من اللّغات الأجنبيّة الحيّة؛ فأبدت قدرة عجيبة على استيعاب المنقولات العلميّة، والمترجَمات التّقنولوجيّة... ولكنّها إلى اليوم لم تبلغ درجة الإبداع المنتظَرةِ منها؛ فتلك دورةُ العربيّةِ الثالثة.

ضرورة تلاقح العربيّة مع اللّغات العالميّة

ويتبيّن لنا من خلال الإشارات السّابقة إلى أنّ كلّ لغةٍ في العالَم، مهما تبلُغْ من الرّقِيّ والكفاءة، محكومٌ عليها بالتّلاقُح والتّخاصُب؛ لإثراء نفْسِها بالمصطلحات، ولإشباع نظامها بالتّراكيب والمفردات. وذلك ما يجب أن تأتيَه العربيّة على عهدنا هذا بحيث ندعو العربَ بعامّة، والجزائريّين بخاصّة، إلى تعلّم اللّغات الأجنبيّة الكبيرة لينقلوا منها إلى العربيّة ثمارَ عقول أهلِها في عامّة حقول المعرفة. ونعتقد أنّهم شرعوا في ذلك بعدُ. لكنّ تمزّق الجهود، واقتصار نشاط التّرجمة على الأفراد دون الهيئات، وغياب البرمجة الصّارمة الواعية لِمَا يجب أن يُترجَم من اللّغات الأجنبيّة؛ كلُّ أولئك عواملُ أفضتْ إلى إفراز نتائجَ هزيلةٍ لجهود التّرجمة التي كان يجب أن تنصَبَّ عليها جهودُ كلِّ العلماء العرب في هذه الدّورة من حياة اللّغة العربيّة.

وإذن، فمتى ينتقل العرب، في تعليمهم وتفكيرهم وأعمالهم، من مرحلة التّقليد إلى مرحلة الإبداع، ومن مرحلة الإعجاب بما يصدر عن الغرب، إلى مرحلة إنتاج شيءٍ مّا يُعْجَبُ به الغرب؟ وأين ترجمةُ آخِرِ ما يصدر في الولايات المتّحدة الأمريكيّة واليابان ليُنْقَلَ، فوْراً، إلى المتعلّمين والباحثين العرب ليُفيدوا منه علميّاً من وجهة، وليُرَقُّوا من خلاله اللّغةَ العربيّة، بواسطة التّرجمة، وتعريضِها لامتحانٍ جادٍّ، و مِحكٍّ قاسٍ؛ وذلك بجَعْلِها وِجْهاً لوجهٍ أمامَ اللّغة الإنجليزيّة، لغةِ التّقنولوجيا المعقّدة والإعلام الآليّ على عهدنا الرّاهن، من وجهة أخرى؟ وهل قَرَعْنا لهذا الأمرِ ظُنْبُوبَهُ؟ أم قَلَبْنا له ظَهْرَ الْمِجَنِّ واسترحنا فلم نَرْحَلْ لِبُغْيَتِهِ؟ أم نريد أن يَرْقَى كلُّ شيء لدينا، نحن العربَ، بالْمُصادفة والقَدَر والبَرَكَةِ وَحْدَها؟ أم ماذا...؟

وإذا كان من أهمّيّة للتّرجمة بالقياس إلى اللّغة العربيّة، بالإضافة إلى فوائدها المعرفيّة؛ فهي تمثّلُ خصوصاً في معرفة مدى كفاءة اللّغة العربيّة في نقل الأفكار والنّظريّات، وفي مدى قدرتها على ابتكار المصطلحات التي تقابل المفاهيم المعرفيّة. وإذا كنّا ندعو إلى ضرورة صَدْمِ العربيّة بسَوَائِها من اللّغات العالميّة الكبيرة، ولا سيّما الإنجليزيّة، لاختبار مدى قدرتها على التّعامل مع المفاهيم الجديدة التي تُعدّ بعشرات الآلاف؛ فلأنّنا موقِنون من أنّ العربيّة لا تنقصُها القُدرةُ على نقل تلك المعارف بكفاءة. ولعلّ الماضيَ القريب والبعيد الذي عرفته العربيّة أن يدُلَّ على شيء من هذا الحاضر؛ ولعلّ الحاضرَ أن يبرهن على شيء من طبيعة المستقبل الموعودِ الواعدِ معاً.

ولكنّ ذلك كلَّه مرهون بدرجة الطُّموح لدى العلماء العرب في تحدّي اللّغات الأخراةِ بالعربيّة.

والذي يعود إلى سيرة اللّغات الإنسانيّة على عهدنا الرّاهن يسائلها عن مدى تأثير العربيّة فيها يندهش لمدى ذلك التّأثير وعُمقه فيها. ومن عجب أن نجد ذلك التّأثير يمتدّ حتّى إلى اللّغات الأوربيّة التي لم تحتكَّ بالعربيّة احتكاكاً مباشراً عبر التّاريخ كالإنجليزيّة، والرّومانيّة، والألمانيّة. أمّا عن اللّغات الأوربيّة التي احتكّت بها كالفرنسيّة، والإسبانيّة، والإيطاليّة فحدّث عن ذلك ولا حرج. على حينَ أنّ تأثيرها في اللّغات الشّرقيّة بعيدُ الغور، متناهي العُمق؛ حتّى إنّ ألفاظ العربيّة في الفارسيّة تجاوز نصف ما يُستعمل منها. ولا نتحدّث عن نحو اللّغة العِبريّة التي أخذتْهُ كلَّه من لغتنا. ولا يقال إلّا نحو ذلك في الأبجديّات العربيّة التي تستعملها اللّغات الشّرقيّة، والإفريقيّة على عهدنا هذا، والتي تقترب من أربعين لغةً...

وإذن، فلا أحدَ من المنصفين، وحتّى من غير المنصفين؛ وذلك على أساس قيام البرهان الدّامغ على ذلك، يمكن أن يُنكر أنّ العربيّة استطاعت أن تستوعبَ الحضاراتِ والثقافاتِ الإنسانيّةَ، وكانت واسطةً بين الثقافة الإغريقيّة القديمة، والنّهضة الأوربيّة الحديثة التي انطلقت من تِلقاء بجَايَةَ وقرطبةَ وفاسَ والقاهرةِ ودمشقَ وبغدادَ وسَوائِها من مدن الأندلس وبلاد المغرب وبلاد المشرق؛ وذلك بأن نقّحت تلك العلومَ وأضافت إليها كثيراً من

النّظريّات والتّحويرات والتّطْويرات؛ قبل أن تتلقَّفَه النّهضة الأوربيّة فتدرُسَه، ثم تُقيمَ عليه أسُسَها الكبرى.

عوربة العربيّة أم عربيّة العوربة؟

ليس هذا العنوان الفرعيّ من باب حبّ التّلاعب بالتّعابير، وقلْب أعالي الكلام على أسافله، ولا أسافله على أعاليه؛ بمقدار ما هو جدير بالتّأمّل والتّفكّر. ذلك بأنّ من ضمن شروط العوربة التي تعني في تمثُّلنا قيامَ نهضة عربيّة تنطلق من الذات، وتمتدّ إلى تدعيم التّضامن القوميّ، وتنمية الثقافة والوعي بقيمة الكيان العربيّ تاريخيّاً وحضاريّاً وجغرافيّاً واقتصاديّاً واستراتيجيّاً، أقول: إنّ من بين شروط نهضة العوربة أن تكون العربيّةُ لغةَ نهضتِها، وأداةَ تعبيرها. أي يجب أن يكون رُقيُّ العربيّة وترْقَيتُها في أوّل ما تقوم عليه العوربة. ثمّ من بعد ذلك تأتي الشّروط الحضاريّة الأخرى...

وأيّاً كان الشّأن، فإنّ التّكافُؤَ التّقنولوجيَّ والعلميّ مطلوب من أجل تأسيس نظامٍ للعوْربة حقيقيّ؛ ولكنّ مثل هذا الشّرط غيرُ متوافِر الآن، في العالم العربيّ؛ ممّا يجعل التّفكيرَ في تأسيس نظام للعوربة نابعٍ ممّا للأمّة العربيّة العظيمة من إمكانات بشريّة وثروات اقتصاديّة وجذور حضاريّة أمراً من الضّرورة بمكان.

إنّنا نميل إلى الجنوح بالثقافة العربيّة الجديدة التي قِوامُـها العربيّةُ لتنهض بهذا المعنى الذي نريد منها تحمُّلَه وهو معنى «العوربة». ولكن هل هذه العوربة قادرة على مقاومة هذا التّيّار العالميّ الجارف الملفوفِ في لفائفِ التّقنولوجيا المتطوّرة المذهلة الْمُغْرِيَة جميعاً، والذي أطلِق عليه مصطلح «العولمة»؟

إنّنا نقترح، لكي نستطيعَ الإجابةَ عن هذا السّؤال، ولو على هونٍ مّا، أن يقوم مفهوم العوربة، كما نتصوّره في الوقت الرّاهن، على جملة من الأُسُس حيث إنّ الغربيّين كثيراً ما يتّكئون، في تحديد العولمة، على ثلاثة أسُس هي التّعدّديّة، والديمقراطيّة، وحقوقُ الإنسان (ونحن في الحقيقة نشاركهم في قَبول هذه المبادئ، ولا نختلف معهم حولها؛ ولكنّنا نعلم أنّهم يكيّفونها بحسَب الظّروف والأحوال، حتّى تتلاءَم مع ما يريدون بلوغَه من أهداف سياسيّة...). ولكن ليس هذا مقامَ تحديدِ شروط العوربة...

لكنّ الذي يجب أن نُدركه أنّ العولمة لا تتردّد، بحكم طبيعتها وغايتها، في أن تلتهم العربيّةَ وتمحوَها من الأرض إن ساوَرتْ سبيلَها؛ فيكونَ الانتحارُ الحضاريّ الجماعيّ للأمّة العربيّة، والعياذ باللّه؛ ومن ثَمّ فَناؤُها ثقافيّاً وحضاريّاً لتذوب في سَوائِها من الأمم الكبيرة التي تودّ أن تَطويَ العالَم كلَّه فتجعلَه تحت جناحَيْها. فهل فكّرنا فيما يجب أن نفعل من أجل الحفاظ على هويّتنا العربيّة؟ وهل يمكن أن تقوم هذه الهُويّة بمعزل

عن ازدهار اللّغة العربيّة؟ وهل ما نـهضنا بـه إلى يومنـا هـذا كـافٍ لتطويـر العربيّة وجعْلِها متماشيةً مع المستجدّات الحضاريّة والتّقنولوجيّة الكبرى؟

من أجل كلّ ذلك تنعقد هذه النّدوة لطرْح مُساءلات جادّة -تطرحونها أنتم العلماء- حول المكانة التي يجب أن تتبوَّأها اللغة العربيّة بين اللغـات العالميّة. وهل يشفع لها أنّها كانت لغة الحضارة والتّقنولوجيا طَوالَ القـرون الوسطى أن تظلّ كذلك اليوم دون جهد مـن النّاطقين بـها، ودون اجتـهاد حقيقيّ من أهليها، لمجرّد أنّها كانت كذلك زمناً ما؟ وما مدى كفاءتِها من حيث القدرةُ على استيعاب أدقِّ المعاني التّقنيّة والتّقنولوجيّةِ بالقيـاس إلى اللّغات العالميّة الكبرى؟ وهل هى عاجزة حقّاً عن أن تواكب تطـوّرات هـذا العصر؟ ولِمَاذا بُعِثتْ لغـاتٌ أخـرى لم تكـن شـيئاً مذكـوراً، بعْثـاً جديـداً، ومنها العبريّة التي تَدين في نحوها، وفي كثير من مصطلحاتها المعاصرة للّغة العربيّة، فأمست قـادرةً علـى التّعبـير عـن أدقّ المعـاني وألطفِـها في حقـول العلوم والطّبّ والتّقنولوجيا والإعلام الآليّ؛ ولَم يشْتكِ أهلُها من أنّها عـاجزة لأنّهم هم الذين يَشُدّون أزْرَها، ويُقوّون ضعفَها؟ ثمّ لمـاذا لم نجـدْ أحـداً مـن العلماء العرب قديماً يشتكي من عجـز العربيّـة عـن اسـتيعاب كـلّ المعـاني والأفكـار والنّظريّـات الـتي واجهتـها في دورتـها الثانيـة، وهـي تواجـه الفارسيّة، والإغريقيّة، واللاّتينيّة فتهُدُّها هَدّاً؟ ألاَ يدُلّ ذلك على أنّ النّقصَ يوجَدُ فينا، لا في لغتنا؛ وأنّ ما نشتكي منه من عجْز لغتنا ليـس إلاّ تعْمِيَـةً على تكاسُلنا، وتغطيَةً على تخاذلنا، والتماساً للتّعِـلاّت علـى تواكُلنـا؟ وإلاّ

فأُرونِي، بربّكم، ماذا فعل النّاطقون بالعربيّة، علماؤُهم وباحثوهم، ما يحمِل على الاِقتناع بأنّهم فعلاً يريدون أن يتّخذوا من العربيّة لغةَ خطاب علميّ في القرن الواحد والعشرين؟ وإذا كانوا لم يفعلوا ذلك حقّا، فماذا يجب أن يفعلوه لحمْل العربيّة على أن تكون لغة التّقنولوجيا العليا بامتياز في مطالع القرن الجديد؟ كلّ الأسئلة هنا.

دور الجامعات والمجامع في ترقية العربيّة

إنّ كلّ الأسئلة التي أثرناها حول مكانة اللّغة العربيّة حاضراً ومستقبلاً رهينةٌ بما تبذله الجامعات ومراكزُ البحث ومجامعُ اللّغة العربيّة في العالم العربيّ؛ وهي المجامع التي ندعو إلى توحيدها لتحاشِي هدْر جهود العلماء وما يُحْتمل أن يبحثوا فيه من موضوع واحد من وجهة، ثمّ لتوحيد المصطلحات واختصار الطّريق في هذا الشّأن بين المغاربة والمشارقة من وجهة ثانية؛ وبين المغاربة والمغاربة، والمشارقة والمشارقة، من وجهة أخراة. إنّ العربيّة لا يمكن أن تتطوّر وترقى إلى المكانة العلميّة المتألّقة التي نبتغيها لها إلاّ باجْتِعال خطّة علميّة، قوميّة لا قطريّة -لأنّها لغة جميع العرب- تسعى إلى تحقيق هذه الغاية؛ وإلاّ بنَدْب الجامعات ومراكز البحث والمجامع وكلّ الهيئات المعنيّةِ برُقيّ العربيّة إلى هذه المَؤونة الحضاريّة العظيمة.

صيحة في العلماء

يا شيوخَ العربيّةِ ورجالَها، ويا علماءَها وفُصحاءها: لا يكتُبَنَّ التّاريخُ عليكم أنّ العربيّة تصاب بالنّكسة الحضاريّة، وتوصَمُ بالعجز، وتُقذف بالقصور، على عهدكم وأنتم من القادرين؛ كما كان أصيب أهلُها بما ألّم عليهم من الخِذلان المبين، والتّواكل المشين.

كأنّي بالعربيّة وهي تهتِف بكم مناديةً؛ فهل صَخّ نداؤها آذانَكم؟ إنّها تلتمس منكم أن تهُبّوا من أجلها هَبَّةً حضاريّة جبّارة كيما تجعلوا منها اللّغةَ العظيمة التي هي، واللّغةَ العلميّة التي تريد هي، ونريد نحن أيضا، أن تكونَها...

فلنَقْسُ على العربيّة حتّى نصدِمَها بأرقى اللّغات العالميّة وأكثرِها تطوّراً لننظرَ إلى أيّ حدّ تُراكِضُها وتجاريها. ولْنَقْسُ، قبل ذلك، على أنفسنا حتّى نُعنِّيَها من أجل أن نُرَقِّيَ هذه اللّغةَ التي تظلّ الرّباطَ الطّبيعيّ الأقوى الذي يربط بين عرب المغرب وعرب المشرق من وجهة، وبين كل العرب والعالم الإسلاميّ من وجهة أخرى...

وكانوا قالوا: إنّ هذه العربيّةَ ليست على شيءٍ فتقدِرَ على تدريس الطّبّ والرّياضيّات والعلوم؛ فهي أعجزُ عجزاً، وأقصرُ قصوراً، من أن ترقَى إلى ذلك منزلةً... ومن عجبٍ أن تَقدِر العربيّةُ على شيء بالأمسِ، وتعجزَ

عنه اليومَ بكلّ هذه البساطة؛ أم لم يكن ذلك كان، إن كان، إلاّ لأنّ أهلَها كانوا ذات عهدٍ على شيء كبير من المكانة الحضاريّة، واغتَدَوُا اليومَ وكأنّهم لم يَغنَوْا بالأمس شيئاً؛ وكأنّهم يصدُق عليهم قولُ الجُرْهُمِيِّ القديمِ حين ذهب مُلْكُه، وانتكس عِزُّه، وزال سلطانُه؛ فأمسى يبكي ماضيَهُ وهو يجوس خلال أحياءِ مكّة:

وقائلةٍ والدّمعُ سَكْبٌ مُبادِرُ ... وقد شَرِقَتْ بالدّمعِ منها الْمَحاجِرُ

كأنْ لَمْ يَكُنْ بين الْحَجُونِ إلى الصَّفَا ... أنيسٌ، ولَمْ يَسْمُرْ بمكّةَ سامِرُ(...)

بَلَى، نحن كُنّا أهلَها فأصابَنا ... صُرُوفُ اللّيالي والجُدُودُ العَواثِرُ

أيّها السّادة العلماء،

فلتكنْ هذه العربيّةُ، كما ظلّت دهوراً طِوالاً، هي الرّباطَ المتين الذي يربط بين مشرق الأمّة ومغربها. وأيُّ لغة تحترم نفسها، وفي مستوى رقيِّ العربيّة وعلميَّتِها، يمكن أن تعجز عن التّعبير عن رموز وحروف، وفراغات ومِساحات، ومربّعات ومستطيلات، وخطوط وأبعاد، ودوائرَ وأشكال...؟

وكانوا قالوا: إنّ العربيّة عاجزة عن التّعامل مع المعلوماتيّات؛ وقد نَسِيَ أولئك أنّ هذه المعلوماتيّاتِ ليست، في نهاية الأمر وبدايته، إلاّ جُمَلاً متقطّعة، ورسوماً مُتَمَزِّعة، وألعاباً جميلةً تُعْرَض، وألواناً بديعةً تُجَلّى: تُستخرَجُ من خَبْءِ الشّاشة الصّمّاء؟ وكأنّ هذه الإعلاميّاتِ التي يهوّلون من

شأنها، ويُعظِّمون من أمرها، معجزةٌ لا سماويّة هي ولا أرضيّة، ومُعْضلة هي لا شرقيّةٌ ولا غربيّة، محكوم على اللّغة العربيّة العجزُ عن استيعابها، والإقصارُ عن إيعائِها؛ وذلك على الرّغم من أنّها شرعت تفعل ذلك بكفاءة وجدارة؛ وكأنّه محكومٌ على العرب، في الأزل المقدَّر، والأمر المسَيَّر، أن يظلّوا أبداً خارج إطار التّاريخ...

وكانوا قالوا: إنّ الأبجديّة العربيّة لا ترقَى إلى مستوى التِّقَانَة ووظائفِ الآلات؛ ثمّ زوّروا في أنفسهم من بعد ذلك حولها كلَّ المزاعِمِ التي تبلغ في بعض أطوارها مبلغ الموقف العنصريّ منها؛ وعَدُّوا التّفكّك في الأبجديّات الأجنبيّةِ من المحاسن والمآثر، واعتبروا التّرابطَ في الحروف العربيّة من المساوئ والْمَعَاثر؛ وليْتهم أدركوا، إن كانوا يُدركون، أنّ حروف العربيّة متواصلة مترابطة؛ لأنّها تمثِّل ترابط أهلِها بروابط الرَّحِم: فهي كذلك لأنّها تتلاحق وتتعانق؛ فكأنّها تتلاصق، وتتعاشق... فماذا ينقِمُ القوم من حروف تتلاحم وتتوامَق؟

وكانوا قالوا: إنّ حرفين أو ثلاثةً من العربيّة لا توجد في أصوات اللّغات الأجنبيّة؛ وليتهم أدركوا أنّنا لم نفتقر إلى بعض تلك الحروفِ لاستعمالها بيننا إلّا لتخلّفنا عن رَكْب الحضارة الخابط أوّلاً، وإلّا لَفَرْضِنا التّخلّفَ على لغتنا، وعلى أنفسنا أيضا، آخراً؛ وإلّا لكنّا تركْنا على ذلك في الآخِرين؛ فحمْلنا الآخَرين فجعلناهم هم الذين يفكّرون في كيفيّة حلّ مشكلة حروف العربيّة وأصواتها؛ لا نحن. أم لم يخترع العربُ الأرقامَ التي

لا يبرح العالَمُ يتداولها ويُنتج بها المعرفة والحضارة؟ فهل ترجم العالَمُ هذه الأرقامَ إلى أرقام وطنيّة، أو إلى لغات محلّيّة؟ إنّ الإبداع العلميّ هو الذي يغزو النّاس، وهو الذي يفرض نفسه على العالمين.

ثمّ أُروني الأبجديّةَ المتطوّرة التي تستطيع حروفُها أن تستوعِبَ كلَّ الأصوات البشريّة الكثيرةِ الاختلافِ، الْمُتباينةِ الْمَخارج؟ وهل فكّر أهل الصّين في تغيير أبجديّتهم المعقّدةِ فنفكّرَ نحن في تغيير أبجديّتنا التي تُعدّ من أرقى الأبجديّات وأيسرها إطلاقاً؟...

علماؤنا اليومَ مهاجِرون، أجَراءُ، وربما أذلّةٌ بؤساء، في النّازا، وفي البوينق، وفي مراكز البحث العلميّ في العالَم: يبحثون مقابلَ قراريطَ مُزْجاةٍ؛ فهل فكّر الذين يعنيهم هذا الأمر أن يستعيدوهم إلى أوطانهم؟ إنّنا لو رعَيناهم الرّعاية التي هم أهلٌ لها، وقدّرناهم حقّ أقدارهم، لكانوا اليوم بين ظَهْرَانَيْنَا يُبدِعون في العلوم كما يُبدعون هناك للأمم الأجنبيّة. ولكن لِمَنْ يمكن أن يساقَ هذا الحديث؟ فكلٌّ يُجيدُ إلقاءَ التّثريبِ على سَوائه حتّى لا يُسْأَلَ، هو، عمّا يَفعلُ، وهم يُسْألون...

إنّ مشكلتنا، أيّها العلماء، ليست لغويّة بمقدار ما هي حضاريّة؛ وليست تقنيّةً، بمقدار ما هي نفسيّة. فما دمنا مستسْلِمين لوهْم القَدَر، وما دمنا راضين بالتّخلّف قريناً، مسَلِّمين بنقْصنا؛ فإنّ أيّ لغة حيّةٍ في العالم نتبنّاها نظلّ بها أبدَ الدّهر متخلّفين. ذلك بأنّ المبدع يظلّ أبداً أفضلَ من المقلّد. فلْنُبدعْ، ولا نقلّدْ... ولْنحاولْ إعادةَ ما كان للعربيّة من أمجاد ظلّت

تَتَرَهْيَأ بها في مآقط التّاريخ، وتختـال فيـها في دُور العلـم؛ ومـا ذلـك علـى علماء العربيّة -عليكم أنتم- بعزيز.

اللغة العربية وتحديات العصر في البحث اللغوي وترقية اللغات

الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح

مدير مركز البحوث في اللغة العربية

ورئيس المجمع اللغوي بالجزائر



يتصف البحث العلمي في اللغة العربية في زماننا هذا بصفات جد سلبية بالإضافة إلى ما يعرفه العصر من تكنولوجيا حديثة تطبق على البحوث اللغوية بنجاح تام في البلدان الراقية. ويعرف كل واحد البطء الذي يسير به وضع المصطلحات وإقرارها وحرفية هذا العمل وفرديته ومشكل ذيوع هذه المصطلحات في الاستعمال. ثم إن للغة جوانب أخرى لابد أن تستغل في البحث فيها هندسة اللغة الحديثة، وذلك مثل التركيب الاصطناعي للكلام والاستكشاف الآلي له، وبذلك يتم تنطيق الأجهزة وخاصة الحاسوب. وهناك مشكل آخر لا يقل أهمية وهو جعل الفصحى لغة منطوقة عفوية ولا يكمن الحل في تفصيح العامية لأن هذا التحويل يخص كيفية تعليم النطق العفوي غير المصطنع للفصحى[1].

إن المجامع اللغوية العربية قامت بعمل عظيم منذ نشأتها تشكر عليه. فكل ما سنقوله فيما يلي لا يمكن أن يحط من قيمة هذا العمل فقد بذل كل مجمع وكل عالم فيه مجهودات جبارة تستحق كل الثناء. إنما الذي لا يمكن أن يطمأَنَّ له هو الطابع التقليدي الذي تتصف به بعض الأعمال العلمية اللغوية، وبالتالي تعذر الاستجابة لمتطلبات العصر. وتنحصر النقائص في نظرنا في وضع المصطلحات وغيرها من الأعمال الخاصة بتكييف اللغة وإثرائها في أمور ثلاثة:

اعتباطية العمل: عند الكثير من اللغويين، أي: عدم خضوعه لضوابط علمية وذلك بعدم مراعاته لمعطيات العلوم اللسانية الحديثة بصفة خاصة ومنهجية العلوم الاجتماعية بصفة عامة.

---

[1] بعض ما نعرضه هاهنا قد سبق تطرقنا إليه في بحث ألقيناه في ندوة في باريس في السبعينيات وبحث آخر قدمناه في مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة في 1990.

حرفيته، أي: اقتصاره على البحوث الفردية التي هي أشبه شيء بالصناعات التقليدية يعتمد فيه على المعالجة اليدوية كالنظر الجزئي في القواميس والاقتصار على جرد العديد من المعلومات بالأيدي العزلاء.

عدم شموليته بعدم الرجوع إلى كل المصادر العربية التي يمكن الاستقاء منها ـ وخاصة المخطوط منها ـ وجميع المراجع الأجنبية التي يمكن استغلالها لتحديد المفاهيم الحديثة.

وسنتناول فيما يلي كل واحدة من هذه الأمور الثلاثة على التوالي:

العمل الاعتباطي: نقصد بذلك العمل الذي لا يعتمد على مجموعة من المبادئ النظرية العلمية وعلى منهجية دقيقة تنبني هي بدورها على تلك المبادئ ومبادئ عامة غيرها. فالعمل الاعتباطي يتصف قبل كل شيء بخضوعه للتحسس الذاتي المبعثر وتسيير الأمور على الهاجس. فعدم وجود مجموعة من المقاييس العلمية الدقيقة وأهمها مقاييس المشاهدة والتحليل قد يؤدي الباحث إلى هذا النوع من السلوك الناقص و إلى الحكم على الشيء بدون الرجوع إلى الواقع.

أما بالنسبة للبحث الخاص بالمصطلحات فإننا لا نعني بالمقاييس العلمية تلك التي يعتمد عليها واضعو المصطلحات في توليد اللفظ الدال كقواعد الاشتقاق وتفريع الألفاظ من الأصول والنحت وطرق الاتساع في اللغة والمجاز وغير ذلك مما هو معروف عند اللّغويين منذ أمد بعيد. فهذا وإن كان مهما وضروريا إلا أنه لا يفي أبدا بالغرض، إذ إن اللغة وضع واستعمال وليست فقط وضعا. بل لظواهر الاستعمال، أسرار وكيفيات خاصة. واللغوي الذي لا يهتم بذلك فمثله كمثل الصانع الذي يضع للناس

أدوات دون أن يراعي اهتماماتهم وحاجياتهم الحقيقية ودون أن يلتفت إلى ما يناسبهم من تلك الأدوات وما تميل إليه طباعهم ويستخفونه ويستحسنونه. فما دام اللغوي يضع لغيره المصطلحات وهو يجهل كل هذه الأسرار بل القوانين التي تجعل من هذا اللفظ يسير بين الناس ويشيع شيوعا واسعا ويقضي في الوقت نفسه على ذلك اللفظ الآخر لأسباب معينة ولأحوال يتصف بها لا تلائم هذه القوانين الخفية (وما هي خفية في الواقع إلاّ لعدم التفات اللغوي إليها).

وقد يتساءل المتسائل عن كيفية الكشف عنها وهذا أمر غريب في عصرنا الحاضر حيث يحاول الأخصائيون الكشف عن أسرار الظواهر الاجتماعية وهل من منكر أن اللغة ظاهرة اجتماعية بالدرجة الأولى؟ ويكفي أن نمثل لهذا البحث نمثل لهذا البحث بمثال واحد: ألا يمكن أن ننظر في جميع ما وضعه اللغويون وغيرهم منذ أكثر من نصف قرن من ألفاظ جديدة (ولابد من حصرها وإحصائها) ونجرى بعد ذلك التحريات الميدانية الواسعة لنحصي ما دخل من ذلك في الاستعمال الفعلي وما لم يدخل ثم ننظر في تلك القوائم لنبحث عن أسباب نجاح اللفظ أو فشله من جميع الجوانب:

الاجتماعية المحضة والنفسانية والفيزيولوجية وغير ذلك؟ ويتم ذلك بوضع مجموعة من الافتراضات ثم اختبارها بشتى أنواع الاختبارات: كالاستفتاء الذي يوجه إلى المستعملين أنفسهم. والنظر الدقيق في نتائج هذه الاستفتاءات، وكالاختبار المنتظم لمجموعات معينة من المصطلحات يجرب مدى نجوعها في ميدان العمل في مدة معينة ثم ينظر فيما تؤول إليه

والسؤال عنها بكيفية أيضا منتظمة حسب ما تفرضه علينا المقاييس العلمية الخاصة بهذا النوع من البحوث. وقد يقول اللغوي التقليدي إن هـذا ليس من اختصاصه! والإجابة عن هذا بسيطة: وهو أنه لا يزال ينظر إلى البحث اللغوي على أنه مجرد بحـث عـن الألفـاظ في القواميـس والنظـر في كيفيـة ملاءمتها للمسمى والاشتقاق منها. نعم قد تعوّد النـاس في البلـدان العربيـة أن ينظروا إلى اللغوي بهذه النظرة فإذا حُدِّثوا عن مثل هـذا البحـث الـذي ذكرنا قالوا: هذا راجع إلى العلوم الاجتماعية الحديثـة[2]. وهكـذا يجمّـدون البحث اللغوي بعزله عن كل ما يمكن أن يفيـده. ثـم إنـهم يتجـاهلون أن التأثير في الواقع وتحويله لصالح الإنسان إنمـا يتـم بـالإطلاع علـى أسـراره والخضوع لقوانينه الطبيعيـة وهـل اللغـة ـ وضعـا واسـتعمالا ـ إلا جـزء لا يتجزأ من هذا الوقع. ثم إن هذا البحث القاموسي هـو نفسـه غـير خـاضع عند أكثر اللغويين في زماننا لمقاييس منهجية دقيقة بل هو أيضـا اعتبـاطي فهل اعتمد اللغويون قبـل اليـوم علـى منهجيـة علميـة واضحـة دقيقـة في استخراجهم للألفاظ من القواميس؟ أم هل كـان عملـهم هـذا منظمـا منسـقا مخططا بحيث لا يترك مما هو موجود في طي القاموس أي شـيء يسـتحق أن يذكـر ويقـترح كمصطلـح يناسـب المسـمى الفلانـي؟ والمؤسـف أن هـذا البحث ينحصر في تصفح هذا اللغوي أو ذاك المرة بعد المرة لقـاموس معـين بكيفية جزئية متقطعة مبعـثرة غـير شـاملة. ثـم هـل أقيمـت ورتبـت كـل المفاهيم الأساسية التي لا يوجد لها مقابل في اللغة العربية فإن حصل هـذا

---

[2] ولم يكن اللغويون العرب قديما يرون هذا الرأي فإن الاستعمال عند الخليل وسيبويه وأصحابـهما كان يكون عنصرا هاما في استقرائهم لقوانين العربية وعاملا أساسيا في تعليل الظواهر الشاذة عنها .

لبعض المفاهيم فعلى أي أساس يتـم اختيارهـا؟ ولمـاذا كـان دائمـا المنطلـق اللغة الفرنسية وحدها؟ أو اللغة الإنكليزيـة وحدهـا أو لم يعلـم أن الألفـاظ الدالة قد يختلف مدلولها من لغة إلى أخرى مع اتحـاد المسـمى؟ أي: قـد يتفـق اللفظـان مـن لغتـين مختلفتـين في إطلاقـهما علـى المسـمى الواحـد ويختلفان في نظرة أصحابهما إلى ذلـك المسـمى. فكـل واحـدة مـن اللغتـين المذكورتين قد تسمي الشيء الواحد ويكون تصور أصحابها لـه عـير مطـابق تماما لتصور الآخرين. ولهذا ينبغـي أن ينطلـق مـن أكـثر مـن لغـة واحـدة لضبط المفاهيم المشتركة بين الأمم، ونتحفـظ أشـد التحفـظ في نقـل المفـاهيم الخاصـة بأمـة واحـدة وذلـك لنتفـادى التبعيـة الثقافيـة الـتي قـد تشـوه شخصيتنا العربية.

فالمفاهيم العالمية المجمع على أهميتها في الميـدان العلمـي والتقـني هـي التي ينبغي أن تعرّب ولا سبيل إلى العثور عليها إلا بالمقارنة الدقيقـة بـين مدلولات الألفاظ في أكثر من لغة .

ثم إن اختيار اللغوي لهذا اللفظ الذي عثر عليه بالصدفة في قاموس مـن القواميس للدلالة على مسمى من المسميات الحديثة هو أيضا عمل اعتباطي محض لعدم اعتماده في استقائه للألفاظ على الاستقراء الواسـع الشـامل أي المسح الكامل لجميع معطيات اللغة بل لجميـع مـا ورد في النصـوص الـتي وصلتنا. وقد يعثر اللغوي على لفظ غريب وتكون غرابته لا بالنسبة لنا فقط بل حتى بالنسبة للعرب القدامى أنفسهم ولا يلتفت إلى ذلك.[3] فيطلقه على

---

[3] لا ستطيع أن يميز بين الغريب وغيره لعدم معرفته لمدى تردد هذا الاستعمال القديم.

مفهوم مأنوس غير غريب مما هو مبتذل في زماننا[4] ثم يتعجب من عدم إقبال الناس عليه. هذا بقطع النظر عن عدم معرفته لجميع إمكانيات اللغة الموجودة بالقوة في أقيستها فهو وإن كان يعرف أن لصيغ الكلام مدلولات متنوعة تختص بها كل صيغة فإنه لا يلتفت إلى هذه المدلولات إلا من خلال ما تركته لنا الكتب النحوية[5]. وهذا وإن كان ضروريا فإنه لا يكفي إذ يحتاج اللغوي إلى أن يعرف مدى شيوع الصيغة في القديم والحديث، وبأي معنى وفي أي سياق. فهذا النوع من الدراسة يكاد يكون مفقودا تماما في زماننا هذا. ثم قد يكون سبب الغرابة وعدم شيوع اللفظ في القديم ـ وبالأحرى في عصرنا ـ ما يتصف به من تنافر شديد لحروفه فلا يلتفت هنا أيضا إلى ذلك، وإن قيل له في ذلك فإنه لا يبالي بذلك بل يعتذر بهذا القول: "هذا راجع إلى أذواق الأفراد واختلاف الطبائع والأمزجة، وهي من الأمور التي لا يمكن أن يحصل فيها التوحيد". فهذا القول هو في الواقع مجرد سفسطة أو هو صادر عن جهل عميق بقوانين الاقتصاد اللغوي، ونعني بذلك التوازن الذي ينتج من قوتين متدافعتين: ميل المتكلم بطبعه إلى الاقتصاد في تأديته (العفوية) لكلامه واحتياج المخاطب إلى البيان، أي: أن يكون الخطاب الموجه إليه واضحا غير ملتبس. ويحصل التوازن حين يكون مردود الكلام[6] مساويا للمجهود

---

[4] وذلك مثل "الإرزيز" الذي اقترحه بعض المجمعيين للدلالة على الهاتف و"المطثة "للدلالة على مضرب الكرة.

[5] وأكثر اللغويين يلتفتون إلى كتب المتأرخين – والمطبوعة منها فقط ـ ويتركون كتب أولئك الذي شافهوا السليقيين من الناطقين بالضاد.

[6] أي بلوغ معانية إلى ذهن السامع كما يقصده المتكلم .

الفيزيولوجي المبذول لتحقيقه. فلكي تعرف بالضبط كيف ينطبق هذا المبـدأ على اللغة العربية فلا بد من الرجوع إلى ما قاله علماؤنا في شـأن الأصـوات والحروف وتنافرها ثم الاعتماد على التجارب العلميـة في المخـابر الصوتيـة الحديثة. فإن نحن جهلنا كل هذه الأشياء فكيف نحكـم علـى هـذا اللفـظ بالخفة أو الثقل؟ وقد رأينا أن اللغوي الذي يجهل هذه الأمـور قـد يجعـل من الخفة والثقل أمرا خاصا بذوق الأفراد وليس الأمر كما يزعم أبدا.

وبناء على هذا فإن اختيار هذا اللفظ من بين الألفاظ الـتي يعـثر عليـها الباحث من هنـا وهنـاك،[7] أو تلـك الـتي يصوغـها صوغـا بالاشـتقاق مـن الأصول أو الكلم المعروفة، للدلالة علـى هـذا المسـمى المحـدث أو ذاك، لا يمكن أن يتم على أحسن الأحـوال إلا إذا توفـرت لـدى البـاحث جميـع المعطيات التي ذكرناها وإلا كان عملـه مجـرد خبـط عشـواء. ولهـذا أيضـا بدأنا في بلادنا في إجراء البحوث الميدانية والمخبرية الشاملة للحصول على هذه المعطيات التي لا مناص منها.

العمل الشبه الحِرَفي: إن البحث في وضع المصطلحات العربيـة لا يـزال كما قلنا شبه حرفي، ونعـني بذلـك أنـه لم يخـرج بعـد مـن طـور البحـث الفردي اليدوي، أي: لا يزال يجري على مستوى الأفـراد حتـى لـو كـان المعنيون به منتسبين إلى هيئة علمية يعملـون فيـها مـع غـيرهم لأن عملـهم ليس جماعيا في الحقيقة، إذ العمل الجماعي هو الذي تقوم بـه جماعـة أو أسرة من الباحثين ينتظمون فيها انتظام الخلايـا بالنسـبة للجسـم الحـي: كل مجموعة فيها تؤدي مهمة معينة لفـائدة المجمـوع أو لفـائدة مجموعـة

---

[7] في غالب الأحيان، وهذا البحث الاستقرائي الشامل هو أيضا اعتباطي كما سنراه فيما يلي.

معينة أخرى وهذه بدورها تكفل عمل غيرها. فالعمل الجماعي في البحث العلمي هو أيضا من هذا النوع إذ تجتمع على العمل الواحد الواسع النطاق الخلايا من الباحثين المختلفي الاختصاصات، وكل يعمل لفائدة الآخر ولا يمكن أن ينفرد ويستغني عن غيره[8]. فهذه مجموعة تكلف بضبط المعطيات وجردها وترتيبها وهي تعتمد على جماعة أخرى تتحراها في الميدان وتجمعها وتحصل عليها في كل ذلك بفضل المناهج المهيأة سلفا لهذا الغرض. وتلك جماعة أخري تجرى على المعطيات التحوير اللازم بالآلات الإلكترونية (الحواسيب) وهي تعتمد بدورها على اختصاصين في البرمجة. وكل ذلك موجود بالفعل في الكثير من معاهد العلم ومراكز البحث الكبيرة في أوربا وأمريكا.

فالأعمال الفردية ـ حتى لو كانت في داخل لجان مختصة ـ لا يمكن أن تؤدي ما تِؤديه هذه المجموعات المنتظمة من الباحثين. وقد بقي البحث اللغوي وعدم التكافل الشامل بين العاملين المنتميين إلى الهيئة الواحدة. وفيما يخص هندسة اللغة فقد صار علماء اللسان في زماننا هذا يتعاونون مع المهندسين في الحاسوبيات والإلكترونيات، ولهذا يحتاج كل واحد من اللسانيين والمهندسين أن يكون حاصلا على علم الآخرين بقدر كاف دون تخصص فيما يكسبه زميله اللغوي أو المهندس من مبادئ اللسانيات أو مبادئ في الحاسوبيات. هذا وقد يضطر المهندس إلى أن يلم بالكثير من مفاهيم اللسانيات الحديثة إذا تناول ميدانا من البحث يخص اللغة ونظامها وبنيتها. وتوصل العلماء في هذا الميدان المشترك إلى مستوى

---

[8] وهذا غير العمل الذي يقتصر فيه على توزيع الأعمال على لجان مختصة بل هو تقسيم للعمل على نظام تتكافل فيه جميع أجزائه وليس مجرد تقسيم على مستوى واحد.

عال من المعرفة اللسانية التقنية مكنتهم من صنع البرامج الحاسوبية التي تمكن من تنطيق الحواسيب من جهة، ومن علاج النصوص على الحاسوب من جهة أخرى وهذا قد بدأ يهتم به بعض الباحثين في الوطن العربي.

وقد تفطن الكثير من العلماء العرب إلى أهمية الطريقة الجماعية، وأول مشروع بدأوا به هو مشروع الرصيد اللغوي على مستوى المغرب العربي. ثم على مستوى الوطن العربي. وانتهى إنجازه، أي: الرصيد المغربي العربي في عام 1972 ورسمه وزراء البلدان الأربعة الجزائر وتونس والمغرب وموريتانيا في 1975. وأدخل في الكتب المدرسية في هذه البلدان. والهدف منه كما ينص عليه واضعو الرصيد العربي (المشروع الثاني): أن يضبط مجموعة من المفردات والتراكيب العربية الفصيحة التي يحتاج إليها التلميذ في مرحلة التعليم الابتدائي والثانوي حتى يتسنى له التعبير عن الأغراض والمعاني العادية التي تجرى في التخاطب اليومي من ناحية، ومن ناحية أخرى التعبير عن المفاهيم الحضارية والعلمية الأساسية التي يجب أن يتعلمها في هذه المرحلة من التعليم .

عدم الشمولية: إن أكثر اللغويين ممن يهتم بوضع المصطلحات يقتصر في الغالب على البحث في المعاجم المتداولة كالقاموس المحيط ولسان العرب والصحاح وغيرها، ويجعلون من هذه المصادر المستقى الوحيد لجميع أعمالهم. وقلما وجدنا من اهتم بالنصوص التي وصلتنا كأمهات الكتب في الأدب والعلوم وغيرها. والحق أن هذا العمل يعجز عن القيام به الأفراد لمشقته العظيمة، وقد يعجزون عن التصفح المنتظم المتواصل للمعاجم نفسها، فما بالكم بمئات الآلاف من النصوص؟ ومهما بلغ تبريرنا لموقف

اللغويين فإن النقص قائم. ثم إن هناك دافعا آخر قد يحمل اللغوي على الاقتصار على القواميس: فقد يظن أن كل ما هو موجود في تلك المعاجم يطابق تماما ما هو موجود في الاستعمال إذ قد أخذت مادتها منه. فهذا وإن كان ظاهره صوابا ففيه الكثير من المعاني والمدلولات الجزئية قد لا ينص عليها القاموس إما لكثرتها، وإما لأن اللفظ قد استعمل كمصطلح خاص بفن أو علم معين أو لمفهوم جديد طرأ بعد تدوين العلماء للغة. ثم إن أكبر عيب هو أن تذكر تحديدات القواميس لمدلولات الألفاظ ويكتفى بذلك ويتناسى أن مدلول اللفظ لا يمكن أن يحصر إلا بالاعتماد على جميع السياقات والقرائن التي ورد فيها هذا اللفظ في الاستعمال المدون. نعم قد اعتمد اللغويون الذين جمعوا اللغة في عين المكان على السياقات وحال المشاهدة وسألوا المولدين عن أغراضهم، إلا أن هذا كله لم يدونه بأكمله من جاء بعدهم من مؤلفي القواميس. فما كان يمكنهم أن يذكروا من هذه السياقات وتلك الأحوال والأغراض إلا القليل بالنسبة لكل كلمة (وقد يكتفى بالشاهد الواحد وقد لا يذكر أي سياق إطلاقا). ثم إن المدلول قد يكون تغير على ممر الزمان بما يجيزه قياس العربية من مجاز واتساع في المعنى[9]. هذا وأعظم نقص يوجد في القواميس(ليس هذا ذنبها) هو أنها لا تنص أبدا على مدى شيوع الكلمة في الاستعمال لأن أصحابها أكثر هم من المتأخرين[10] إذا استثنينا الجوهري والأزهري.

وعلى هذا فالذي يحتاج إليه واضع المصطلحات هو ما يعرف في زماننا باسم "الذخائر اللغوية الآلية" فيمكن أن يوجد فيها جميع ألفاظ العربية

---

[9] بالتخصيص أو التعميم وغير ذلك

[10] من الذين جاؤوا بعد تقلص رقعة الفصاحة السليقية

التي وردت في الاستعمال الفعلي، أي: في النصوص التي وصلتنا (حتى المخطوطة منها). وعلى هذا يعتمد الباحث على السياقات والقرائن من الشعر الجاهلي حتى الصحف في عصرنا الحاضر، ويمكن أن يستخرج من ذلك الكثير من المعلومات التي لا يجدها في القواميس. وهذا لا يمكن أن يتم إلا بما أشرنا إليه من التنظيم وتكافل الأعمال والاستعانة بالآلات العظيمة المفعول وهي الحواسيب.

أما لغة التخاطب اليومي الفصيحة العفوية ومميزاتها (كما دونها ووصفها اللغويون العرب وأهل الآداب) فقد سبق أن قلنا في بحث سابق ما يلي: "لم تحظ أية لغة في الدنيا منذ أن خلق الله الإنسان بما حظيت به اللغة العربية من العناية من قبل أصحابها وخاصة اللغويين منهم وأهل الأداء....ومن أعظم ما تركوه لنا هو الوصف المستفيض للأداء القرآني من جهة وللغات العرب، أي: الكيفيات المتنوعة في التأدية الصوتية والصرفية والنحوية لعناصر اللغة. وإن كان هذا الجانب من أوصافهم جد مهم بالنسبة لنا وللأجيال القادمة فإنه لم يحظ إلى الآن بالعناية الكبيرة من قبل اللغويين المحدثين اللهم إلا القليل النزر من المحاولات".

وهذا هو الجانب الذي ينبغي ـ في نظرنا ـ أن يعتنى به أكثر من غيره. فلِئنْ تفطن العلماء والكثير من المثقفين إلى وجود القسط الكبير من المفردات في العاميات الحالية وهي فصيحة أو قريبة جدا من الفصيحة (وتكون 80 في المئة من ألفاظ التخاطب اليومي في وقتنا الراهن[11])، فإن هذا لن يفيد الأمة العربية شيئا مادام الأداء، أي: كيفية النطق والتعبير عامة لا

---

[11] ويحتاج هذا الجانب إلى دراسة قائمة برأسها .

يخضع لنواميس العفوية اللغوية التي تتصف بها كل اللغـات الـتي ينطـق بـها يوميـا في الحاجـات العاديـة وفي حالـة الأنـس. وكـل مـن يلجـأ إلى استعمال الفصحى ـ كما تعملها في المدرسة وكما يعبر بها المذيع والخطيـب ـ في بيته مع ذويه ـ في غير ظـروف التعليـم والتلقـين ـ ومـع أصدقائـه في مكان عمله أو غـيره، وأي واحـد في الشـارع فسـيتعرض بذلـك للاسـتهزاء والسخرية.

ومثله في ذلك كمثل الذي يخطـب في النـاس وهـو يريـد مخاطبتـهم في أغراض بسيطة: فهو يخاطبهم وكأنه يقرأ من كتاب. وقد رسـخ في أذهـان المعلمين أن اللغة العربية ليس لهـا إلا كيفيـة واحـدة في التعبـير بـها وهـو المستوى الذي سميناه بالإجلالي أو الترتيلي. وسبب ذلـك يرجـع إلى أقـدم العصور حيث أصبح هم المعلم هو الإعراب والنطق الصحيح ببنيـة الكلمـة، وأهملوا المستوى العفوي وهو ما أجازته العرب من تسهيل للـهمزة وإدغـام الكثـير مـن الحـروف وإخفـاء الحركـات واختلاسـها وتسـكين بعـض المتحركات وحذف ما يستغني في حال الخطابات المرئية. وتجـاهل النـاس هذا المستوى المستخف مـن التعبـير العفـوي لشـدة غيرتـهم علـى الصحـة اللغوية حتى أداهـم ذلـك إلى اللحـن[12]. وذلـك مثـل الوقـف؛ فـإن الطفـل العربي لا يعرف أن النطق بالحركة والتنوين في الكلمة المسكوت عليها هـو شـيء غريـب في العربيـة. وذلـك لأن الوقـف هـو عـن العاميـة بـالإعراب والتنوين.

---

[12] وهي ظاهرة معروفة تسمى بالإنكليزية بhypercorrection = فرط التصحيح (وهو خطأ)

يريد المعلم قبل كل شيء أن يصحح بالإضافة إلى الأخطاء الحقيقية، ما يعتقد هو وغيره منذ مئات السنين أنه **خطأ لأنه موجود في العامية**. فصار شيئا فشيئا مقتنعا بأن كل ما هو مستعمل في العامية فهو خطأ في العربية الفصحى حتى يحكم على الكثير من المفردات والتراكيب الفصيحة وتأديتها نطقا أنها عامية محضة.

فما هي، يا ترى، هذه الصفات التي تميز فصحى التخاطب العفوي التي كان ينطق بها أسلافنا **في حاجاتهم اليومية**، والتي **سمعها ودوّنها المتقدمون من علمائنا**، وفصحى الترتيل التي صارت على مر الأيام المعيار المدرسي الوحيد؟ الإجابة عن هذا السؤال الخطير تحتاج إلى دراسة قائمة بنفسها في مجلد ضخم. وسنكتفي هاهنا لضيق المكان بعينة ذات دلالة إن شاء الله[13]. وهي اختزال الحركات[14].

الحركات الإعرابية: إن العرب لا تبتدئ بساكن ولا تقف على متحرك كما هو معروف. وأدنى سكتة تقتضي سقوط الحركة والتنوين كما قلنا، بل لا سبيل إلى إيجاد اتصال مستمر في الكلام لا وقف فيه. ثم إن جميع العرب من ربيعة كانوا يقفون بالسكون على المنصوب نفسه. ويحسن بنا أن نذكر أقوال هؤلاء الذين سمعوا منهم كلامهم **مباشرة**: قال أبو العيناء:

---

[13] صورة محسوسة هي التعداد فإن المعلم نفسه لا يعرف أن مثل هذا النطق : كتاب ـ قمطر ـ قلم وكذلك واحد ـ اثنان ـ ثلاثة...غلط فاحش في العربية.

[14] هذه الأشياء التي سنذكرها هنا يعرفها جيدا علماء اللغة والقراءات إلا أن حظها من العناية قليل بل يكاد لا يلتفت إليها في وقتنا الحاضر إلا الشرذمة القليلة من الاختصاصين على الرغم من أنها تهم كل المثقفين إذ تمس مستقبل لغتهم.

"ما رأيت مثل الأصمعي قط، أنشد بيتا من الشعر فاختلس الإعـراب." ثـم قال: "سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول: كـلام العـرب الـدرج". وحدثـني عبد الله بن سوار أن أبـاه قـال: سـيأتي ذكـره "العـرب تجتـاز بـالإعراب اجتيازا". وحدثني عيسى بن عمر أن ابن إسحاق قـال: "العـرب ترفـرف علـى الإعـراب ولا تتفيـهق فيـه. وسمعـت يونـس يقـول: " العـرب تشـام الإعراب ولا تحققـه". وسمعـت الخشـخاش بـن الحبـاب يقـول: "إعـراب العرب الخطف والحذف".[15] **فـهذا يخـص الكـلام العفـوي في الحاجـات اليومية.** وأما ما سماه الجاحظ بالتشدق والتفـهيق فـهو تكلـف بعضـهم في استعمالهم لمستوى الترتيل والتحقيق التحقيـق في حـال الخطـاب اليومـي. وهذا ليس معناه أن التحقيق غير مرغوب فيه، بلـى، فـإنّ هنـاك حـالات خاصة تقتضي وقد بالغ بعض أتباع حمزة القـارئ في التحقيـق. والإشـباع حتى كره ذلك بعض الشخصيات كالإمام أحمد بن حنبل وابن قتيبة (وقـد ظلموا حمزة في ذلك مع صواب موقفهم إزاء هذه المبالغة).

---

[15] ذكره الدكتور عبد التواب من كتاب "نثر الدرر" لابن سعد الآبي (فصول في فقه اللغة، 80).

دور اللغة العربية
في الإشعاع الحضاري

الدكتور أحمد مطلوب

عضو المجمع العلمي وأمينه العام

بغداد - العراق

الحضارة – في أوضح معانيها – مجموعة القيم والمعارف والخبرات، أي أنها تشمل ما يتصل بالعقيدة والوجدان والمعنويات والماديات ووسائلها المتمثلة في العلوم وغيرها.[1]

ولم يكن العرب منذ القديم بعيدين عن هذا المعنى وإن اختلفت مظاهر الحضارة من زمن إلى آخر بسبب ما يحدث من تحولات في المجتمع. وتجلت حضارة العرب القديمة في حضارة وادي الرافدين وحضارة وادي النيل وقد عبرت عنهما الكتابات والنقوش التي عثر عليها المنقبون في العصر الحديث، وجاءت النصوص العربية بعد ذلك لترسم صورة واضحة للحضارة العربية.

وكانت اللغة العربية منذ عهد بعيد الوعاء الذي حمل ملامح تلك الحضارة، إذ لم تكن وسيلة للتفاهم والاتصال فحسب، وإنما كانت – إلى جانب ذلك – وعاءً استوعب حضارة العرب، فهي – كما يقول الدكتور مصطفى مندور : ((الوعاء الأساسي الذي يمثل لنا الإنسان العربي بكل خصائصه ومقوماته))[2] وهي ((الوعاء الحضاري الذي عاش فيه المجتمع))[3].

---

[1] ـ قال ابن خلدون في المقدمة ص 172: " والحضارة إنما هي تفنن في الترف وأحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه " وتنظر ص 368، 372. وقال زكي الأرسوزي في المؤلفات الكاملة ـ المجلد الثاني ص 33 ـ : " نجمل بكلمة حضارة: المدينة والثقافة، وقال في ص 401: " للحضارة وجهتان: المدنية والثقافة "، وينظر بحث " الحضارة والتربية " للدكتور مسارع الراوي في كتاب " الحضارة " ص 7 وما بعدها.

[2] ـ اللغة والحضارة ص 18، وتنظر ص 5.

[3] اللغة والحضارة ص 23.

وكانت منذ القديم ذات صلة بالقيم الحضارية، وقد حركت المجتمع العربي قبل الإسلام وبعده، فهي – كما يقول أبو منصور الثعالبي : إن ((العربية خير اللغات والألسنة والإقبال على تفهمها من الديانة، إذ هي أداة العلم ومفتاح التفقه في الدين وسبب إصلاح المعاش والمعاد، ثم هي لإحراز الفضائل والاحتواء على المروءة وسائر أنواع المناقب كالينبوع للماء والزند للنار))[4].

وهذه أهم ملامح الحضارة، إذ جمع الثعالبي العقيدة والقيم والمعارف والخبرات وما فيه صلاح الدنيا وخير الآخرة.

لقد لمح القدماء الصلة الوثيقة بين اللغة والحضارة، ولذلك اهتموا بها لتكون وعاء للحضارة التي عاشوا في ظلها، ولتكون خير وسيلة تعبر عن ملامح حضارتهم وحياتهم. وكان شعر ما قبل الإسلام معبرًا عن حياة العرب وقيمهم وحضارتهم المعنوية والمادية. وما وصل منه دليل على أن العربية استوعبت مطالب الحياة قبل الإسلام، ولا يخفي الحقيقة ما ذهب إليه بعض الباحثين من أن ذلك الشعر منتحل، لأنه لا يعبر عن الحياة العربية ومنهم الدكتور طه حسين الذي يقول : ((فهذا الأدب الذي رأينا أنه لا يمثل الحياة الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية للعرب الجاهليين بعيد كل البعد أن يمثل اللغة العربية في العصر الذي يزعم الرواة أنه قيل فيه))[5]. وكان قد قال قبل أسطر : ((وإذا كان العرب أصحاب علم ودين وأصحاب ثروة وقوة وبأس وأصحاب سياسة متصلة بالسياسة العامة متأثرة بها مؤثرة فيها، وأصحاب اقتصاد داخلي

---

[4] ـ فقه اللغة ص1، وينظر اللغة والحضارة ص 152.

[5] ـ في الأدب الجاهلي ص 88.

وخارجي معقد فما أخلقهم أن يكونوا أمة متحضرة راقية لا أمة جاهلة همجية)).

وليس صحيحا أن الشعر الجاهلي الذي وصل لا يمثل الحياة العربية أو حضارة العرب قبل الإسلام ، فهو قد تحدث عما أشار إليه الدكتور طه من مظاهر الحضارة التي عرفت في ذلك الزمان، وفيه تجلت الحياة العربية في كثير من المظاهر.

فمن الحياة الاجتماعية : الصلات الأسرية، والزواج، والطلاق، وتعدد الزوجات، والأولاد، والصلة القبلية، وبواعث الحروب، والصلح والسلام والحلف والجوار، والغنى والفقر.

ومن الحياة الخلقية : الكرم والبخل، والشجاعة والجبن، والجهل والطيش، والحلم والحرية، والإباء والوفاء، والعفة والمجون.

ومن الحياة الدينية : الأصنام، والتوحيد، والكواكب، والنار.

ومن العادات والمعتقدات : الخمر، والميسر، والجن، وشياطين الشعراء والزجر، والعيافة وعقر الإبل على القبور، والهامة والصدى، وشق الرداء[6].

وكان للمرأة في الشعر حضور متميز إذ تحدث عنها وتعرض للأم، والزوجة، والبنت، والأخت، والقريبة، وحقوق المرأة المالية، وأخلاقها، وسفورها، وتحجبها، وصناعتها وموقفها في الحرب، ومكانتها الاجتماعية والسياسية، وذكر صفاتها، وجمالها وتجملها، ولواعج حبها،وما إلى ذلك من قضايا تخص المرأة حرةً أو سبية[7].

---

[6] ـ تفصيل ذلك في كتاب " الحياة العربية من الشعر الجاهلي " للدكتور أحمد محمد الحوفي.

[7] ـ تفصيل ذلك في كتاب " المرأة في الشعر الجاهلي " للدكتور احمد محمد الحوفي.

وتجلت مظاهر الحياة الاجتماعية في الشعر بـأجلى مظاهرهـا فدراسـة دواوين شعراء المعلقـات العشـر الـتي قـامت بـها الدكتـورة نـدى الشـايع أظهرت أن العرب كانوا على قدر كبير من التحضر على الرغم من البداوة التي كانت تطبع بعض حياتهم، وفي هذه الدراسة ومعجمها مـا دل علـى القرابة، والعلاقات الاجتماعية والأخلاق والصفات، والحالة الاجتماعية، والمسـكن والإقامـة والارتحـال، والطعـام والشـراب وأدواتـهما، واللبـاس وأدوات الزينة، والعطور، والفرش، ووسائل النقـل ومعداتـها، والحـروب وعدتها، والدين والعبادة، والطرب وأدواته[8].

وأظهرت معاجم "المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب" لرينهارت دوزي، و"الزينة في الشعر الجـاهلي"و"معجـم الملابـس العربيـة في الشـعر الجاهلي" للدكتور يحيى الجبوري، ومعجـم "الملابـس في لسـان العـرب" للدكتور أحمد مطلوب مـدى اهتمـام العـرب قبـل الإسـلام بـهذا المظـهر، وعنايتهم البالغة بالنسيج ونوعه، وبالألوان والأصبـاغ، وأجـزاء الملابـس، وصفاتها، وضروب اللبس، وأماكن صنعها[9]. وهو ما يثـير الدهشـة ويغـير كثيرًا من الآراء عـن الحيـاة العربيـة قبـل الإسـلام، الـتي وصفـت بأنـها جاهلية لم تمسها الحضارة، وهذا ما ترفضه الدراسات العلمية والآثار التي تدل على ما كان للعرب من حضارة في تلك العهود الـتي كـانت إرهاصـة لانبثاق فجر جديد.

---

[8] ـ تنظر مقدمة معجم ألفاظ الحياة الاجتماعية في دواوين الشعراء المعلقـات العشـر للدكتـورة نـدى عبد الرحمن يوسف الشائع.

[9] ـ تنظر مقدمة معجم الملابس في لسان العرب للدكتور أحمد مطلوب

هذه المظاهر وغيرها تجلت في الشعر الجاهلي الـذي لم يصـل منـه إلاّ القليل، وهو كما قال عمرو بن العلاء: "ما انتهى إليكم مما قالت العـرب إلاّ أقله، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير"[10].

لقد صور هذا الشعر حضارة العرب قبل الإسلام خير تصوير على الرغم مما في بعضه من نحل لا يقلل من قيمة ما وصل. وكانت اللغة العربية هي الوعاء الذي حمل مظاهر تلك الحضارة، وهي لغة ناضجة تدل على أنـها مرت بأدوار كثيرة قبل أن تصبح لغة الحياة والشعر العربـي الـذي تناقلـه الرواة، ودُوّن ليكون وثيقة تشهد بما كـان للعـرب مـن حضـارة وتقـدم في الحياة. قال ابن سلام الجمحي: "كان الشعر عنـد العـرب ديـوان علمـهم ومنتهى حكمهم، به يأخذون وإليه يصيرون" ونقل عن عمر بن الخطـاب – رضي الله عنه قوله: "كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه" [11] وقال أحمد بن فارس: "والشـعر ديـوان العـرب، وبـه حفظـت الأنسـاب وعرفت المآثر، ومنه تعلمت اللغة وهو حجة فيما أشكل من غريب كتـاب الله"[12].

وظهر الإسلام وحدثت تحولات كبيرة في حياة العرب، وأحدث نـزول القرآن الكريم على محمد – صلى الله عليه وسلم – هزة عظيمة في نفوسهم وقيمهم، وكان من تلك التحولات مسايرة اللغة العربية للواقع الجديد ولما ظهر من أمور لم تكن معروفة أو لم تعبر عنها اللغة. وقد تحدث الجـاحظ عن التحول اللغوي الذي طرأ على الألفاظ بظهور الإسلام، وأشار إلى ترك

---

[10] ـ طبقات فحول الشعراء ج1 ص25.

[11] ـ المصدر نفسه ج1 ص 24.

[12] ـ الصاحبي ص 265.

الناس لألفاظ كثيرة واستحداث ألفاظ لم تكن، لتعبر عن النقلة العظمى للعرب[13]. وأوضح هذه النقلة أحمد بن فارس فقال: "كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرابينهم، فلما جاء الله – جل ثناؤه – بالإسلام حالت أحوال ونسخت ديانات وأبطلت أمور، ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخر بزيادات زيدت، وشرائع شرعت، وشرائط شرطت، فعفّى الآخر الأول"[14].

وكان لابد لمثل هذا التطور الذي حدث من أن تستجيب اللغة العربية للجديد، وبذلك نقل الإسلام ألفاظًا من مواضع إلى مواضع، واستحدث ألفاظًا لم تكن معروفة من قبل لتستوعب اللغة النقلة الكبيرة التي مست حياة العرب.

والإسلام دين عقيدة وشريعة، وقد عبرت اللغة العربية عن ذلك خير تعبير وحفل القرآن الكريم بكثير من ظواهر الطبيعة، ومظاهر الحياة وتحدث عنها بلغة عجز الإنس والجن عن أن يأتوا بمثلها دقة دلالة وبلاغة وفصاحة وروعة أسلوب. لقد تحدث عن الإلهيات، والعبادات والإيمان، والجهاد، والهجرة، والرسالة، ويوم القيامة، والمحرمات والأحكام، والحدود، والقصص والتاريخ، والديانات، والاجتماعيات والعلم، والأخلاق الحميدة، والأخلاق الذميمة وغيرها. وهذه كلها من مظاهر الحياة الجديدة التي لونت الحضارة العربية بلون جديد واكسبتها حياة فضلى، وقد جاءت بأسلوب عربي مبين يعجز الخلق عنه، وهو ما

---

[13] ـ ينظر الحيوان ج1 ص 327 وما بعدها.

[14] ـ الصاحبي ص 78.

يؤيد قدرة اللغة العربية على استيعاب المستجدات وأنها خير وعاء للحضارة والتقدم العلمي في كل زمان.

وعبرت لغة الحديث الشريف عن الحياة الجديدة خير تعبير، وبذلك خطت العربية بفضل القرآن الكريم والحديث الشريف خطوات واسعة. واستمد الشعر والخطب والرسائل كثيرًا من لغتهما، وازدهرت الحياة الفكرية ازدهارًا كبيرًا في العصر الأموي، وعبرت اللغة عن مستجدات الحياة، ولاسيما الفكر السياسي الذي بشرت به الأحزاب السياسية[15] وعن القيم الجديدة التي ظهرت في المجتمع العربي بعد أن خرج العرب من جزيرتهم، ودخل الناس في دين الله أفواجًا.

لقد نقل الإسلام العرب نقلة حضارية كبرى ونمت في ظله اللغة العربية، وأخذت تزدهر لتستوعب الحياة الجديدة ولم تعد لغة الشعر والنثر والخطابة فحسب، وإنما أصبحت وعاء للعلوم، إذ بدأت العناية بالعلوم الطبيعية كالكيمياء والطب. وكان خالد بن يزيد بن معاوية يسمى "حكيم آل مروان"، وكان فاضلاً في نفسه وله همة ومحبة للعلوم. خطر بباله الصنعة فأمر بإحضار جماعة من الفلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصح بالعربية وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي، وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة[16]. وهو "الذي عني بإخراج كتب القدماء في الصنعة" و"أول من ترجم له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء". وقد قيل له: "لقد فعلت أكثر

---

[15] ـ ينظر " تاريخ الشعر السياسي " لأحمد الشايب، و" أداب السياسة في العصر الأموي " للدكتور أحمد الحوفي.

[16] ـ الفهرست ص 303.

شغلك في طلب الصنعة". فقال : "ما أطلب بذلك إلاّ أن أغني أصحابي وإخواني، إني طمعت في الخلافة فاختزلت دوني فلم أجد منها عوضًا إلاّ أن أبلغ آخر هذه الصناعة، فلا أحوج أحدًا عرفني يومًا أو عرفته إلى أن يقف بباب سلطة رغبة أو رهبة". وقد "صح له عمل الصناعة وله في ذلك عدة كتب ورسائل"، ورأى ابن النديم منها: "كتاب الحرارات، وكتاب الصحيفة الكبير وكتاب الصحيفة الصغير، وكتاب وصيته إلى ابنه في الصنعة"[17].

واستوعبت اللغة العربية هذه الكتب وكانت وعاء للنهضة العلمية التي بدأت تطرق الحياة العربية وللحضارة التي بدأت تورق وتزهر وتقدم ثمرًا جنيًا في العصر العباسي الذي بدأت فيه حركة التدوين والتأليف والترجمة تزدهر وتتسع وكان لظهور كتب الفقه، وعلوم اللغة، والفلسفة والكلام أثر كبير في نمو اللغة العربية واتساعها، إذ أخذ المؤلفون يضعون المصطلحات والألفاظ مستفيدين من قدرة اللغة في الوضع والقياس والاشتقاق والتوليد. وكان للمتكلمين فضل في تطور العربية واستيعابها لألوان الثقافة الجديدة قال الجاحظ: "وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم، فصاروا في ذلك سلفا لكل خلف، وقدوة لكل تابع، ولذلك قالوا العرض والجوهر، وايس وليس، وفرقوا بين البطلان والتلاشي وذكروا الهذية، والهُوية، والماهية، وأشباه ذلك.

---

17 ــ الفهرست ص 303.

لمرونة اللغـة العربيـة دور كبـير في اسـتيعاب ألـوان الثقافـة والتعبـير عـن الحضارة التي ازدهرت في القرنين الثالث والرابع للهجرة، وكانت حركـة التأليف صدى لها إذ وضعت الكتـب في العلـوم المختلفـة، وكـانت كتـب الفقه واللغة والتاريخ والجغرافيا من أظهر ملامح تلك النهضـة فضـلا عمـا ألف في العلوم أو ترجم، كالطب والفلسفة والرياضيـات والفلـك والكيميـاء والصيدلة وعلم الطبيعة والموسيقى[19]. وقد أحصى أبو نصر الفارابي في كتابه "إحصاء العلوم" العلوم المشهورة في زمانه وهي خمسة أنواع :

الأول: علم اللسان وأجزاؤه.

الثاني: علم المنطق وأجزاؤه.

الثالث: علوم التعاليم، وهي العدد، الهندسـة، وعلـم المنـاظر، وعلـم النجوم التعليمي، وعلم الموسيقى، وعلم الأثقال، وعلم الحيل.

الرابع: العلم الطبيعي وأجزاؤه والعلم الإلهي وأجزاؤه.

الخامس: العلم المدني وأجزاؤه وعلم الفقه وعلم الكلام.

وتضم هذه الأنواع الخمسة علومًا كثيرة، وكان من ولـع العـرب بكلمـة العلم أن أطلقوها على كثير من المعارف، فأحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبري زاده ذكـر في كتابـه "مفتـاح السـعادة ومصبـاح السـيادة" أكـثر مـن ثلاثمائة علم ولا يدخل أكثرها في العلوم الصرفة والتطبيقية المعروفـة اليـوم ولكن هذه الأنواع من العلوم تدل على سعة مبـاحث القدمـاء وقـدرة اللغـة العربية على التعبير عنها.

---

[19] ـ للوقوف على ذلك ينظر " الفاظ الحضارة الثقافية في مؤلفات أبي حيان التوحيدي " للدكتـورة طيبة صالح الشذر.

وذكر وضع الخليل بن أحمد الفراهيـدي مصطلحـات العـروض فقـال: "كما وضع الخليل بن أحمد لأوزان القصيدة، وقصار الأرجاز ألقابًا لم تكـن للعرب تلك الأعاريض بتلك الألقاب وتلك الأوزان بتلك الأسماء، كما ذكر الطويل، والبسيط، والمديد، والوافر، والكامل، وأشـباه ذلـك، وكمـا ذكـر الأوتاد، والأسباب، والخرم، والزحاف. وقد ذكـرت العـرب في أشـعارها السـناد، والإقـواء، والأكفـاء، ولم أسمـع بالإيطـاء، وقـالوا في القصيـد، والرجز، والسجع، والخطب، وذكروا حروف الروي، والقوافي، وقالوا هذا بيت وهذا مصراع".

وذكر وضع النحاة مصطلحات النحـو فقـال: "وكمـا سمـى النحويـون فذكروا الحال، والظروف، وما أشبه ذلك لأنهم لو لم يضعوا هذه العلامات لم تستطيعوا تعريف القرويين وأبناء البلديين علم العروض والنحو".

وذكر وضع علماء الحساب مصطلحـات خاصـة بـهم فقـال: "وكذلـك أصحاب الحساب قد اجتلبوا أسماء جعلوها علامات للتفاهم"[18].

وكان ذلك للحاجة التي شـعر بـها المؤلفـون، ولم يكـن أمامـهم إلاّ أن يضعوا المصطلحات والألفاظ لتعبر عن العلم الذي يؤلفون به. ويعد ما ذكره الجاحظ بدء النهضة الحضارية الجديدة التي أطلت على العرب وتعددت ألوانها، وعلى تدفق اللغة التي كانت خير وعاء للجديد.

أخذت العلوم تتسع، وبـدأت الكتـب تؤلـف فيـها، أو تـترجم إليـها وشهد العصر العباسي نهضة فكرية وعلمية واسعة النطاق. وكان لتشـجيع الخلفاء وأولي الأمر على التأليف والترجمـة أثـر في ذلـك الازدهـار. وكـان

---

[18] البيان والتبين ج1 ص 139 ـ 140.

وظلت اللغة العربية تحمل الآداب والعلوم والفنون، وتعبر عنها في أحلك الظروف التي مرت بها الأمة العربية والعالم الإسلامي، لما فيها من قدرة على النمو، وتنوع في الأساليب. وكانت خير وعاء حفظ الحضارة العربية خلال أكثر من عشرة قرون شهدت تحولات فكرية وسياسية واجتماعية مختلفة.

وعرف العرب أهمية لغتهم في بداية النهضة الحديثة فأولوها عناية كبيرة ونشروا كثيرًا من التراث ليكون رداءً لهم يحمي ثقافتهم وحضارتهم وقيمهم التي بدأت تتعرض للغزو الثقافي والاستلاب. وكان من اعتزازهم بلغة القرآن الكريم تدريس العلوم بها. وكانت مدرسة القصر العيني بالقاهرة تدرس الطب باللغة العربية ويضع أساتذتها الكتب بها. ودّرست الجامعة الأمريكية في بيروت أول أنشأتها الطب باللغة العربية. ووضع أساتذتها الكتب النافعة ولكن هذين المعهدين تنكرا للعربية التي أبت أن تخضع لمشيئة المستعمرين فظلت تدرس بالعربية الآداب والعلوم والفنون في جامعاتها التي ترفد العربية بالمصطلحات العلمية والألفاظ الحضارية بفضل ما يؤلف ويترجم وما تقوم المجامع اللغوية والمؤسسات العلمية من وضع للمصطلحات العلمية والألفاظ الحضارية.

وكان للنهضة القومية والحركات التحررية أثر كبير في التمسك باللغة العربية، فعلى الرغم من أن بعض الجامعات والمؤسسات العلمية في الوطن العربي تدرس العلوم باللغات الأجنبية إلاّ أن التأليف والترجمة أخذا مسارهما من خلال لغة الكتاب العزيز، فنمت اللغة وأخذت تستوعب ألوان الحضارة الجديدة.

إن متابعة اللغة العربية منذ بداية القرن العشرين وصلتها بالحضارة تظهر قدرتها العجيبة على استيعاب الجديد. فبعد أن كانت لغة الصحافة في مطلعه محصورة بالألفاظ والأساليب القديمة اتسع نطاقها وأصبحت قادرة على التعبير الجديد ومثلها الإذاعة المسموعة والإذاعة المرئية وأصبح لوسائل الإعلام دور في نقل ألوان الحضارة بألفاظ صافية وأسلوب عربي مبين. وما كان لها أن تقوم بذلك لولا مرونة اللغة العربية ولولا رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه وأخلصوا لأمتهم.

وتتضح الصلة بين اللغة والحضارة في مجال التأليف والترجمة، فقد صدرت آلاف الكتب في الآداب والعلوم والفنون بلغة عربية سليمة ووضعت في كل علم وفن آلاف المصطلحات العلمية والألفاظ الحضارية وأصبح التأليف والترجمة ميسورين بعد أن كانا محصورين في نطاق ضيق في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. أصبحت اللغة العربية قادرة على التعبير عن الحضارة بأجلى صورها بفضل ما طرأ عليها من نمو وتطور في ألفاظها وأساليبها، استجابة لتطور الحياة وتقدم الحضارة والاتصال بالثقافات المختلفة.

وستظل اللغة العربية وعاء للحضارة مستمدة أصولها من تراثها العريق وما يستجد في مراحل التطور والارتقاء، وما العربية الفصحى الحديثة إلا امتداد لماض مزهر وجسر لماض وحاضر يمتد إلى مستقبل تشهد فيه نموًا وازدهارًا لتبقى لغة أمة جمعها الله على الخير والهدى ولن تقدر أية قوة أن تسلبها دورها أو تفقدها أهميتها بين لغات العالم، وستحتفظ بمكانتها على الرغم من كل الحركات الهدامة التي تسعى إلى تمزيق الأمة بإضعاف

لغتها أو عزلها عن الحياة لأنها لغة حضارة موغلة في القدم وقد مثلها خير تمثيل ما وصل من شعر وخطب وحكم وأمثال تصور حضارة العرب وقيمهم قبل الإسلام. وإذا كان تراث تلك الحقبة لم يصل أو لم تذكر معظم المصادر مؤلفات صورت الحياة العربية أو تشير إلى علوم ظهرت قبل الإسلام فإن ذلك لا يعني أن العرب لم يكونوا أصحاب حضارة وأن لغتهم لم تكن لغة حضارة. وكان أحمد بن فارس قد أشار إلى بعض علوم العرب قبل الإسلام بعد أن ذكر أن الكتابة كانت معروفة قبل الإسلام، قال: "والذي نقوله في الحروف هو قولنا في الإعراب والعروض والدليل على صحة هذا وأن القوم قد تداولوا الإعراب أننا نستقري قصيدة الحطيئة التي أولها :

شاقتك أضعان لليلى دون ناظرة بواكر

فنجد قوافيها كلها عند الترنم والإعراب تجيء مرفوعة ولولا علم الخطيئة بذلك لأشبه أن يختلف إعرابها لأن تساويها في حركة واحدة اتفاقًا من غير قصد لا يكاد يكون.

فإن قال قائل: فقد تواترت الروايات بأن أبا الأسود أول من وضع العربية وأن الخليل أول من تكلم في العروض قيل له: لا ننكر ذلك بل نقول : "إن هذين العلمين قد كانا قديمًا وأتت عليهما الأيام وقلا في أيدي الناس ثم جددهما هذان الامامان"[20].

وقدّم أدلة مقنعة على معرفة الإعراب والعروض كما قدم أدلة على معرفة الكتابة والحروف، وإشارته إلى وجود هذه العلوم قبل الإسلام تنبه

---

[20] ـ الصاحبي ص 37 ـ 38، وينظر النثر الفني ج1ص 55 ـ 56.

الباحثين للعمل من أجل متابعة ما يصل إليه المنقبون من آثار تؤيد ما ذهب إليه وإن كانت العربية وما قيل بها من شعر وخطب تدل على أنها لغة حضارة.

ويؤيد ذلك نزول القرآن بلسان عربي مبين إذ فيه تصوير معجز رائع لما كان عليه العرب من ثقافة وحضارة قبل نزوله ولذلك عده الدكتور طه حسين "أصدق مرآة للحياة الجاهلية" و"أصدق تمثيلا للحياة الدينية عند العرب من هذا الشعر الذي يسمونه الجاهلي" والقرآن "لا يمثل الحياة الدينية وحدها وإنما" يمثل حياة عقلية قوية " ويدل على أن الثورة التي جاء بها الإسلام لم تكن ثورة دين ليس غير، وإنما كانت ثورة دين وسياسة واقتصاد" وانتهى إلى "أن الحياة العربية الجاهلية في القرآن أنفع وأجدى من التماسها" في الأدب القديم لأن كتاب الله "أصدق مرآة للعصر الجاهلي" وأن "نصه ثابت لا سبيل إلى الشك فيه"[21].

وهذا حق لأن كتاب الله"لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه" وإنما هو تنزيل من رب العالمين، ولأنه نزل بلغة عربية بلغت مرحلة كبيرة من التطور وكانت ذات قدرة على التعبير عن معاني الحياة وكرمها الله بقرآنه لتخلد خلود البشرية.

فاللغة العربية قبل نزول القرآن الكريم وبعده كانت لغة حضارة ولكنها لم تتوقف عن النمو وإنما سايرت متغيرات الحياة وعبرت عن المستجدات فكانت لغة السياسة، والاقتصاد، والاجتماع، كما كانت وسيلة اتصال بين العرب والعالم، وأهم ركن من أركان وحدة العرب.

---

[21] ـ في الأدب الجاهلي ص 77 ـ 88.

ويتجلى دور اللغة العربية في الإشعاع الحضاري في:

أولاً: التأليف باللغة العربية إذ منذ أن بسط الإسلام نوره على العالم القديم بدأ التأليف بهذه اللغة الكريمة التي نزل بها القرآن الكريم فالمسلم في أقاصي المشرق وأقاصي المغرب كان يضع كتب الآداب والعلوم والفنون بالعربية، لأنها لغة استوعبت مستجدات الحياة وطبعت الحضارة بطابعها. وكان الاعتزاز بها عظيماً لذلك قال البيروني في مقدمة كتابه ((الصيدنة)): ((وإلى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم فازدانت وحلّت في الأفئدة وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين والأوردة.)) ثم قال: ((والهجو بالعربية أحب إلي من المدح بالفارسية، وسيعرف مصداق قولي وتأمل كتاب علم قد نقل إلى الفارسية كيف ذهب رونقه وكسف باله واسود وجهه وزال الانتفاع به، إذ لا تصلح هذه اللغة إلاّ للأخبار الكروية والأسمار الليلية))[22].

وقال الزمخشري في مقدمة كتابه: ((المفصل)): ((الله أحمد على أن جعلني من علماء العربية، وجبلني على الغضب للعرب والعصبية، وأبى لي أن أنفرد من صميم أنصارهم وأمتاز، وأنضوي إلى لفيف الشعوبية وأنحان))[23].

واستمر التأليف بالعربية حتى الوقت الحاضر وأصبحت لغة العلم والحضارة الجديدة التي أقامها العرب بعد استلهامهم تراث عصور ازدهار حضارتهم والأخذ بحضارات الأمم والشعوب الحديثة.

---

[22] ـ مقدمة الكتاب الصيدنة.

[23] ـ المفصل ص2.

وكان للكتب العربية القديمة أثر في النهضة الأوروبية، قال الدكتور غوستاف لوبون: ((إن العرب وحدهم كانوا أساتذة الأمم النصرانية عدة قرون وأننا لم نطلع على علوم قدماء اليونان والرومان إلاّ بفضل العرب وأن التعليم في جامعاتنا لم يستغن عما نقل إلى لغاتنا من مؤلفات العرب إلاّ في الأزمنة الحاضرة))[24].

وهذا حق، فكتاب ((الشعر)) لأرسطو - مثلا - عرف في أوربة في ((العصور الوسطى عن طريق تلخيص ابن رشد الذي ترجمه هرمن الألماني في القرن الثالث عشر))[25].

وقد نشطت ترجمة الكتب العربية إلى اللغات الأوربية في القرن الحادي عشر، وكان ((مكتب في طليطلة بدأ منذ سنة 1130 م بنقل أهم كتب العرب إلى اللغة اللاتينية تحت رعاية رئيس الأساقفة ريمون، وأن أعماله في الترجمة كللت بالنجاح ما بدا للعرب بها عالم جديد.

ولم يتوان الغرب في أمر هذه الترجمة في القرن الثاني عشر، والقرن الثالث عشر، والقرن الرابع عشر من الميلاد. ولم يقتصر الغرب على ترجمة مؤلفات علماء العرب كالرازي وأبي القاسم وابن رشد إلى اللغة اللاتينية، بل نقلت إليها كتب علماء اليونان التي كان المسلمون قد ترجموها إلى لغتهم الخاصة ككتب جالينوس وبقراط وأفلاطون وأرسطو وإقليدس وأرشميدس وبطليموس)) ولذلك قال لوبون: ((والحق أن القرون الوسطى لم تعرف كتب العالم اليوناني القديم إلاّ من ترجمتها إلى لغة أتباع محمد، وبفضل هذه الترجمة اطلعنا على محتويات كتب اليونان

---

[24] ـ حضارة العرب ص 437.

[25] ـ فن الشعر ـ التصدير ص 13.

التي ضاع أصلها ككتاب أبلونيوس في المخروطات وشرح جالينوس في الأمراض السارية ورسالة أرسطو في الحجارة))[26].

وكان اهتمام أوربة بترجمة الكتب العلمية أكثر من اهتمامها بغيرها ولذلك عنيت بترجمة كتب الفلك والطب والفيزياء والكيمياء والرياضيات وأصبحت بين أيدي الدارسين وطلبة الجامعات كتب البتاني والخوارزمي والرازي وابن سينا وابن الهيثم وجابر بن حيان وابن النفيس والزهراوي وغيرهم، فضلا عن ترجمة بعض الأشعار العربية وكتب العلوم الإنسانية ولاسيما مقدمة ابن خلدون وغيرها من كتب المسالك والممالك التي خدمت أوربة في تحقيق أهدافها[27].

ثانيا: الاستعانة بالمصطلحات العلمية والألفاظ الحضارية العربية وقد تأثرت كثير من اللغات الغربية والشرقية باللغة العربية، ودخلت فيها ألفاظ عربية كثيرة. قال غوستاف لوبون: "اللغة العربية ذات أثر عميق في اللغات اللاتينية وقد ألف دوزي وانجلمن معجما في الكلمات الإسبانية والبرتغالية المشتقة من اللغة العربية. وتركت لغة العرب أثرا مهما في الفرنسية نفسها وذكر سيديو - والحق ما ذكر - أن اللهجات السائدة لولاية (أوفرن) وولاية (ليموزان) الفرنسيتين محشوة بالكلمات العربية وأن

---

[26] ـ حضارة العرب ص 567 ـ568.

[27] ـ تنظر أمثلة للكتب المترجمة إلى اللغات الأوربية في:

حضارة العرب ص 457 وما بعدها، العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي في عدة أماكن، العلوم عند العرب ص 63، تاريخ العلوم عند العرب ص 408، تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ص 100 وما بعدها.

أسماء الأعلام فيها ذات مسحة عربية. ومن الطبيعي أن تقتبس فرنسا وإيطاليا من العرب الذين كانوا سادة البحر المتوسط منذ القرن الثامن من الميلاد أكثر الاصطلاحات البحرية... وأن تقتبس جيوشهما ألقاب ضباط جيوش المسلمين وتعابير وغى الحرب... وأن تأخذ عن حكومة بغداد وحكومة قرطبة التعابير الإدارية... وأن يقلد ملوك الأسرة الثالثة الفرنسية العرب في كل شيء فيأخذوا عنهم معظم اصطلاحات الصيد... وأهم من ذلك كله اصطلاحات العلوم التي اقتبسناها من العرب، فعلم الفلك عندنا مملوء بالتعابير العربية وبالمصطلاحات العربية لأجزاء الاسطرلاب وبأسماء الكواكب، وقل مثل ذلك عن الرياضيات حيث أخذنا عن العرب الاصطلاحات وقل مثله عن الكيمياء حيث أخذنا الاصطلاحات، وقل كذلك في التاريخ الطبيعي والطب حيث أخذنا عنهم الاصطلاحات))[28].

وقالت المستشرقة الألمانية زيغرد هونكه: ((أجل إن في لغتنا كلمات عديدة، وإننا لندين - والتاريخ شاهد على ذلك - في كثير من أسباب الحياة الحاضرة للعرب. وكم أخذنا عنهم من حاجات وأشياء زينت حياتنا بزخرفة محببة إلى النفوس، وألقت أضواء باهرة جميلة على عالمنا الرتيب الذي كان يوما من الأيام قاتما كالحا باهتا وزركشته بالتوابل الطيبة النكهة وطيبته بالعبير العابق وأحيانا باللون الساحر وزادته صحة وجمالا وأناقة وروعة))[29]. وذكرت في كتابها ((شمس العرب تسطع على الغرب)) كثيرا من الألفاظ العلمية والحضارية التي دخلت اللغة الألمانية

---

[28] ـ حضارة العرب ص441.

[29] ـ شمس العرب تسطع على الغرب ص 25.

منها الفلكية والطبية والنباتية والحيوانية والرياضية والملاحية[30]، وذكرت أن العربية أصبحت زينة للملابس في أوربة، إذا كان معطف القيصر الألماني هاينرش السادس مزينا بنخلة وأسد وجمل وقد كتب على حافته باللغة العربية: ((بمصنع الملك مقر الشرف والحظ السعيد مقر الخير والكمال، مقر الجدارة والمجد في مدينة صقلية عام 528 هـ))[31].

وكانت اللغة العربية قد دخلت صقلية مع العرب المسلمين، يقول غوستاف لوبون: ((كانت إمامة الثقافة والصناعة للمسلمين فأخذ روجر يحافظ عليهم أحسن المحافظة، وكانت مراسيم روجر تكتب بالعربية واليونانية واللاتينية، وكان نصف الكتابة في دائرة نقوده بالعربية والنصف الآخر باليونانية أو اللاتينية))[32].

وأثرت العربية في اللغة المالطية، أما البربرية فيتألف نحو ثلثها التي ((يتكلم بها سكان منطقة القبائل الكبرى من كلمات عربية))[33]، وقد أثبت ذلك الباحثون ومنهم الدكتور محمد المختار العرباوي في بحثه ((اللغة البربرية لغة عربية قديمة))[34]. وكان تأثيرها أعظم في اللغات الإسلامية يقول براون: ((نجد أن الشعوب التي اعتنقت الإسلام قد غمرها سيل من الألفاظ العربية يتكون من العبارات الغنية المتعلقة بالدين والفقه، ثم من مصطلحات العلوم الوضعية التي نشأت في ظل الحضارة الإسلامية، ثم

---

[30] ـ المصدر نفسه ص17، 52، 56، 118، 558.

[31] ـ المصدر نفسه ص 409، 575.

[32] ـ حضارة العرب ص 308.

[33] ـ حضارة العرب ص 247.

[34] ـ اللغة البربرية لغة عربية قديمة (مجلة المجمع العلمي ـ بغداد). الجزء الثالث سنة 1420 هـ ـ 1999م.

مجموعة من الألفاظ استطاعت أن تحل محل الكلمات الأصليـة في لغـات هذه الشعوب))[35]، ثم قال: ((والعربية في الحقيقة من أصلح اللغات لتأدية الأغـراض العلميـة، فـهي غنيـة بـالأصول والمشـتقات الناتجـة عـن هـذه الأصول. والمشتقات فيها كثيرة، وهي تتفق مع الأصل في اتصالها بـه مـن حيث المعنى، وإن تحور معناها قليلا بحسب اشتقاقها أو صياغتها))[36].

هذا ما كان من أمر تأثير اللغة العربية في اللغـات الغربيـة كالإسـبانية والبرتغالية والألمانية والانجليزية والمالطية، أما في الشرق فقد حفلت اللغة التركية بكثير من الألفاظ العربية ومثلها اللغة الأوردية. وكان تأثير العربية في الفارسية أكثر، قال لوبون: ((وثبت تأثير العرب في الفرس من اعتنـاق الفرس لدين العرب ونظمهم، ومن شيوع اللغة العربية بينهم شـيوع اللغـة اللاتينية في أوربة في القرون الوسطى، وذلك من غير أن تكون لغـة البـلاد الدارجة كما ثبت من استمرار الفرس إلى الوقت الحـاضر علـى تلقـي علـم التوحيد والعلوم الأخرى من كتب العرب))[37].

وصارت الكتابة باللغة الفارسية المجردة من الألفاظ العربية عسيرة لأن معظم الألفاظ الحضارية عربية النجار، يقول المستشرق الإنكليزي بـراون: ((لو أن أحدا أراد أن يكتب شيئا بالفارسية بحيث تكون كتابته خلوا من الألفاظ العربية لتعسر عليه الأمر كما يتعسـر علـى الـذي يريـد أن يكتـب

---

[35] ـ تاريخ الأدب في إيران ص14.

[36] ـ المصدر نفسه ص 16.

[37] ـ حضارة العرب ص 182.

شيئا بالإنكليزية بحيث تكون كتابته خالية من كل كلمة يرجع اشتقاقها إلى أصل يوناني أو لاتيني أو فرنسي))[38].

وتعد معرفة اللغة العربية مدخلا لإتقان اللغات الإسلامية، يقول براون: ((فما لامراء فيه أن معرفة العربية ضرورية لكل من يحاول أن يتفقه في لغات البلاد الإسلامية أو آدابها كالفارسية والتركية والأردية أو أية لغة أخرى يتحدث بها المسلمون في أنحاء الأرض. ومن المحقق قطعا أنه كلما ازدادت معرفتنا بالعربية كلما ازداد مقدار تذوقنا لما نعرض له من آداب اللغات الإسلامية الأخرى))[39].

ثالثا: التأثر بإيقاع الشعر العربي الذي ينجم من انسجام تراكيبه وقوافيه، وقد أثبت الباحثون أن الشعر الأوربي والسرياني والعبري تأثر بأوزان الشعر العربي وقوافيه، يقول لوبون: ((إن الأوربيين اقتبسوا فن القافية من العرب، ودلت مباحث فياردو وغيره من الكتاب الكثيرين على هذا الأمر الذي كان الأسقف هويه بيّنه منذ زمن طويل))[40].

وذكرت الدكتورة زيغرد هونكه أن الشعراء الغنائيين أخذوا ((عن الأوزان وألقوا في العربية وعن كل طابع مميز للشعر الأندلسي))[41]. وكان لوبون قد قال: ((ويعزى الشعر الإسباني والشعر البروفنسي إلى ما كان لشعراء الأندلس من التأثير))[42].

---

[38] ـ تاريخ الأدب في إيران ص 14.

[39] ـ المصدر نفسه ص 17.

[40] ـ حضارة العرب ص 448.

[41] ـ شمس العرب تسطع على الغرب ص 510.

[42] ـ حضارة العرب ص 448.

ودرس الدكتور محمـــد عونـي عبـد الـرؤوف أثـر أوزان الشـعر العربـي وقوافيه في الشعر السرياني والعبري وأوضح ذلك التأثير في كتابيه ((القافية والأصوات اللغوية))[43] و((بدايات الشعر العربي))[44].

رابعا: اتخاذ مناهج علوم اللغة العربية في تأليف الكتب اللغوية، ومن ذلك تأثر النحو العبري بالنحو العربي، إذ أن النموذج العربـي هـو الـذي احتذاه العبرانيون وإنه كان الحافز لنحاة العبرانية علـى تـأليف كتبـهم، وأن كتب اليهود النحوية الأولى كتبت بالعربيـة واسـتخدمت مصطلحـات النحـو العربـي، واتبعـت النسـق الـذي كـان النحـاة العـرب يتبعونـه في كتبهم[45]. تأثرت علـوم اللغـة الفارسـية بعلـوم اللغـة العربيـة ونحـا المؤلفـون بالفارسية منحى العـرب، ومـن أوضـح ذلـك كتـب البلاغـة مثـل كتـاب ((ترجمان البلاغة)) لمحمد بن عمران الرادويـاني، و((حدائـق السـحر في دقائق الشعر)) لرشيد الدين الوطواط. وقد نحا المؤلفان في كتابيهما منحـى البلاغيين العرب في المصطلحات والتقسيم والشرح والشاهد[46].

خامسا: اتخاذ بعض اللغات كالتركيـة القديمـة والفارسـية والأورديـة وبعض اللغات الإسلامية الأخرى الحرف العربي وسيلة للكتابة، ولم يقف الأمر عند هذا، وإنما كان الخط العربي من مظـاهر الحضـارة لـدى بعـض الشعوب إذ بلغ من ((الصلاح للزينة ما كان رجال الفـن مـن النصـارى في

---

[43] ـ تنظر ص ـ د، 43، 50، 60، 74، 190.

[44] ـ تنظر ص 16، 21.

[45] ـ ينظر علم اللغة ص 101، 357، البحث اللغوي عند العرب ص 50، النحو العربي وأثره في النحو العبري ص 5 ـ 20، مسالك الدرس الشعوبي في اللغة العربية ص 23.

[46] ـ ينظر بحوث بلاغية ص 274 وما بعدها.

القرون الوسطى وفي عصر النهضة يكثرون معه من استنساخ مـا كـان يقـع تحت أيديهم اتفاقا من قطع الكتابات العربية على المباني المسيحية تزيينا لها))[47].

سادسا: اتخاذ الرقم العربي بشكليه وسيلة للعد والحساب، ولا سـيما المستعمل في معظـم الأقطـار العربيـة والـدول الإسـلامية لأنـه ينسـجم مـع الحرف العربي، أما الآخر فقد طوّع للحـرف اللاتيـني واسـتعملته بعـض الأقطار العربية ومعظم دول العالم.

هذه أهم المظاهر الحضارية التي تجلت في اللغة العربيـة وكـان دورهـا كبيرا في الإشعاع الحضاري عبر العصور، وقد اتضحت فيها ملامح ارتباط لغة القرآن الكريم بالحضارة، ومن أبرز تلك الملامح:

الأول: أن اللغة العربية ارتبطت بالحضارة وعبرت عنها، ومـا وصـل من شعر، وخطب وحكم وأمثال يؤيد ذلك وكان هذا الأدب صورة للحيـاة العربية وللحضارة التي عاش في ظلها العرب قبل الإسلام.

الثاني: أن اللغة العربية خطت خطوات واسعة بنزول القـرآن الكريـم فـازدهرت ألفاظـا ودلالات وأسـاليب وصـورا، وبـدأت الألفـاظ القرآنيـة بدلالاتها الجديدة تدخل معجم الشعراء والخطباء، والمتحدثين، وتكسـبهم انطلاقة في التعبير عن الحياة الجديدة.

الثالث: أن اللغة العربية دخلت في العصر الأموي مرحلة أكثر نضجـا مـن المراحـل السـابقة في الأدب والتدويـن وواجـهت الثقافـات الأجنبيـة

---

[47] ـ حضارة العرب ص 531.

وترجمة بعض العلوم واستطاع المترجمون أن يلائموا بين العربية والصنائع من طب وكيمياء.

الرابع: أن اللغة العربية بدأت تنمو وتزدهر في العصر العباسي لتعبر عن الحياة التي حفلت بكثير من مظاهر الحضارة، ولا سيما بعد أن اتسعت الدولة العربية الإسلامية وبعد أن اتصل العرب بشعوب وحضارات كثيرة. واستطاعت اللغة العربية أن تستوعب الجديد، وظهرت الكتب المؤلفة والمترجمة بمختلف العلوم والفنون في ذلك العصر وكان للترجمة إلى العربية فضل لا ينكر إذ أنها دفعت المترجمين إلى البحث عن الألفاظ الأجنبية في ترجماتهم لعجزهم عن إيجاد لفظ عربي مقابل، أخذ المترجمون بعد ذلك يذكرون مصطلحات وألفاظا عربية مقابل الأجنبي الذي ذكر في الترجمات الأولى. وهذه نقلة كبيرة في الترجمة تدل على ما في العربية من قدرة على استيعاب الجديد بما لها من خصائص تفتح الطريق لمن يريد أن يكتب أو يترجم بأسلوب عربي مبين.

الخامس: أن اللغة العربية ظلت قادرة على التعبير عن الحضارة في أحلك الظروف التي مرّ بها العرب. فبعد احتلال المغول لبغداد عام 656 للهجرة وسقوط الدولة العباسية لم تتوقف حركة البحث والتأليف وكان على اللغة أن تواكب تلك الحركة وأن تعبر عن الواقع الفكري والحضاري في تلك العهود.

السادس: أن اللغة العربية تمت وازدهرت في القرن العشرين ازدهارا جعلها قادرة على استيعاب المستجدات والتعبير عن مظاهر الحضارة الجديدة. وكان لاتصال العرب بالعالم أثر كبير في ازدهار الحضارة وازدهار

العربية ألفاظا وأساليب، وتعبيرها عن الآداب والعلوم والفنون ومظاهر الحياة المختلفة وبذلك أظهر تأريخها أنها لم تكن لغة أدب فحسب وإنما هي لغة حضارة وعلوم وفنون وأنها قادرة على أن تواكب التقدم العلمي والتطور الحضاري إلى ما شاء الله، لأنها تحمل في ذاتها عوامل نموها وازدهارها ولذلك يصح القول: "أنها لغة حضارة وعمران".

وما أصدق المستشرق يوهان فك حينما قال: "إن العربية الفصحى لتدين حتى يومنا هذا بمركزها العالمي أساسيا لهذه الحقيقة الثابتة وهي أنها قامت في جميع البلدان العربية وما عداها من الأقاليم الداخلة في المحيط الإسلامي رمزا لغويا لوحدة عالم الإسلام في الثقافة والمدنية. ولقد برهن جبروت التراث العربي الخالد على أنه أقوى من كل محاولة يقصد بها إلى زحزحة العربية الفصحى عن مقامها المسيطر وإذا صدقت البوادر ولم تخطئ الدلائل فستحتفظ أيضا بهذا المقام العتيد من حيث هي لغة المدنية الإسلامية ما بقيت هناك مدنية إسلامية"[48].

---

[48] ـ العربية ص 234.

المصادر:

1- أدب السياسة في العصر الأموي - الدكتور أحمد الحـوفي . القـاهرة 1960 م.

2- ألفاظ الحياة الثقافية في مؤلفات أبي حيـان التوحيـدي- الدكتـورة طيبة صالح الشذر. القاهرة 1409 هـ- 1989م.

3- البحث اللغوي عند العرب - الدكتور أحمـد مختـار عمـر. القـاهرة 1971 م.

4- بحوث بلاغية - الدكتور أحمد مطلوب. بغداد 1417 هـ- 1996 م.

5- بدايات الشعر العربي بين الكم والكيف - الدكتور محمد عوني عبد الرؤوف . القاهرة 1976م.

6- البيان والتبيين - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ- تحقيـق عبـد السلام محمد هارون. القاهرة 1367 هـ- 1948م.

7- تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي- أدوارد جرانفيل براون - ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربي. القاهرة 1373 هـ - 1954م.

8- تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني- أحمـد الشـايب. الطبعة الثانية - القاهرة 1953م.

9- تاريخ العلم ودور العلماء العـرب في تقدمـه - الدكتـور عبـد الحليـم منتصر. الطبعة الرابعة - القاهرة 1971 م.

10- تاريخ العلوم عند العرب - الدكتور عمر فـروخ. الطبعـة الثالثـة - بيروت 1980م.

11- الحضارة (الموسم الثقافي للمجمع العلمي عام 1996م) بغـداد 1418 هـ -1997م.

12- حضارة العرب - الدكتور غوستاف لوبون - ترجمة عادل زعيتر - القاهرة.

13- الحياة العربية من الشعر الجاهلي - الدكتور أحمد محمد الحوفي. الطبعة الخامسة - القاهرة 1972م.

14- الحيوان - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ- تحقيق عبد السلام محمد هارون. القاهرة 1356 هـ- 1938.

15- شمس العرب تسطع على الغرب (أثر الحضارة العربية في أوربـة) - الدكتورة زيغرد هونكه. ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، ومراجعـة مارون عيسى الخوري. الطبعة الثالثة - بيروت 1979 م.

16- الصاحبي - أحمد بن فارس. تحقيق الدكتور مصطفـى الشـويمي. بيروت 1383 هـ - 1964م.

17- الصيدنة - أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني - مخطوط.

18- طبقات فحول الشعراء - ابـن سـلام الجمحـي - تحقيـق محمـود محمد شاكر. القاهرة 1393 هـ- 1974 م.

19- العربية - يوهان فك. ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار. القـاهرة 1370 هـ - 1951م.

20- العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي - الدومييلي. ترجمـة الدكتور عبد الحليم النجار والدكتور محمد يوسف موسى. القاهرة 1381 هـ - 1962م.

21– علم اللغة – الدكتور محمود السعران. القاهرة 1962م.

22– الغزل في العصر الجاهلي – الدكتور أحمد محمد الحـوفي. الطبعـة الثانية – القاهرة.

23– فقه اللغة – أبو منصور الثعالبي – تحقيق مصطفى السقا وابراهيـم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي. الطبعة الثانية – القاهرة 1373 هـ – 1954م.

24– الفهرست – ابن النديم. تحقيق رضا تجدد – طهران.

25– في الأدب الجاهلي – الدكتور طه حسين. الطبعة الرابعة – القاهرة 1947م.

26– القافية والأصوات اللغوية – الدكتور طه حسين. الطبعة الرابعـة – القاهرة 1947م.

27– اللغـة البربريـة لغـة عربيـة قديمـة – الدكتـور محمـد المختـار العرباوي. (مجلة المجمـع العلمـي – بغـداد – الجـزء الثـالث 1420 هـ – 1999م.

28– اللغة والحضارة – الدكتور مصطفى مندور. الاسكندرية 1974م.

29– المؤلفات الكاملة – زكي الأرسوزي. دمشق 1973م.

30– المرأة في الشعر الجاهلي – الدكتور أحمد محمـد الحـوفي. القـاهرة 1980م.

31– مسالك الدس الشعوبي في اللغة العربية – الدكتور أحمد مطلـوب. (مجلة الضاد – بغداد – الجزء الثاني 1409 هـ – 1989م.

32– معجم ألفاظ الحياة الاجتماعية في دواوين شعراء المعلقات العشـر. الدكتورة ندى عبد الرحمن الشايع. بيروت 1991م.

33- معجم الملابس في لسان العرب - الدكتور أحمد مطلوب. بيروت 1995.

34- المفصل في علم العربية - محمود بن عمر الزمخشري. الطبعة الثانية - دار الجيل - بيروت.

35- مقدمة ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون. دار الكشاف - بيروت.

36- النثر الفني في القرن الرابع - الدكتور زكي مبارك. الطبعة الثانية - القاهرة 1376 هـ - 1957م.

37- النحو العربي وأثره في النحو العبري - الدكتور محمد حسن ابراهيم. (مجلة مجمع اللغة العربية الأردني)- السنة الخامسة ج 17- 18 سنة 1403 هـ - 1982م.

المرتكزات اللسانية لتعليمية اللغة العربية في وسط تعدد الثقافات واللغات

الدكتور، أحمد حساني

كلية الآداب واللغات والفنون

جامعة وهران.

إن الحديث عن مكانة اللغة العربية بين اللغات العالمية يقتضي بالضرورة، الحديث عن المتكلم النموذج للسان العربي في الخريطة السياسية والاقتصادية والثقافية العالمية الجديدة التي تشكل فضاء لتداخل اللغات والثقافات وتفاعلها تفاعلا يتجاوز قدرات المتكلم الأحادي اللغة.

لا يمكن للناطق المثالي للسان العربي أن يخترق مجال التعدد اللغوي والثقافي، في أفق الوضع العالمي الحالي والمستقبلي، بعزل عن لغته التي تفاعلت عبر مسارها الطويل بالحمولة الحضارية والثقافية التي تؤطره لإيجاد الحيز الذي يمكن له أن يحتله، بجدارة وبفاعلية، ليسهم في تشكل الحضارة العالمية.

لابد من التفكير، حينئذ، وبجدية في وضع استراتيجية قائمة على أسس علمية مجردة من أي نزعة ذاتية أو عاطفية، تأخذ بعين الاعتبار واقع اللغة العربية وهي تواجه تيارين جارفين: أحدهما تيار اللغات الأجنبية، وأحدهما الآخر تيار اللهجات المحلية التي تنتشر بسرعة في المجتمعات العربية على اختلافها بفعل الحافز التداولي ووسائل الإعلام المختلفة، بتزكية من بعض المؤسسات العالمية التي تسعى لجعل اللهجات المحلية بدائل حية للغة العربية التي تنعت عندهم باللغة الكلاسيكية.

لاوجود للغة العربية العالمية المتوخاة إلا بوجود اللغات الأجنبية التي تنافسها في المد الحضاري والعلمي والتكنولوجي، ولا يمكن للغة العربية أن توصف بالعالمية إلا بتعايشها مع هذه اللغات ، وتفاعلها معها، واحتوائها لكثير من مكوناتها الصوتية والتركيبية والدلالية كما فعلت مع لغات أخرى في مسارها الحضاري الطويل.

ولتحقيق هذا التكيف والاحتواء في الآن نفسه، داخل فضاء تعدد اللغات والثقافات الذي أصبح حقيقة يفرضها الواقع العالمي الحالي والمستقبلي، لابد من أن تنصرف الجهود والهمم إلى إعادة النظر في الطرائق التعليمية والبيداغوجية السائدة في المؤسسات التعليمية العربية التي تركز في أهدافها على النموذج المتكلم الأحادي اللغة الذي هو في تقهقر مستمر سينتهي به لا محالة إلى التخلي عن دوره الحضاري المنتظر.

وما كان ذلك إلا لأن القرن الحالي يتميز بتحديات كبيرة ومعقدة؛ لأنه زمن العولمة والتكنولوجيا المتقدمة والمعلوماتية المكثفة والمعارف المتفجرة ، وهو يحمل توترات بعيدة الأثر يتعين علينا تذليلها والتكيف معها ولا يتيسر لنا ذلك إلا بالإدراك الواعي لمجموعة من التناقضات:

بين العالمي والمحلي

بين الجماعي والفردي

بين الأصالة والمعاصرة

بين التقليد والحداثة

بين المنافسة وتكافؤ الفرص

بين التوسع غير النهائي للمعارف وقدرة البشر المحدودة على استيعابها.

وانطلاقا من هذه الخصوصيات فإن تعليم اللغات بعامة واللغة العربية بخاصة، يجب أن يكون مختلفا في أهدافه ومضامينه، وفي طرائقه وأساليبه عن التعليم في القرن الماضي، يجب أن توجه الاهتمامات إلى تنمية القدرات الإنسانية في أرقى مستوياتها ليكون

الإنسان مبدعا ومنتجا ومتكيفا مع الغير. وقد أخذت منظمة اليونسكو على عاتقها وضع تصور شامل لأهداف التعليم في الألفية الثالثة، فقد حددت في أحد تقاريرها أربعة مرتكزات يقوم عليها التعليم الجديد وهي:

تعـــــلم لتكـــــون

تعـــــلم لتعيـــــش

تعـــــلم كيف تعرف

تعـــــلم كيف تعمـل[1]

وكان ذلك بناء على مقتضيات العولمة التي تعد، من حيث المبدأ، حتمية تاريخية تقتضيها التحولات السياسية والثقافية والاقتصادية الراهنة؛ فهي تفاعل إنساني حضاري، بيد أن خطرها أو وجهها السلبي يكمن في أن الضعفاء يفتقرون إلى الإمكانات الكافية للإسهام في هذا التفاعل، فهم منهزمون منذ البدء ويفقدون التوازن الإعلامي والثقافي والاقتصادي أمام هذه الصدمة الحضارية الوافدة[2].

ومن هنا فإننا ملزمون ومضطرون حضاريا بأن نشارك في دفع آليات هذا التفاعل العالمي لإيجاد التكيف الثقافي في حده الأدنى والضروري على الأقل، فإن لم نفعل ذلك فمصير ثقافتها ولغتنا الانهيار والعدم والزوال

---

[1] ـ تقرير منظمة اليونيسكو: التعليم ذلك الكنز المكنون، مجلة التربية عدد 120 (1997) ص 38 الدوحة، قطر.

[2] ـ محمد صديق محمد حسن، الثقافة العربية وتحديت العولمة، مجلة التربية عدد 128 (1999) ص 72 الدوحة، قطر.

بفعل قوة وسائل الاتصال المركـزة، وأنظمـة المعلومـات المكثفـة، والموجهـة التي يستخدمها العالم الآخر.

ولا يمكن لنا أن نحقق هذه المشاركة، الهادفة والمؤسسة استراتيجيا، إلا بتصفية العناصر الميتة في ثقافتنا التي تعوق مدنـا الحضـاري في أصفـى صوره والتي تشـدنا إليـها شـدا يكـون هـذا الشـد في كثـير مـن الأحيـان مجحفا في حق الأجيال المتعاقبة ؛فالضرورة الحضارية تسـتدعي الارتكـاز بوعـي عميـق علـى المنطلقـات الحيـة، والمرتكـزات الفاعلـة في ذاكرتنـا الثقافية، وتوظيفـها توظيفـا يتماشـى مـع مقتضيـات التفـاعل الحضـاري العالمي الجديد.

ولتحقيق الانسجام لغويا مع الوضع العالمي الجديد لابد من:

1ـ تجديـد منطلقـات البحـث العلمـي في مجـال تعليميـة اللغـات وتشجيع التفكير النقدي التحليلي النوعي والانتقال بوعي مـن التنظـير إلى التطبيق.

2ـ التركيز علـى الدراسـات المسـتقبلية بـدلا مـن التركـيز علـى ثقـل الماضي؛ لأن مستقبل اللغـة العربيـة مرتبـط بمـدى قدرتـها علـى مشـاركة اللغات الأخرى في تحقيق التواصل الإنساني العالمي.

3ـ توفير ظروف التفاعل اللغوي وتهيئة شروطه بتجاوز الانغـلاق الثقافي والانطواء الحضاري والدخول في مواجهة من موقـع قـوة ، وذلـك لا يتحقق إلا بوجود تصور عربي موحـد وطويـل الأمـد لنظـام التعليـم بعامـة وتعليم اللغة العربية بخاصة.

4 ــ النظر إلى اللغة العربية على أنها نتاج حضاري إنساني هي لنا من ناحية كما أنها لغيرنا من ناحية أخرى ومن ثمة فإن ترقية هذه اللغة وتحديث الوسائل لنشرها هو ضرورة حضارية أيضا ، ومظهر من مظاهر التعايش الثقافي والتواصل اللغوي الإنساني السامي.

ولنا أسوة حسنة في أسلافنا الذين وضعوا الأرضية التاريخية للتعايش والحوار والانفتاح لغويا على مجتمعات أخرى، وتعد الحضارة الإسلامية من أولى الحضارات التي استقت من الحضارات الأخرى وأضافت إليها.

ولتحقيق هذه الأهداف الحضارية لابد من اعتماد استراتيجية تنطلق من تنظيم لنسق من الفعاليات الإلزامية المتكاملة في إطار الزمان والمكان، و السعي المستمر والمحدد والواضح من أجل تحقيق أهداف ورغبات محددة وواضحة المعالم. ولا يمكن لهذه العناصر أن تكتمل وأن تتفاعل فيما بينها إلا بارتكازها على الأبعاد التالية:

1ــ البعد المستقبلي لتعليم اللغة ؛ وهو تصور مستقبلي لترقية طرائق تعليم اللغة وتحديد أهدافها تحديدا قائما على دراسات مستقبلية جادة تأخذ بعين الاعتبار التحولات المتوقعة لأنظمة التواصل البشري اللغوي وغير اللغوي.

2ــ البعد الابتكاري والإبداعي في العملية التعليمية بعامة ، وتعليم اللغة بخاصة، وتلك ضرورة يقتضيها الحاضر والمستقبل معا.

3ــ البعد التطوري المستمر للسياسة التعليميــة الـتي ينبغـي أن تسـاير التطور العلمي بكل تجلياته، ومحاولة إيجاد التفسير العلمي الكــافي لكثـير من المشاكل لتحقيق التكيف مع المستحدثات الجديدة.

4ــ البعد التطبيقي والتجريبي للمعطيات العلمية باسـتثمارها عمليـا في تيسير سبل تطوير مناهج اللغة في فضاء تعدد اللغات والثقافات[3].

أضحى التعدد اللغوي والثقافي، إذن، ضرورة مـن ضـرورات الحيـاة المعاصرة في زمن المعلوماتية وتفجر المعرفة وتقــدم وسـائل الاتصـال. واللغـة العربية كغيرها من اللغات الأخرى تعــترض سـبيلها بعـض العوائـق الـتي تحول دون نشرها بيسر في أنظمة التواصل العالمي. منها:

1ــ عوائق ذاتية خاصة بنظام اللغة العربية نفســه (النظـام القواعـدي) الذي يطرح مشاكل تعليمية حقيقية ولا يمكن تجاوز هذه المشاكل والتغلب عليها إلا بالقيام بخطوة جريئة نحو إعـادة النظـر في ضوابـط اللغـة ونظـام قواعدها (الصوت ــ مورفولوجية والتركيبية) لتيسير تعليمها.

2ــ عوائق خارجية ترتد إلى واقع الأمة الناطقة باللغــة العربيــة الـتي تواجه أزمات صعبة على مستوى الحضور في الخريطــة السياسـية العالميـة وعلـى مسـتوى تشــكل البنيــة الثقافيــة والاجتماعيــة ومبــدأ الهويــة والتناقضات في الأنظمة الاقتصادية.

---

[3]ـ د، علي وطفة، واقع الاصطلاح التربوي القطري، مجلة التربية عـدد 128 (1999) ص 102 الدوحة، قطر

ومن هنا تستدعي الضرورة الاهتمام أكثر بترقيـة اللغـة العربيـة علـى المستوى التعليمي والبيداغوجي والحضاري بشكل عام، ولتحقيق ذلك لابد من اتخاذ الإجراءات التالية:

أولا: إعادة النظر في المناهج والطرائق المستخدمة في تعليم اللغة العربيـة للناطقين بها ولغير الناطقين ، والحرص الشديد على تحديثـها وعصرنتـها بناء على المتغيرات المتسارعة في العلوم والمعارف الإنسانية.

ثانيا: تنمية التفكير العلمي لدى المتكلم المثالي للسـان العربـي، لتوطئـة كل السبل من أجل الوصول إلى مصادر المعلومات ومعالجتها وتقويمها وفرز عناصرها الفاعلة في حركة التوالد المعرفي الجديد للإسهام فيه أو تصحيـح معارف سابقة.

ثالثا: استثمار التطور الهائل في مجـال الاتصـال والشـبكات الإعلاميـة والمعلوماتية العالمية وترقية آليـات التواصـل بـين أفـراد المجتمـع البشـري للوصول إلى المعلومات الصحيحة وتوظيفها توظيفـا صحيحـا، لتذليـل كـل الصعوبات والعوائق التي تعترض المستخدم للسان العربي.

رابعا: تجنب الجدل العقيم الذي يتبـدى في تلـك الخلافـات النحويـة والصرفية التي تعيق العملية التعليمية الصحيحة.

خامسا: إحياء الشاهد النحوي بربطـه بـالواقع اللغـوي الـذي يحيـط بالعملية التعليمية لأن اللغة استعمال وممارسة، وما دامت كذلك لابد مـن التخلص من الشواهد الميتـة المحنطـة الـتي لا صلـة لهـا بـالواقع العربـي الحديث

اللغة العربية في نظر الآخر

إن الاهتمام باللغة العربية قديم بقدم البحث اللساني نفسه، إذ ما فتئت تكون مركز استقطاب في الدراسات المقارنة بوصفها لغة مركزية في سلالة اللغات السامية. غير أن الاهتمام الذي يعنينا في هذا المقام، هو الاهتمام التعليمي الذي يتبدى في أصفى صورة له في تلك المؤتمرات المتتالية التي عقدت تحت إشراف مؤسسات علمية وثقافية لترقية تعليم اللغة العربية بوصفها لغة أجنبية. نذكر في هذا المقام بعضها:

أولا: نظم مركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة هارفارد في الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1958 ندوة عالمية حول تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، وركز المشاركون في هذه الندوة على خصائص اللغة العربية، من حيث كونها لغة سامية تختلف عن اللغات الهندو أوروبية في بعض جوانبها الصوتية والتركيبية، ووقفوا على الصعوبات التي تعترض سبيل المتعلم الذي يعسر عليه تعلمها وامتلاك آلياتها.

انتهى المشاركون إلى جملة من التوصيات منها:

1ـ التكوين المستمر والخاص لأساتذة اللغة العربية بنفس الدرجة التي يتكون بها أستاذ اللغات الأجنبية الأخرى.

2ـ توفير كل الظروف والوسائل المساعدة بيداغوجيا المستخدمة في تعليم جميع اللغات دون استثناء.

3ـ إدماج المتعلم الأجنبي في الوسط اللغوي العربي عن طريق بعثات تدريبية بالاتفاق مع بعض المؤسسات العربية آنذاك.

ثانيا: نظم معهد الدراسات الإسلامية في مادريد سنة 1959 بمساعدة اليونسكوندوة عالمية لترقية تدريس اللغة العربية للأجانب وحصرت هذه

الندوة مجموعة من المشاكل التي تواجه متعلم اللغــة العربيــة وتعـود هـذه المشاكل في مجملها إلى الأسباب التالية:

1ــ عدم اتباع الطرائق الحديثة في تعليم اللغة العربية.

2ــ عدم وجود منهجية مؤسسة علميا وبيداغوجيـــــا.

3ــ عدم وجود الكتاب المقرر والموحـد الـذي تتوافـر فيـه كـل الشـروط اللسانية والتعليمية والبيداغوجية.

4ــ عـدم وجـود الأسـتاذ الكـفء الـذي يمتلـك المـهارات والخـبرات الكافية للاضطلاع بمهمة التدريس.

وانتهت هذه اللجنة كذلك إلى بعض التوصيات منها:

1ــ الاهتمام بجمع رصيد لغوي خاص بالمفردات المتداولة والشـائعة في الصحف والمجلات والإذاعة وأنظمة التواصل اليومي.

2ــ تأليف كتاب تعليمي يأخذ بعين الاعتبار خصوصيات اللغة العربية من جهة وخصوصيات المتعلـم الأجنـبي مـن جهـة أخـرى، ويكـون ذلـك بالإفادة من التجارب العلمية والبيداغوجيــة السـابقة في تعليـم اللغـة لغـير الناطقين بها.

ثالثا: المؤتمـر العربـي الأوروبـي الـذي انعقـد عـام 1977 بمدينـة البندقية (Venise) بإيطاليا لتدارس سبل تيسير تعليــم اللغـة العربيـة في المؤسسـات التعليميـة الأوروبيـة. وقـد أثـارت أعمـال هـذا الملتقـى ضـرورة

استخدام طرائـق حديثـة ووسـائل سمعيـة بصريـة ووضـع كتـب تعليميـة مساعدة يعتمد في تأليفها على خبراء لسانيين و نفسانيين وتربويين.[4]

ومن هنا بدأ الاهتمام العالمي بتعلم اللغة العربية وتعليمها بشـكل يثـير الانتباه فانصرفت جهود المهتمين والخبراء للبحث الجاد بالقيام بدراسـات عميقة لمعرفة السبل التي تساعد على توجيه المتعلمين ومسـاعدتهم لإتقـان اللغة العربية.

ولهذا الاهتمام عوامل متعددة من أهمها ما يلي:

1ـ الثقل السياسي والاقتصادي والثقافي للبلدان العربيـة، وقـد تشـكل هذا الثقل بخاصة بعد أزمة البـترول الـتي أعقبـت حـرب أكتوبـر 1973، وهو الأمر الذي جعل العالم بشرقه وغربه يعيد النظـر في طـرق تعاملـه مـع المجتمع اللغوي العربي.

2ـ دور الجالية العربية والإسلامية في تنمية نزعة الإحسـاس بالهويـة والمميزات الثقافية والحضارية ، ولا يمكن لهذا الوعـي أن يكـون فعـالا إلا عن طريق النموذج اللغوي.

3ـ تطور العلاقات الاقتصادية التي تربط الغرب بالعالم العربي، وهي العلاقات التي لا يمكن لها أبدا أن تكون خارج اللغة.

كان لهذه العوامل، في مجملها، أثر فعال في توسيع دائرة تعلم اللغـة العربية وتعليمها بالإقبال المتزايد لدى الأجانب لتنمية كفايتهم العلمية في مجال البحث اللسـاني مـن جهـة وتنميـة كفايتـهم مـن أجـل الاسـتعمال

---

[4] ـ د، سالم عمار، تعليم اللغة العربية في الجامعات الأوروبية. مجلة التربية عـدد 128 (1999) ص 138 الدوحة، قطر.

الفعلي للغة العربية لتحقيق العلمية التواصلية مع أفـراد المجتمـع العربـي لأغراض مختلفة من جهة أخرى.

ينقسم المتعلمون للغة العربية في العالم غير العربي إلى فئتين:

الفئة الأولى: الجالية العربية والإسلامية.

الفئة الثانية: الأجانب غير المسلمين وتتكون هذه الفئة من مجموعتين :

1ـ مجموعة الدارسـين المتخصصـين المـهتمين بشـكل عـام بالحضـارة العربية الإسلامية.

2ـ مجموعة المتعاملين السياسيين والاقتصاديين مع العالم العربي.

لكن السؤال الذي يطرح لدى كل هذه الفئات هو: ما هي اللغة الـتي نتعلمها؟ اللغة المكتوبة أم اللغة الشـفوية المتداولـة بـالفعل في المجتمعـات العربية؟ أو بعبارة أخرى هـل نتعلـم اللغـة العربيـة الكلاسـيكية أم اللغـة العربية الحية؟

تطرح هذه الأسئلة، وغيرها من الأسـئلة الأخـرى، بحـدة لـدى كـل المهتمين بأمر اللغة العربية تعلمـا وتعليمـا. ومـن ثمـة تعـد الأرضيـة الـتي ترتكز عليها أهداف العملية التعليمية وتختلف هذه الأهداف مـن محيـط تعليمي إلى آخر. إذ نجد المسلمين في إفريقيا وآسـيا بـالخصوص ينصرفـون إلى تعلم اللغة العربية الفصيحة؛ لأنها لغة القرآن الكريـم والحـامل المـادي للحضـارة الإسـلامية، ويعـد امتلاكـها واجبـا دينيـا للشـعور بالانتمـاء إلى الحضارة العربية الإسلامية بكل روافدها.

ومن جهة أخرى نجد الأجانب من غير المسـلمين بخاصـة في أوروبـا يميلون لأغراض تداولية (براغماتية) إلى تعلـم اللـهجات العربيـة المعـاصرة

باعتبارها، في نظرهم، لغة حية وغالبا ما تكون هذه اللغة هي اللهجة المصرية أو بعض اللهجات المغاربية.

ومبرر هؤلاء في ذلك هو أن هذه اللهجات هي النظام التواصلي المتداول بالفعل في المجتمع اللغوي العربي فهي، إذذاك، حقيقة تواصلية واقعية. ومن ثمة فإن من يريد اختراق البنية الثقافية والاجتماعية للمجتمع العربي لابد له من أن يمتلك الوسيلة الميسرة التي تسمح له بالتواصل المباشر مع المتكلم العربي الفعلي في كل ظروف الحياة الاجتماعية.

ونظرا لهذا التوجه الغالب لدى كثير من المؤسسات العلمية العالمية التي تدرج تعليم اللغة العربية في برامجها، يشعر المتعلم العربي أو المسلم غير العربي بخيبة أمل عندما يجد أن العربية المقصودة في المؤسسات التعليمية الأجنبية هي اللهجات دون سواها،ولا يلتفت إلى اللغة العربية الفصحى إلا في إطار التاريخ (تاريخ اللغة وتاريخ الحضارة)

وأمام هذا الانحراف أو التغييب يبحث المتعلم العربي عن البديل، فيلجأ إلى بعض المؤسسات الخاصة التي تضطلع بتدريس اللغة العربية (المساجد والمراكز الثقافية والجمعيات) ولكن عادة ما يكون التعليم في هذه المؤسسات تقليديا في غياب الدعم المالي، وغياب الوسائل البيداغوية الضرورية لتعليم اللغات ، وضعف الخبرة التعليمية والبيداغوجية لدى الأساتذة.

استقصاء في مؤسسة أجنبية (قسم اللغة العربية بجامعة ران Rennes بفرنسا) حول الهدف من تعلم اللغة العربية وموقف هؤلاء جميعا من ثنائية العربية الكلاسيكية والعربية الحية.

فكانت إجابات هؤلاء الأجانب كثيرة ومتعددة نذكر بعضها لأهميته.

ـ نتعلم اللغة العربية لنتواصل مع الآخر الذي هو العربـي الأسـيوي أو الإفريقي لمعرفته أكثر.

ـ معرفة اللغة العربية الحية ؛ هي إدراك حقيقي للسـلوكات الفرديـة لدى العربي لتحديـد العلاقـات الاجتماعيـة بـين الأفـراد الذيـن يشـكلون المجتمعات العربية الحديثة.

ـ اللغة العربية الحية؛ هي الوسيلة الوحيدة للتكيف الثقافي، والتفاعل مع الذهنية العربية لترقية العلاقات المشتركة.

ـ يتكلم الناطق العربي في المجتمعـات العربيـة الحديثـة، لغـة عربيـة عملية وحديثة جدا تمتلك رصيدا من الكلمات المستحدثة الـتي تعـبر عـن الواقع المادي والثقافي وهو واقع سريع التطور.

ـ اللغة العربية الحية؛ هي حالة تطورية للغة العربيـة الكلاسـيكية أو الأدبية، ويكون العربي أكثر واقعية عندما يستمسك باللغة الحية، غير أن هـذا لا يعـني القطيعـة مـع اللغـة العربيـة الفصيحـة الـتي تشـكل مركـز استقطاب في الدراسات المعمقة للمتخصصين دون سواهم.

أثر اللسانيات التطبيقية في ترقية طرائق تعليم اللغة العربية

أضحى التعدد اللغوي حقيقة واقعية وآنية، وهـو مـن تحديـات هـذا القرن. الأمر الـذي يسـتدعي التعـامل مـع هـذه الحقيقـة،والتفـاعل معـها بالتفكير بجدية في توفير كل الشروط لترقيـة طرائـق تعليـم اللغـة العربيـة للمتعلم المفترض المتعدد اللغات بالضرورة لكي تجد لها مكانا في خريطـة هذا التحدي العالمي الجديد.

ولا يمكن لنا أن نحقق هذا الهدف إلا بالتحرر من المرجعيـة الأحاديـة التي تؤطر منـاهج تعليـم اللغـة العربيـة، وهـذه الأحاديـة هـي الغالبـة في المنظومة التربوية العربية؛ لأنها قائمة على مصالح عربية محـدودة وضيقـة الأفق، فلم تعد صالحة بحكم التحول العميق للعلاقات العلمية ، كما أنـها لم تعد قادرة على الصمود أمام الوافد الإعلامي والثقافي والاقتصـادي الـذي أصبح من مقتضيات الحياة في عالم تقاطع الحضارات وتلاقي الثقافات.

وانطلاقا من هذا المبدأ يجب أن توجه الأهداف التعليمية إلى المتعلـم العربي الملزم اضطرارا لأن يكون متعدد اللغات انطلاقا من اللغة العربيـة ، ولا يمكن أن يكون كذلك إلا بترقية قدراته في امتلاك لغته وتيسير نظامها القواعدي، وإعادة النظر في مكونات هذا النظام لتذليل الصعوبات والعوائـق التي تعترض سبيل المتعلم العربي وغير العربي معا.

لأن المتعلم العربي حاليا لم يعد ذلك المتشبع بقيمه الروحية والثقافية المصقولة في لغته العربية فحسـب، بـل هـو، بالإضافـة إلى ذلـك، العربـي المتفتح على العالم والمتفاعل بإيجابية مـع الآخـر والتـواق إلى المشـاركة في بنـاء الحضـارة الإنسـانية العالميـة الجديـدة. ولا يتيسـر لـه ذلـك أبـدا إلا باستثمار خصوصياته اللغوية استثمارا واعيا لتكون، بقدرات علمية راقيـة، إضافة تنضاف إلى الرصيد الحضاري العالمي.

ولا يمكـن لهـذه الأهـداف أن تتحقـق إلا بالإفـادة مـن اللسـانيات التطبيقيـة وتعليميـة اللغـات، لإيجـاد التفسـير العلمـي الكـافي لكثـير مـن العوائق والصعوبات الـتي تعـترض سـبيل المتعلـم العربـي والأجنـبي للغـة العربية في المجتمع البشري المتعدد اللغات والثقافات.

إن أدنى تأمل في الحصيلة المعرفية للنظرية اللسانية المعاصرة تـهدي إلى أن هناك اهتماما ملحوظا لدى جميع المنشغلين بتعليـم اللغـات، سـواء أكان ذلك على مستوى المؤسسات التعليمية والبيداغوجية أم على مستوى الأفراد الباحثين في هذا المجال، بما يمكن للسانيات النظرية أن تقدمه من تطبيقات وإجراءات عملية يمكـن لهـا أن تسـهم في تطويـر طرائـق تعليـم اللغـات . ولذلـك لجـأ كثـير مـن المتخصصـين في ميـدان البيداغوجيـا إلـــــى ما جاء به البـاحثون في ميـدان اللسـانيات واقتنعـوا عـن وعـي علمي بأهمية الإفادة من النظرية اللسانية في ميدان تعليـم اللغـة، فظـهرت في أروبا وأمريكا مناهج كثيرة ترتكز أساسا على المعطيات العلميـة للبحـث اللساني ، فأدى هذا الاهتمام المشترك إلى ظهور اختصاصات مشتركة أيضا في فترة لاحقة.

و ما زلنا نلاحظ اليوم أن الغايات التي يسعى الباحث اللساني العربي إلى تحقيقها تظل بعيدة ، بطابعـها النفعـي العـام، عـن اهتمامـات أسـتاذ اللغة، وأكثر من ذلك قد يصاب بخيبة أمل عندما يطلع علـى الإنجـازات العلمية الكثيرة في مجال اللسانيات العامـة والنظريـة، ولا يجـد الجوانـب التطبيقية التي يمكن له أن يستثمرها في قسمه.

ولذلك فإن طرائق تعليم اللغات في المؤسسات العربية لم تصـل بعـد إلى الغاية المتوخاة علميا وبيداغوجيا، وما يؤكد ذلك هو العزلة العلميـة الـتي يعاني منها أستاذ اللغة، فمنذ زمن ليس بالقليل ما فتئ أستاذ اللغة يبعـد من اهتماماته الأبحاث اللسانية معتبرا مادته فنا وليست بعلـم ومـا ينبغـي لها. وهذا تصور وهمي لا يرقى إلى مستوى الوعي العلمي والبيداغوجي.

ومن هنا فإن أستاذ اللغة للمتعلم الأحادي اللغة الحالي والمتعدد اللغات مستقبلا ملزم بأن يتلقى تكوينا قاعديا في اللسانيات، فيكون على دراية ببعض النظريات والمفاهيم والاصطلاحات والإجراءات التطبيقية.

وانطلاقا من هذا التصور فإن الدراسات الكثيرة في مجال تطوير المناهج التعليمية في فرنسا وإنجلترا وأمريكا وفي بلدان أخرى استطاعت أن تذلل الصعوبات والعوائق التي تعترض سبيل معلمي و متعلمي اللغة الأجنبية، وهذه الدراسات كلها تؤكد أهمية الأخذ بعين الاعتبار اللغة الأساسية عند المتعلم مع الاحتياط من خطر التداخل بين اللغة الأم واللغة الأجنبية، وسوف يكون هذا الأمر سهلا إذا ما ضبطت نقاط الارتكاز(Points d'appui) ضبطا دقيقا، ويقصد بنقاط الارتكاز كل ما هو متواز في اللغتين المعنيتين.[5]

ولذلك فإن ما يثير الانتباه حقيقة هو أن الوعي بأهمية البحث في منهجية تعليمية اللغات قد تطور بشكل ملحوظ في السنوات الأخيرة؛ إذ انصرفت الهمم لدى الدارسين، على اختلاف توجهاتهم العلمية وتباين المدارس اللسانية التي ينتمون إليها ، إلى تكثيف الجهود من أجل تطوير النظرة البيداغوجية الساعية إلى ترقية الأدوات الإجرائية في حقل التعليمية مما جعلها تكتسب المبررات العلمية لتصبح فرعا من مباحث اللسانيات من جهة، وعلم النفس من جهة أخرى، فأصبحت لها الشرعية الكاملة في الوجود، لا من حيث هي فن من الفنون كما كان سائدا وشائعا عبر حقب زمنية مختلفة، بل من حيث إنها علم قائم بذاته

---

[5] — Denis Girard : linguistique appliquée et didactique des langues. Paris Armand colin, 1972. P19

له مرجعيته المعرفية ومفاهيمه واصطلاحاته وإجراءاته التطبيقية. فيمكن للتعليمية، من هنا أن تحتل مكانها بجدارة بين العلوم الإنسانية.

ومن جهة أخرى فإن الباحثين اللسانيين أيضا لا يهتمون كثيرا بالمسائل البيداغوجية في تعليم اللغات التي يصفونها ويحللونها أثناء عملهم النظري، الأمر الذي جعل معلمي اللغة ينفرون من هذه الأعمال والأبحاث التي تغيب اهتماماتهم وتقصيها من البحث اللغوي ومما يؤكد هذا الإقصاء تصريح تشومسكي Chomsky الذي فاجأ به معلمي اللغات حينما قال في ملتقى بالولايات المتحدة الأمريكية: "إن اللسانيات لا تقدم أي شيء لتعليمية اللغات"[6]

ومن حسن حظ اللسانيين ومعلمي اللغات معا أن بعض الأبحاث والدراسات اللاحقة فندت هذا الزعم ، ويعود الفضل في ذلك إلى عصبة غير قليلة من الباحثين اللسانيين الذين لم يألوا جهدا في وضع أرضية صلدة لإمكانية وجود علاقة علمية ومنهجية بين اللسانيات وتعليمية اللغات . بيد أن هذه العلاقة في الواقع ليست بجديدة، وإنما هي قديمة بقدم البحث اللغوي نفسه، غير أنها كانت مختزلة في محاولات هامشية لا ترقى إلى مستوى الإجراء العلمي الدقيق.

يتبين لنا، حينئذ، أن العلاقة بين اللسانيات وتعليمية اللغات لها شرعية الوجود وأن هذه العلاقة مبررة سلفا بطبيعة البحث اللساني نفسه، وقد وجدنا تشومسكي نفسه ـ الذي كان يحمل شعار اللسانيات لا تقدم أي شيء لتعليم اللغات ـ يتخلى بيسر عن هذا الرأي ويستدركه

---

[6] ـ المرجع نفسه، ص 21.

عمليا من خلال بعض الأعمال التي تحمل الطابع البيداغوجي والتعليمي ويوافقه في ذلك أيضا Paul Robert الذي طبق مبادئ النظرية اللسانية التوليدية والتحويلية من أجل ترقية طرائق تعليم اللغة الإنجليزية في الجامعة الأمريكية.[7]

ما هي حدود الإجراء اللساني في تعليمية اللغات ؟

1ـ ليس من اهتمامات أستاذ اللغة البحث المعمق في اللسانيات، وإنما همه الوحيد هو أن يكتسب المهارة لتعليم اللغة، وهو من ثم مطالب بامتلاك الكفاية اللغوية الصحيحة للغة التي يعلمها ، فإن تعدد النظريات اللسانية وتنوعها هو الذي يجعلنا نهتم بالجانب التطبيقي أكثر من الجانب النظري أثناء تعليمنا للغة. لأن السؤال المنهجي الذي يطرح على معلم اللغة هو: بأي نظرية نعلم ؟

2ـ لا يتعلق أستاذ اللغة تعلقا مباشرا بنظرية لسانية دون أخرى ، على عكس الباحث اللساني الذي هو مضطر بالضرورة إلى الانتقاء والاختيار ، فأستاذ اللغة نظرا للأهداف البيداغوجية والتعليمية التي يسعى إلى تحقيقها يفيد من جميع النظريات المتوافرة لديه دون استثناء ، إذ إن تعدد النظريات اللسانية وتنوعها يعد عنصرا مهما لإيجاد الطريقة البيداغوجية الناجعة ، وتحسينها باستمرار.

3ـ يجب أن ينصب اهتمام أستاذ اللغة بالخصوص على المادة الخالصة للعملية التعليمية من حيث هي موضوع التعلم، وذلك بالتركيز على العناصر المختارة من اللغة المراد تعلمها، وفق نظامها المألوف . وهو

---

[7]ـ المرجع نفسه، ص 23، 24.

الأمر الذي يؤهل اللسانيات لأن تكون مساعدا منهجيا فقط ولا يمكـن لهـا أن تتعدى ذلك. ومن هنا يصبح علم النفس التعليمي الرافد المرجعـي الـذي يعول عليه في تذليل الصعوبـات الـتي تعـترض العمليـة التعليميـة ، علـى الرغم من أن هذه العملية لا تضيف شيئا جديدا لدى المتعلـم، فـهي تيسـر الارتقاء الطبيعي للمتعلم.[8]

فالمجال التطبيقي للسانيات هو صورة واقعية للبحث العلمي نفسه، إذ إن وجـود البحـث العلمـي النظـري يقتضـي بـالضرورة وجـود الجـانب التطبيقي الذي هو تزكية منهجية للنتـائج الحاصلـة، وهـي النتـائج الـتي تطبق في الواقع لاختبارها وتدقيق معطياتها، واستثمارها والإفـادة منـها في ميدان آخر من ميادين المعرفة الإنسانية . ويمكن لهذا المبرر أن يكون كافيا لوجود العلاقة المنهجية والبيداغوجية بين اللسانيات وتعليمية اللغات.

تصبح التعليميـة بنـاء علـى هـذا التصـور، همـزة وصـل تجمـع بـين اهتمامـات مختلفـة وتخصصـات متنوعـة، لأن الميـدان التطبيقـي يقتضـي المشاركة الفعالـة لنفـر غـير قليـل مـن البـاحثين الذيـن لهـم اختصاصـات متباينة، وذلك لأن تعليمية اللغات لا تهم الباحث اللساني فحسـب، بـل هي المجال المشترك الذي يجمع بين اللساني والنفساني والـتربوي. وهـذا دليل قاطع على الطابع الجماعي الذي يتمـيز بـه البحـث التطبيقـي وهـو الذي يضمن النتائج الإيجابية والحلول الناجعة[9].

---

[8] ـــ المرجع نفسه، ص 24.

[9] ـ د، الحاج صالح، آثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية، مجلـة اللسـانيات عدد 4 سنة 1974 الجزائر، ص 24.

وقد توصلت الأبحاث اللسانية والنفسانية والتربوية على حد سواء إلى حقيقة مؤداها أن الحواجز بين هذه الاهتمامات التي أشرنا إليها سالفا هي حواجز وهمية لا وجود لها في الواقع الفعلي للظاهرة اللغوية في حد ذاتها فهناك حقيقة ثابتة قد يغفل عنها هؤلاء جميعا حينما يعمل كل واحد منهم بمعزل عن الآخر وهي أن بين البنى اللغوية الفطرية وبين طريقة اكتسابها علاقات قارة وقوانين ضمنية لابد من اكتشافها وإعادة صياغتها صياغة علمية دقيقة.[10]

مما لا شك فيه هو أن التعلم عملية ديناميكية قائمة أساسا على ما يقدم للطالب من معلومات ومعارف، وعلى ما يقوم به الطالب نفسه من أجل اكتساب هذه المعارف وتعزيزها ثم تحسينها باستمرار، و يجب الاهتمام أكثر بقابلية الطالب واستجابته للعملية التعليمية إذ إن تجربة الطالب هي الأساس في نجاح العملية التعليمية والبداغوجية.

يمكن للدارس في هذا المقام أن يتساءل عن العوامل التي يمكن لها أن تحث الطالب وتدعوه إلى تعلم لغة معينة، كيف يمكن لنا أن نكون مجموعة العناصر اللسانية بشكل يناسب المعلم والمتعلم ؟ ما هي الأساليب والطرائق البيداغوجية الناجعة ؟ وعلى أي مرتكز لساني نعول في تحقيق الغاية من العملية التعليمية؟

هذه التساؤلات لابد من أخذها بعين الاعتبار ونحن نبحث عما يمكن أن تقدمه اللسانيات لتعليمية اللغات، لأن تعليم اللغة ليس معناه أن نحشو ذاكرة المتعلم بقواعد ومعايير ثابتة للغة معينة، وإنما يجب أن

---

[10]ـ المرجع نفسه، ص 25.

يكون هدفنا هو أن نجعله يشارك ويتفاعل إيجابيا مع برنامج المادة التعليمية، لأن تعليم اللغة لا يهدف إلى وضع لائحة مفتوحة من الكلمات في ذهن المتعلم، ولكن إكسابه المهارات المناسبة ليسهم هو نفسه في ترقية العملية التعليمية وتحسينها . فالمعرفة ـ كما يقال ـــ هي تكوين طرائق وأساليب وليست مختزن معلومات فالمتعلم يزداد تعلما بفن التعلم، والمعلم هو صانع تقدمه[11].

يمكن لنا أن نقول، حينئذ، إن اللسانيات من حيث إنها الدراسة العلمية الموضوعية للظاهرة اللغوية تصبح وسيلة معرفية ومنهجية ضرورية لتحديد المجال الإجرائي للعملية التعليمية وذلك بتوضيح الغايات والأهداف البيداغوجية من جهة، وتذليل الصعوبات والعوائق من جهة أخرى لأنه بدون لجوء معلم اللغة إلى النظريات اللسانية المختلفة سوف يعسر عليه إدراك العملية التلفظية للغة عند المتكلم ـــ المستمع، ويعسر عليه أيضا تحديد العناصر اللسانية التي تكون نظام اللغة المراد تعليمها، وذلك بالارتكاز على إسهامات النظرية اللسانية الأم في مجال وصف اللغة الإنسانية وتحليلها، وهو التحليل الذي يعمق معرفتنا باللغة البشرية.

للسانيات وظيفة مركزية في تحليل العملية التعليمية وترقيتها، ومن ثمة فإن معلم اللغة يصطدم منهجيا بمجموعة من التساؤلات العلمية والبيداغوجية، وبدونها سوف يتعذر عليه إدراك حقيقة ما يعلم، ومن يعلم. ومن جملة هذه التساؤلات ما يلي:

---

[11]ـ نورمان ماكنزي وآخرون، فن التعليم وفن التعلم، ترجمة أحمد القادري، ص 67 مطبعة جامعة دمشق، 1973.

1 ــ ماذا يعلم ؟

2 ــ ما هي الحاجات التعليمية لدى المتعلم ؟

3 ــ أي نظرية لسانية يمكن له اعتمادها لتحقيق الأغراض البيداغوجية؟

ولذلك فإن تطبيق النظرية اللسانية في مجال تعليم اللغة دون الاهتمام بتحديد الحاجات البيداغوجية يسيء حتما إلى عملية التعلم، ولتفادي ذلك لابد من الفصل أولا بين القواعد اللسانية العلمية، والقواعد اللسانية البيداغوجية والتعليمية.

وهذا يقتضي بالضرورة التمييز بين تعليم مسائل اللغة، وبين تعليم كيفية استعمال اللغة.

يسعى معلم اللغة، حينئذ، إلى جعل القواعد اليداغوجية وسيلة مساعدة في انتُقاء المادة التعليمية بالاستناد على ما تقدمه القواعد اللسانية ويكون هدف هذه القواعد بالدرجة الأولى تسهيل عملية تعليم الكيفية التي تستعمل وفقها اللغة داخل المجتمع[12].

يعود نجاح معلم اللغة في ضبط الغايات البيداغوجية التي يسعى إلى تحقيقها أساسا إلى قدراته الذاتية التي تخول له الاضطلاع بمهمة تعليم لغة معينة ولذلك لابد من أن تتوافر فيه ثلاثة شروط:

1ـ الكفاية اللغوية: يكون معلم اللغة قد امتلك بالفعل الكفاية اللغوية التي تسمح له باستعمال اللغة التي يراد تعليمها ويستعملها استعمالا صحيحا.

---

[12]ـ ميشال زكريا، مباحث فبي النظرية الألسنية وتعليم اللغة، ص 12. بيروت 1983.

2ـــ الإلمام بمجال بحثه: يكون معلم اللغة على دراية بالتطور الحاصل في مجال البحث اللساني ، وذلك بالتعرف على ما توصلت إليه النظرية اللسانية في ميدان وصف اللغة وتحليلها.

3ـ مهارة تعليم اللغة: ولا يتحقق ذلك إلا بالاعتماد على الشرطين المذكورين من جهة وبالممارسة الفعلية للعملية التعليمية ، والاطلاع على النتائج اللاحقة في مجال البحث اللساني والتربوي من جهة أخرى.[13]

وهذه الشروط الثلاثة ضرورية لنجاح العملية التعليمية التي هي بالأساس ترتكز على ثلاثة عناصر: المتعلم و الأستاذ والطريقة.

أ ـ المتعلم: يمتلك المتعلم قدرات وعادات، واهتمامات، فهو مهيأ سلفا للانتباه والاستيعاب. فدور الأستاذ بالدرجة الأولى هو أن يحرص كل الحرص على التدعيم المستمر لاهتماماته وتعزيزها ليتم تقدمه وارتقاؤه الطبيعي الذي يقتضيه استعداده للتعلم.

ب ـ الأستاذ: هو أيضا مهيأ للقيام بهذا العمل الشاق وذلك عن طريق التكوين العلمي والبيداغوجي الأولي، وعن طريق التحسين المستمر الذي يجب أن ينحصر في التكوين اللساني والنفسي والتربوي، بطريقة تجعل الأستاذ نفسه يقبل على تجديد معلوماته وتحسينها باستمرار لأن الأستاذ ـ كما يقال ـ كالمهندس يجب أن يبذل جهدا إضافيا خاصا يجعل معلوماته ومعارفه حاضرة حضورا يوميا في الميدان ولا يتحقق ذلك إلا بالتكوين المستمر[14].

---

[13]ـ الحاج صالح، المرجع المذكور سابقا، ص 12.

[14]ـ Denis Girard المرجع المذكور سابقا، ص12.

ج ـ الطريقة : هي الوسيلة التواصلية والتبليغية في العمليـة التعليميـة لذلك فهي الإجراء العملي الذي يساعد على تحقيق الأهداف البيداغوجيـة لعملية التعلم،ولذلـك يجـب أن تكـون الطرائـق التعليميـة قابلـة في ذاتـها للتطور والارتقاء.

لا يكون أستاذ اللغة العربية، حينئـذ، في غنـى أبـدا عـن الحصيلـة المعرفية للنظرية اللسـانية المعـاصرة، لذلـك فـإن اكتسـابه لهـذه المعرفـة سيسعفه على وضع تصـور شـامل لبنيـة النظـام اللغـوي الـذي هـو بشـأن تعليمه، وستنعكس هذه المعرفـة بالإيجـاب علـى إدراكـه العميـق لحقيقـة الظاهرة اللغوية، فيؤثر هذا كله في منهجية تعليم اللغـة، للأحـادي اللغـة والمتعدد اللغات، وفق الأرضية النظرية التي يوفرها تطور البحـث اللسـاني الذي بإمكانه أن يقدم التفسير العلمي الكافي لكل المظاهر الـتي لهـا علاقـة بتعلّم اللغة وتعليمها.

شجاعة العربية وأوهام النقاء

الأستاذ الدكتور: سعيد السريحي

جدة - المملكة العربية السعودية

ربط علماء العربية بين ما كانوا يستشعرونه من فساد اللسان العربي والاحتكاك بلأمم والأقوام التي تجاور العرب، وردوا ما لمسوه من انتشار اللحن إلى اختلاط العرب الخلص بمن حولهم من الشعوب في الحواضر الإسلامية، وأعادوا الهجنة التي شاعت في الكلام إلى تأثير الموالي والأعاجم بما كانوا يتداولونه من أحاديث تنحرف باللغة عن طرائقها الفصيحة التي جرى عليها العرب في باديتهم التي لا يخالطهم فيها من لا يتحدث بغير لسانهم الفصيح. وحينما سعى هؤلاء العلماء إلى حفظ اللغة العربية من الفساد وما يمكن أن يفضي إليه من اضطراب في فهم لغة القرآن و القدرة على الكلام العربي الفصيح، راحوا يلتمسون ضالتهم لدى أكثر القبائل العربية بعداً عن الاحتكاك بالعوامل الخارجية وأكثرها انعزالاً عن التأثر بالأمم والشعوب المختلفة على النحو الذي أوضحه الفارابي في قوله: و الذين عنهم نقلت العربية وبهم اقتدي وعنهم أخذ اللسان العربي من قبائل العرب هم: قيسٌ وتميم وأسد. فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ وأعظمه وعليهم اتّكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين[1].

وقد تحرز علماء اللغة ورواتها عن الأخذ عن غير هذه القبائل ممن كانوا يخشون أن تكون العجمة قد أخذت طريقها إلى طرائقهم في القول ولذلك لم يؤخذ من لخم ولا من جذام لأنهم كانوا مجاورين لأهل مصر

---

[1] ـ المزهر 1/ 211 ، 212 .

الاقتراح 19 .

والقبط، ولا من قضاعة ولا من غسان ولا مـن إيـاد لأنـهم كـانوا مجـاورين لأهل الشام، ولا من تغلب ولا من النمـر لأنـهم كـانوا بـالجزيرة مجـاورين لليونانية، ولا من بكر لأنهم كانوا مجـاورين للنبـط والفـرس ولا مـن عبـد القيس لأنهم كانوا سكان البحرين مخـالطين للـهند والفـرس، ولا مـن أزد عمان لمخالطتهم للهند والفرس، ولا من أهل اليمن أصلاً لمخالطتـهم للـهند والحبشة ولولادة الحبشة فيهم، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وسكان الطـائف لمخالطتـهم تجـار الأمـم المقيمـين عندهـم، ولا مـن حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حـين ايتـدأوا ينقلـون لغـة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم[2] وهكذا سيطرت فكـرة تحري النقاء و الصفاء على أولئك العلماء فلم يأخذوا عـن حضـري قـط ولا عن سكان البراري الذين كانوا يتصلون بسائر الأمم الذين من حولهم. وقـد اعترض أبو حيان في شرح التسهيل علـى ابـن مـالك حـين عـني في كتبـه بنقل لغة لخم وخزاعة وقضاعة وغيرهم، وقال: ليس هذا مـن عـادة أئمـة هذا الشأن[3]، ولم تسلم قريش وهي التي عدّها اللغويـون مـن أجـود العـرب انتقاء للأفصح من الألفاظ من هذه الريبة فلم يسعوا إليها عنـد جمـع اللغـة لأنـهم يـرون أن فسـاد اللسـان كـان قـد سـبقهم إليـها فاختلاطـها بـالأمم واختلاط الأمم بشعاب مكة فيها طغى علـى فصاحتـها فلـم يعـد بالإمكـان

---

[2] ـ الاقتراح 56 ، 57 .

[3] ـ الاقتراح 57 .

التعويل عليها فـاكتفى العلمـاء بـالإقرار بفصاحتـها ثـم انحرفـوا عنـها إلى القبائل الأخرى التي استقوا منها اللغة.

وقد نشأ عن توخي الصفاء والنقاء و البعد عن الهجنة أن أصبح الدرس اللغوي تتبعا للغة فيما كان يعتقـد أنـه أصلـي وفصيـح فيـها منفصـلا عـن سياقات تطور اللغة وما يعرض لها من عوامل التغير الناتج عن احتكاكها باللغات الأخرى. وكان الأصل الذي راح العلماء يتتبعـون شـواهده وبقايـاه هو تلك السجية والسـليقة الـتي كـان العـرب يتحدثـون بـها في الجاهليـة وصدر الإسـلام والـتي افتقدوهـا حـين فتحـت المدائـن ومصـرت الأمصـار ودونت الدواوين[4]، يقول ابن الأثير متحدثا عن تلك الحقبة حديـث مـن لا يخفي أسفه على ضياعها: "كان اللسان العربي عندهم صحيحـا محروسـا لا يتداخله الخلل ولا يتطـرق إليـه الزلـل إلى أن فتحـت الأمصـار وخـالط العرب غير جنسهم من الروم والفرس والحبـش والنبـط وغـيرهم مـن أنـواع الأمم الذين فتح الله على المسلمين بلادهـم وأفـاء عليـهم أموالهـم ورقابـهم فاختلطت الفرق وامتزجت الألسن وتداخلت اللغات"[5].

وإذا كان فساد الألسن قد تفشى في أعقاب نشوء الحواضر الإسـلامية في العراق و الشام فـإن كـان يطـل برأسـه قبـل ذلـك علـى نحـو مـا تحدثنـا الروايات عن ظهور اللحن في زمن الرسول صلى الله عليـه وسـلم والخلفـاء الراشدين، والفصاحة التي راح يتلمسـها العلمـاء لـدى القبـائل المنعزلـة في

---

[4] - لحن العوام 4 .

[5] - النهاية في غريب الحديث والأثر 5 .

باديتها جعلتهم ينأون عن القبائل التي تسكن أطراف الجزيرة العربية ويرون أن الضعف والزيغ قد تسرب إليها مبكراً وأنها كانت مستضعفة اللسان بحكم جوارها لغير العرب[6].

في هذا السياق يرتبط الفساد واللحن و الزيغ والضعف بحركة التمدن والتحضر والانفتاح على الأمم والثقافات المختلفة من ناحية ومن ناحية أخرى يرتبط مفهوم الصفاء والنقاء والفصاحة بعالم البداوة والعزلة والبعد عن التأثر. وقد أفضى الحرص على ترصد هذا النقاء والافتتان به أن غدا الدرس اللغوي درساً للغة في طور بداوتها وعزلتها على اعتبار أن ما يمكن أن يحدثه التحضر فيها من تغيير وما يتركه عليها من أثر لا يتجاوز أن يكون ضرباً من الهجنة التي تتناقض مع قيم الأصالة والفصاحة والنقاء.

يتضح هذا الربط بين فساد اللسان و الاحتكاك بالشعوب الأخرى في دلالة كلمة هجين حيث الهجنة في الكلام ما يلزمك العيب فيه وفي الأنساب ما لم يكن عربيا صرفا، والهجين هو ولد الأمة وتهجين الأمر تقبيحه [7]وكذلك كلمة الأعجم التي تدل على من لا يفصح ولا يبين كلامه وإن كان عربي النسب كما تدل كذلك على غير العربي[8].

هذا التعدد الدلالي لمفهوم الهجنة يفتح لنا بابا للربط بين نزعة البحث عن النقاء والصفاء التي حكمت الدرس اللغوي ووجهت الباحثين فيه وسيطرت على المناهج التي اعتمدوها وأفضت إلى النتائج التي انتهوا

---

[6] ـ مقدمة ابن خلدون 489

[7] ـــ اللسان: هجن .

[8] ـ اللسان عجم .

إليها، وتلك العصبية القبلية التي كانت تحرص على تمييز العرق العربي من بين أعراق الأمم الأخرى فتقيمه في مرتبة لا يحظى بها سواه من الموالي والأعاجم والمولدين، ثم تمضي بعد ذلك لتقيم التمايز بين القبائل التي تشترك في صفاء هذا العرق ونقائه فتجعلها طبقات تتفاوت في الشرف و المكانة.

وقد شهدت الحواضر الإسلامية عمليات تمييز عنصري حظي من خلاله العرب بالشرف وما يستتبعه من مكانة وحظوة وتروي كتب التاريخ والأدب أن الحجاج أمر أن لا يؤم الكوفة إلا عربي[9] ولمّا قبض على سعيد بن جبير وكان قد خرج عليه قال له: أما قدمت الكوفة وليس يؤم عليها إلا عربي فجعلتك إماماً ؟ قال: بلى. قال: أفما وليتك القضاء فضجّ أهل الكوفة، وقالوا لا يصلح إلا لعربي فاستقضيت أبا بردة بن أبي موسى الاشعري وأمرته ألا يقطع أمراً دونك؟ قال: بلى. قال: أوما جعلتك في سمارى وكلهم من رؤوس العرب؟ قال: بلى. قال: فما أخرجك علي؟.[10]

ولما نزل الحجاج واسطاً نفى النبط منها وكتب إلى عامله بالبصرة يقول: إذا أتاك كتابي فانفِ من قبلك من النبط فإنهم مفسدة للدين و الدنيا، فكتب إليه: قد نفيت النبط إلا من قرأ منهم القرآن وتفقه في الدين. فكتب إليه الحجاج إذا قرأت كتابي هذا فادع من قبلك من الأطباء

---

[9] ــ العقد الفريد 1 / 207 .

[10] ـ الكامل 1 / 397

ونم بين أيديهم ليقفوا عروقك فإن وجدوا فيك عرقا نبطيا فاقطعه و السلام.[11]

ويروى أن أعرابيا ذهب إلى سوار القاضي فقال: إن أبي مات وتركني وأخا لي _ وخط خطين ناحية _ ثم قال: وهجينا لنا _ ثم خط خطا آخر ناحية_ ثم قال: كيف نقسم المال بيننا؟ فقال: المال بينكم أثلاثا إن لم يكن وارث غيركم. فقال له: لا أحسبك فهمت أنه تركني أنا وأخي وهجينا لنا. فقال له سوار: المال بينكم سواء. فقال الأعرابي: أيأخذ الهجين كما آخذ ويأخذ أخي؟ قال: أجل، فغضب الأعرابي، وقال: تعلم والله إنك قليل الخالات بالدهناء.[12]

وتحت وطأة هذا التمييز العنصري راح الموالي يفتشون عن قبيلة ينتمون إليها فيدينون لها بالولاء ويحتمون بما لها من جاه ورفعة وربما حاول بعض الموالي إلحاق نسبه بالعرب كالذي تحدثت عنه كتب التاريخ من أن أبا مسلم الخراساني اصطنع لنفسه نسبا عربيا فزعم أنه من نسب سليط بن عبد الله بن العباس[13] وجاء في الأغاني أنه كان لعلي بن الخليل صديق فارسي فغاب مدة وقد أصاب مالا ورفعة ثم عاد إلى الكوفة وادعى أنه من تميم فقال يهجوه:

يروح بنسبه المولي ويصبح يدعي العربا

---

[11] ـ محضارات الأدباء 1/ 318.

[12] ـ عيون الأخبار 61/3.

[13] ـ تاريخ الطبري 383/9.

فـــلا هـــذا ولا هـــذا ك يـــدركـــه إذا طلـــبا[14]

أما والبة بن الحباب فكـان يدعـي النسـب إلى العـرب فقـال فيـه أبـو العتاهية :

أوالب أنت في العـــرب كمثـــل الشـــيـــص في الرطب

هلم إلى المـــوالي الصـــيـ ـد في سعـــــة وفي رحـــــب

فأنت بنـــا لعـــمـــرو اللـ ـه أشبـــــه منـــك بالعـــرب[15]

وبوسعنا أن نعقد أواصر التشابه بين تقسيمات اللغة والطبقـات المكونـة للمجتمع فنربط بين الكلمـات الفصيحـة والعـرق العربـي الخـالص، وبـين الكلمات المعربة التي استعارها العرب من اللغـات الأخـرى وتصرفـوا فيـها بفئة المهجنين الذين يولدون لآباء عـرب وأمـهات أعجميـات. أمـا ظواهـر اللحن وفساد اللسان فشبيهة بالموالي والنبط والأعاجم الذين عدهم الحجـاج مفسدة للدين و الدنيا.

وإذا كان التمييز العنصري للمجتمـع الإسـلامي يعـد خروجـا علـى مـا أرساه الإسلام من قواعد المساواة بين الأمم والشعوب بحيث لا يصبح هناك فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى وأن المؤمنين تتكافـأ دمـاؤهم ويسـعى بذمتهم أدناهم، فإن مبحث التمييز بين ألفاظ اللغـة ومـا هـو عربـي منـها ودخيل عليها قد أثار شيئا من البلبلة عند الوقوف على لغات العجم كمـا

---

[14] ـ الأغاني 149/13 .

[15] ـ الصاحبي 45/44.

جاءت في القرآن فروي عن ابن عباس وعن مجاهد وابن جبير وعكرمة وعطاء وغيرهم من أهل العلم أنهم قالوا في أحرف كثيرة إنها بلغات العجم منها:– طه، واليم، والطور، والربانيون، فيقال: إنها بالسريانية، ومنها قوله: جل وعز: الصراط، والقسطاس، والفردوس، يقال إنها بالرومية. ومنها قوله جل (كمشكاة) و (كفلين من رحمته) يقال: إنها بالحبشية وقوله (هيت لك) يقال: إنها بالحورانية[16]. وقد أنكر أبو عبيدة هذا القول ورأى أن القرآن إنما نزل بلسان عربي مبين فمن زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول، ومن زعم أن كذا بالنبطية فقد أكبر القول، وعزا ما في اللغات التي نسبت إليها تلك الألفاظ إلى أنه قد يوافق اللفظ ويفارقه ومعناهما واحد وأحدهما بالعربية والأخر بالفارسية أو غيرها[17].

وقد جاء في الصاحبي أن أهل العربية ويعني بهم اللغويين هم الذين أنكروا القول بورود كلمات غير عربية في القرآن بينما أهل العلم من الفقهاء هم الذين قالوا بوجود أحرف في القران بلغات العجم[18] .ولنا أن نرى أن اللغويين قد انطلقوا في إنكارهم ذلك من هيمنة فكرة النقاء والصفاء عليهم و التي ليست ببعيدة عن نقاء العرق و خلوصه من الهجنة وهي الفكرة التي نجا من سلطانها الفقهاء الذين تتساوى الأمم والشعوب أمام أحكامهم الفقهية.

---

16 ـ الصاحبي 43.

17 ـ الصاحبي 45.

18 ـ الصاحبي 45.

وكانت محاولة التوفيق بين أهل العربية والفقهاء قـد تمثلـت في القـول بأن أصول هذه الكلمات عجمية كما قال الفقهاء إلا أنـها سقطت إلى العرب فأعربتها بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصرت عربيـة ثـم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب فمن قال إنـها عربيـة فهو صادق. ومن قال عجمية فهو صادق[19] وذهب الجواليقى في المعـرب إلى القول: هي أعجمية باعتبار الأصل عربية باعتبار الحال[20].

ولم يكن أبو عبيدة في إنكاره القـول بـورود كلمـات أعجميـة في القـران ينطلق من تصوره لمقتضى قوله تعالى: (إنـا جعلنـاه قرآنـا عربيـا) فحسـب وإنما كان ينطلق من اطمئنانه إلى غنى العربية بحيث لا تغيب عنها كلمـة فتأويل قوله أتى بأمر عظيم وكبـير أن القـران لـو كـان فيـه مـن غـير لغـة العرب شيء لتوهم أن العرب عجزت عن الإتيان بمثله لأنه أتى بلغـات لا يعرفونها وفي ذلك ما فيه[21].

وإذا كانت محاولة التوفيق هذه هي الأساس الذي انبنت عليـه الكتـب التي تم تأليفها حـول المعـرب والدخيـل فـإن الإيمـان بقولـه تعـالى: (إنـا جعلناه قرآنـا عربيـا)، وقولـه تعـالى: (ومـا أرسـلنا مـن رسـول إلا بلسـان قومه)، وقوله تعالى: (بلسان عربـي مبـين) لم يمنـع مـن تصنيـف كلمـات اللغة بما فيها لغـة القـرآن، إلى كلمـات عربيـة بالأصالـة وكلمـات عربيـة

---

[19] ـ الصاحبي 46.

[20] ـ المزهر 269/1.

[21] ـ الصاحبي 64.

بالولاء تكتسب عروبتها بقدر ما يتصرف فيها العرب حينما حولوها من ألفاظ للعجم إلى ألفاظ للعرب فصارت عربية.

وإذا كان بعض الأعاجم قد بحث لنفسه عن مكانة في المجتمع العربي عن طريق الانتماء إلى العرب إما بادعاء النسب أو بالولاء فإن منهم فئة رأت أن طريقها إلى العرب هو علم العربية وبذلك عرفت علوم العرب عددا كبيرا من العلماء الذين يعودون بنسبهم إلى الفرس أو الروم ممن كان يحدوهم سعيهم الدؤوب إلى التميز في المجتمع العربي إلى التميز في الثقافة العربية حتى أصبح العرب أنفسهم بحاجة إليهم في تلقي علوم العربية وأصبحوا قادرين على تخطئة المتأخرين من العرب حينما يخرجون عن سنن العربية التي تم تدوينها من على ألسنة العرب الذين لم تفسد ألسنتهم. يروى أن ابن المقفع كان في جمع من العرب فراح يسألهم عن خير الأمم فظنوا أنه يشير إلى قومه من الفرس ولكنه أخبرهم أن خير الأمم هم العرب فضحكوا فقال: (إني ما أردت موافقتكم ولكن إذا فاتني حظي من النسب فلا يفوتني حظي من المعرفة.)[22] ومن هنا كانت المعرفة العربية هي النسب البديل لأولئك الذين يشعرون بأهمية أن ينتسبوا إلى العرب. وتأسست بذلك المفارقة التي الح إليها عبد الله بن الأهتم حينما مر بقوم من الموالي وهم يتذاكرون النحو فقال: لئن أصلحتموه إنكم لأول من أفسده[23].

---

[22]ـ العقد الفريد 50/2.

[23]ـ العقد الفريد 51/2.

توفير شروط عالمية اللغة العربية:

يتوجب على أمتنا العربية تحقيق تنمية اجتماعية اقتصادية شاملة تقضي على التخلف المتمثل في آفات الفقر والجهل والمرض المنتشرة في البلاد. وقد استطاعت أقطار عديدة أن تحقق التنمية الشاملة في غضون جيل واحد (حوالي ثلاثين عاما). ومن الأمثلة على ذلك فنلندا التي تحولت من بلد زراعي فقير في الخمسينات إلى بلد متطور حقا في الثمانينات. وتقدم لنا ماليزيا وكوريا الجنوبية كذلك أمثلة على الأقطار التي حققت هي الأخرى التنمية الشاملة.

ولقد أصبحت وصفة التنمية معروفة تستطيع أية أمة الأخذ بها وتحقيق النتائج المرجوة، إذا خلصت النوايا وتوفرت الإرادة الصلبة. ولهذه الوصفة ثلاثة أركان: الركن الأول، الأخذ بالديمقراطية التي تطلق طاقات جميع أبناء الأمة وتضمن مساهمتهم، رجالا ونساء، مساهمة فاعلة في عملية التنمية. وللديمقراطية دعامتان أساسيتان هما المساواة والحرية (بما في ذلك الحرية الفكرية وحرية التعبير). والركن الثاني من أركان التنمية، اعتماد نظام تربوي حديث جيد يجعل التعليم إجباريا وباللغة الوطنية في جميع مراحله لكي تتوفر الأسس اللازمة لتعميم المعرفة العلمية على جميع أبناء الشعب. والركن الثالث، تبني آخر التطورات العلمية والتكنولوجية وتطبيقاتها في الصناعة والزراعة والاقتصاد.

وكلنا يعلم أنه إذا استطاعت الأقطار العربية أن تتحد بشكل أو بآخر، كما اتحدت الولايات الأمريكية أو الدول الأوربية أو الممالك الماليزية، وتمكنت من تحقيق تنمية شاملة تنتقل بها من مجموعة الدول

ولد إرم ابن سام بن نوح: عاد وثمود وأميم وعبيل وطسم وجديس وعمليق وجرهم ووبار أما المتبقون فهم عرب متعربة وعرب مستعربة وليسوا بخلص[24].

كان الدرس اللغوي في بعض جوانبه ردا على ما كان العرب يتوهمونه من انتماء للثقافة العربية ومن خلوص ونقاء في العرق والدم وكانت منطلقاته تؤسس لقطيعة حادة بين العربي والعربية، العربي من حيث إنه كائن حي قادر على التفاعل مع العالم من حوله والاستفادة منه والإفادة له، والعربية باعتبارها لغة لقوم زالوا أو هم في طريقهم للزوال.

وإذا كنا اليوم نهيئ أنفسنا لمواجهة حضارية لا نمتلك كثيرا أو قليلا من وسائل الاستعداد لها، فإننا مطالبون بردم هذه الفجوة التي تمتد عميقا في تاريخنا وتنخر على نحو أعمق في وعينا، وأن نعيد وصل اللغة بالإنسان والإنسان باللغة لا عن طريق توسيع الفجوة بيننا وبين العالم وإنما عن طريق إعادة النظر إلى العربية باعتبارها لغة للإنسان في مدنيته وحضارته وتطوره.

ولنا إن أحسنا قراءة القرآن وتدبرنا لغته أن ندرك كيف أنه جاء نموذجا للغة المتحضرة التي تلتقي فيها الثقافات وتتجاور اللهجات تماما كما كانت تتجاور القبائل وتتعايش الأمم في مكة المكرمة التي كانت آنذاك أما للقرى بكل ما يمكن أن تعنيه تلك الأمومة من احتضان للتعدد وتسليم بمبدأ التجاور. وبذلك نلج إلى باب يمكن لنا من خلاله أن نلمس شجاعة

---

[24] ـ المزهر 31.

العربية مخلصين أنفسنا من أوهام النقاء والصفاء التي يمكن لها أن تكون سمة لمجتمعات موغلة في عزلتها وبداوتها ولا يمكن أن تكون وصفا لمجتمعات متحضرة تعيش في معترك الحياة المدنية.

اللغة العربية في إيران
ماضيا وحاضرا ومستقبلا

أ.د. فكتور الكك

بيروت-لبنان

جاء حين من الدّهر غدت اللغة العربية لغة عالمية، فقد انتشرت بانتشار الإسلام، في أصقاع متنوعة ومتباعدة وإذا بيان العرب ينداح مشرقا من تخوم الصين إلى الجنوب الغربيّ من أوروبا، باسطا جناحيه فوق الشرق الأوسط ومصر وشماليّ إفريقيا.

إلاّ أنّ الذي أرسى قواعد انتشارها الكوني كانت الحضارة التي احتملتها لغة الضّاد فارتادت الإنسانية بها آفاقا ما تزال تنعم بها حتى اليوم. هذه الحضارة أطلق مسيرتها العرب بنشر لغة القرآن جنبًا إلى جنب مع انتشار الإسلام، فتلقّفتها الصّفوة من الشعوب التي دخلت فيه أفواجًا، ناقلة إلى بيانها الطافح بالحيوية تراثها المتقادم، مفجّرة، عبرها، طاقاتها الكامنة أو المترهّلة بمرور الزمان.

وقد انمازت الأمّة الإيرانية، من بين سائر الأمم، بالإسهام الكبير في حضارة العرب والإسلام، وبالتبريز في العربية وتقعيدها وجمعها، فحدا ذلك ابن خلدون على القول إنّ أكثر حملة العلم في الإسلام كانوا من العجم[1].

ومع ذلك، ورغم واقع انتشار العربيّة في إيران الكبرى أيامئذ الذي سنعرض له، لماذا لم تتحوّل العربيّة في أراضي الشاهنشاهيّة الساسانيّة إلى لغة تعبير شعبيّة، كما حصل في بلاد ما بين النهرين وسوريا وفلسطين وساحل لبنان؟ حتى إذا ما أخذ القرن الثالث للهجرة يتصرّم اشتدّ عود

. رئيس مركز اللغة الفارسية وآدابها، أستاذ الحضارة العربية الإسلامية والأدب العربي المقارن بالجامعة اللبنانية، بيروت؛ أمين سر المجمع الثقافي العربي.

[1]– راجع المقدمة، ص 741، منشورات دار الكتاب اللبناني، بيروت.

اللغة الفارسية الدّريّة وظهرت بوادر الشعر فيها، لينطلق هادرا مع رودكي، من بعد، (المتوفى329 هـ/940 م) وراسخا ثم موطّد الأركان مع شاهنامة الفردوسي (411 هـ/1020 م)...

إنّ في تتبع مسار العربيّة عبر القرون، ودراسة الأسباب والنتائج، دروسا وعبرا تنير طريقنا في سعينا المطلوب إلى استعادة لغتنا دورَها العالميّ.

تلازم الإسلام والعربيّة

رافق انتشار الإسلام في إيران شيوع اللغّة العربيّة لغة دين وحكم ونخب، ومع أنّ العربيّة لم تتحوّل إلى لغة محكيّة يومية، فإنها اكتسبت هالة من القداسة، لأنها لغة الدين الجديد، بها أوحي به إلى الرسول قرآنا منجّما، وتكرّر توكيد ذلك مرارا:

- إنّا أنزلناه قرآنا عربيّا[2].
- وكذلك أوحينا إليك قرآنّا عربيّا[3].
- وهدا لسان عربيّ مبين[4].

بذلك أحكمت بين الدّين الجديد ولغة القرآن رابطة لا نتفصم. فأدّى الأمر إلى نتائج معروفة في الأهمية والعمق. من ذلك أن ترجمة القرآن بلغات أخرى كانت تبدو غير ممكنة، فمعانيه الرفيعة ومغازيه العميقة ما كانت لتنقل إلى لغة من دون تعرضها إلى تبديل أو تحوير أو نقص ما وهو

---

[2] سورة يوسف: 2.

[3] الشورى: 7 فما بعد.

[4] النحل: 103.

أمر يؤدي إلى تشويه كلام الله وإخراجه عن جوهره ومقاصده. من هنا، حتّم هذا الارتباط غير المنفصم العرى على كل مسلم تعلّم العربيّة، أيّا كانت لغته الأمّ توسلاً إلى فهم دينه بفهم القرآن عقيدة وشريعة ونهج حياة، ولا سيّما أنّ ذلك عُزّز بالحديث النبوي القائل: طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة.

إذا أضفنا إلى ذلك ما رافقه من سيطرة سياسية طبيعية للحكام من العرب، وشغف المغلوب في تقليد الغالب، وإن يكن دونه حضارة، وفق قاعدة ابن خلدون الاجتماعية، أدركنا تلقّي الإيرانيين لغة العرب على أنها لغة مقدسة وشريفة في آن، وعادات العرب وتقاليدهم ونهج حياتهم على أنها شؤون مثاليّة، فغدت قدوة لهم ومثالا ينسجون عليه.

العربية تلتحم بالثقافة الإيرانية

في هذا السياق الحيويّ التحمت ثقافة العرب بحياة الإيرانيين- والثقافة، مهما تعددّت مفاهيمها، تختصر في أنها منهج حياة- وكانت اللغة العربية المتجسّدة في القرآن والشعر العربيّ العمود الفقري لهذه الثقافة.

خلال تلك المرحلة هبطت اللغة الفهلوية الساسانية من مستوى رسميتها إلى مستوى اللغات واللهجات الإيرانية الأخرى التي كانت متداولة في أرجاء الشاهشاهية الساسانيّة، فامتزجت مفرداتها بمفردات العربية الوافدة، وتراجعت معاقل صفائها إلى بيوت النار الزرادشتية لغة طقوس ورسوم.

ومع ترسّخ السّلطة العربية في أطر الحياة وشؤونها في إيران وطموح أهل البلاد إلى المشاركة في السلطة والحياة العامة، وهجرة بطون وأفخاذ من القبائل العربية إلى إيران، واستقرارها هناك، وامتزاجها بالإيرانيين في الجوار والزواج والتعاطي اليوميّ، ازداد نفوذ العربيّة في ألسنة الإيرانيين ولهجاتهم حتى إذا انقضى القرن الثالث للهجرة أو كاد كانت اللغة الفارسيّة الدّريّة قد اشتدّ أسرها، معيدة إلى إيران لغتها القوميّة، وإن متوكئة على العربيّة في سبيل النهوض.

وخلال تلك الحقب من التطوّر كانت الدولة العباسيّة قد استحكم سلطانها، واشتدّ اختلاط العرب بالإيرانيين ولا سيما في العراق قاعدة الخلافة، ونشأ جيل مولّد من الشعبين، نبه منه شعراء بالعربيّة مجلّون طوّروا الشعر العربيّ، وأسلسوا صياغته، وخرجوا به من التقليد إلى التجديد في الموضوعات والأساليب والتعابير وما إلى ذلك.

في كنف هذا الإرث الشعريّ العريق المتجدّد، نشأ شعراء الفارسية الأولون. كان هؤلاء من ذوي اللسانين العربيّ والفارسيّ، تفتحت قرائحهم على العطاء الشعريّ بالعربية، بعد أن ثقفوا علوم العربيّة الموصلة وعلوم الدين، وحفظوا من الشعر العربيّ قصائده ومقطوعاته وتفقهوا في أساليب بيانه.

فبعد مرور نيف وقرنين على قيام الخلافة وهنت السلطة المركزيّة وازداد استقلال حكام الأطراف. رافق هذا المدّ الاستقلالي في السياسة والحكم عودة التبلور في الهوية، وبروز الحسّ القوميّ من جديد، فشجع الصفّاريّون في مشرق إيران ثم السامانيون في تلك الأطراف وآسيا الوسطى

(ولا سيما في عاصمتهم بخارى) شعراء البلاطات على اعتماد اللغة الفارسيّة الدّريّة– أي لغة البلاط، دربار– لغة تعبير شعريّ. وهكذا، بدأ، شيئًا فشيئا عهد من الاستقلال الأدبي في إيران، موازٍ للاستقلال السياسيّ النسبيّ.

انحاز الشعراء الإيرانيون الذين كانوا قد قرضوا الشعر بالعربيّة إلى صياغته بالفارسيّة، وراضوا طباعهم على التعبير بهذه اللغة، بعد العربيّة. وهكذا برز جيل من شعراء اللسانين معًا، من أمثال شهيد البلخي والرّودكي وأبي الطيّب المصعبي، وحنظلة الباذغيسي وسواهم. فانطلقت قافلة الشعر الفارسيّن وما تزال مضاهية شعر العرب غزارة وحيوية وغنى.

لقد غدت الأمة الإيرانية بعد الإسلام أمّة شعر تُدلّ على الدنيا بتراث لها فريد. وما كانت كذلك من قبل. بل كان لبّ تراثها في العهد الساساني يدور في فلك الأدبيّات الدينيّة. ومع أنّ قسما من ذاك التراث ضاع أو ضُيّع، إلا أن ما تبقى منه لا يُنْبِئُ بأنّ مكانة الشعر كانت فيه سامقة، والإنتاج فيه كان غزير ومميّزا. فقد نشأ شعراء الفارسية الأولون كما ذكرنا، في كنف الشعر العربي فاتخذوه مثالا يحتذى في المضمون والشكل، في فنونه وأغراضه ومطالبه thèmes، وأساليب بيانه وتبيينه وعروضه. وكان الشعر العربيّ، منذ العهد الجاهليّ، قد بلغ مكانة سامقة واستحكم مضمونا وقالبا. وغدا النموذج الذي اتخذه شعراء العربية من عرب وغير عرب، فيما بعد، ولا سيّما الإيرانيين منهم، فكأنهم حين جعلوه مثالا أعلى في شعرهم بالفارسية قد استردّوا بذلك بعض بضاعتهم وإسهامهم في الإبداع فيه.

دمغة العربيّة ومثاليتها

كانت الدراسة في الآف الكتاتيب التي انتشرت في دار الإسلام، ولا سيما في إيران، تقوم على تعلّم القراءة وقواعد العربيّة في صرفها ونحوها، بالسليقة والمعاينة أولا، ثم على نهج سيبوبيه ابن بيضاء شيراز. ثم يعمد العلماء إلى تحفيظ تلامذتهم قصائد الشعر الجاهلي ومعلقاته ولا سيّما مطولات امرئ القيس ولبيد والأعشى وسواهم وصولا إلى جرير والفرزدق والأخطل، فإلى بشار وأبي نواس ومهيار الديلمي وأبي تمام والبحتري والمتنبي، متدارسين مذاهبهم في البلاغة. وما ذلك إلا سبيل إلى فهم القرآن وما انطوى عليه من عقيدة وشريعة. ولذلك، سميت هذه العلوم وسواها **العلوم الموصلة**. ولما لم تكن العربية لغة الإيرانيين الأم فقد بذلوا في سبيل تعلمها لفهم دينهم الجديد ما لم يبذله العرب فأدّى الأمر بهم، فيما بعد، إلى التفوق، بعد أن انتشرت العجمة في الألسن باختلاط الأعراق واللغات.

يقول دولتشاه السمرقندي ما ترجمته بالعربية في هذا الموضوع: إنّ الفصاحة والبلاغة من خصائص العرب، وإن شعراء الفارسية يحذون حذو شعراء العرب في هذا الصّدد ولا سيما في أوزان الشعر، لأن العرب هم أساتيذ هذا الفن غير منازعين[5].

إلا أن **ديوان المتنبي** في القرن الرابع للهجرة وما بعده، و**"قفا نبك"** معلقة امرئ القيس، قبل ذلك، شكّلا دُرّتي البرامج الدراسيّة أيّامئذ. جاء في تاريخ البيهقي ما يعني بالعربية:

---

[5]– تذكرة الشعراء، ص 19

قال الأمير مسعود لعبد الغفار: ينبغي أن يؤخذ من الأدب بطرف. فعلمني قصيدتين من ديوان المتنبي و"قفانبك"[6].

وإلى جانب **دراسة القرآن والحديث النبوي** وما دار في فلكهما والشعر العربي. كان الطلاب يأخذون بآثار من النثر ولو نزرة يسيرة إلى جانب الشعر، في مراحل لاحقة. يقول نظامي العروضي السمرقندي ما مؤدّاه بالعربيّة، متوجّها إلى عدّة كتّاب الفارسيّة من العلوم والمعارف ما معناه بالعربيّة: "يجب اعتياد مطالعة كلام رب العزة وأخبار المصطفى وآثار الصحابة وأمثال العرب وكلمات العجم ودراسة كتب السلف ومناظرة الخلف كمثل ترسّل الصاحب والصابي... وقدامة بن جعفر ومقامات البديع والحريري... ومن دواوين العرب ديوان المتنبيّ"[7].

أما رشيد الدين الوطواط فيفصّل الأمر صراحة إذ يقول في صدد كلامه على تأثير المتنبيّ في الشعر الفارسيّ ما ترجمته بالعربيّة: "في اقتباس المعارف و[المعاني] الدقيقة ومتانة [السّبك]، جميع الشعراء الإسلاميين عيال على المتنبيّ، وقد طارت شهرة ديوانه بين العرب والعجم، [فترى] صدور الفضلاء يعزّون ديوانه"[8].

---

[6] تاريخ البيهقي، ص 112.

[7] جهار مقاله (المقالات الأربع، بالفارسيّة)، ص 22.

[8] راجع تذكرة الشعراء، ص 24.

ثم إن رشيد الدين كذلك، إذ أراد التدليل على مكانة عنصري وفرّخي في الشعر الفارسيّ عمد إلى تشبيههما بالمتنبي ذاهبا في "حدائق السحر" إلى أن فرّخي بالنسبة إلى الإيرانيين هو في منزلة المتنبيّ بالنسبة إلى العرب[9].

هذه الشهادات التي يدلي بها نقّاد الشعر الفارسيّ ومؤلّفو كتب البلاغة الفارسية تنهض دليلا على الأثر الدامغ الذي خلّفه الشعر العربيّ في الشعر الفارسيّ، في المضمون والفنون والشكل، كما سنرى تباعا، ولا سيما في مرحلة نشوء الشعر الفارسيّ ثم في مرحلة توطد أركانه.

كما أنّ هناك وجها آخر للاعتراف بهذا الأثر يكشف النظرة المثالية التي تعبّر عن انبهار شعراء الفارسيّة بشعراء العربيّة وعظماء العرب من غير الشعراء. وهذا أمر طبيعيّ، فالعربيّة، من جهة، غدت في وجدان المسلم الواعي، لغة مثالية تنزّل فيها كلام الخالق، وشعراء العرب كانوا أساتذة شعراء الفارسيّة، فكان من طبيعة الأمر أن يفخر التلامذة بأساتذتهم ويعتزوا بهم ويصبوا إلى مكانتهم.

ها هو رودكي (المتوفّى 329هـ/940 م) موطّد أركان الشعر الفارسيّ، على غرار امرئ القيس عند العرب، يشبّه نفسه بجرير وحسان بن ثابت وأبي تمّام وصريع الغواني مسلم بن الوليد وسحبان وائل سيّد الفصاحة والخطابة. يقول في مدح أبي جعفر أحمد بن محمد بن خلف بن الليث حاكم سجستان في قصيدته الشهيرة "مادرمي" أي أمّ الخمرة، مبيّنا تقصيره في مدح الحاكم مهما يفرغ عليه من الصفات:

---

[9] تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، ص 133، وهوالترجمة العربية للمجلد الثاني منة تاريخ الأدب في إيران من تأليف ادوارد براون قام بها ابراهيم الشواربي.

شعر سزاوار ميركفت ندانم، ورجه جريرم بشعر وطائي وحسّان،

سخت شكوهم كه عجز من بنامايد ورجه صريعم بافصاحت سحبان[10]

وترجمته بالعربية كما يلي:

لست أحسن قول شعر يليق بالأمير،

وإن أكن في الشـــعر (بمنزلة) الطّائـيّ وحسّـــان،

أنا في خوف شديد من أن بيين عجزي،

مع أني صريع الغواني (ترفدني) قصاحة سحبان،

ورد هذا المنحنى في شعر رودكي مكرّرا وصار من بعده سـنّة أخـذ بـها معظم الشعراء، ولا سيما في معـرض المديـح أو الفخـر بـالنفس والتفـوّق في الشعر، مثل فرّخي وعنصري، وبخاصة منوجـهري سـيّد شـعراء الوصـف والخمرة في الأدب الفارسيّ، وقد بالغ كثيرا في تشبيه نفسه بشعراء العرب وأساتذته في الشعر، وتشبيهه ممدوحيـه بعظمـاء العـرب حتـى بلـغ حـد التفريط، فغدت أقسام من قصائده مسردا لأسمـاء شـعراء العـرب وكتّابـهم ومشاهيرهم وتحوّلت، أحيانا، أحجيات في ذكر ألقابهم أو كناهم...

وتوخّيا للإيجاز، نقتطع من قصيدته الشهيرة في وصـف الشـمعة الـتي يختمها بمدح الشاعر عنصري بضعة أبيات فقط تدليلا على ما نقول:

كو جرير وكو فرزدق كو زهير وكـــو لبـيد

رؤية عجاج وديك الجنّ وسيف ذو يزن

كو حطيئة كو أميّة كو نصيب وكو كميت

أخطل وبشار برد، أن شـاعر أهل يمن؟

---

[10] - أحوال وأشعار رودكي (بالفارسية)، تأليف سعيد نفيسي، ص 1016-1018.

وان ذو امرو القيس وأن ذو طرفة ونابغة

وان ذو حسان وسه أعشى وان سه حماد وسه زن؟؟[11]

أما بعض قصائد منوجهري الأخرى فتغدو مسردا لمطالع القصائد العربيّة المعروفة فنتبيّن من خلالها سعة اطلاعه على تراث العرب الشعريّ المعروف منه والمغمور الذي لا يلمّ به سوى واسعي الإطلاع من الباحثين، كمثل قوله:

آنكه كفتست آذنتنا، أنكه كفت الذاهبين

آنكه كفت السيف أصدق أنكه كفت أبلى الهوى[12]

وكثيرا ما جاوز شعراء الفرس ذكر أسماء الشعراء العرب وتشبيههم أنفسهم بالمشهورين منهم وذكر مطالع القصائد المعروفة إلى ذكر أبرز خاصّة في شعر شاعر عربي أو ناثر بالعربية أو خطاط، نظير قول منوجهري في قصائد متعددة، مثلا:

- سخت نكو حكمتي جون حكم بو معاذ[13].
- سديكر مخلص أخطل جهارم مقطع أعشي[14].

وترجمتها تباعا:

- أنت معرق في جودة الحكمة على غرار حكم أبي معاذ (أي بشار بن برد)
- الثالث مخلص الأخطل والرابع مقطع الأعشى.

---

[11] ديوان منوجهري، ص73-74.

[12] ديوان منجهري، ص ص140.

[13] ديوان، ص 20

[14] ديوان، ص 120.

إضافة إلى ذلك، ما أكثر ما ذكر شعراء الفارسيّة صراحة أو من طرف خفيّ أسماء المؤلفات العربيّة الشهيرة في النحو والصرف والأدب واللغة والتاريخ، مثل كتاب الكامل للمبرّد (ت 285 هـ/898 م)[15] وشرح ابن جنّي (ت 392هـ/1002 م) والمنصف في شرح تصريف المازني[16](249هـ/863 م)، والكتاب لسيبويه ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب لإبن هشام[17] (ت1360 م).

كما درج رهط من شعراء الفارسيّة على المبالغة في استخدام المفردات والتعابير العربية في حشو قصائدهم ومقطوعاتهم، أو في قوافيها، وأحيانا في الاثنين معا، وهي على وزن واحد بحيث تغدو رديفا أي: بحيث تصبح القافية كلمة كاملة، و في بعض المواضع أكثر من ذلك. وهذا بيّن في عصور الشعر الفارسي المختلفة.

فهذا **برهاني** والد الشاعر المعروف معزّي يأخذ بذلك ويبالغ في قصيدته الشهيرة لدى المشتغلين بالأدب الفارسي القديم ذات المطلع الآتي:

سلام على دار أم الكواعب بتان سيه جثم عنبرذوائب[18]

وهذا الابن المرموق يسير على سنّة والده ومعاصريه، أي: الشاعر معزّي، مبالغًا في استخدام المفردات والتعابير العربيّة حتى أنك لتجد نفسك أمام قصيدة عربيّة اللغة لا يشوبها سوى بضع كلمات فارسيّة،

---

[15] ديوان، ص 58.

[16] ديوان، ص 113.

[17] ديوان، ص 113.

[18] راجع دراسة الدكتور محمد معين حول هده القصيدة في جملة مهر، العدد8، السنة 7.

متحدّيًا في شدّة الأسر والتشطير في مقاطع الوزن العروضيّ شعراء العرب العظام؛ يقول في قصيدة طويلة هذا مطلعها:

إي ساربان منزل مكن، جز در ديار من

تا يكزمان زاري كنم بر ربع وأطلال ودمدمن[19]

ثمّة، كذلك، شعراء آخرون ركبوا هذا المركب الخشن مبالغين حتى ابتعدوا عن لغة الناس المليئة بالألفاظ العربية إلا أنها مأنوسة. وخير مثال على ذلك قصيدة **لامعي جرجاني** التي ننقل هنا بعض أبياتها، تلافيا للإطالة:

هست أين ديار يار، شايد فرود آدم جدمل،

يرسم رباب ودعد راحال أز رسوم وازطلل!

جويم رفيقي را أثر، كو دارد از ليلي خبر،

داند كزين منزل قمر، كي رفت كي آمد زحل؟

بي آب ما نده منبعش، بي بار مانده مرتعش،

در قاعهاي بلقيش خيل شياطين را زجل!

رخسا وزلفش را عرب، در شعر خوانده روزوشب،

رنكينش رخ شيرينش لب، سنكينش دل سيمين كفل

برد از دلم صبر وخرد، جون بانك را برناقة زد،

كاريم بيش آورد بد، لما تولّى وارتحل[20]

---

[19] راجع ديوان مغزيّ، ص 597.

[20] – ديوان لامعي، ص 85.

أسباب الأثر العربي

لا بد من الإشارة في ذدا الصّدد إلى أن التأثير الشديد الذي أحدثه الشعر العربي في الشعر الفارسي أيامئذ، ثم فيما بعد، نسبيا، والمبالغة في استعمال المفردات والتعابير العربية على هذا النحو الذي مثّلنا عليه والذي لم يكن ليمتّ بصلة إلى اللغة الفارسيّة التي كانت شائعة في إيران حينذاك، يعود إلى عوامل مختلفة، منها:

أولا: نظام التعليم الذي كان معمولا به في إيران.

ثانيا: بلوغ مستوى اللغة العربية بين النخبة الإيرانية في إيران الكبرى يومذاك، وصولا إلى خراسان الكبرى وآسيا الوسطى، منتهى الرفعة والتفوق خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة بحكم التطور الطبيعي.

ثالثا: تشجيع البلاطات والحضرات المستقلة وشبه المستقلّة عن السلطة المركزية في بغداد الكتّاب والشعراء والمنافسة فيما بينها لاستقطابهم: بلاطات آل بويه في عراق العجم وفارس، وابن العميد والصاحب بن عبّاد في الرّي وأصفهان، وشمس المعالي قابوس بن وشكمير الزياري في طبرستان وجرجان، والسلطان محمود الغزنوي في غرفة وما يعرف اليوم بأفغانستان وصولا إلى الهند، وسوى ذلك من مباءات اللغة العربيّة في أراضي الشاهنشاهية الساسانية السالفة المتكثّرة دولا ودويلات. وقد كان لتنقّل الأدباء والشعراء بين هذه البلاطات وأسفارهم أثر في ترويج اللغة العربية والشعر العربيّ في تلك الأصقاع النائية حتى في الحضرات التي كانت تستقبل شعراء العربيّة والفارسيّة في آن مثل بلاط الغزنويّين.

رابعا: كون الأكثريـة مـن شـعراء الفارسـيّة حتـى عـهود متـأخرة مـن الشعراء ذوي اللسانين، يقرضـون الشـعر بالعربيّـة والفارسـيّة، في آن، أو يكثرون في اتجاه ويقلّون في اتجاه آخر بحسب البيئة التي وجـدوا فيـها، إلاّ أنّ تأثير الشعر العربيّ في الشعر الفارسيّ ظلّ غالبـا، فلـم يسـهّل هـذا الأمر نقل لطائف الشعر الفارسيّ ومناحيه الفنيّة المميزة إلى الشعر العربيّ، مع أن أعلامـه كـان أكـثرهم مـن الإيرانيـين لأنّ عمـود الشـعر العربـيّ في المضمون والشكل غلب عليهم والتصق في لاوعيهم باللغة العربيّة. ويكفي أن نعود إلى"يتيمة الدهر" للثعالبي النيسابوري لنتبينّ العدد الضخم من شعراء العربيّة الإيرانيين في القرن الرابع. ودونك على ذلك بعض الأسماء: أمـراء آل بويه، الصاحب بن عبّاد، بديع الزمان الهمذاني، شمس المعالي قابوس بن وشكمير، أبو الفتح البستي، وسواهم. ويقال مثل ذلك في كتّـاب النـثر والأدباء.

خامسا: تأسيس النظاميات. فمـع أنّ السـلاجقة اعتمـدوا منـذ القـرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد اللغة الفارسيّة لغة سياسـية وبـلاط وأدب، وتلاهم في ذلك سائر الفصائل التركيّة ولا سيما بعد تشرذمها، فقد حافظت العربيّة على مكانتها لغة للقرآن والديـن والفقـه. وكـان لتأسـيس النظاميّات– وهي معاهد تعليم عال– في المدن المهمّة أثـر في الحفـاظ علـى العربيّة.

لذلـك، أي: لهـذه الأسـباب مجتمعـة، ولا سـيما نظـام التدريـس الكلاسـيكيّ الـذي لم يتبـدل كثـيرًا والـذي أصبـح مؤسسـة مركزيّـة في

النظاميّات، استمرّ استعمال المفردات العربيّة في ازدياد خلال القرنين السادس والسابع للهجرة/ الثاني عشر والثالث عشر للميلاد وما بعد ذلك.

ومعلوم أنّ اللغة تحتمل معها أساليب البيان والمعاني والفنون الشعريّة. وذلك كله بيّن في شعر سعدي، سيّد الحلاوة الفارسيّة، شعرا ونثرا. ومجمع بحري الفصاحة والبلاغة باللسانيين العربيّ والفارسيّ، وإن رجحت كفّة الفارسيّة عنده على العربيّة. كذلك مثل حافظ الشيرازي العظيم الذي لم ينظم بالعربيّة نظما خالصا شأن سعدي، إلا أن ديوانه مليء بالأشعار الملمّعة والأبيات العربيّة. وبحسبك أن يكون الشطر الأول الذي يوازي بيتا من أول غزليّة أثبتت في ديوانه هو بالعربيّة:

ألا يا أيها الساقي أدر كأسا وناولها...

ولكم جاءت قوافيه عربيّة مقرونة بعلامات الجمع بالفارسيّة أو ما شاكل ذلك.

لن أقف عند سعدي وأثر الشعر العربي فيه لأنّ بعض الدراسات والأبحاث تناولت جوانب من ذلك، وإن قليلة حتى الآن، قام بها إيرانيون وعرب. فقد نشرت مؤسسة البابطين، بإشرافي ومشاركتي، أربعة كتب في هذه المناسبة خصّ باثنين منهما وبجزء من الثالث. أضف إلى ذلك أنّ مجلة "الدراسات الأدبيّة" التي أتولى رئاسة تحريرها، في مركز اللغة الفارسيّة وآدابها في الجامعة اللبنانية خصّت سعدي بالعدد الأول منها كاملا في ثلاث مئة وأربع وستين صفحة.

أعود إلى حافظ صنو سعدي في السحر الشعري الحلال، لأقول في تأثره بالشعر العربي والبيان العربيّ ولا سيّما الضّارب جذوره في القرآن، ما به

دلالة على تأثره المميّز. فقد اعتصر هذا العبقريّ تراث الغزل في الشعرين العربيّ والفارسيّ، وغزل العشقين المجازيّ والحقيقيّ، خمرة لكلامه الأثيريّ فإذا هو في غزليّاته الشهيرة التي صاغها عقد لآلئ نادرة في جيد الإبداع يذكرّك بجميع الشعراء الغزليين، ولا يذكرّك بأحد في آن!

ومن الكلمات القصار، أيضا، التي أقولها في حافظ والتي تبرز أناقة تأثره بالشعر العربيّ وعمقه المنزه عن التفاصيل: لقد بلغ شغف حافظ بالشعر العربي واللغة العربيّة وبالقرآن مبلغا جعله يطلق المرمى الشعريّ الرمزيّ لغزلياته أو يختم تطوافه في عالم الفناء والبقاء، بصدر بيت عربيّ أو عجز بيت. لكأنما الإشارة الأولى لانطلاق نقرة السمفونية الغزليّة لا يطلقها إلى فضاء العرفان الأكبر سوى شعر عربيّ يعود ليتنزّل وحيا على سائر الأبيات – وهو حافظ القرآن– الحافظ، تعريفا– شأن الأحرف الرموز في مطالع سور القرآن حبيب روحه. حسبنا هذا، ولتغب عنّا التفاصيل!

بعد هذه الظواهر – العوامل لتأثير الشعر العربي في الشعر الفارسي، نختار عينات وميادين من فنون الشعر وأغراضه تجلّى فيها هذا التأثير إذ إنّ التوسع في الأمر يستلزم أطاريح مطوّلة.

تميّز العربيّة

إضافة إلى التأثير اللّغوي العربيّ في مجال الأدب الفارسي، شعره ونثره، لا بدّ من الإشارة إلى خاصية في العربية نفسها– علاوة على العوامل السياسية والدّينية وطلب المكانة الاجتماعية والإفادة المادّية وسواها– جعلتها مؤهّلة للدور العالميّ الذي اضطلعت به، هي خصوصيّة الاشتقاق. ولنترك الكلام، في هذا السّياق، لسوانا، كي يشهد لنا من ليس

من أهـل العربيّـة، ولا سيّما إذا كـان علمـا مـن أعـلام الاستشـراق مثـل البروفيسور المغفور له "إدوارد غرانفيل بـراون" Edward Granville Broune حيث يقول:

"والعربية في الحقيقة من أصلح اللغات لتأدية الأغراض العلميّة، فهي غنيّة بالأصول وبالمشـتقّات الناتجـة عـن هـذه الأصـول. والمشـتقّات فيـها كثيرة، وهيّ تتّفق مع الأصل في اتصالها به مـن حيـث المعنـى وإن تحـوّر معناها قليلا بحسب اشتقاقها أو صياغتها". ثمّ إنّه [براون] يضـرب علـى ذلك أمثلة لكلمات مشتقة من جذور غفر وكمل وسقى، يقول:

"ولكي نبرهن على ذلك يحسـن بنـا أن نسـوق المثلـين الآتيـين، فأمّـا أولهما فمستمدّ من الاصطلاحات الطبيعية القديمـة، وأمـا الثـاني فقيـاس عليه ليمثّل لنا فكرة حديثة.

"للفعل العربيّ صيغ تبلغ الاثنتي عشرة صيغة، كل منها تمتاز بمعنى خاص متصل بمعنى الفعل الأصلي، فإذا أخذنـا صيغـة "الاسـتفعال" مـن "غفر" أمكننا أن نشـتقّ كلمـة "اسـتغفار" بمعنـى طلـب الغفـران، وكلمـة "مستغفر" بمعنى طالب الغفران، وكذلك يمكننا أن نشتقّ من كلمة "كمل" كلمتي "استكمال" و"مستكمل"، وهكذا في بقيّة الأفعـال. فلمـا ظـنّ أطبـاء العرب أنّ مرض الاستسقاء ناتج من كثرة الشرب، أسمـوه بـهذه التسـمية التي اشتقّوها من كلمة "سقى" وأسموا المريض به "مستسقي". فلما بـدت الحاجة في العصـور الحديثـة إلى مـرادف لكلمـة "أرينتالسـت Orientalist" لجأوا في العربية إلى مادة "شـرق" وصـاغوا منـها قياسـا علـى ذلـك كلمـة "مستشـرق" بمعنـى "الرجـل الـذي يطلـب الشـرق" أو "يجـد المتعـة في

دراسته". وهذان المثلان فيهما الكفاية للتدليل على مقدار اليسر الذي يصادفه الكاتب العربي إذا شاء التعبير عن أفكار جديدة أو مستحدثة، فما عليه إلاّ أن يلجأ إلى أنواع الصيغ والمشتقّات، وأن يختار منها ما يناسب التعبير عن فكرته، وسيكون في كل الأحيان موفّقا في حسن الأداء ورعاية الدقة حتى لو لم تكن الكلمة التي اختارها قد استعملها أحد من قبله"[21].

عالمية العربية وانحسارها ونفوذها:

أدّت الأسباب المذكورة، مجتمعة، إلى انتشار عالميّ للغة العربيّة، فاعتمدها الأدباء والشعراء والفلاسفة والأطبّاء وسائر المبدعين في العلوم الوضعيّة لغة تعبير، لا فرق في ذلك بين عربيّ وإيرانيّ وتركيّ وسنديّ ورومي. والأسماء في هذه الحقول كثيرة ومعروفة. ولأعلام إيران بينها حصّة الأسد.

إلاّ أنّ القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد شهد بوادر تأليف بسواها، ولا سيّما بالفارسيّة، نهض بها أعلام مثل ابن سينا والإمام أبي حامد الغزاليّ وسواهما. أمّا مؤلفات أخيه أحمد الغزالي في مسائل التصوّف فقد جاءت جميعها بالفارسية، إضافة إلى مؤلّفات أخرى قام بها سواهم في مجالات المعرفة المختلفة.

ثمّ إنّ وصول السلاجقة الأتراك إلى الحكم وانبساط رقعة السلطنة الغزنوية حتى الهند قلّصا من انتشار العربية ونفوذها، وأدّيا، إضافة إلى

---

[21] – تاريخ الأدب في إيران (ج2) من الفردوسي إلى السعدي، نقله إلى العربية الدكتور إبراهيم أمين الشواربي، مطبعة السعادة بمصر، 1373 هـ/1954 م، ص 16–17.

عوامل أخرى، إلى حصر التـأليف بالعربيّـة في شـؤون الديـن والفقـه ومـا إليهما، رغم الدور الذي اضطلعت به المدارس النظاميّة، وحلّت الفارسـيّة محلّها لغة للبلاط وللدبلوماسيّة في إيران وآسيا الوسطى والهند.

وهكذا، بعد أن اجتاحت اللغة العربية المشـرق بـدأت رقعـة امتدادهـا تنحسر. فقد شهد القرن الخامس للهجرة قمّة العطاء في الشعر الفارسيّ إذ بلغ غايته في الإحكام في آثار عنصري وفرّخي ومنوجـهري وعبـد الواسـع جبلي وسواهم. حتّى إنّ الذين اعتمدوا العربية في مؤلّفاتـهم العلميـة مثـل عمر الخيام أو في جلّ مؤلفاتهم مثل ابن سينا قرضوا الشعر بالفارسيّة. فقد أُثر عن هذا العبقريّ حتـى الآن اثنتـا عشـرة رباعيّـة وغزليّتـان ومقطوعـة بالفارسية جمعها المستشرق إتيه ونشرها سنة 1857م مع ترجمة بالألمانيـة لها بعنوان "ابن سينا، شاعرا غنائيّا بالفارسيّة"[22]. أمّا شأن عمر الخيام في رباعياته فلا حاجة بنا للتوسّع فيه لأنّ رباعيّاته الفارسيّة ترجمـت مـرارا بالعربية وطارت شهرتها في الآفاق في مختلف لغات العالم.

إلاّ أنّ انحسار اللغة العربية قابله نفوذ لها عجيب في اللغـة الفارسـيّة وآدابها، كما رأينا، تمثّل في سيل مـن الألفـاظ والتعابـير المتعلّقـة بـالدين والفقه، كذلك بشؤون الحياة اليوميّة العاديّـة، وفي الاتجـاه نفسـه في لغـة العلوم الوضعية. وهكذا اجتاحت العربيّة الفارسيّة، وكذلك اللغات التركيّة واللغة الأرديّة، وتحوّل حضورها المباشر في الحياة والثقافة إلى حضور غير مباشر، ما يزال قائما حتى اليوم.

---

[22] – راجع: مجلّة Gottinger Nachrichten، 1875، ص 455–567.

لغة الصفوة لا الشعوب:

والذي تجدر ملاحظته، في هذا الصّدد، أن اللغة العربية لم تتحوّل، في يوم من الأيّام- في إيران والمناطق الشرقية من أراضي الخلافة العبّاسية وصولا إلى آسيا الوسطى- إلى لغة محكيّة تتكلّم بها الشعوب الإيرانيّة والتركيّة، رغم سيطرتها لغة ثقافيّة عالميّة. فقد احتفظت الشعوب الإيرانية بلهجاتها المحلّية الكثيرة، إضافة إلى الفارسيّة الدّريّة التي ارتفعت إلى مستوى لغة الشعر والأدب بشكل عام. وهذا مخالف لما جرى في العراق وبلاد الشام.

ويعود ذلك إلى أسباب شتّى. منها أنّ الرقعة الواسعة للشاهنشاهية الإيرانية وصعوبة الاتصال بين أقطارها جعلت منها جزائر لغوية مستقلّة يتكلّم سكّانها بلهجات إيرانية مختلفة، وإن تفرّعت، في الأصل، من اللغات الإيرانية الآريّة المشتركة. فلم تكن وسائل الاتّصال والإعلام المتوافرة في أيّامنا ممكنة أيّامئذ لتقرّب بين الناس. وما يزال هذا الوضع قائما حتى اليوم رغم سيطرة اللغة الفارسية منذ أكثر من اثني عشر قرنا. وقد كان هذا الوضع قائما قبل الإسلام في أرجاء الأمبراطورية الساسانية بسبب امتداد رقعتها الجغرافية ونظام الطبقات الذي كان سائدا فيها. لذلك لم تسد اللغة الفهلويّة أو الفارسيّة الوسطى سوى الطبقات العليا في المجتمع.

هذا المحيط اللغويّ الشبيه بالفسيفساء أدّى إلى أمر غريب. فعلى الرغم من هجرة قبائل عربيّة كثيرة إلى أنحاء إيران المختلفة وآسيا الوسطى ووادي السّند وتأثيرها اللغوي في اللهجات المحلّية لم تستطع العربيّة أن

تسود الطبقات الشعبية، بـل استوعبت هـذه الطبقـات العـرب الوافديـن بالحياة اليومية والمساكنة والمصاهرة فنسيت الأجيـال المولّدة منـها لغتـها شيئا فشيئا وذابت في المحيط الإيراني الضخم. وما يـزال بعضـها يحتفـظ بأسماء عشائرها الأصلية حتى اليوم مثل: شيباني، بني عامري وغيرهـا. حتى إنّ الأجيال اللاحقة منها نشأت على اللغـة الأدبيّـة القائمـة، شـأن رابعة القزداري ابنة أمير بلخ العربي التي قرضت الشعر بالفارسية.

لا يتّسع المقام لضرب أمثلة على ذلك، يكفينا دلالـة علـى مـا نذهـب إليه أنّ كتاب مرزبان نامه الشهير ألّف باللغة الطبريّة ونقل فيما بعـد إلى الفارسيّة ومن ثمّ إلى العربيّة.

كما يكفينا مؤونة الإطالة الإشارة إلى ما جـاء في كتـاب المقدسـي (أبـي عبد الله محمد بن أحمد) الموسوم: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم الذي أكمله سنة 375هـ /955م. فهو كنز لغوي، إضافـة إلى تـبريزه في الناحيـة الجغرافية[23].

يذكر المقدسي أنّ أسمى درجات العربيّة في عهده، أيّ في أواخر القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، كان في فـارس، أي في أرض غـير عربيـة اللغة، لأنّ أهل ذلك الصّقع كانوا يبذلون جهدا كبـيرا في تعلّمـها. فـهم، بحسب تعبيره، يتكلّفونها تكلّفا، ويتعلّمونها تلقّفا[24].

يقابل ذلك ما نعرفه من طغيان العجمة واللغة المولّدة على مدن العـراق العربيّ، ولا سيّما البصرة والكوفة وبغداد. فقد كان طلاّب العلـم والشـعراء

---

[23] – نشره دي خويه De Goeje للمـرة الثانيـة عـام 1906 (المجلـد 4 مـن المكتبـة الجغرافيـة العربية).

[24] – أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص 32 من طبعة دي خويه.

يؤمّون البادية في أول الأمر لتلقّف البيان السليم عن أهلها، فتغيّرت الحال وساد اللّحن والفساد ألسنة الخاصّة والعامة وتسرّب إلى شعر الفحول. حتى إن الفارسيّة سادت في مدن العراق[25]. ذكر البلاذري أنّ جالية أصفهانيّة يرجع عهدها إلى صدر الإسلام كانت موجودة في البصرة. زد على ذلك وجود فرقة من الرّماة في هذه المدينة قوامها ألفا رجل، استقدمها عبيد الله بن زياد من بخارى، واتّخذ من البصرة لها مقرّا، أضف إلى ذلك الأعداد الكبيرة من الفرس الذين وفدوا عليها قبل هذين العهدين، لقربها من البلاد الإيرانية[26].

وما يقال في البصرة يقال في الكوفة. بل إنّ اختلاط اللغات في الكوفة كان أشدّ إذ إنّها كانت على مقربة من الحيرة قاعدة اللخميين قبل الإسلام حيث نشأ بهرام جور الملك الساسانيّ، وكان بها مرازبة ودهاقين من الفرس وأسرة عديّ بن زيد العبادي من تميم، وقد كتب لكسرى أبرويز وسفر بينه وبين قيصر الروم. كما كانت معقلا للثقافة الآرامية، فامتزجت العربيّة فيها بالفارسية والآراميّة. وعلى غرار جند البصرة، كان للكوفة أساورتها، أي: قادتها المنتجبون، وهم فرق من عسكر الساسانيّين الذين انضمّوا إلى الجيش العربيّ الفاتح. كان هؤلاء يقاتلون تحت راية رستم في القادسيّة، فعقدوا أمانا مع سعد بن أبي وقّاص، واختاروا الكوفة لهم مقرّا. وكان عددهم أربعة آلاف. وقد نقل زياد بن أبيه جماعة منهم إلى

---

[25] – فتوح البلدان، ص 336 (طبعة آلورد).

[26] – ياقوت: معجم البلدان 522/1، وابن قتيبة: عيون الأخبار 132/1.

سوريا عرفوا بالفرس، بأمر من معاوية، وجماعة أخرى إلى البصرة انتظمت في صفوف الأساورة[27].

وهكذا شكّل هؤلاء الأساورة مع أسرى الحرب الكثر من الفرس وذرّياتهم وضخامة عدد التجّار والصنّاع والمهاجرين إلى البصرة- وهي مرفأ مهم منذ ما قبل الإسلام- معظم سكّان الكوفة، فغدت الفارسيّة لغة التفاهم السائدة فيها. وقد ذكر الجاحظ ذلك وضرب الأمثلة على الألفاظ الفارسية الدخيلة التي حلّت محلّ العربيّة، وكذلك ياقوت في معجم البلدان. وقد امتدّ هذا الوجود الفارسيّ إلى مدن الثغور في شبه الجزيرة العربية، ولا سيّما إلى الحجاز، وبنوع خاص إلى المدينة (يثرب) وجوارها، كما ذكر الجاحظ أيضا[28].

أمام هذه الوقائع والأوضاع ندرك أسباب انتشار العربيّة الواسع كلغة للأداب والثقافة والعلوم في بلدان الخلافة الشرقيّة، وأسباب عدم تحوّلها إلى لغة محكيّة لدى الشعوب المختلفة في إيران وامتدادها الجغرافي إلى الشرق والشمال.

مواقف مثالية:

وإزاء ذلك، لا بدّ لنا من أن نعتصم بالعلم والموضوعيّة كي نأخذ العبر من ماضينا فنخطّط لمستقبلنا، وأن نجافي المواقف الحماسيّة الطوباويّة التي وقفها بعض الباحثين، غير مراعين التعقيدات الاجتماعية ومعطيات

---

[27] – راجع البلاذري، ص 280، وابن قتيبة: المعارف (طبعة 1330 هـ)، ص 165. سمّوا في الكوفة حمراء ديلم، نسبة إلى نقيبهم، وليس لذلك أية علاقة ببلاد الديلم كما ذكر البلاذري، ص 280، وصفة حمراء نسبة إلى العجم لأنّ ألوانهم كانت كاشفة.

[28] – راجع البيان والتبيين 10/1 ومعجم البلدان 338/3.

الماضي التي تختلف عمّا نحن عليه. فالسيطرة اللغوية للإمبراطوريات كانت تصيب الطبقات العليا من رعاياها وفلولا من الطبقات الدنيا الملحقة بتلك. وقلّما تغيّر وجه الكون دفعة واحدة أو بسحر ساحر. تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن في هذا الصّدد:

"فمنذ استقرّ الإسلام في الأقطار التي فتحها، انتصرت العربيّة على اللغات الأجنبية المفروضة على شعوب المنطقة، ثم أخذت تواجه اللغات الوطنية لهذه الشعوب..."[29]، إلى أن تقول:

"وكان من المتصوّر أن تجمع هذه الشعوب بين العربيّة لغة دين، وبين لغاتها القوميّة التي صانتها طويلا ضدّ الغزو، لغة حياة. ولكن لم يمض جيل أو جيلان حتى كانت العربية اللسان المشترك لشعوب أمّة واحدة، هجرت إليها ألسنتها القوميّة دون أن يجبرها أحد على ذلك، كما لم يكرهها مكره على أن تتخلّى عن عقائدها وأديانها لتعتنق الإسلام، بل تركت لغة الغرب تخوض معركتها مع لغات الشعوب الداخلة في الإسلام"[30]. وقد كررت ذلك في مكان ثالث قائلة عن العربية وانتشارها "وكانت لغة الحياة لجماهير الشعوب التي لا يصلها باللغة العليا غير القرآن الكريم"، ثم في رابع حيث قرّرت: "... فالأمم التي أسلمت وتعرّبت كان لها ميراث فكريّ وعلميّ احتاجت إليه الدّولة، وفرضه تطور النظم الإدارية والسياسيّة في الحكم، مع سيادة العربية واستقرارها لسانا للشعوب التي هجرت ألسنتها الأولى إلى لغة القرآن"[31].

---

[29] – راجع: لغتنا والحياة، دار المعارف بمصر، 1971، ص 60–61.

[30] – المرجع نفسه، ص 67.

[31] – المرجع نفسه، 74.

الآريّة تواجه السّاميّة

وهنا، نعود إلى طرح السؤال المهمّ الذي طرحناه في مقدّمة بحثنا وهو: لماذا لم تتحوّل العربية، على امتداد رقعة الشاهنشاهية الساسانية الشاسعة، إلى لغة تعبير شعبيّة؟ ولماذا لم تهجر شعوبها ألسنتها القوميّة، على عكس ما ذهبت إليه صاحبة كتاب "لغتنا والحياة"؟

لقد أجبنا عن بعض جوانب هذا السؤال خلال بحثنا، في سياق موضوعات أخرى مرتبطة بالموضوع الأساسيّ. ونشير ها هنا، ابتداء، إلى أنّ الذي حصل فعليّا وعمليّا هو عكس ما ذهبت إليه الدكتورة بنت الشاطئ. فمئات القبائل العربية التي استقرّت في إيران الكبرى وأثّرت لغتها العربية في لغات الشعوب المغلوبة، ولهجاتها في لهجاتها، ذابت في محيطها بمرور الزمان وتبنّت، بواقع الحال، لغات الأقوام ولهجاتهم، لا اللغة الفارسيّة وحدها التي غدت، كالعربيّة، شيئا فشيئا لغة الصفوة المثقفة والشعر والنثر الفني.

ويكفي أن نعود إلى كتاب المقدسي "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" لنتبيّن فسيفساء اللغات في بعض مناطق إيران، فهو يذكر اللغات التي كانت لسان الناس في عهده، أي في القرن الرابع للهجرة، ويعدّدها. وسنقتصر على ذكر بعضها، مثل: نيسابور وطوس ولسا، وهي متقاربة. أما بست فيصفها بالحسنة، وكذلك بلخ، والتي لسجستان في الجنوب الشرقي ففيها تحامل وخصومة، والتي لهراة يصفها بالوحش. ويذكر بعض الفروق بين سرخس وأبيورد وجرجستان (الشار) وجوزجان ومرو ومرو الرّود وبخارى التي يصف لغتها بكثرة الحشو، لكنها لغة البلاط أي

الدّريّة لأن بخارى كانت عاصمة الصّفاريين والسّـامانيين. فـإذا وصـل إلى طخارستان وباميان وصفهما بأنّهما مغلقتان لا تفهمان، إلى آخر اللائحة...

أما انتشار اللغة العربية إلى جانب اللغات الإيرانية فقد لاحظ المقدسي حدوثه في خوزستان فقال: إنّ أهلها يخلطون بين الفارسية والعربية لأنّهم يحسنون اللغتين وينتقلون مـن الواحـدة إلى الأخـرى بيسـر. ولا نسـتغربنّ ذلك، فخوزستان من الغثور، وحالة أهل الثغور معروفة[32].

وما ذكره المقدسي يطابق واقع الحال الذي وصفتـه المصـادر التاريخيـة الأخرى، ولا سيّما المكتوبة بالفارسيّة. وهو واقع كان قائما في سائر البلدان مثل بلدان آسيا الوسطى حيث انحسر انتشـار اللغـة العربيّـة حتـى بـين الصفوة. جاء في تـاريخ بخـارى المؤلّـف في أوائـل القـرن الرابـع للـهجرة/ العاشر للميلاد، في ترجمته بالفارسيّة التي قام بها القبّـاوي أنـه عمـد إلى نقله عن العربية " لأنّ أكثر الناس لا يرغب في قراءة الكتب العربيّة"[33].

ثمّ إنّ لنا دليلا ساطعا آخر علـى أنّ اللغـة العربيـة لم تنتشـر في تلـك البقاع إلاّ بين الصفوة المثقّفة والحاكمة (من غير شمول)، في مديـح المتنبّـي عضد الدّولة البويهي. فعندما قصد شاعرنا ذلك الأمير المقتدر العالم الـذي

---

[32] – راجع "أحسن التقاسيم"، ص 418.

[33] – راجع تاريخ بخارى، ص 15، في ترجمته بالعربية التي قام بها د. أمين عبد المجيد بدوي ونصر الله مبشّر الطّرزي، ونشرتها دار المعارف بمصر في سلسلة ذخائر العرب (د.ت). والطريف في هذا الكتاب أنّ مؤلّفه وضعه بالعربيّة، في الأصل، وهو أبو بكر محمد بن جعفر النّرشخي (ت 332 هـ/ 943م)، ثـم نقلـه إلى الفارسيّة أبـو نصـر أحمـد بـن محمـد بـن نصـر القبـاوي (ت 522 هـ/1128م)، ثم اختصره محمد بن زفر بن عمر (ت 574 هـ/ 1178م). وقـد غيّـب الضيـاع أو سواه الأصل العربيّ، فنقله من جديد إلى العربية من الفارسيّة بدوي والطرزي...

تلقّب بشهنشاه وقطع بلاد فارس ليصل إلى شيراز قاعدته لم يسمع خلال رحلته من يتكلّم بالعربية فقال قوله الشهير في وصف "شعب بوّان":

مغاني الشعب طيبا في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان

ولكنّ الفتى العربيّ فيها غريب الوجه واليد واللّسان[34]

أمّا التعليل الذي نراه لكل ذلك فهو الآتي:

شاعت اللغة العربيّة حيث كان استقرار لهجرات عربيّة سابقة للإسلام، وبخاصة حيث كانت اللغات السّامية أخواتها ألسنة الأقوام، فتعرّبت شعوبها بيسر. ففي سورية والعراق، مثلا، كانت السريانية واللهجات المتفرّعة من الآرامية سائدة في أوساط الكلدان والسريان، والصابئة الذين كانوا وما يزالون يتكلّمون لغتهم السّامية المعروفة بالمندائية، وكذلك كانت السريانية لغة الحرّانيين الذين تسمّوا بالصابئين تقية، ولغة الموارنة في جبل لبنان. ولا ننسينّ شيوع السريانية في الحيرة ومحيطها، وسواها من النواحي.

إلاّ أنّ العربية واجهت في إيران لغات إيرانية آريّة، إضافة إلى الفارسيّة الدّريّة. وهي لغات تختلف في بنائها وصيغها اختلافا جوهريّا عن اللغة العربية واللغات السّامية. كما أنّ خصائص شعوبها تختلف عن خصائص الشعوب السّامية. فلم يكن، ثمّة تجانس لغويّ وما يستتبعه من نسق متقارب في التفكير، بين العربيّة الوافدة واللغات المتداولة هناك منذ القدم.

---

[34] – راجع ديوان المتنبّي.

لذلك وجدت الأسر الإيرانية الحاكمة شبه المستقلّة والمستقلّة من الطبيعي أن تشجّع الشعراء على مدحها بالفارسية الدّريّة وتعزيزها. فنبغ الرّودكي رصيف امرئ القيس عندنا. ثم قام الفردوسي بحركته القوميّة اللّغويّة فنظّم الشاهنامه مدلاّ بتاريخ إيران على جميع الأقوام ولا سيّما العرب. وقد كان هذا دأب الصفّاريّين والسامانيين ثمّ الغزنويّين وحتى السلاجقة. يذكر صاحب "تاريخ سيستان" من ذلك العهد (بالفارسيّة) أن يعقوب بن الليث الصّفار بعد فتوحاته في خراسان واستيلائه على هراة وبوشنج وحصوله على منشور [السلطة] سجستان وكابل وكرمان وفارس من محمد بن طاهر وسحقه الخوارج، تقدّم الشعراء يمدحونه بالعربيّة فقال لكاتبه ولهم: لم يمدحونني بلغة لا أفهمها[35]؟

ولم نشهد في الأوساط السّامية حركات شبيهة بها أو تيّارات من هذا القبيل لتقارب اللّغات وأنماط التفكير بين شعوبها.

ويوافق تعليلي ملاحظة المؤرّخ الكبيرفيليب حتّي بالنسبة إلى وضع العرب في الأندلس والإسلام والحضارة، بالتالي، يقول حتّي: "واستهدفت الأندلس بعد منتصف القرن الثالث عشر لعمليتين، أولهما تنصير أسبانيا والثانية توحيدها. وكان تنصيرها يختلف عن استرجاعها وتوحيدها. فالقسم الوحيد من شبه جزيرة إيبريا الذي تأصّلت فيه جذور الإسلام كان ذاك الذي زهت فيه الحضارة السّامية القرطاجيّة من قبل. ومثل ذلك ينطبق على صقلّية، وهي حقيقة على شيء من الأهمّية. فقد كان الخطّ الفاصل بين الإسلام والنصرانية بوجه عام يطابق الحدود القديمة الفاصلة

---

[35] – تاريخ سيستان (بالفارسيّة)، طبعة طهران، ص 209.

بين المدنيّة الفينيقيّة والمدنيّة الغربيّة". ينتهي كلام حتّي وجرجي وجبّور هنا، بالنسبة إلى هذا المطلب. لكنّهم في الفقرة نفسها يسوقون الكلام على المسلمين المدجّنين في الأندلس الذين يشبه وضعهم، على مرّ الزمان ونشوء أجيال جديدة، وضع العرب الذين انتقلوا إلى إيران وآسيا الوسطى وسواهما وذابوا فيها. يقول المؤرّخون الثلاثة: "ولم ينته القرن الثالث عشر حتى كان كثيرون من المسلمين قد انضووا تحت لواء النصرانية إمّا عنوة أو صلحا ولكنهم ظلّوا متمسّكين بشرائعهم ودينهم. وقد أطلق على أمثال هؤلاء من المسلمين اسم المدجّنين "Mudejars" (مدخار بالأسبانية). وكان كثير منهم قد نسوا العربيّة واكتسبوا لغة الرومانس الأسبانية وأخذوا ينخرطون في سلك الجماعة المسيحيّة ويذوبون فيها"[36].

العربيّة تستمرّ في إيران

بعد هذه الجولة السريعة فوق تضاريس انتشار العربيّة في إيران وما تاخمها شرقا وشمالا، لا بدّ لنا من القول إنّ تأليف الصفوة المثقّفة في تلك الديار باللغة العربية ظلّ مستمرّا بعد القرون الوسطى، وإن بوتيرة هادئة، ولا سيّما في شؤون الدين والفلسفة.

أما في العصر الحديث فاستمرّ الأمر على هذا المنوال في الشؤون الدينيّة بوتيرة أهدأ. إلاّ أنّ مجال الشعر عاد إلى الانفتاح أمام العربيّة من جديد، فنبّه في القرن العشرين شعراء إيرانيون كثر باللغة العربيّة عاش بعضهم في البلدان العربية، ولا سيّما في العراق، مثل عبّاس الخليلي الّذي استمر في

---

[36] – حتّي وجرجي وجبّور: تاريخ العرب (مطوّل)، 655/2، الطبعة الرابعة، دار الكشّاف، بيروت (ب.ت)، 1973؟

العطاء حتى أواخر الستّينات من القرن المنصرم شعرا رقيقا يذكّرك بالعبّاس بن الأحنف. وما يذكر في هذا الصّدد أنّ موهبته الشّعرية انتقلت إلى ابنته سيمين بهبهاني التي تعتبر من شعراء إيران البارزين في القرن العشرين، إلاّ أنّها، خلاف والدها، شعرت باللغة الفارسيّة.

رأس مال غير مستثمر

أمّا في عهد الجمهورية الإسلامية الإيرانية فقد عزّزت مكانة العربية في إيران في المبدأ والتطبيق. لقد اتّخذت السلطة موقفا رسميّا في هذا الشأن فأفردت للغة العربية مادة في دستورها الجديد هي المادّة السادسة عشرة، جاء فيها:

"بما أنّ لغة القرآن والعلوم والمعارف الإسلامية هي العربيّة وأنّ الأدب الفارسي ممتزج معها بشكل كامل، لذا يجب تدريس هذه اللغة بعد المرحلة الابتدائية حتى نهاية المرحلة الثانوية".

وقد طبّقت هذه المادّة بالفعل فعمّم تدريس اللغة في المدارس، وألّفت في هذا المجال كتب خاصة موجّهة لتدريس التلامذة، إضافة إلى كتب قديمة كانت مستعملة فيما قبل. وإذا عرفنا أنّ عدد التلامذة في المرحلة الثانوية في إيران يتجاوز الستة عشر مليونا قدّرنا الأهميّة التي تنطوي عليها هذه المادة الدستورية، ومدى انتشار اللغة العربية في إيران الجمهورية في جيل الشباب، إلى جانب سيادتها في الحوزات الدينية في مختلف المدن والنواحي الإيرانية.

والجدير بالذكر أيضا أنّ أقساما للغة العربية وآدابها تقوم في الجامعات الإيرانية الكبرى منذ ما قبل الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وقد عزّزت

في في عهدها. وهي من حيث البرامج والمناهج ومستويات التدريس في مرحلتي الإجازة والدراسات العليا تشابه رصيفاتها في جامعات الدول العربية. وإذا كان الجيل القديم- على رغم تبحّره في علوم اللغة والعلوم الموصلة، بشكل عام، إضافة إلى اطّلاعه الواسع على الآداب وما إليها- يرتطن لكنة فارسيّة، فقلّما تقع في جيلنا على من لا يتكلّم العربيّة مثل أهلها، مع تنويع في اللهجات وفاق البلاد التي يكون تردّد إليها أو نشأ فيها أو أكمل فيها دراساته العليا.

وقد أشرفت شخصيّا على أطاريح للدكتوراه لطلاّب إيرانيين في الجامعة اللبنانية وسواها كانت من بين الأطاريح المبرّزة في حقول العربيّة وآدابها. وهذا ما صرّح به إليّ أساتذة عرب كبار من جيلنا وأجيال من جاؤوا قبلنافي مختلف البلدان العربية.

من جهة أخرى، نشرت في إيران، عبر العصور، مخطوطات كثيرة عربيّة اللغة حقّقها أساتذة إيرانيون وأفاد منها العرب والدارسون. إلاّ أنّ الذي يسترعي النّظر، منذ قيام الجمهورية الإسلامية الإيرانية، هو العدد الكبير من المخطوطات العربية التي تنشر في إيران، سواء منها ما ينشر لأوّل مرّة أم ما يعاد نشره بالعودة إلى نسخ لم تكن في متناول المستشرقين أو البحّاثة العرب، في مختلف علوم الدين واللغة وفي الآداب والفلسفة، ويقوم بتحقيق المخطوطات تحقيقا علميّا أساتذة إيرانيون وأحيانا باحثون من العرب في إطار من التعاون الخيّر.

هذا الذي أشرنا إليه وأمور أخرى لم نتناولها يدلّ على أنّ اللغة العربية وما تحمله من حضارة ترتع في إيران في محيط غير غريب عنها،

بل هي تشكّل حجر الزاوية في ثقافة الأمّة الإيرانية منذ انتشار الإسلام في ربوعها حتى اليوم. ورغم سيطرة الإنكليزية في بقاع العالم وإقبال الناس عليها في إيران، كما في سواها، ورواج لغات حضاريّة عريقة فيها كالفرنسية والألمانية، فإنّ العربية إلى جانب الفارسيّة تبقى في أسّ البناء اللغوي والحضاريّ للشخصيّة الإيرانيّة.

إذا تملّينا هذه الشؤون برويّة تبدّى لأهل العربيّة رأس المال اللغويّ- الحضاريّ الضخم والعريق الذي تحصّل لهم في إيران والذي لم يستثمروه حتى الآن. وهو رأسمال ينسحب، عبر إيران، إلى بلدان أخرى كانت جزءا من إيران الكبرى أيّام امتدادها الإمبراطوريّ: أفغانستان، باكستان، أقسام من الهند، آسيا الوسطى في جمهورياتها الخمس، اليوم، بلوغا إلى القوقاس.

الإنقاذ الموعود

وفي عصر تتنافس فيه الأمم لنشر لغاتها وثقافاتها في مواجهة مدّ العولمة، ونرى منظومة الدول "الفرنكوفونيّة" تحشد طاقاتها في مواجهة الإنكليزية والأمركة الطاغية، حفاظا على مواقعها القديمة وسعيا إلى مساحات جديدة، ولو يسيرة، لا نتبيّن أيّ جهد مرموق لجامعة الدول العربية أو للدول العربيّة منفردة في الحفاظ على مواقعنا في الدول الإسلاميّة أو الدّول المشبعة بالثقافة العربيّة الإسلاميّة.

انطلاقا من هذه المعطيات أدعو الدول العربيّة إلى إنشاء منظّمة خاصّة، لا صبغة حكوميّة لها، تعنى بتنمية تدريس اللّغة العربيّة في الدّول الإسلاميّة غير الناطقة بالعربيّة، وتدريس بعض العلوم والمعارف الإسلاميّة

بها، وكذلك بين الشعوب الإفريقية والآسيوية التي تربطنا بها علاقات جوار أو روابط خاصّة. هذا، إضافة إلى الجهد الذي يجب أن نبذله منذ الآن في إطار المنظّمة المذكورة لنشر لغتنا في بلدان العالم، ولا سيّما تلك التي تربط العرب بها علاقات حسنة مثل فرنسا حيث يعيش بضعة ملايين من العرب، ومثل إسبانيا وإيطاليا اللتين كان للثقافة العربيّة فيهما جذور عريقة طوال قرون متمادية. ثمّ، انطلاقا من هذه القواعد، نوسّع دائرة انتشار العربيّة في العالم.

إنّ مجال انتشار اللغة العربيّة، سواء من حيث المتكلّمين بها عددا، أم من حيث البلدان التي تغطّيها، يفوق مجال انتشار الفرنسيّة. فإذا قارنا نشاط منظمة الدول الفرنكوفونية بنشاطنا تبيّن لنا غيابنا المريع عن مسرح السباق العالميّ وحضور سوانا المناضل بعناد واستمرار. فهلاّ اعتبرنا؟! إنّ الاعتبار شرط لتقدّم الفرد والجماعة، وهو شأن جوهريّ ندب إليه الله الإنسان خليفته في الأرض ليعمّرها إقرارًا بفضله، تعالى.

موقع العربية بين اللغات البشرية

الدكتور رشيد عبد الرحمن العبيدي

أستاذ علم اللغة - مدير مركز البحوث والدراسات الإسلامية

بغداد - العراق

ربما يكون في مثل هـذا البحـث غرابـة لم يألفـها الكثـير مـن المعنيـين باللغات إذ كيف يكون للغة قوم على وجه الكرة الأرضية، تأثير في لغـات البشر؟ وما نوع التأثير الذي تتركه اللغة في غيرهـا؟ وهـل التـأثر والتأثـير بين اللغات إلا قضايا نسبية تتحكـم فيـها ظـروف اللغـة المؤثـرة في اللغـة المتأثرة، كالموقع، والاحتكاك، والسيطرة العسكرية، والاحتـلال، والغـزو، والثقافة والتجارة، والسياحة، ووسائل البحـث والدراسـة، ومـا يمـت إلى ذلك كله بصلة.

فموقع اللغة قريبا مـن موقـع لغـة أخـرى، يـؤدي إلى الاحتكـاك بـين شعبي اللغتين، ومن ثم إلى أخذ هذه اللغة مـن تلـك مـا يتيسّـر أخـذه مـن مفردات، وبعض الظواهر التركيبية والأسلوبية الكائنة في اللغة المؤثرة.

وتـؤدي اللغـة المسـيطرة الغازيـة دورا كبـيرا في تغيـير بعـض الظواهـر الدقيقة في اللغـة المغـزوّة، حتـى تصبـح هـذه التغـيرات فيـها ملمحـا مـن ملامحها وسنة من سننها في لسان أهلها، ويحدث مثل هذا التأثـير حـين يفرض الغزاة على المغزوين التكلم بلغتـهم الغازيـة، ويدخلونـها في التعليـم والتثقيف، والتربية، والتأليف، ومن ثم جعلها اللغة الأولى، واللغة الأصلية لغة ثانية.

وتقوم وسائل التجـارة، والإعـلان والنشـر، والتثقيـف والسـياحة بـدور كبير وفاعل في إدخال مفردات ومصطلحات واستعمالات يومية على اللغـة المحلية، إذ إنّ كثيرا من مفـردات العلـوم والثقافـة والإعلانـات التجاريـة وغيرها تكون جديدة أو مستحدثة أو مولدة، فلا يرى أبناء البلاد المتعاملـة

مع الجهات المستفيدة تجاريا وثقافيا، ومن الأخذ بما يفد عليهم من الخارج مضطرين ـ حتى يتهيأ لهم إيجاد مقابل من الألفاظ والمصطلحات في لغتهم المحلية، ليحل اللفظ الأصيل محل اللفظ الدخيل، كما نجد مثل ذلك فيما يحدث للفظ (تلفزيون) ـ مثلا ـ فقد أخذت اللفظة مكانها في الاستعمال اليومي حتى عمل الباحثون اللغويون على وضع مفردة مقابلة لها فصاروا إلى استعمال (تلفان) على (تفعال) من الفعل (تلفن) أي: أنهم سمحوا لأنفسهم أن يجعلوا (جذرا) من لفظ: تلفزيون الفرنسي، أو (تلفشن) الإنكليزي، وأن يشتقوا منه (تلفازا)، اسما، و (تلفن) فعلا ومنهم من ترك اللفظ الدخيل، فاستعمل لفظ: (مشهاد)، كما وضع في مقابل (راديو): مذياعا، وفي مقابل (تلفون): هاتفا.. وهكذا.

إن التأثر والتأثير في اللغات سنة طبيعية، وقانون دائم، فاللغات تأخذ وتعطي، ويعمل التقارب والمعايشة في المكان والزمان عملا كبيرا وفاعلا في الإقراض، والاستعانة، ولكي يستطيع الشعبان المتقاربان أن يتواصلا، ويتفاهما، يصيران إلى المزج بين لغتيهما، فتأخذ كل لغة من الأخرى ما يسد حاجتها، وما يؤهل حامليها والمتكلمين بها للتفاهم والتواصل مع من هم في جوارهم، وهذه سنة طبيعية مستمرة بين الشعوب المتجاورة، فالعربي - اليوم - الذي يعيش في الجهة الشرقية من العراق لا يستطيع التفاهم مع الفارسي - الإيراني - والتركماني - والكردي فيمزج بين العربية ومفردات من اللغات التي يتكلم بها أبناء الحدود الشرقية والشمالية الشرقية من العراق، كما يستطيع الكردي والتركماني والفارسي

أن يتفاهم مع العربي، مع ملاحظة الغلبة للغة العربية في التفاهم، لكونـها لغة الدين الإسلامي - أولا - ولأنـها لغـة الشـعب العراقـي عمومـا، وهـي اللغة العامة لكل الشعب عربـا وأكـرادا، لأن الجميـع علـى صلـة مباشـرة بالقرآن الكريم - يوميا - يتلونه تديّنا، ويؤدون عبادتهم، بآياته.

ومـا حصـل في العـراق حصـل في كـل الأقطـار الأخـرى الـتي دانـت بالإسلام، وعاش العرب فيها إلى جانب أهل تلك البلاد يقـول (ماسـنيون) في مقال له بعنوان: (العربية لغة الإسلام الدينيـة المقدسـة)[1]: (لا ريـب في أن الإسلام قد اتخذ العربية لغته الدينيـة الرسميـة) و (إنـها لغـة الرسـالة الشاملة وأداة الإسلام لنشر الإسلام بين الأمم قاطبة).

والباحثون مثقفون - أو أغلبهم - على ما تركه الديـن الـذي خـرج مـن الجزيرة، وانتشر في الأرض من آثار واضحة المعالم في لغات البشر.

لقد كانت العربية قبل الإسلام، لغة جيـل مـن النـاس كبـير القـاعدة، متسع الأرض، يعيش في داخل جزيرة العـرب، وخارجـها، فأمـا الجيـل الذي يعيش في داخل الجزيرة فهو العربي الذي امتد في عروق الزمـن مـدة لا نعلم بدأها ولكننا نعلم أنه موجـود فيـها قبـل التـأريخ بـآلاف السـنين. فالموجـات الـتي خرجـت مـن جزيـرة العـرب إلى أرض الرافديـن، وأرض كنعان، وامتد تأثيرها إلى إفريقيا في سكان شمـال إفريقيـا ووسـطها كمصـر وليبيا والحبشة والمغرب وتونس والجزائـر، كـانت قـد خرجـت مـن أرض

---

[1] ـ صحيفة الجنوب: سنة 1930 / ص3 وص7 . وانظر: الأصول الفكرية: د. الخالدي: 320/1.

اليمن وما جاورها في حدود أربعة آلاف سنة (ق م) وسكنت أرض العراق، وكونت حضارة بابل وآشور كانت تتكلم العربية، كما يدّل على ذلك النقوش الكتابية التي اكتشفت، وكانت تتميز بكل سمات العربية من إعراب واشتقاق، وأسماء الأشياء،من نحو (إذن) و(عين) و(سماء) و(أرض) وأسماء أعضاء الجسم الإنساني، والظواهر التركيبية من العربية، كالتنوين والرفع والنصب والجر، فكانت عربية باللهجة التي تميز بها الأكديون، من تغير في بعض الأصوات، واختلاف في بعض الدلالات، وتميز في بعض أنماط صيغ الاسم والفعل والحرف، ولكنها في العموم هي عربية الجزيرة، وكذلك الحال في مساكن الكنعانيين في الشام وفلسطين ولبنان والأردن، فقد كان الكنعانيون عربا خرجوا في حدود (3000) ثلاثة آلاف قبل الميلاد وسكنوا أرض كنعان، وتميزت لغتهم بعروبيتها، بكونها جزرية، وانقسمت إلى لهجات كما في حال العربية في موطنها الأصلي أرض الجزيرة، فالمفردات والصيغ والظواهر التركيبية، والنظام الصوتي، ودلالة المفرادات، لم تكن إلا عربية ذات لهجات تطبع كل واحدة منها بطابع الموقع والبيئة وظروف السكان والتقوقع أو الاختلاط، ولذلك كانت الاوكريتية والكنعانية الأم، والعبرية، والفينقية والمؤابية، والبونية وغيرها تمثل مظاهر لهجية للغة واحدة هي الكنعانية، وكانت كلها فروعا – لهجات للغة واحدة هي عربية الجزيرة. هذا هو الذي جعل ابن حزم (456هـ) يقول: (وإنما العربية والعبرية والسريانية لغة واحدة . . .)[2]

---

[2] ـ الأحكام في أصول الأحكام: 30/1.

ولقد كان تأثير هذه اللهجات كبيرا في لغات أخـرى عرفتـها إفريقيـا، كالمصريـة القديمـة ـ الحاميـة ـ والنوميديـة الليبيـة القديمـة ولهجـة أهـل قرطاج في تونس، وامتد هذا التأثير إلى أرض المغرب وإلى الحبشة، بحيـث كونـت هـذه التأثـيرات وجـود لغتـين همـا الحبشـية السـامية، والحبشـة الحاميـة، فالسـامية كالنيجريـة والتجرينيـة ، والهرريـة والجعزيـة والأمهرية، وغيرها مما يمثل صورة من صـورة الجزريـة الأم الـتي زحفـت مع أهلها عبر زمن طويل وبعيد إلى هذه الأصقاع، وليـس ذلـك بغريـب إذا ما علمنا أن ثمة من يذهب إلى صنهاجة، وهي قبيلة عربية قد سكنت منذ أقدم العصور أرض إفريقيا وكونت أصلا من أصول سكان إفريقيـا، إن هـذا الامتداد في تـاريخ عريـق ومكـان واسـع مـن الأرض لقبـائل العـرب الذيـن يحملون لغة الجزيرة العربية معهم، ليدّل على أن اللغـة العربيـة قـد كـان لها هذه السطوة الكبيرة، والانتشار الواسع في الأصقـاع إلى جـانب اللغـات المحليـة والإقليميـة، وربمـا كـان لأهلـها هنـاك تأثـير كبـير في الشـعوب المحتكة بهم[3] وليس ذلك بغريـب إذا مـا علمنـا أن رسـول اللهﷺ في مطلـع

---

[3] ـ يشير د. محمود الخالدي في كتاب الأصول الفكرية/ حـ ص 339 إلى أن المنطقة المسـماة اليـوم جغرافيـا وسياسـيا ـ لبنـان – لم تزدهـر العربيـة وتـترعرع فحسـب بـل انطلقـت تثبـت دعائمـها الراسخات في بطاح فارس في بلاد الغال وفي أدغال افريقيا، وفي رياض الأندلس، وما كادت الأقطار الناطقة بالضاد تستقل، كما استقل لبنان، حتـى انتفظـت الفصحـى انتفاضتـها الجبـارة الـتي مـا عرفت لها نظيرا في قديم الزمان تبادر أهلها إلى تلبية حاجات الحضارة والعمـران، وتعبـد دروبـها بيدها من بيروت إلى الظهران ومن البصرة إلى تطوان.

البعثة النبوية قد راسل الملوك والعظماء في فارس والروم ومصر، يدعوهم إلى الإسلام وكان قد كتب ﷺ إليهم بالعربية[4]، وفي هذا الأمر احتمالان.

1 ـ إن هؤلاء الملوك كانوا يعرفون العربية، ففهموا مضامينها وأدركوا دعوة الرسولﷺ لهم، أو تكون قد ترجمت لهم وهذا أمر غير مستبعد، وهو – أيضا يدل على كون اللغة معروفة عندهم، وفيهم من يترجمها ويعنى بها.

2 ـ أن هذه الرسائل كانت بمثابة إرهاص لأن تكون العربية لغة العالم، وأن الذين سيتكلمون بها في المستقبل ينضمون تحت لواء أمة واحدة تدين بدين واحد وتتكلم بلسان واحد.

وسيكون لها المكانة الأولى بين لغات الأرض، ومن طريق هذه المكانة سيكون لها الأثر الكبير في لغات البشر، لأنها ستحتك بكل اللغات العربية منها، وستترك فيها آثارا من الألفاظ والاستعمالات وقد حدث هذا، فعلا، فيما فعلته في اللغات الهندية والأفغانية والتركية، والفارسية والكردية، والبربرية، والإسبانية بل في اللاتينيات عموما[5]. يقول عبد القادر الريحاوي في كلام له، نشره في اللسان العربي[6]: (بعد أن فقدت اللغة اليونانية سيادتها، أصبحت اللغة العربية لغة رسمية للعلم والثقافة)، ويشير في مقاله إلى أن شعوب الشمال الإفريقي قد حال تمسكها

---

[4] ـ انظر جمهرة رسائل العرب: أحمد زكي صفوت: ص30.

[5] ـ ينظر اللسان العربي عدد شوال 1388: ص 227.

[6] ـ نفسه: ص 196.

بالدين دون القضاء على اللغة العربية، فيها برغم جهود المستعمر الجبارة. والبيئات العربية الخالصة في سوريا ولبنان تعنى بهذه اللغة أفضل العناية مع أنها في الأعم الأغلب أبعد ما تكون عن الوازع الديني والوعي الإسلامي. والريحاوي إنما يقول ذلك يريد أن يثبت أن اللغة العربية قد أثرت في شعوب هذه الأصقاع من غير أن يكون للدين دخل في نشرها، وترسيخ قواعدها في شعوب هذه الأقاليم والمدن، وهو رأي قد لا يتفق مع آراء الذين يرون أن العربية لغة الدين وأنها من الدين، وأنها ملازمة بسيرورة القرآن في الأرض، تحل معه أينما حلّ، وتستقر أينما استقر في شعوب الأرض، فالإسلام هو الذي حملها للبشر، ليكون لها الموقع الأول بين لغات العالم في تاريخ الحضارة الإسلامية.[7]

وهذا الرأي الأخير هو رأي جمهرة كبيرة من علماء العربية، وباحثيها، ومن المستشرقين، فيقول المستشرق الفرنسي (غودفروا دومومبين) في كتابه (النظم الإسلامية).

(ونستطيع أن نقول بشيء من المبالغة: إن نظم أي شعب إسلامي تكون أكثر إسلامية كلما اقتربت لغته من لغة القرآن فباتخاذ هذا المبدأ نستطيع أن نضع في الصفوف الأولى من المسلمين أولئك الناطقين باللغة

---

[7] ـ منهم عبد السلام هارون ومغني محمد شفيع ومحمد جمال الدين عبد الوهاب (من باكستان) وابراهيم نياس ـ شيخ الإسلام في السنغال والدكتور محمد يوسف (جامعة باكستان) وغيرهم: انظر: مجلة اللسان العربي من ص 143 إلى ص 219، العدد المشار إليه.

العربية. وإن كان منهم من تكلم بالعربية بعد الفتح الإسلامي، كحال سكان سوريا والعراق ومصر والمغرب).

ويقول الأستاذ العلامة عبد السلام هارون: (إن لغة القرآن محت القبطية في مصر، والبونيقية في الشمال الإفريقي، والنبطية في العراق واللاتينية في الشام)[8]

ويقول شيخ الإسلام إبراهيم نياس في مدينة كاولاخ بالسنغال: (إن المسلمين بالسنغال تواقون إلى العربية، برغم تغلغل الاستعمار وثقافته ولغته زهاء مئة وخمسين عاما، وبرغم انتشار اللغة (الولوفية) الوطنية التي يكتبها كثيرون بالأحرف العربية، التي أصبحت بفضل القرآن أداة تثقيف وتربية . .)[9]

لقد كان للإسلام بعد خروجه من الجزيرة، ممتدا شرقا إلى حدود الصين وغربا إلى البرتغال في أوربا، وغرب المغرب على سواحل المحيط، وأهله يحملون القرآن يحل معهم أينما حلوا، أثر كبير في ترسيخ العقيدة الإسلامية، وأداة التعبير عنها، وهي لغة الضاد، وكان لابد من أن تصطدم هذه اللغة الفاتحة بلغات الشعوب غير العربية الداخلة في حضيرة الإسلام، فيحصل الصراع اللغوي بينها وبين اللغات المحلية، وهو صراع ينأى عن منطق القوة والتسلط وينسجم مع القوانين اللغوية المعروفة التي

---

[8] ـ النظم الإسلامية: دومومبين الفرنسي: ترجمة: د. فيصل السامر ود. صالح الشماع، طبعة بيروت: 1961 ـ دار النشر للملايين.

[9] ـ المصدر نفسه: 172.

يحددها الكثير من الباحثين في حيوية اللغة وفاعليتها. وسهولتها ونشاطات أهلها ودماثة أخلاقهم، وقوة إيمانهم، وكثرة عدد المتكلمين باللغة إلى غير ذلك من العوامل المساعدة على انتشار اللغة، وتأثيرها في المحتكين بأهلها[10].

يؤكد ابن خلدون في الفصل الثاني والأربعين، من (مقدمته) أن الأعاجم إنما أجادوا العربية لسهولتها، ونشأتهم بين الناطقين بها، والرغبة في الانتماء إلى أهلها فيقول:

(إن عرض لك ما تسمعه من أن سيبويه والفارسي والزمخشري وأمثالهم من فرسان الكلام كانوا أعجاما مع حصول هذه الملكة لهم، فأعلم أن أولئك القوم الذي تسمع عنهم، إنما كانوا أعجاما في نسبهم فقط، وأما المربى والمنشأ، فكان بين أهل هذه الملكة من العرب، ومن تعلمها منهم، فاستولوا بذلك من الكلام على غاية لا شيء وراءها، وكأنهم في نشأتهم، من العرب الذين نشؤوا في أجيالهم حتى أدركوا كنه اللغة، وصاروا من أهلها، فهم وإن كانوا عجما في النسب فليسوا بأعجام في اللغة والكلام، لأنهم أدركوا الملكة في عنفوانها واللغة في شبابها.)

ويرى ابن تيمية: (أن الله لما أنزل كتابه باللسان العربي المبين وجعل رسوله مبلغا عنه الكتاب والحكمة بلسانه العربي، وجعل السابقين إلى هذا الدين متكلمين به، لم يكن سبيل إلى ضبط الدين ومعرفته إلا بضبط هذا اللسان، وصارت معرفته من الدين وصار اعتياد التكلم به أسهل على أهل

---

[10] ـ أنظر: أبحاث ونصوص في فقه اللغة العربية: د. رشيد العبيدي ص 229 فما بعد.

الديـن في معرفـة ديـن الله وأقـرب إلى إقامـة شـعائر الديـــن، وأقـــرب إلى مشابهتهم للسابقين الأولين المهاجرين والأنصار في جميع أمورهم)[11].

وهذا إنما ينطبق على العرب وغـيرهم مـن أمـم الأرض ممـن دخلـوا إلى الإسلام، فقد حرص غير العرب من الفرس والهنود والأتراك وغيرهم علـــى فهم اللغة، ودقـائق قواعدهـا وأسـاليبها، ليقيمـوا شـعائر الديـن وليكونـوا أقـرب إلى مشـابهة السـابقين الأولـين مـن المـهاجرين والأنصـار في جميـع الأمور، ولذا كان علماء اللغة الأوائل عربـا كـابن عبـاس ﷺ وأبـي الأسـود الدؤلي والنصر بـــن عـاصم حتـى الخليـل، فلمـا دخـل النـاس في ديـن الله أفواجا، كان المسلمون أجناسا مختلفة، وتطلب ذلك منهم أن يعلموا علـى تقريب اللغة إلى لسان المسلمين ـ عموما ـ وتيسيرها واعتياد التكلم وممارسة الشعائر بها، نشأ في الأمة من قـام بدراسـة اللغـة واسـتنباط قواعدهـا مـن الأعاجم، فكان عبد الرحمن بن هرمز، والكسائي وسيبويه والفراء وغيرهم.

وحـين اسـتقرت العربيـة في البلـدان، وبـدأت تـؤدي وظيفتـها في مـــن جاورها من الناس، استطاعت أن تشق طريقها من اللسـان فتـثري اللغـات الأخرى بمفرداتها، ودلالات ألفاظها، واسـتعمالاتها المختلفـة، وتصبـح في بعض المواطن لغـة الكتابـة والثقافـة والأدب والعلـوم، كمـا هـي الحـال في بلدان المشرق الإسلامي، فنظم الشعراء بها، وألف العلماء كتبهم، وتواصـل الشعب بها، فضلا عن تأدية الشعائر والمناسك بها.

---

[11] ـ المقدمة: فصل: 42.

ولقد قامت مجلة اللسان العربي في عددها الصادر في شوال من عام 1388 هـ باستفتاء عن اللغة العربية، وارتباطها بالإسلام، وقضية انتشارها في بلدان العالم، وتأثيرها في الناس، فكانت النتائج قد خرجت بمذاهب:

1 ـ إن الاسلام والقرآن، لهما تأثير كبير وواضح في انتشار العربية، ورسوخ قدمها في الأرض.

2 ـ إن العربية بقوة فاعليتها، ويسرها وسهولتها، استطاعت أن تمتلك إعجاب من عرفها واطلع عليها فاتخذها وسيلة تعبير له، ولم يكن للقرآن يد في نشرها.

3 ـ إن شخصية المسلم، وسلوكه القويم، وحسن أخلاقه، عوامل جذب لكثير من شعوب الأرض، فاعتنقوا الإسلام وتعلموا اللغة، وتواصلوا بها معه.[12]

---

[12] ـ ويمكن الوقوف على هذه الآراء والمواقف بقراءة صفحات مجلة (اللسان العربي) في عددها المشار إليه في أعلاه، ونشير هنا إلى صفحات العدد وأسماء الباحثين، وهم:

أ ـ روكس بن زائد العزيزي ص: 118 فما بعد. ب ـ نديم الملاح: ص: 142.

ج ـ مفتي محمد شفيع: 143. د ـ د. محمد يوسف: 140. هـ ـ محمد جمال عبد الوهاب ص154 و ـ د. أحمد الضبيب: 159. ز ـ أحمد محمد جمال: ص161. ح ـ إبراهيم نياس: ص 152 ـ فما بعد ط: مصطفى الزرقا ص 176. ي ـ د. أحمد الشطي: ص: 180. ك: د. عمر الدقاق: ص: 190. ن: محمد أبو الفرج العش: ص: 198 . ك ـ عبد القادر الريحاوي: ص: 196. م: عبد السلام هارون: 219. س ـ الدكتور عبد العزيز مطر: ص: 223 ـ ع ـ عبد العزيز حسين: ص: 237 ـ ف: عبد الله العقيل: 240 ـ ص: عبد الرزاق البصير: 249 ـ ق ـ رشاد دار غوت: 280 ـ ر إ.د. بنت الشاطئ: 247 ـ ش محمد الحاج صدوق: 284. ت: كارن كلير: 285، ث: علي راضي أبو رزيني: ص 286 ـ خ: ميشون: 286.

ويدل التراث العلمي والمعرفي والأدبي في بلـدان الشـرق، الـذي حفظتـه اللغة العربية، ونقلته إلى الأجيال مكتوبا بالحرف العربي على أن العربيـة كانت في عهود طويلة من الزمن لغة العالم وأداتـه المفضلـة في التعبـير عـن مضامين الحضارة الإسلامية ولقد أنتجت هذه الحضارة أئمة في الرياضيات والكيمياء والطب والفلك والفلسفة وسائر العلوم، فضلا عن النحو والصـرف والبلاغة والنقد والفقه والعقائد وأصول الكلام، والأجناس الأدبيـة كالشـعر والمقامات والحكايات الأدبية والنقد الأدبي وغيرها. فقد كتبـت علـى هـذه الفنون والعلوم بالعربية بأقلام كل الشعوب المنضوية تحت خيمـة الإسـلام بحيث يصعب علينا أن ننسب تراث الأمة إلى شـعب أو قبيلـة بعينـه، أو إلى جنس من الأجناس بعينه، كمـا لا نمـيز لسـانا خاصـا بـهؤلاء العلمـاء الأفذاذ فقد عبر الجميع بلغة واحدة، وهي لغة القرآن الكريم، بغضّ النظر عن شعوبهم وقبائلهم، ولم تكن هذه الشعوب قد دخلت الإسلام بـإكراه أو قوة سلطان أو سياسة، كما يزعم فيليب حتى، ولا قامت الدولة الإسلامية بإصدار قانون يلزم الشعوب الإسلامية أو الشعوب المنضوية تحت خيمتـها التكلم باللغة العربية، بل استطاعت اللغـة العربيـة بمـا امتلكـت مـن قـوة التأثـير أن تدخـل في صراعـات لغويـة وأن تؤثـر تأثـيرا كبـيرا في نفـوس الشعوب، فتفتح أبوابها لها طوعا ورغبة بعد أن كانت لغاتـها رومانيـة أو يونانية أو فارسية أو تركية أو أية لغة وطنية محلية أخرى لتلك البيئات، ولم يمض إلا جيل أو جيلان حتى كانت العربية اللسان المشترك لشـعوب أمة واحدة، هجـرت إليـها ألسـنتها القوميـة دون أن يجبرهـا أحـد علـى

ذلك، كما لم يكرهها مكره على أن تتخلى عن عقائدها، وأديانها، لتعتنق الاسلام، وتمارس الكلام بلغته[13].

لقد كتبت الكثير من الشعوب لغاتها المحلية بالحرف العربي، كالفارسية والأوربية والتركية والأفغانية والكردية والمغولية، والبربرية والسودانية والملايووا الساحلية وغيرها[14]، فمن ذلك قول حافظ شيرازي:

ألا يا أيها الساقي أدر كأسا وناولها

كه عشق آسن نبود أول ولي أفتاده مشكلها

كرت بيري مغان كويد بمى سجادة رنكين كن

إذا لم تلق من تهوى دع الدنيا وأهملها

فالشاعر يكتب بالحرف العربي،وهو فارسي، ولم يكتف بالحرف بل مزج بين المفردات الفارسية والمفردات العربية، واتضح من خلال البيتين الفارسيين أن الشاعر قد استخدم خمس مفردات عربية، مما يدل على التأثير الواضح للعربية في اللغة الفارسية. والدراسات التي أجراها الباحثون في اللغة التركية تبين أن كثيرا من القبائل التركية قد استعملت مفردات عربية بنسب متفاوتة تتراوح بين 10 % إلى 40 %من المفردات العربية تستعمل استعمالا أساسيا في اللسان التركي عامة[15].

---

[13] ـ انظر: إنسانية الثقافة الاسلامية: عدنان زرزور: ص 81.

[14] ـ انظر: اللسان العربي عدد / 6: ص: 227.

[15] ـ تنظر رسالة دكتوراه، في كلية الآداب ـ بغداد.

ويقدر البـاحثون أن اللغـات الـتي تسـتخدم الحـرف العربـي في كتابـة لغاتها بما يزيد على (350مليونا)، فضلا عن أن المسـلمين في عمـوم الأرض يقرؤون القرآن ويكتبون آياته، ويتدراسونه بالعربيـة، ومعلـوم أن لا صـلاة بغير اللفظ العربي[16] للقرآن.

وإذا كـان المسـلمون يمارسـون الكـلام بلغـة القـرآن ويكتبـون علومـهم وآدابـهم بـها فذلـك أنـهم يؤكـدون ثقافتـهم العربيـة وتدينـهم بالإسـلام والتزامهم عقيدة التوحيد، ولقد حدث في زمن الرسول ﷺ أن تنقـص رجـل سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي لكونهم من الأعـاجم فبلـغ رسول الله ﷺ ، فقام في الناس خطيا، فقال:

"يا أيها الناس إن الرب واحـد وإن الديـن واحـد، وليسـت العربيـة بأحدكم مـن أب ولا أم، وإنمـا هـي اللسـان، فمـن تكلـم بالعربيـة فـهو عربي[17]."

ومـن هنـا نسـمع ابـن الشـمال الأفريقـي يطلـق علـى نفسـه: اسـم (عربـــي)، ويعني بذلك أنه مسلم.

وما يزال أثر العربية في اللغة الإسبانية ـ اليوم ـ فقد أثبتـت الدراسـات المعـاصرة أن مـا يقـرب مـن: 17 % في اللاتنيـة الأسـبانية مفـرادات عربيـــة، كالزيت والزيتونة والقصر والقصبة والخزيرات، وطريفا، وجنـة

---

[16] ـ نحو وعي لغوي: د. مازن المبارك: ص 125 ـ 126.

[17] ـ اقتضاء الصراط المستقيم: ابن تيمية: ص 80.

العريف، ولكنها تنطق بشكل متميز قليلا من نطقها العربي، وهو أمر طبيعي يفرضه طبيعة اللسان واختلاف اللغة.

وكما تجد في اللاتينيات من آثار العربية كالفرنسية والبرتغالية والإيطالية مفردات تسربت إلى هذه اللغات، وظواهر أخرى واضحة من خصائص العربية فيها، نجد مفردات في اللغة الإنجليزية ـ مثلا ـ كلفظ (أير) بمعنى الهواء، أو الريح العربية و (air) في الإنجليزية، و(رفض) في العربية، (refuse) في الإنجليزية، و(أرض) في العربية، و (earth) في الإنجليزية، و(جمل) في العربية و (Kamel) في الإنجليزية و (ركن) في العربية و (corner) في الإنجليزية وغيرها، لسنا بصدد استقضائها أو إحصائها، ولكنها مفردات تدل على أمرين:

1 ـ إما أن تكون من تأثير العربية عبر زمن طويل من حضارة المسلمين واحتكاكهم بأمم الأرض، مع علمنا أن الحضارة الإسلامية أقدم تأريخا من الأمم الأخرى.

2 ـ أو مما اشتركت فيه اللغات، والاحتمال الأول هو الأصح.

أما اليوم، فتعيش اللغة العربية حياة ملأى بالتحديات والمؤامرات التي تريد النيل منها وتحاول طمسها ومحو أي أثر لها في حياة أهلها وحياة الآخرين ممن ينضوون تحت خيمتها من المسلمين وغيرهم.

ولقد عملت معاول المستشرقين الحاقدين[18] والشعوبيين من غير العرب وممن عاش في الغرب فكان شرقيا في المظاهر غربيا في التكوين الثقافي

---

[18] ـ انظر: لغة الضاد: مجلد: 2 سنة: 1999 م 1420 هـ: ص: 151.

والاجتماعي، فتنوعت الأساليب المعادية من بين ما ينادي بتغيير الحرف العربي، ومن ينادي بترجمة القرآن الكريم إلى اللهجة العامية، ومن يريد إحلال العاميات محل اللغة العربية السليمة ذات الكيان الموحد في كل الأقطار العربية من يصفها بلغة المتاحف أو الدينا صورية، ومن يثير في وجهها الشبهات والمشكلات، كادعاء صعوبة تعلمها، أو رسم كلماتها، أو تعقد قوانينها ونظامها، ووجوه إعرابها، فضلا عن أن هناك من المستغربين من قام بوضع (**دراسات جديدة تشغل العربي عن دراسته الأصلية**) الموروثة عن علماء الأفذاذ، زذ على ذلك، دعوة المغرضين إلى البحث في العامية المعاصرة[19]، وسماع النطق بها، وعقد الدراسات عنها لرصد التغيرات الصوتية والتركيبية في لهجات العامة، استجابة لمنهج البحث الألسني الأوروبي المعاصر الذي يجعل من أهم مرتكزات البحث الوصفي الألسني كون اللغة منطوقة[20].

ولذلك كانت الدعوة إلى الحفاظ على اللسان العربي الأصيل والاهتمام بمنابع اللغة الأصيلة، لهذا اللسان، وانتهاج البحث الألسني العربي الأصيل القائم على أساس استعادة النظر في النصوص العربية الفصيحة، والتنظير بين ما وصل إليه البحث اللغوي العربي، وما يكتشفه الباحث

---

[19] ـ نفسه: ص 152.

[20] ـ للإستزادة يمكن مراجعة: نظرات استشراقية في الاسلاك: د. محمد غلاب. ط: مصر: ص 210 وأضواء على الاستشراق: عبد الفتاح عليان 43 والمستشرقون: علي الخربوطلي: 83. والاستشراق: اسحاق الحسيني: ص: 25 ودراسات في فقه اللغة: د. الصالح: 122 وفقه اللغة العربية، د. وافي ص: 211.

المعاصر من مزايا وسمات قد تكون مجهولة عند القدماء، هو السمة الغالبة على البحث العربي المعاصر وبذلك يمكن أن نعطي شيئا مما تحتاجه العربية ـ اليوم ـ من الاهتمام.

لعل أبرز ما تتميز به العربية بعد هذا العمر الطويل من مسيرتها الحافلة بالمنجزات العلمية والفكرية والأدبية أن أهلها يستطيعون بعد مرور أكثر من ألف ونصف الألف من السنين على شعر الحقبة الجاهلية أن يفهموا ما أنتجته قرائح الأدباء والخطباء والسجاعين والمثالين ومحاوراتهم، في حين يصعب على الإنجليزي المعاصر، وذلك إنما وقع في العربية كونها لغة الدين، وبها نزل القرآن الخالد: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون[21]}.

وليس يسيرا أن تتبدل عقيدة المسلم، ولكن من اليسر أن تتبدل بعض مظاهر حياته وأنماط عيشه ومأكله ومشربه، ومن هنا يصعب أن تتبدل أحاسيسه ومشاعره تجاه لغته المرتبط ارتباطا وثيقا بدينه ومعتقده، ولذلك نجد الجزائري مرتبطا ارتباطا صميميا بدينه ولغته العربية حاملا لواء الدفاع عنهما، ثائرا في وجه من يحاربهما أو يريد النيل منهما، على الرغم مما لاقى من الظلم والعنت خلال مائة عام من الاستعمار والسيطرة والاستبداد والتسلط، وهذا هو الجزائري يدعوك ـ اليوم ـ للتعبير عن سلامة الموقف وصحة الاتجاه، والإرادة القوية للوقوف أمام تحديات المتحدين، ومؤامرات المتآمرين، وإفشال المخططات الهادفة إلى تهديم كيان

---

[21] ـ سورة الحجر: 9.

العربية التي يريدون من ورائها تهديم لغة القرآن، ومن ثم قطع الصلة بين العربي وكتاب الله، وصولا إلى النهاية المظلمة التي ينتظرونها.

إن العربية ـ اليوم ـ تنتظر من أهلها أن يعيدوا إليها مكانتها ويمكنوا شعوب الأرض من فهمها والاقتراب منها أو تقريبها منهم، وذلك لا يتم إلا بالعمل الدائب المستمر على تحقيق وسائل ومناهج كفيلة بنشرها، وتمكينها من أهلها ـ أولا ـ ثم تمكين غير الناطقين بها منها، ولعل أبرز الوسائل لتحقيق ذلك ما يأتي:

1 ـ ينبغي التيسير لقواعد اللغة وأساليبها لغير الناطقين بها انطلاقا من الاعتماد على القرآن الكريم والسنة النبوية، وذلك من طريق إكثار التسجيلات للقرآن المرتل والمفسر تفسيرا مبسطا، وإكثار تسجيل الأحاديث السهلة المعنى المفهومة المقاصد مع شيء قليل من التعليق عليها.

2 ـ استثمار المواسم الدينية بترتيل القرآن في المساجد ترتيلا دقيقا ومؤدى أداء جميلا، وعقد الندوات والمحاضرات والحلقات الدراسية بالمناسبة لتحبيب اللغة إلى نفوس أهلها، والمسلمين من غير أهلها.

3 ـ الإكثار من نشر الإعلانات واللافتات بالخط العربي الجميل، وبشكل جذاب لافت للنظر، وعلى السلع والبضائع، لما لذلك من تأثير كبير في نفوس الناس.

4 ـ محاولة إبعاد المفردات العامة عن طريق تعلم الطفل لغته الأساسية ونستطيع أيضا أن نجعلها لغة ميسرة واحدة لمن يريد تعلمها من غير الناطقين بها.

5 ـ استثمار وسائل الإعلام السمعية والمرئية والكلام بلغة مبسطة مفهومة، ولاسيما الوسيلة الإعلامية الفضائية التي نبثها إلى العالم جميعه، لتكون وسيلة لتعلم غير العربي ممن لا ينطقون بالضاد فتكون وسيلة لفهمها والقدرة على فهم مضامين ما يذاع وينشر.

6 ـ ينبغي للحكومات العربية أن تفتح مراكز ثقافية، ومعاهد لتعليم العربية لغير العرب في مختلف بلدان العالم، ولا سيما الأقطار غير العربية من بلاد الاسلام وتزويدها المستمر بالمتخصصين باللغة، وتأليف الكتب المبسطة الميسرة وتزويدها بالأفلام والأشرطة والمصورات المساعدة على تعلمها.

7 ـ قيام الجامعات والكليات بفتح أقسام تعلم العربية للطلبة الوافدين من غير العرب، لتكوين طلبة مستعدين لتناول العلوم المتنوعة بالعربية.

8 ـ يجب أن تحرص الدول العربية على جعل العلوم التي تدرس بلغات أجنبية مترجمة إلى العربية، وبلغة ميسورة سهلة، وإحلال المصطلحات العربية محل المصطلحات الأجنبية في مواد الطب والصيدلة والعلوم التطبيقية والهندسية والرياضية، وليس في إبقاء المصطلح الأجنبي إلى جانب المصطلح العربي ضير ولا اختلال.

9 ـ اللغة العربية تتمتع بمقياس خالد هو أساسها وقاعدتها التي تؤوب إليها وتنطلق منها، وهو الذي يحكم على هذه اللغة بالخلود، وهو القرآن الكريم، {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون} وهي بهذا القدر من الحفاظ على كيانها قادرة لاستيعاب كل جوانب الثقافة العامة والحضارة والتمدن، وموفيه بها.

10 ـ تقوم المؤسسات الثقافية والإعلامية والتربوية والتعليمية في الدول العربية بوضع برامج تثقيفية ورسائل معنية بالعربية المبسطة، ونشرها على نطاق واسع من البلاد العربية والإسلامية ودول العالم بأثمان زهيدة، أو توزع على المؤسسات التربوية والثقافية في العالم من طريق التبادل، فيقتنيها الراغبون في تعلمها.

وبذلك نضمن سعة الانتشار، وأوسع الجماهير في تعلمها والنطق بها.

اللغة العربية وعاء الوجدان القومي والركيزة التوحيدية للثقافة العربية

الأستاذ الدكتور عبد الرؤوف فضل الله

الأمين العام للمجمع الثقافي

لبنان

ليست اللغة القومية مجرد وسيلة تعبير وتفاهم فقط، إنها بحكم تكوينها وارتباطها بالأرض التي نشأت عليها، وبأدواتها وتراكيبها المستقاة من بيئتها، وبتطلعاتها التي تفاعلت معها عبر تاريخها، هي رابطة اجتماعية إنسانية فكرية متكاملة.

إنها من هذا المنحى، تمثل ذاكرة الأمة وتختزن فيها تراثها وقيمها ومفاهيمها، وأداة التواصل بين ماضيها وحاضرها، كما تمثل هويتها وشخصيتها والدليل القوي للخصوصية القومية وللوحدة السياسية والتراث والاستمرارية الثقافية، ووسيلة التفكير ورمزه وتجسده. فليس هناك فكر مجرد بغير رموز لغوية ولا تفكير إلا في الألفاظ.

واللغة العربية هي قبل ذلك كله لغة التنزيل المبارك، لغة القرآن الكريم الذي تدين له العربية بالبقاء والدوام عبر الزمان. فقد كان نزول القرآن المجيد " بلسان عربي مبين " حدثا إلهيا أدى إلى تطور جوهري في حياة اللغة العربية.

مع الإشارة إلى أن بلاغة القرآن وإعجازه إنما يتجليان في اللغة العربية التي أنزل بها، فقد أشارت آيات عديدة إلى أنه قرآن فصلت آياته بلغة عربية، من ذلك قوله تعالى: " إنّا أنزلناه قرأنا عربيا لعلكم تتقون ". ولذلك يجمع العلماء على أن كلمة القرآن إنّما تتصرف إلى نصه العربي المحفوظ إلى يومنا هذا. والقرآن الكريم هو دستور الإسلام. ولمعرفة هذا الدستور والإحاطة به وفهمه يفترض تعلم لغته. فطلب العلم فريضة والإلحاح في طلبه جهاد، ونشره بين الناس صدقة يُثاب عليها.

إذن فـهذه اللغـة محميـة بـالدين وعلـى وجـه الخصـوص بكتـاب الله الكريم. فهي ليست دون مرجع، كما أنها محروسة بقوة روحية متمكنة في النفوس، الأمر الذي أدى إلى إخفاق جميع محاولات التقليل من شـأنها في الماضي.

وتنتشر اللغة العربية في معظم أنحاء العالم. ويبلغ عـدد المتكلمـين بـها حسب إحصاءات عام 1960 أكثر من ست مئة مليون نسـمة. ولكـن رقعـة انتشارها اليوم تجاوز هذا الرقم بكثير بين شـعوب آسـيا وإفريقيـا وأوروبـا وأميركا. وهي على هذا تعتبر إحدى اللغات ذوات المكانة المتمـيزة والموقـع المتقدم بين لغات العالم. ولقـد كـان مـن ثمـار هـذا الانتشـار في الأرض أن توحدت الثقافة وانتظمت إبداعاتها الفكرية وتضافرت على إثرائها أجناس وطوائـف دينيـة إسـلامية ومسـيحية وسـواها. وبـرز مـن تلـك الأجنـاس والطوائف عباقرة وعلماء كتبوا وأبدعـوا بـالحرف العربـي لذلـك كـان مـن الصعب على الباحثين في تراث الأمة التمييز بين العربي وغـير العربـي إذ أنهم جميعا ينتسبون إلى الحضارة العربية الإسلامية وينـهلون مـن بحرهـا الواسع ويعبرون عنها بلغة عربية واحدة هي لغة القرآن الكريم.

وكانت اللغة العربية منذ عهد بعيد الوعاء الذي حمل ملامح الحضـارة العربيـة إذ لم تكـن وسـيلة للتفـاهم والاتصـال فحسـب، وإنمـا كـانت إلى جانب ذلك وعاء استوعب حضارة العرب.

أمـا ثقافتنـا المتواصلـة بلغتـها القوميـة المتجـذرة في الأرض العربيـة، مشرقها ومغربها، والمنتشرة في معظـم أنحـاء الأرض فـإن ما يربطها ويشدها بعضها إلى بعض هي الوحدة اللغويـة في الدرجـة الأولى.

وإذا كانت هناك خلائـط عرقيـة متباينـة فقـد اندمجـت جميعـها في إطـار الثقافة القومية الواحدة نتيجة للعامل اللغوي الموحد.

ولقـد اسـتمر ارتبـاط الثقافـة العربيـة بلغتـها بقـوة وثبـات علـى مـدى تاريخها. كما ارتبط عطاء هذه الثقافة مـع ازدهـار لغتـها وتفتحـها، فلمـا تقلص ذلك العطـاء تضـاءل تطـور اللغـة بوجـه عـام وخاصـة في اسـتيعاب المنجزات العلمية الحديثة، إلا أنه سرعان ما استردت هذه اللغـة مكانتـها في إطار المعاصرة الحديثة بالاهتمام بعملية التطويـر اللغـوي، وإن في نطـاق محدود، تمشيا مع التطور العلمي المذهل والمستمر والتعـرف علـى تجـارب الآخرين مع التمسك بروحية اللغة وأصالتها وقيمها وصيانتها من الشوائب وفرض سيادتها في وطنها وبـين أبنائـها أولا، ومـن ثـم تعزيزهـا في بلـدان العالم الإسلامي وفي دنيا الاغتراب باعتبارها اللغة الجامعـة بـين الشـعوب والأمـم الـتي دخلـت في الإسـلام. وهنـا تجـدر الإشـارة إلى أن الإسـلام لم يتعرض، بمبادئه السامية، إلى لغات الأمم التي انضوت تحت لوائه لأنـها شعوب وأمم متآخية ولغاتها محترمة.

إن في صيانـة اللغـة العربيـة صيانـة للأمـة وعـامل ترابـط فعـال بـين شعوبها. إذن علينا جميعا كأبناء هويـة عربيـة واحـدة، وذاكـرة تاريخيـة واحدة، ولغـة قوميـة واحـدة، ومسـتقبل واحـد أن نؤمـن بـأن لغتنـا هـي الدعامة الأساسية التي تقوم عليها وحدة الفكر والثقافة ودورها الحضاري، وأن نؤمن بأن المحافظة عليها تعني المحافظة على الهوية.

إن تجارب الأمم المتقدمة تقدم لنا الأمثلة في هذا المجال، ففي الولايـات المتحـدة الأمريكيـة عشـرات الأجنـاس المختلفـة في انتماءاتـها، إلا أن مـا

يصهرها في كيان واحـد هـو اللغـة الإنكليزيـة – الأمريكيـة، كذلـك الأمـر بالنسبة لروسيا التي رفضت العامية في لغتها وقامت بعملية تطـهير لغتـها من الآثار الأجنبية وذلك في مطلع الثورة البلشفية. وأول قـرار للصـين بعـد نجاح ماوتسي تونغ عام 1949 هـو مركزيـة اللغـة، وسـرعان مـا اختفـت الأنكليزية، لغة التفاهم، لتحل محلها الخانية، لغة بكـين، كلغـة قوميـة للصين. أما كوريا التي استمر الاستعمار الياباني لها طيلة ستين سنة منـع فيها تداول اللغة الكورية، فكان أول مرسوم يتخذ فيها في مطلع استقلالها منع التحدث باليابانية في الحياة العامة على الإطلاق. وفرنسـا العريقـة في ثقافتها وحضارتها فإن البند الأول من نظام أكاديميتها المشهورة هو صيانة اللغة الفرنسية والمحافظة عليها.

إنها أمثلة تعطينا العبر للمحافظة على لغتنـا وصيانتـها وتطويرهـا مـع التمسك بروحيتها وقيمها وأصالتها. هذا وتجدر الإشـارة هنـا إلى أن اللغـة العربية هي لغة العلم والمعرفة، ومـن المفيـد أن نذكـر أن ابـن سـينا كتـب مؤلفاته الطبية والفلسفية باللغة العربيـة أي إن العربيـة كـانت بنظـر هـذا العالم المتفرد لغة العلم والمعرفة.

وهنا يجدر بنا أن نشير إلى وجـوب الاعتمـاد علـى لغـة عربيـة علميـة موحدة مما يشكل عنصر ائتلاف وتعاون بين البلـدان العربيـة وأكاديمييـها بوجه خاص. وإن وجود لغة علمية واحدة يتكلم بـها الأكـاديميون العـرب لأمر حيوي جدا من أجل التعاون العلمـي وتبـادل الخـبرات وكذلـك بنـاء جسور الثقافة بين الأقطار العربية، كما أنه حيوي لإرساء منظومة معرفيـة

مشتركة تستطيع استيعاب كل ما يرفدها من نتاج علمي وفكري من كل بلد عربي.

وإن التعريب والترجمة يغنيان اللغة العربية. فاللغة تعتمد، فيما تعتمد، على الترجمة من أجل أن يزدهر وينمو قاموسها، كما أن الترجمة توسع صياغات اللغة وتخصب مفرداتها وتراكيبها.

ويشهد عصرنا هذا دخول لغة العلوم في جميع مجالات الحياة وذلك نتيجة انتشار المعلومات وثورة الاتصالات مما يقتضي تطوير اللغة بحيث تستطيع التعبير عن واقع اليوم، واقع عصر الهندسة الوراثية والإنترنت. فالترجمة والاحتكاك باللغات العلمية التخصصية والأخذ بها تلعب جميعها أدوارا رئيسية في التعرف على التراكيب اللغوية المبتكرة وعلى الجودة والحيوية في اللغات الأخرى وعلى الأساليب الجديد ة التي تزخر بها لغة العلوم المعاصرة.

إن حجر الزاوية في البناء الثقافي العربي منذ القرون الأولى للهجرة وحتى اليوم كان اللغة العربية التي واكبت التطور الضخم على مدى قرون طويلة واستجابت له ومنحته تجانسا لم يحل دونه مستويات لغوية متعددة ولهجات إقليمية شكلت تيارا متوازيا لتيار الفصحى بمستوياته المختلفة واستوعبت اللغة العربية هذه المستويات. علما بأن الفروقات الموجودة بين أجزاء من الوطن العربي،كالتي بين أقطار المشرق وأقطار المغرب العربي، آخذة في الزوال تدريجيا حيث إن العامية الدارجة آخذة في التطور والارتقاء. كما أن في استكشاف إمكانات الفصحى مما يبرز

خصائصها الذاتية تكمن في نحوها وصرفها ونظم تركيبها وفي الاشتقاق والنحت والإبدال والنقل والمجاز والاقتراض والقياس.

وعليه فإن أهم ما تتصف به اللغة العربية هو الغنى والدقة مما جعلها كثيرة المفردات الأمر الذي يمكنها من الدقة في التعبير عن المشاعر وفي رسم صورة دقيقة للموضوع الذي تتناوله ويتجلى ذلك في اتساع ما نسميه بالمفردات.

وهنا نشير أيضا إلى أن جميع القوى المستنيرة في الوطن العربي قد أدركت أن لا وجود للعرب بغير اللغة العربية وأن استعمال العربية السليمة في جميع المجالات الحياتية والعلمية هو الذي يكفل نموها وتطورها ويجعلها تواكب كل جديد علمي وتقني.

كما تجدر الإشارة إلى أن قضية اللغة العربية قد احتلت مكان الصدارة في جميع المؤتمرات العربية الثقافية والعلمية بصورة خاصة. فقد كانت القضية الأساسية في مؤتمر الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي منذ دورته الأولى في عمان سنة 1976. فقد نادى بيان عمان في فقرته السادسة بما يلي: "وجوب العمل على تعميم استعمال اللغة العربية، لغة التعبير في جميع مراحله وبجميع أنواعه، وفي البحث العلمي ووسائل الإعلام والثقافة باعتبار اللغة العربية القومية أهم دعامة للوحدة وهي الوعاء الصحيح للثقافة الأصيلة للأمة، وإن أصالة التفكير العلمي لا تترسخ في الأمة إلا من خلال لغتها".

وكان شعار "اللغة العربية هويتنا القومية" هو الذي انعقدت في ظله الدورة السابعة لمؤتمر الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في الوطن

العربي بالرباط في نوفمبر/ تشرين الثاني سنة 1989. والقضية اللغوية هـي ذاتها في جميع المؤتمرات الثقافية العربية.

إن اللغة العربية، العامل الأول الأساسي في توحيد الثقافة، هي في تقدم مستمر، فالعرب أمة تحب لغتها وتطرب للبلاغة كما إن لموسيقاها الإيقاعية أثرا شعوريا بالغا في المجتمع العربي. ولا يزال العرب يعتبرون التمكن من اللغة فضيلة والفصاحة مزية. وقد بلغ بهم حبهم للغتهم أن جعلوا من رسم حروفها فنا وذلك ما لا نجده في اللغات الأخرى. وبذلك أصبح العربي يطرب للغته عندما يسمعها ويطرب لها عندما يراها.

ومما يجدر بيانه هنا: أن الثقافة العربية بلغتها الفصحى الأصيلة والبليغة هي ارض مشتركة، ومازالت الأرض الأكثر صلابة بالنسبة للعرب جميعا عبر التاريخ وامتداد الجغرافيا مما يدعونا للاعتصام بها وبثوابتها ومقوماتها قيمها وبدورها التوحيدي.

ونختتم القول أن اللغة العربية هي الركيزة التوحيدية في الثقافة العربية وتشكل أبرز مظاهرها وأكثرها تعبيرا بوصفها وعاء الوجدان القومي كما أنها تمثل ذاكرة الأمة وشخصيتها وأصالتها وعنوانها.

إن شجرة لغتنا العريقة على اخضرارها الأبدي ما جفت جذوع لها فماؤها في عروق أبنائها.

المـــراجـــــع:

- الخطة الشاملة للثقافة العربيـة (المنظمـة العربيـة للتربيـة والثقافـة والعلوم) 1985

- مجلة الجامعة الإسلامية (لندن) 1994

- الثقافة العربية في مواجهة المستقبل – أعمال المؤتمر الثقافي العربي الثاني للمجمع الثقافي العربي الذي عقـد في بـيروت – منشـورات المجمـع لعام 1995

- دور الثقافة في التضـامن العربـي – أعمـال المؤتمـر الثقـافي العربـي الثالث للمجمع العربي الثقافي الذي عقد في القـاهرة – منشـورات المجمـع لعام 1996

- وحدة الثقافة العربية وصمودها بوجه التحديات – مركز دراسـات الوحدة العربية 1997

- مجلة عالم الفكر – المجلد الثالث والعشرون – العدد الثالث يناير / مارس 2000

اللغة العربية بين العروبة والعولمة

الأستاذ الدكتور تمام حسان

كلية الآداب قسم اللغة العربية

جامعة القاهرة

انتشر في أيامنا الحاضرة لفظ مستحدث ذو مدلول قديم قدم التاريخ هو لفظ ((العولمة)).

فلقد سلط الله بعض الناس على بعض منذ القدم، وجعل دوافع التسلط مختلفة: منها الطمع فيما فى يد المغلوب، ومنها الرغبة فى إخضاع المغلوب نفسه، ومنها دوافع أخرى.

ولكن هذه الدوافع جميعا تنتهى إلى فرض السيطرة من قبل الغالب، والخضوع من قبل المغلوب.

وكانت علاقة الطرفين تحمل أسماء محلية تصاغ على أوزان مصادر أفعال متعدية أشهرها التفعيل والفعللة، أى أن الغالب كان يفعّل المغلوب أو يفعلله مع أخذ الأصول الثلاثة للفظ المصوغ على وزن المصدر من اسم الجهة المنتصرة فى الاعتبار، كأنْ نقول مثلا: التتريك أو الفرنسة. فالظاهرة وطريقة التسمية كلتاهما قديمة ولكن المستحدث من كل ذلك هو لفظ العولمة، وهو لفظ مخادع أولى به أن يكون: الأمركة. لأن الأمريكيين هم صاغته والمنادون به والحاصدون لثمراته على حساب غيرهم من شعوب العالم.

ومما يدخل فى حدود هذه الصيغة الصرفية ويدل على إطار معناها ما صاغه الأساتذة الأفاضل القائمون على تنظيم هذه الندوة، أو استعملوه بعد شهرته فى الجزائر على احتمال، هو لفظ ((العوربة)) والمقصود فيما أرى أحد معنيين أو كلاهما:

الأول: صيانة اللغة العربية من سلطة العولمة اللغوية وسلطانها.

والثانى: نشر اللغة الفصحى وإشاعة استعمالها فى ربوع العالَمَيْن العربى والإسلامى وما وراءهما إن أمكن.

وبهذا تكون دلالة العنوان هى: اللغة العربية بين التأثير والتأثر أو بين الإيجاب والسلب. وسنحاول أن نعرض وجهة نظرنا فى هذه القضية فى حدود هذا الفهم.

لو نظرنا إلى الخط البيانى لمسيرة اللغة العربية فيما قبل الإسلام لوجدنا هذا الخط يتحرك على مستوى أفقي ثابت لا يقفز صاعدا ولا يهبط منحدراً، وإنما تقوم على المحافظة على مستواه أمة عربية جاهلية شديدة الاعتزاز بتراثها والتسامي في طرق إبداع نصوصه شعرا أو خطابة أو سجع كهانة أو وصايا أسرية أو غير ذلك مما تتسع له الحياة البدوية.

وكان للشعر بين هذه النصوص موقع خاص، لأنه كما قالوا فى شأنه كان ديوان العرب، أي سجل تاريخهم ومفاخرهم. ولم يسع العرب – والحال كما رأينا– إلى فرض لغتهم على غيرهم، ولم يقبلوا لسليقتهم اللغوية أن تضعف باستعمال لغات الأمم الأخرى.

ثم انبلج صبح الإسلام فنشأت ظروف ومواقف لم تكن من قبل وبدأت حركة من التحولات بحث عن وسيلة تصل بها إلى غاياتها فلم تجد أداة لبلوغ هذه الغايات أجدى ولا أعظم أثرا من اللغة التي بها نزل القرآن الذي أعاد صوغ كل شيء. كان نزول القرآن ثورة بكل المقاييس: ثورة في مجال اللغة ذاتها من حيث هو نص معجز، وثورة في العقيدة لأنه يبشر بدين يخاطب البشر جميعا ولا يقف عند حدود قومية بعينها، وثورة في

التشريع أحلت محل الجاهلية والفوضى نظاما تشريعيا أقام العلاقات بين بني الإنسان على أسس من العدالة والمساواة، وأذابت الفروق بين الأعراق والألوان، وبين الأغنياء والفقراء. ثم جاء وعد الله لعباده صادقا إذ يقـول: ((إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا...)) (غافر54)

فانتشر الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها، وكان القرآن بنصه العربي مفتاح الدعوة ودستورها وصوتها المسموع فى كل مكـان. ففـى آياتـه شـرح العقيدة، وأحكام الشريعة، وقواعد السلوك، ومكارم الأخلاق. فكان العلـم بمعاني نصوصه علما بمطالب الدين الجديد الذي آمن الناس به واعتنقوه. أقبل الناس عندئذ على القرآن طلبا لفهم حدود الديـن فكـان ذلـك بدايـة للعوربة، ولكنها كانت مجرد بداية.

لقد كتب الله الصلاة على المسلمين وجعل من فروضها قـراءة الفاتحـة إذ ((لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب)). فكان على كل مسلم مهما كان لسانه أن يحفظ فاتحة الكتاب وشيئا من قصار السور، لتكون عبادته لربه صحيحة، وليطمئن قلبه إلى حسن ثواب الآخرة.

وهكذا جعلت اللغة العربيـة تتجـاوز حدودهـا الجغرافيـة إلى بـلاد لم تعرفها من قبل، وإلى ألسنة لم يكن لها بها سابق عهد، لينتهي الأمر إما إلى مشاركة اللغة العربية للغات المحلية في الاستعمال، وإما إلى اجتثـاث اللغات المحلية وحلول العربية محلها، كما حدث في بلاد ما بين الخليج والمحيط التي نعرفها اليوم باسم ((العالم العربي)).

لم يكن للعرب كما رأينا منذ قليل حياة ثقافية بـالمعنى الفكـري، وإن كانت لهم ثقافة بالمعنى الأنثروبولوجي الذي يتمثـل في القيـم الاجتماعيـة

التي يمكن استخلاصها من نصوص الشعر وهو ديوان حياتهم. فلما انتشر الإسلام بين أبناء الأمم الأخرى كان لانتشاره من النتائج ما دعا العرب إلى أن يتعرفوا على حقائق لم تكن تشغل أفكارهم من قبل. ومن ذلك ما يلي:

– كان من نتائج المخالطة بين العرب وأبناء الأمم الأخرى ضعف السليقة وظهور اللحن بين العرب.

– تبين للعرب أن بينهم وبين الأمم الأخرى فارقا ثقافيا فكريا لا ينبغي قبوله فكان عليهم أن يلجأوا إلى نشاط فكري يتقون به هذا الوضع الشائك.

– وثمة أمر آخر لم يكن من دوافع العرب وإنما كان من دوافع المسلمين الآخرين هو السعي إلى المشاركة فى جهود إنشاء نشاط فكري إسلامي باللغة العربية يضعهم موضع الشركاء لا موضع الأتباع.

كان من نتائج ذلك أن تبدأ الجهود في بناء هذه الثقافة الإسلامية من نقطة العناية بلغة القرآن الكريم مصداقا لقوله تعالى: ((إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)) (الحجر 9)

وأول هذه الجهود ما كان من تصدي أبي الأسود الدؤلى لضبط النص القرآني بعلامات الإعراب.

واختلفت الروايات فى نشأة النحو ولكن الذي يبدو أن عبد الله بن أبي إسحق الحضرمي هو الذي جمع الأفكار المشتتة على ألسنة الرعيل الأول فكان المنشئ الحقيقي لأنه ((أول من بعج النحو ومد القياس وشرح العلل)). وحفظ القراء رواية القرآن بالسند الصحيح، كما روى المحدثون السنة بلفظها حينا وبمعناها دون لفظها حينا آخر، وعني الدارسون

بالتكافل بين نصي الكتاب والسنة إما بواسطة الشرح أو التقييد أو التعزيز أو نحو ذلك كالتناص الذي يربط بين قوله تعالى:

((فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون)). (التوبة 77) وقوله صلى الله عليه وسلم: ((آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان)). وكذلك بين قوله تعالى: ((إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا)) (النساء 103) وبين قوله صلى الله عليه وسلم: ((صلوا كما رأيتموني أصلي)) وهلم جرا. من هنا كان من تمام العلم بالعقيدة والشريعة كلتيهما أن يفهم المسلمون من مختلف الأعراق واللغات مقاصد الكتاب والسنة وأن يقوى لهذا السبب تيار العوربة حتى انتقلت دراسة اللغة من أيدي العرب إلى أيدي الموالي فلم نعد نظفر بعد الخليل إلا نادرا بعالم عربي النسب من علماء اللغة. وبرع الموالى فى فهم اللغة مبنى ومعنى حتى إن كل واحد منهم:

كان على أعجمي نسبته فضيلة من فضائل العرب

ولما أحس الناس مع ضعف السليقة بالحاجة إلى فهم مرامي النص القرآني كان من آثار ذلك نشأة علم التفسير وما يفرضه على المفسرين من التماس لقرائن المعنى وإدراك علاقات النص وصور الإعجاز. من هنا بدأ التفكير في أساليب النظم القرآني حتى انتهى الأمر إلى إنشاء علم جديد يسمى علم البلاغة، وعلم جديد آخر يسمى أصول الفقه للعناية بفهم طريقة استخراج الأحكام الفقهية من النص الكريم، بدلالة المنطوق ودلالة المفهوم على حد سواء.

وهكذا كانت نشأة الحياة الفكرية الإسلامية من ثمرات القرآن ودراسته واستنباط أحكامه، حتى كان ذلك خيرا وبركة على اللغة العربية ذاتها وعلى العوربة تبعا لذلك.

وجدت اللغة العربية من جهود علمائها في القرون الأربعة الأولى بعد الهجرة ما لا سبيل إلى التغاضي عن الإعجاب به والفخر بنتائجه في وقت لم تكن اللغات الأخرى فيه تجد من العناية ما يقرب بها من مستوى العربية. إن المرء ليعجب إذ يتأمل آخر تطورات اللسانيات في أيامنا هذه حين يجد النتائج لا تختلف عما قدمه علماء العربية فى القرون السابقة من نتائج لا يمتاز الجهد الحديث عليها إلا بالتنظيم والبسط والتفريع والمصطلحات التي لا مقابل لها عند السلف. وإلا فما الفرق إلا من هذه النواحي بين النظم عند عبد القاهر والبنية العميقة عند تشومسكي وبين النحو كما فصله السلف وبين مفهوم Cohesion عند دارسي علم النص في يومنا هذا، وبين البلاغة العربية ومفهوم Coherence في علم النص وبين المقام ومدلول Context وبين قول السلف: ((القرآن يفسر بعضه بعضا)) ومفهوم Intertexuality إن الفرق بين كل مصطلح وما يقابله مما سبق كالفرق بين الساعة الرملية والساعة ذات التروس، كلتاهما تضبط الوقت ولكن تمتاز إحداهما على الأخرى بحسن الصنعة وسهولة التداول.

ذلك أن النظم وما فيه من تنظيم المعاني النحوية في النفس، وعلم النحو وما فيه من علاقات الألفاظ والقرائن اللفظية على المعنى، وعلم البلاغة وما فيه من علاقات المفاهيم والاعتداد بظروف الأحداث النطقية وملابساتها ثم

إدارك السلف لأثر النص فى شرح معنى النص الآخر، كل ذلك أمور من حق التراث العربي أن يفخر بالوصول إليها قبل العديد من القرون.

ثم بدأت اللغة العربية تفتح أبوابها لحقول أخرى من المعرفة لم تكن فى متناولها من قبل، لتكون اللغة العربية نفسها هي المصدر الأوثق للوصول إلى هذه المعرفة في مستقبل الأيام. فعندما فتح الله دمشق للمسلمين كان سكانها خليطا من العرب وعلى رأسهم الغساسنة، ومن الأعراق السامية آرامية كانت أم سوريا نية أم غير ذلك، وبقي بها من شاء من الروم، وبخاصة من كان منهم مرتبطا قبل الفتح بالوظائف الإدارية الرومية. ولأن لغة الإدارة ظلت هي الرومية إلى عهد عبد الملك بن مروان حتى حولها عبد الملك إلى العربية كان على الدولة الأموية أن تستبقي هؤلاء الموظفين في الإدارة بصورة مؤقتة. وكان من هؤلاء رجل يسمى سرجيوس (ويسميه العرب سرجون) أبقاه معاوية فى عمله الإداري في عهد ولايته وخلافته، وكان يثق به ويقربه حتى ولاه آخر الأمر شؤون بيت المال. وكان المجتمع الدمشقي بحكم هذا التنوع يستشعر قدرا من التسامح الديني حتى عند الجدل في العقائد في مجالس الخلفاء. فكانت المناظرة بين المسلمين ورجال الدين المسيحي أمرا مقبولا. وكان من رجال الدين المسيحي الذين شاركوا في هذه المناظرة يوحنا الدمشقي أو يحيى بن سرجون كما يسميه العرب. وهو ابن سرجون الذي ورد ذكره منذ قليل.

ويبدو أن طريقة الاستدلال في هذه المناظرة كانت سببا في تطور فكري غير متوقع من قبل المسلمين المشاركين فيها. فلقد كان من الطبيعى عند التماس الدليل أن يسوق المسلم نصا من الكتاب الكريم فيقول: قال تعالى

أو من السنة المطهرة فيقول: قال رسول الله صلى الله عليــه وسـلم. وكـان من المتوقع ألا يقبل رجل الدين المسيحي هذا الدليل قائلا: لو علمـت أن الله قال ذلك ما عارضتك ولست أسلم لك بهذا النوع مـن الاسـتدلال. ثـم يسوق المسيحي دليله معضدا إياه بالصورية المنطقية التي لم يكـن للمسـلم قدرة على تفنيدها.

من هنا أحس المناظر المسلم بالحاجة إلى معرفة هذا النوع من الاستدلال الصوري فالتمسه عند الذين يحسنونه من السوريان.

فلما تعلم المسلمون المنطق بالغ البعض في استعماله حتى في فهم المأثور فكان من نتائج ذلك نشأة الفرق الدينية بعد ذلك بقليل. قد يقال إن نشأة الفرق بوصفها أثرا لمؤثر خارجي هـو مـا أشـرنا إليـه مـن إدخـال المنطـق الصوري في طريقة الفكر الإسلامي في تناول العقيدة إنما تعد أثرا مـن آثـار العولمة، غير أن من ينظر إلى نفوذ أفكار هذه الفرق في الـتراث العربـي ثـم انتقال هذا الأثر إلى بيئات أخرى انتقل إليها هذا التراث ربما عد التفكير الصوري المذكور وسيلة من وسائل العوربــة. انظـر مثـلا إلى فكـر الجـاحظ المعتزلي وفكر عبد القـاهر الجرجـاني الأشـعري وفكـر إخـوان الصفـا ذوي المذهب الإسماعيلى وهلم جرا.

بدأت الترجمة مع بداية العصر العباسي فكانت من أعظم الأمور خطرا فى مجرى التأثر والتأثير فى تاريخ اللغة العربية. كـان أول مـا ظـهر مـن الترجمة كتاب منقول عن لغة الهند يسمى ((سدهانتا)) وقد عرفه العـرب باسم ((سند هند)) وكان ذلك قبل عصر الرشيد بقليل. ثم ترجم ابن المقفع كتاب كليلة ودمنة عن أصل له فارسي منقول عن الأصل الهنـدي. أمـا في

عصر الرشيد فقد بدأ الاهتمام بالـتراث اليونـاني والسـعي إلى ترجمتـه إلى العربية.

وكان الحافز الذي دفع الرشيد إلى هذا النوع من النشاط مـن مصدريـن فارسيين:

أحدهما من مرو بلد البرامكة والثاني من جند يسانور بلد آل بختيشوع أطباء قصر الخلافة. وربما كـانت هـذه البدايـات دليـلا علـى أن ترجمـة التراث اليوناني إلى العربية لم تكن أول الأمر نقـلا عـن اليونانيـة، وإنمـا أخذت عن مصادر أخرى منها الفارسية. ثم نصح جعفر الـبرمكي هـارون الرشيد أن يأمر بترجمة الماجسطي لبطليموس والعناصر لإقليدس.

أمـا معرفـة العـرب بأرسـطو فكـانت عـن طريـق الترجمـة عـن اللغـة السوريانية في أولها وقد اشتمل ذلـك علـى أعمـال مـن المنطـق كـالمقولات والشـروح والتحليـلات الأولى والثانيـة والمبـاحث والسفسـطة والخطابـة والسياسة.

كانت مدينة مرو التي سبق ذكرها عاصمة لملك المأمون قبل أن يتحـول عنها إلى بغداد وكان للمأمون ميول ثقافية عقلية جعلته ينحاز إلى مذهـب المعتزلة ويعمل على نصرته.

فلما صارت بغداد عاصمة لملك المأمون أنشأ المأمون بـها بيـت الحكمـة وأناط به جهود الترجمة عن اليونانية مباشرة على أوسع نطاق ممكن حتى أدت هذه الحركة في النهاية إلى تصادم العقل والنقل مما أغضب السلفيين من علماء الإسلام فنشأ عن ذلك ما سمي بالمحنة التي أصـابت السـلفيين ومن بينهم أحمد ابن حنبل. ومن الأسماء ذات الشهرة من المترجمين أبـو

زكريا يحيى بن ما سويه صاحب كتاب ((دغل العين)) وتلميذه حنين بن إسحاق العبادي أشهر مترجمي المؤلفات العلمية اليونانية إلى العربية والمشرف على بيت الحكمة، ومعه ابنه إسحاق وابن أخيه حبيش بن الحسن وتلميذه عيسى بن يحيى بن إبراهيم. كما ينسب لهذا العصر رجال من أمثال قسطا بن لوقا وأبو بشر متى بن يونس وحنين بن إبراهيم الناطلي، ومن الصابئة الحرانيين ثابت بن قرة.

كان لابد لهذا النشاط أن يظهر له أثر في الحياة العقلية العربية كما رأينا، وفي نشأة حركة عقلية فلسفية إسلامية باللغة العربية تمس الفكر الديني والفكر الحر على حد سواء. فأما من جهة الفكر الدينى فيجدر بنا أن نشير إلى المعتزلة ورأيهم فى خلق القرآن وما جاء بإزاء هذه المقولة في الفكر الأشعري من مفهوم الكلام النفسي الذي أهدى إلى عبد القاهر فكرة النظم. ومما ينسب إلى تأثير هذا المد الفكرى أيضا ما اصطبغ به الفكر الشيعي سواء من أقوال المعتدلين منهم كالإثنا عشرية والغلاة كالإسماعيلية والقرامطة وأتباع الحسن الصباح من الحشاسين وما تفرع من هؤلاء وأولئك كالدروز والعلويين.

وكذلك كانت نشأة الفلسفة الإسلامية نتيجة من نتائج الترجمة عن اليونانية مباشرة في عهد المأمون وخلفائه، فلقد كان للاطلاع على أعمال أرسطو وشروحه بلغته الأصلية أثر في فهم القضايا التي يتناولها هذا التراث. ولسنا نجد من مشاهير الفلاسفة المسلمين من ينتسب إلى أصل عربي إلا يعقوب بن إسحاق الكندي الذي بدأ حياته الفكرية على مذهب المعتزلة ثم تطرق إلى تأمل أفكار الاعتزال تأملا حرا ففتح الطريق لمن جاء

بعده أمام الاهتمام بفلسفة أرسطو. أما من جاء بعده من الفلاسفة فليس بينهم ذو دم عربي، بل أن منهم من لم تطأ قدمه أرضا عربية كابن سينا الذى كانت حياته تنقلا بين مسقط رأسه فيما وراء النهر إلى البلاط الساماني في خراسان إلى العيش في رعاية أميرخوارزم ثم اللجوء إلى البويهيين في أصفهان. أما شيخ فلاسفة العربية وقدوتهم فهو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي الذي كان في بدء حياته العقلية يجهل اللغة العربية حتى تتلمذ على متى بن يونس فأخذ عنه المنطق ثم رحل من بغداد إلى دمشق ثم إلى مصر، ولكنه عاد إلى دمشق ليقضي بها بقية عمره في ظل الحمدانيين. وكما كان ابن سينا تلميذا لفلسفة الفارابي كان ابن رشد كذلك، مع فارق واحد بينهما وبين الفارابي هو أنهما لم يعقدا صلة بين أرسطو والإلهيات السلفية الإسلامية كما يعرضها الكتاب والسنة. ولم يتخلف اليهود القاطنون في بلاد العرب عن المشاركة في هذا الفكر الفلسفى وبخاصة من كان منهم في مصر والأندلس. وكان امتياز اليهود الأندلسيين منهم بصفة خاصة هو الاشتغال بالطب ومن مشاهيرهم ابن زهر وابن ميمون الذي هاجر إلى مصر في عهد صلاح الدين كما اهتم يهود أخرون بتراث ابن رشد.

يمكن أن نتوقف الآن لحظة لنرى تأثر اللغة العربية بالأفكار الوافدة وهو ما يسمى العولمة في مصطلح هذه الندوة، وأثرها في غيرها من اللغات وهو ما نسميه العوربة، وذلك حتى نهاية القرن السادس الهجري تقريبا. ولئن نظرنا إلى تقلب أحوال العربية بين العولمة والعوربة لنجدن العوربة ترتبط في أساسها بالاسلام وانتشاره خارج حدود شبة الجزيرة العربية،

ولنجدن العولمة ترتبط فى أساسها كذلك بالترجمة من تراث الأمم الأخرى وما نشأ عن ذلك من ظهور الفرق والتصوف والفلسفة الإسلامية والعلوم الطبيعية، غير أن وضع كل هذا النشاط في نصوص ومصطلحات عربية كان مصدر عوربة للغات الأخرى فيما بعد.

كان أهم منبع للعولمة هو اللغة اليونانية، وكان أهم مصب للعوربة هو اللغات الإسلامية أولا ثم اللاتينية فيما بعد. فلقد كانت اللاتينية لغة الثقافة في أوربا عند تسرب الضعف إلى العالم العربي. وكانت إسبانيا نقطة التقاء بين الثقافة العربية التي تسود في الأندلس والثقافة اللاتينية التي تسود فيما وراء الأندلس إلى الشمال. لقد أنشا ريموند كبير أساقفة طليطلة مدرسة للمترجمين من العربية إلى اللاتينية مما حول الكثير من النسخ العربية لأعمال أرسطو التي وضعها الفارابي وابن سينا إلى اللغة اللاتينية، وكان من نتائج ذلك أن أصبح النص المترجم للأورجانون يستعمل في باريس بعد نشأة هذه المدرسة بثلاثين عاما. وفي عام 1224م جرى تأسيس مدرسة في نابولى لاستقدام العلم العربى إلى أوربا، كما تمت ترجمة شروح ابن رشد لكتب أرسطو ومنها السماء والعالم والجزء الأول من كتاب النفس والتعليقات على الآثار العلوية والقوى الطبيعية وجوهر الفلك والطبيعيات والكون والفساد فلقي ذلك شهرة إلى جانب شروح ابن سينا.

وعندما بدأت طرائف الفرير Frairs تحتل مكانها في الحياة الأكاديمية الجامعية تحلل رجالها من التزمت الديني، وبدأوا استعمال كتب أرسطو والشراح العرب بكل حرية، كما بدأوا يقدرون تقديرا سليما ميول الشراح العرب المختلفين. وعندما ظهرت المدرسة في العصور الوسطى

بدأت دراسة أرسطو بصورة أدق على يدي ألبرت الكبير وتوماس الأكويني الذي عرف بمناقشته للعلماء العرب. وكثيرا ما انقسم المشتغلون بالفلسفة من الأروبيين في ذلك الوقت بين أنصار وخصوم لابن رشد مما جعل ابن رشد محورا تدور حوله الأفكار الفلسفية. وظلت الحال كذلك حتى أهل القرن السادس عشر الميلادي الذي شهد مطلع النهضة الأوربية، كما شهد الغزو التركي للعالم العربي ومغرب تفوق الأمة الإسلامية.

وخلاصة القول أن التراث اليوناني نقل أولا إلى العربية فترك بها آثارا لا يمكن إنكارها ثم انتقل بنصوصه العربية من المشرق الإسلامي إلى الأندلس فكان له أثر في الفكر المسيحي واليهودي لا يقل عما كان له في الفكر الإسلامي، ثم انتقل إلى شمال إسبانيا وشمال إيطاليا فكان له أثر في بزوغ فجر النهضة الأوربية. وعندما انتقل هذا الانتقال الأخير لم يكن في صورة ترجمات فقط وإنما كان لهذه الترجمات شروح عربية ودراسات مستقلة قام بها العلماء العرب وهذه الدراسات هي ما عرف باسم الفلسفة الإسلامية.

هل من الضروري أن يتلازم التفوق الفكري والتفوق العسكري؟ من الواضح أن التاريخ يشهد بعكس ذلك. كلنا يجب أن يقرأ قصة فتح عمورية وصياح المرأة المسلمة: وامعتصماه!

وأن يردد قول أبي تمام:

السيف أصدق إنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

ثم ينسى أن انهيار الدولة العباسية بدأ منذ عهد المعتصم الذي وضع البذرة الأولى لتسلط الترك وهم أخواله على مقادير الدولة واضطراره بسبب

سوء سلوكهم في بغداد أن ينقل عاصمة ملكة إلى سامراء (أو سر من رأى).

كان ذلك نقطة البداية لضعف الخلافة وانقسام بلاد الإسلام إلى دويلات كان لهؤلاء الترك منها نصيب وافر يتمثل في الدولة الغزنوية والسلجوقية والمملوكية والعثمانية إلى جانب دويلات إسماعيلية كالفاطمية والحمدانية ثم البويهية. وصحب ذلك تكرار الغزو لبلاد الإسلام من قبل المغول والصليبيين والمستعمرين الأوربيين. ولكن كل ذلك كان ذا علاقة بالجانب العسكري. أما من الناحية الفكرية فإن الدافع إلى التفوق في عهد سلطة الخلافة كانت عطايا الخليفة وتشجيعه للعلماء والشعراء وتسابقهم إلى الإبداع أى أن مصدر التشجيع كان واحدا في أغلب الأحوال.

فلما نشأت الدويلات تعددت مصادر التشجيع على الإبداع ومن هنا رأينا أن عصر التفوق الفكري كان في القرن الرابع الهجري وهو عصر الدويلات إذ تنافس المتنافسون في طلب القربى من الحكام فكان ذلك خيرا وبركة في الحركة الفكرية، فظهر الفلاسفة والعلماء والأدباء في مراكز مختلفة من بلاد المسلمين كالبيرونى في البلاط الغزنوى وابن سينا في البلاط البويهى والفارابي في حماية الحمدانيين ثم ظهر ابن رشد بعد ذلك فى بلاط الموحدين. ولانكاد نحصى الشعراء والأدباء فى كل جهة من هذه الجهات. فلم يكن من الضروري أن يتلازم التفوق العسكري والتفوق الفكري.

كانت حفاوة حكام الدويلات بالإنتاج الفكري باللغة العربية مثالا من أمثلة العوربة ولكن الشعور القومي لحكام الدويلات سرعان ما دفع هؤلاء الحكام إلى إحياء لغاتهم المحلية التي خضعت من قبل لسلطان العربية

وتراجعت إلى مستوى الاستعمال في الشؤون اليومية. وهكـذا وجدنـا الأثـر الباقي من العوربة هو كتابة هذه اللغات بالخط العربـي، فتطـورت بذلـك أشكال الخط العربي فنشأ الخط الفارسي للغة الفارسية ونشأ خـط الرقعـة والهما يوني لكتابة التركية وانتشر كل منهما وراء رقعته الجغرافية الضيقة ليستعمل في بلاد إسلامية أخرى. كمـا اختـار بعـض المسـلمين أن يكتبـوا لغاتهم بغير هذه الأنواع مما شاع بين جيرانهم من صور الخط العربي على نحو ما حدث في غرب إفريقيا جنوب الصحراء وفي الصومـال وفي ماليزيـا وأندونيسيا وغير ذلك.

وهكذا كان إحياء اللغات المحلية من قبيل العولمة وكان انتشـار الخـط العربي من قبيل العورية في الوقت نفسه. ولكن عنصر العوربة الخطية هذا لم يبق على حالة في زماننا إذ عمل الغزو الاستعمارى على محاربة العوربة فى جميع صورها فتخلى الكثير من أمم الإسلام عن الخط العربي في كتابة لغاتهم واستعملوا الخط اللاتيني فلحق إهمال الخط العربـي بإهمـال اللغـة العربية.

تشعب التاريخ الإسلامي منذئذ إلى تـاريخ دويـلات، وأصبـح كـل بلـد إسلامي يعنى بالتـاريخ المحلـي أولا ثـم لا يذكـر مـن التـاريخ العـام فـى الدويلات الأخرى إلا كبار الأحداث. واسمحوا لي أن أعترف بـأنني وأنـا غـير متخصـص في التـاريخ الإسـلامي لسـت ممـن يحيطـون بغـير كبـار الأحداث خارج التاريخ المصري وما اتصل به من تاريخ الشام كلمـا اتحـد مصير البلدين أو كانا تحت حكم واحد. كان من نصيب الحكم في مصر أن يقضي على الغزو الصليبي في أيام الأيوبيين، وعلى الغـزو المغـولي في أيـام

المماليك. وكما هتف المعتصم: لبيك يـا أختـاه، هتـف السـلطان قطـز: وا إسلاماه ! فأتى الله بالفتح أو أمر من عنده فى الحـالتين. وجـرت الريـح رخاء حتى جاءت كارثة الغزو العثماني للعالم العربي فقضت تمامـا علـى كل قدرة على الابتكار أو ميل إليه. وزاحمت اللغة التركية اللغـة العربيـة في الدواوين، ولم يبق من أمل في بعث ثقافي في المستقبل إلا ما يتعلـق مـن ذلك بالأزهر بل حتى هنا عمل العثمانيون على إقفـال بـاب الاجتـهاد في علوم الدين، كـان صـلاح الديـن رحمـه الله حـول الأزهـر مـن دار للفكـر الإسـماعيلي إلى خدمـة المذهـب السـنى فلمـا غـزا العثمـانيون مصـر سـنة 1517م حصـروا وظيفـة الأزهـر في تلقـين الـتراث الدينـى واللغـوى دون الاجتهاد فيه مع الانصراف التام عن العلوم الطبيعية والتطبيقيـة، وهكـذا دخلت عقول المسلمين مرحلة البيان الشتوى كما يقولون. وظـل ذلـك هـو قدر التراث أربعة قـرون عجـاف حتـى انتـهى حكـم العثمـانيين في عـام 1914.

ولكن أحداثا معينة حدثـت في خـلال هـذه المـدة ربمـا اسـتحقت مـن الإشارة إليها ما يكشف عن أثرها في بعث يقظة عربية تشهدها أيامنا هذه وإن كانت لم تتعد مرحلة فرك الأعين والتمطى والتثاؤب بعد نوم طويـل. وأول هذه الأحداث تلك الحملة الفرنسية على مصر في نـهاية القرن الثامن عشر وما انتجته من دراسة علمية عرفت منذ ذلك الوقـت باسـم ((وصـف مصر)) – كانت هذه الدراسة باللغة الفرنسية بطبيعة الحال، ولكن اطلاع القارئ المصرى عليها جعله يتنبه إلى أن في عالم المعرفة أمورا غير التراث

الدينى واللغوى تستحق العناية، وأن هناك مسالك للفكر يمكـن أن تعـين على الانتفاع بظواهر معينة فى ممارسة الحياة اليومية.

ثم نصبت الخلافة التركية جنديا ألبانيا اسمه محمد علـي واليـا علـى مصر وكان على رغم جهله القراءة والكتابـة ذا ذكـاء وطمـوح لا نظـير لـه مكنه على رغم أميته الثقافيـة مـن الاستقلال بمصـر عـن حكـم الخلافـة التركية، وأن يدرك الطرق الموصلة إلى النهوض بالدولة التي اسـتقل بـها. كانت الآثار الثقافية للحملة الفرنسية ما تزال موضع الإعجـاب في أوسـاط المثقفـين المصريـين، وكـانت الثقافـة الفرنسـية المتحـررة مـن آثـار القـرون الوسطى في أعقاب الثورة ذات جاذبية خاصة لدى مستشارى محمد علـي فنصحوه بتنشئة طائفة من الشباب المصري المزودين بتربية ثقافية عصريـة وأن يتم ذلك بإرسالهم إلى فرنسا للحصول على هذه التربيـة الثقافيـة مـن خلال التخصص في فروع مختلفة من العلم. وفي الوقت نفسه أنشـأ محمـد على عددا من المدارس الابتدائية والثانوية على النظام الحديث فى التربية وأمر بترجمة المؤلفات التعليمية والعلمية من الفرنسية إلى العربية وبتأليف الكتب المدرسية لخدمة هذا الغرض. فكان ذلك بداية لنشأة نوع من التعليم الحديث يختلف طابعـه واهتمامـه عـن التعليـم الأزهـري. فظـل النوعـان قائمين جنبا إلى جنب في مصر إلى يومنا هذا.

ومعنى هذا أن اليقظة الثقافية والتعليميـة بـدأت في أيـام محمـد علـي الذي استعان بفرنسا في مشروع هذه اليقظة فأرسـل إلى معاهدهـا البعثـات واستعان برجالها في الجـهود المحليـة في فـروع مختلفـة كـالطب وغـيره. وهكذا أفاد محمد علي من عطاء الزمان والمكان. فأما الزمان فقد منح محمد

علي ولاية على مصر ومنح فرنسا تفوقا على بقية الشعوب الأوربية نتيجة لتحررها من قيود العصور الوسطى و نظرا لما مرت به من ظروف الثورة. وأما المكان فقد أعان محمد علي بإيجاد مصدر يستمد منه طلاب البعثات التى يرسلها إلى فرنسا وذلك هو الأزهر ثم إن جهود محمد علي كانت في النهاية خضوعا لضرورات العولمة التى لم يكن للغة العربية بد منها لأنها كانت بعيدة عن تناول أى نشاط علمى طبيعى تعتز به اللغات الأخرى.

كانت غايات محمد علي من هذا الجهد مرتبطة بإنشاء قوة عسكرية تناسب طموحه إلى القوة.

فأنشأ في سنة 1825 مدرسة حربية إعدادية وجعل مقرها قصر العيني الذي هو مقر كلية الطب جامعة القاهرة في الوقت الحاضر. ثم انشأ مدرسة أركان الحرب في أبى زعبل في شمال القاهرة ودعالها أساتذة من الفرنسيين. ثم أنشا في الضاحية نفسها مدرسة للطب الحديث فى سنة 1826 وألحق بها مستشفى لعلاج المرضى ولتمرين طلابها واستقدم لها كذلك أساتذة من فرنسا ثم نقلت هذه المدرسة من هذا الموقع إلى موقعها الحالي الذي به كلية الطب المذكورة وذلك في سنة 1838 فكان إنشاء هذه المدرسة وجهودها فى التعليم والترجمة خيرا وبركة بالنسبة للغة العربية واتصالها بالعلم والفن الحديثين. وكان من ضروريات الترجمة أن يطلع المترجم على معاجم اللغة والمفردات الفنية والاصطلاحية القديمة كمفردات ابن البيطار، وذلك للعثور على المصطلح المناسب أو لصوغ مصطلح آخر يؤدي إلى فهم المحتوى، وبهذا انعقدت الصلة بين لغة العرب وعلوم الغرب.

ثم أرسل محمد علي إلى باريس أربعين طالبا لدراسة أنواع مختلفة من المعلومات كالإدارة والعلوم السياسية والطب والتاريخ الطبيعي والكيمياء والفلزات (المعادن) والزراعة والطباعة والحفر وغير ذلك، وتزايد عدد الطلاب من بعد حتى بلغ ثلثمائة طالب.

وقد عرفت مصر الترجمة العلمية أول الأمر مما كان يقوم به الأساتذة في مدرسة الطب لإفهام طلابهم مادة العلم. ثم قام المترجمون بترجمة طائفة من الكتب التي وضعها هؤلاء الأساتذة بلغتهم في الطب والتشريح والفسيولوجيا (الأقرباذين) والطب البيطري والصباغة وغير ذلك. ثم أنشأ محمد علي مدرسة الألسن في سنة 1842 لتخريج المترجمين وأتبع ذلك بإنشاء قلم (إدارة) للترجمة أنتج الكثير من الكتب العلمية في نواح متعددة من أمور الحياة، فأضاف بذلك توثيقا للصلة بين العربية والعلوم الحديثة.

ولم يقف الأمر من أبناء مصر عند مجرد تحصيل العلوم الحديثة من مصادرها الأجنبية والوقوف عند إجادة فهمها بل أضافوا إلى ذلك بالتدريج مشاركة في تنمية ما لديهم منها في صورة مؤلفات وضعت باللغة العربية فكانت هذه المؤلفات مصابيح تنير طريق النهضة العلمية والابتكار باللغة العربية على نحو يذكر بما كان من نتائج جهود الترجمة في عصر المأمون.

وفي عهد الخديو إسماعيل (حفيد محمد علي) أحس القائمون على أمر التعليم أن طرق التعليم الأزهري ومقرراته ومتونه وشروحه لا تتناسب مع حاجات الدولة الحديثة من طرق التربية، فعهدت الدولة إلى المسؤولين عن التعليم بأن ينشئوا من المدارس العليا ما يمكن أن يقوم بإعداد معلمي المدارس الحديثة ورجال قضاء الأحوال الشخصية فأنشأت الدولة مدارس

عليا لهذه الأغراض هي: مدرسة دار العلوم ومدرسة المعلمين العليا ومدرسة القضاء الشرعي على أن تستمد مدرستا دار العلوم والقضاء الشرعي طلابهما من بين طلاب الأزهر وأن تستمد مدرسة المعلمين العليا طلابها من بين طلاب التعليم الحديث من حملة البكالوريا. فلما أنشئت الجامعات الحديثة في مصر ألحقت دار العلوم بجامعة القاهرة وهي تحمل أسمها التقليدى (كلية دار العلوم) وحلت كليات الحقوق بالجامعات محل مدرسة القضاء الشرعي كما حلت كليات العلوم البحتة من طب وهندسة وزراعة الخ محل مدرسة المعلمين العليا. وهكذا بدأت اليقظة الثقافية والتعليمية في أيام محمد على بالاستعانة بفرنسا لجلب العلوم الحديثة إلى مصر. وعندما أراد العهد الحاضر في مصر أن يقوم بالتوفيق بين نوعي التعليم الأزهري والحديث طور المرحلة الجامعية من التعليم الأزهري التي كانت مكونة من كليات ثلاث هي كلية اللغة العربية وكلية الشريعة وكلية أصول الدين فأبقى هذه الكليات على حالها وأضاف إليها أخوات لها على النظم الجامعية الحديثة.

كانت تلك قصة الصحوة في مصر بما فيها من جهود محمد علي ومن اعتماده علي وجود الأزهر، أما في سوريا حيث تكثر نسبة السكان المسيحيين على اختلاف مذاهبهم فقد تسربت إليهم الثقافة الحديثة أول الأمر بواسطة المبشرين الأوربيين والأمريكيين على حد سواء.

فلقد أنشأ هؤلاء المبشرون عددا من المدارس وبعض المكتبات والمطابع وأضافوا إلى تعليم الدين المسيحي والدعوة إليه تعلم بعض العلوم الحديثة. حتى إذا ألم بعض الشباب بما تلقوا من هذه العلوم بدأوا يشيدون بأنفسهم

بعض المدارس العليا وغيرها، وكان لهم من وحدة الدين بينهم وبين الغربيين ما شجعهم على طلب العلم في بلاد الغرب. وكما كان الأزهر في مصر سببا في الحفاظ على تراث العربية في صورته التي كان عليها، كان في سوريا عدد من المشتغلين بالتراث على المستوى الفردي. فلما تنبه الشباب السوري إلى ظواهر البعث العلمي كانت اللغة العربية واسطة لصحوتهم ووسيلة لإنتاجهم. وهكذا نجد اختلاف الدوافع إلى الصحوة الثقافية تميل باللغة في مصر إلى جانب العلم وتميل بها في سوريا إلى جانب الأدب.

ويدرك المرء ما يبشر به حاضر اللغة العربية من مستقبل يرضي طموح أبنائها في الوصول إلى مستوى مشرف يذكرهم بما كان لها في الماضي من تفوق على الكثير من اللغات أخضعها لآثار اللغة العربية حتى إن بعض هذه الآثار مازال قائما إلى يومنا هذا. فاللغة العربية في آيامنا تمتاز بمستوى مقبول بين لغات العالم، والدليل على ذلك ما يلى:

- أنها واحدة من لغات قليلة تستعمل رسميا في المحافل الدولية.
- أنها إحدى اللغات ذات الوسائل الإعلامية المتفوقة والأقمار الفضائية.
- أن لها وجودا في المؤتمرات العلمية في الأوساط العالمية .
- أن الأدب العربي المعاصر يحظى بالترجمة إلى اللغات الأخرى.
- أن نمو العربية فى حقل المصطلح يجعل من الممكن فى يومنا هذا أن تتسع للترجمة فى الكثير من حقول المعرفة.

– أن الإنتاج العربـــى فـى العلـم والأدب يحصـل الآن علـى الجوائـز العالمية.

– أنه بعد قصور العناية باللغة على التلقـين وحفـظ النصـوص أصبـح العالم العربى اليوم يزخر بالجامعـات و مراكـز البحـوث، وينشـىء المـدن العلمية لأول مرة فى تاريخة.

– أن الدراسات اللسانية والنقدية تشهد فى الوقــت الحـاضر نهضـة تذكرنا بما كان فى الأيام الخوالى من عناية باللغة والانتاج اللغوى.

– أن اللغة العربية استوعبت أساليب جديدة لم تكــن لهـا مـن قبـل كأساليب المسرح والسينما والصحافة والإعلان والدعاية ونحوها.

– أن الشـعر العربـى أصبـح يخضــع لتجربــة جديــدة يــروج لهــا وإن كنا لا ندرى ما ينتظر هذه التجربة من نجاح أو فشل.

وغير ذلك من الظواهر الدالة على اختــلاف الأحـوال بعـد زوال الغـزو التركي والاستعمار الغربي.

كل ذلك يقع في نطاق العوربة، ويدعو إلى الرضا بما آل إليه أمر اللغـة العربية، غـير أن قيـود العولـة مـازالت تتمثـل في تعلـق أفكارنـا العلميـة والأدبية بما يجد في الغرب من أفكار وبدع سواء في مجال الإبـداع الأدبـي أو النقدي أو اللغوي. ولئن كـان ذلـك بطبعـه لا يتعـارض مـع التـدرج في مراحل نمونا ليكونن من الخبر لنا أن نضاعف الجهود في سـبيل الوصـول بلغتنا إلى مسـتوى التفـاعل المتكـافئ مـع لغـات العـالم المتقـدم في جميـع المجالات، وأن نعيد إلى العربية ما كان لها من ازدهار في عصـور تفوقـها وليس هناك أولى من لغة القرآن بهذه الجهود المضاعفة.

شروط عالمية اللغة وكيفية توفيرها للغتنا العربية

الأستاذ الدكتور علي القاسمي

عضو المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم بالرباط

اللغات العالمية:

لقد قاست الإنسانية من ويلات الصراعات المهلكة وعانت من آثار الحروب المدمرة، فتاق الفلاسفة والمفكرون إلى عالم يسوده جو من الوفاق والوئام، وينعم فيه الناس بالأمن والسلام. ورأى كثير منهم أن السبب في الاختلافات والنزاعات بين الجماعات البشرية يعود إلى عجزها عن التفاهم فيما بينها وانقطاع التواصل بين أفرادها. وحسب هؤلاء المفكرون أن وجود لغة (أو لغات قليلة) مشتركة بين الأمم يساعد على إيجاد هذا التفاهم وتيسير ذلك التواصل.

وفي العصر الحديث، ازداد شعور القادة والساسة والمصلحين الاجتماعيين بضرورة إيجاد لغة مشتركة لتكون وسيلة تفاهم في المؤتمرات العالمية وأداة لتدوين المعاهدات والاتفاقات الدولية، وبوجودها يتم التخلص من الترجمة وصعوباتها وما تثيره من سوء تفاهم بين المتحاورين.

وقد برزت ثلاثة توجهات لابتكار أو اختيار اللغة المشتركة المنشودة: أولها، يدعو إلى ابتكار لغة اصطناعية محايدة تماما؛ وثانيها، يرى تبسيط إحدى اللغات الحية بحيث يسهل تعلمها والتفاهم بها، وثالثها يرمي إلى اختيار إحدى اللغات العالمية ونشرها.

وتعددت المحاولات لابتكار اللغة الاصطناعية المثالية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، حتى بلغ عدد اللغات الاصطناعية الموضوعة 321 لغة. وكان أشهر هذه اللغات الاصطناعية لغة الاسبرانتو التي وضعها اللغوي البولندي زامنهوف عام 1887، معتمدا على قواعد مبسطة ومفردات محدودة استقاها من اللاتينية والإنجليزية والفرنسية

والألمانيـة. وتكـاثر أنصـار هـذه اللغــة وأخــذوا يعقــدون مؤتمــرا ســنويا لهـــــم، وشـجعتها عصبـة الأمـم في توصيـة لهـا عــام 1921 وكذلــك اليونسكو عام 1955. ولكن نجم هذه اللغة أخذ بـالأفول في السـتينات ومـا بعدها في القرن العشرين لأسباب لغوية وسياسية.

ويعود فشل اللغات الاصطناعية إلى أنها تسـتند في أصواتـها المعـدودة ومفرداتـها المحــدودة وقواعدهــا المبســطة إلى لغــة أو مجموعــة لغويــة معينـــة، كاللغـات اللاتينيـة مثـلا، وهكـذا تصبـح سـهولتها المزعومـة مقتصرة على النــاطقين بتلـك اللغـة الأم أو اللغـات الأصـل. إضافـة إلى أن أصواتـها سـتتأثر حتمـا بـأصوات اللغـة الأم لمـن يسـتعمل تلــك اللغــات الاصطناعية، فلا تبقى موحـدة. وعـلاوة علـى ذلـك، فـإن عـدد مفرداتـها المحدود لا يضمن دقة التعبير فيكثر اللبس ويسود الغموض.

ولهذا كله، فقد أصبح التوجه في بداية القرن العشرين إلى تبسيط لغــة طبيعية وتيسير تعلمها لتكـون وسـيلة تفـاهم عالميـة. وفي عـام 1930 أنجـز المفكران البريطانيان أوكدن وريتشارد مشروعهما المعـروف بــ "الإنجليزيـة الأساسية" الذي يشتمل على 850 كلمة من بينها 18 فعلا فقط. كمـا أنجـز اللغويــون الفرنســيون والألمــان مشــروعات مماثلــة لتبســيط الفرنســية والإنجليزية. ولكن هذه اللغات المبسطة لم تســتطع أن تقـوم مقـام اللغـات الطبيعية في إجراء اتصال كامل وتفاهم تام بين مسـتعمليها للقيـود الكثـيرة التي وضعت عليها من أجل تبسيطها.

وأصبح من الواضح اليــوم أن لغـة طبيعيـة أو أكـثر سـتقوم بـدور اللغـة العالمية المشتركة. ولو نظرنا إلى تاريخ البشـرية المعـروف لرأينـا أن اللغـات

التي كتبت لها صفة العالمية في العصور القديمة والوسيطة هي: الأكدية (لغة بابل وآشور)، والآرامية، والإغريقية، واللاتينية، والعربية. أما في العصر الحديث فقد اضطلعت بهذا الدور اللغة الفرنسية واللغة الإنجليزية.

شروط عالمية اللغة:

قال لي أحدهم: " عندما كانت الثقافة الروحية تسود العالم في القرون الوسطى كانت العربية لغة عالمية، أما اليوم فإن الحضارة المادية هي المنتشرة ولهذا فإن الإنجليزية لغة الصناعة وتكنولوجيا المعلومات هي اللغة العالمية بلا منازع."

وفي الوقت الذي أقرّ فيه أن هذا القول يحمل الشيء الكثير من الحقيقة، فإنني أرى أن العِلم ليس العامل الوحيد في عالمية اللغة، وإنما هو عامل هام من بين جملة من العوامل والشروط التي تمكّن لغة من اللغات من القيام بدور اللغة المشتركة بين عدد من الشعوب، وأن اللغة الإنجليزية نفسها لا تقتصر على كونها لغة الحاسوب وشبكة المعلومات (الإنترنت) فقط، بل توفرت على عدد من الشروط الأخرى اللازمة لقيام اللغة بدور وسيلة التفاهم المشتركة.

ويحسب بعضهم أن عالمية اللغة تعتمد من حيث الأساس على عدد الناطقين بتلك اللغة. وفي حين أن عامل السكان من عوامل عالمية اللغة فإنه ليس العامل الحاسم في الأمر، وإلا لكانت الصينية هي اللغة العالمية الأولى لأن سكان الصين يشكلون ربع سكان العالم تقريبا، ولاحتلت اللغة الهندية المكانة الثانية بين اللغات العالمية لأن سكان الهند يزيد تعدادهم

على البليون نسمة. ولكننا نعلم أن صفة العالمية لا تنطبق على اللغة الصينية ولا على اللغة الهندية.

ولكي يكون عامل السكان عاملا مؤثرا في عالمية اللغة فإنه بحاجة إلى عوامل مساعدة أخرى، في مقدمتها الموقع الجغرافي للناطقين باللغة. فكلما كان موقعهم الجغرافي استراتيجيا ارتفع شأن لغتهم. فأهمية اللغة الألمانية في أوربا، مثلا، مستمد من الموقع الذي تحتله ألمانيا في قلب أوربا إضافة إلى عوامل أخرى.

وإذا لم يتوفر الموقع الجغرافي الإستراتيجي، فإن التوزيع الجغرافي للناطقين باللغة يساعد على انتشارها. فبريطانيا، مثلا، لا تتوفر على موقع جغرافي جيد ، فهي جزر معزولة في أقصى شمال غربي أوربا، ولكن موقعها ساعد أبناءها على ركوب البحر ومكّنهم من السفر فيه، فهاجروا إلى أمريكا الشمالية (كندا والولايات المتحدة)، وأستراليا، ونيوزلندة، وجنوب أفريقيا، ما أسهم في توزيعهم توزيعا ساعد على نشر اللغة الإنجليزية وتأهيلها للقيام بدور اللغة العالمية.

ولعل العوامل التاريخية هي في مقدمة عوامل انتشار اللغة وعالميتها. والمقصود هنا بالعوامل التاريخية الغزو والفتوحات، والاستعمار والاستيطان، والهجرة وجميع أنواع الانتقال الجماعي للسكان سواء أكان هذا الانتقال موسميا مؤقتا أو نهائيا، بحيث تنتقل اللغة مع الغزاة والفاتحين والمستوطنين والمستعمرين والمهاجرين.

ولكن هذا العامل لا يكفي وحده لانتشار اللغة، إذ لا بدّ له من عوامل ثقافية مدعمة. فالمغول التتار الذين اجتاحوا العالم الإسلامي خلال

القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي وتمكنوا خلال أعوام معـدودة من السـيطرة علـى العـالم الإسـلامي واحتلـوا بغـداد عـام 656 هـ/1258 م وأسقطوا الخلافة الإسلامية، لم يستطيعوا أن يفرضوا لغتهم، لأنها لم تكن تحمل ثقافة تضاهي ثقافة الشعوب المغلوبة، بل حصل العكس تماما فقد تعلّم هؤلاء الغزاة اللغة العربية واعتنقوا الإسلام ونشـروا الثقافـة الإسـلامية في البلاد التي غزوها بعد ذلك.

بيـد أن المسـتعمرين الأوربيـين اسـتطاعوا أن يفرضـوا لغاتـهم علـى الشعوب التي اسـتعمروها في أسـيا وأفريقيـا خـلال القرنـين التاسـع عشـر والعشرين الميلاديين، لأن ثقافتهم كانت أرقى من ثقافة الشـعوب المغلوبـة ولأنـهم خططـوا لنشـر لغاتـهم. وينطبـق هـذا المبـدأ علـى العمـال العـرب المهاجرين إلى أوربا وأمريكا، فعلى الرغم من كثافة أعدادهم لم يؤثروا على الخريطة اللغوية الأوربية بسبب تدني المسـتوى والوعـي الثقـافيين لهـؤلاء العمال لدى وصولهم المهجر.

وفي مقدمة العوامل الثقافية التي تشجع علـى تعلـم لغـة مـن اللغـات الأجنبية العامل العقيدي. فعندما تكون لغة ما لغة دين من الأديان أو لغـة عقيدة سياسية أو فلسفية أو ما شابه، فإن أتباع ذلك الدين ومعتنقـي تلـك العقيدة يقبلون على تعلم تلك اللغة لفهم النصوص التي دونت بها.

ومن العوامل الثقافية التي ترفع من شأن اللغة ازدياد عدد المطبوعات بها من كتب ومجلات وصحف وغيرها، وازدياد مـا يـترجم منـها وإليـها من أعمال أدبية وعلمية. ولكن الكتاب لم يعـد اليـوم الأداة الثقافيـة الأولى وإنما أصبحـت الوسـائل السـمعية البصريـة كالشـبكة الدوليـة للمعلومـات

(الإنـترنت) والسـينما والتلفزيـون والمذيـاع وغيرهـا هـي الأدوات الثقافيـة الرائجة، مـع وجـود توجـه لجعـل الحاسـوب أداة وحيـدة تقـوم بجميـع الوظائف السمعية البصرية. ولما كانت أكثر من 85 بالمائة من المادة المتوفـرة في الشبكة الدولية مكتوبة بالإنجليزية، فإن كثيرا مـن الشـباب يسـعى إلى إتقان هذه اللغة.

ولا شك أن العوامل السياسية والاقتصادية والعسكرية اليوم في طليعـة عوامل عالمية اللغة. فحين تزداد مكانة أمـة مـن الأمـم رفعـة في المجتمـع الدولي بفضل قوتها السياسية أو الاقتصادية أو العسكرية، فإن لغتها تصبح مؤهلة للانتشار. وهذا ما يفسر لنا اختيار لغات الدول المنتصـرة في الحـرب العالمية الثانية لتكون لغات عمل في منظمة الأمم المتحدة الـتي تأسسـت في أعقاب تلـك الحـرب، وهـي الإنجليزيـة والفرنسـية والإسـبانية والروسـية والصينية. وقد أُضيفـت إلى تلـك اللغـات اللغـةُ العربيـة عـام 1975 عندمـا كانت الأمة العربية تمثل قوة اقتصادية وسياسية واعدة.

هذه، باختصار، أهم العوامل التي تؤهل لغة مـن اللغـات للاضطـلاع بدور اللغة العالمية. ويتبين لنا أن اللغة العربية تتوفر علـى كثـير مـن هـذه العوامل. فالأمة العربية تحتل موقعا استراتيجيا متميزا في العالم فأراضيـها تقع على تقاطع الطرق بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب، وتطـل على أهم بحار العالم ومحيطاته: البحـر المتوسـط والبحـر الأحمـر والبحـر العربي والمحيط الهندي والمحيط الأطلسي. ويناهز سـكان الأمـة العربيـة ثلاث مئة مليون نسمة. وتقطـن قبـائل عربيـة في تشـاد والنيجـر ونيجريـا وغيرها من الأقطار الإفريقية. والعربية، فوق ذلـك كلـه، هـي لغـة القـرآن

الكريم الذي يتلوه يوميا ويتعبد به حوالي مليار ونصف المليار من سكان العالم في قارات العالم الست، إضافة إلى وجود ملايين العرب المهاجرين في أوربا وأمريكا واستراليا.

عقبات أمام عالمية العربية:

ومع ذلك كله فإن ثمة معوقات كبيرة تحول دون أن تتبوأ العربية المكانة العالمية التي ينشدها لها أهلها في الوقت الراهن. ويمكن تلخيص هذه المعوقات فيما يأتي:

أولا، عدم مساهمة الأمة العربية في الثورة العلمية والتكنولوجية والمعلوماتية المعاصرة، لا لتدني المستوى العلمي والتكنولوجي فحسب، بل لأن التعليم العالي والبحث العلمي في الأقطار العربية ما زال منقوص التعريب كذلك. ويعتمد التقدم العلمي والتكنولوجي على إشاعة المعرفة العلمية بين جميع شرائح الشعب. ولا يمكن تحقيق ذلك إلا باستخدام اللغة الوطنية في التعليم والبحث والنشر. وعلى الرغم من مرور عشرات السنين على استقلال الأقطار العربية فإنها ما تزال تستعمل لغات الاستعمار القديم في التعليم العالي والبحث العلمي وقطاعات كبيرة من الاقتصاد والإعلام. أما العلماء العرب الذين أسهموا في أبحاث علمية راقية وحاز بعضهم على جوائز عالمية فإنهم دونوا نتائج أبحاثهم باللغات الأجنبية وليس بالعربية.

ثانيا، يتطلب استخدام اللغة العربية في التعليم العالي والبحث العلمي استخدام مصطلحات علمية وتقنية موحدة في التعليم والبحث وجميع وسائل الإعلام. وعلى الرغم من أن مكتب تنسيق التعريب قد تمكن من

عقد مؤتمرات التعريب المتتالية التي تم فيها توحيد آلاف من المصطلحات العلمية ونشرها في معاجم أصدرتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، فإن الأقطار العربية ظلت، مع الأسف، تستخدم، في كثير من الأحيان، مصطلحات قطرية مختلفة للمفهوم العلمي الواحد، إما بسبب ضعف توزيع معاجم المصطلحات الموحدة وإما بسبب ضعف إرادة الأقطار العربية في استعمال ما وُحِّد. ولم تتفق المؤسسات اللغوية والعلمية في البلاد العربية على آلية ملزمة لاستعمال المصطلحات الموحدة فقط.

ثالثا، يعاني أبناء الأمة العربية انحطاطا في مستواهم اللغوي يتجلى في تفشي الأمية التي تبلغ نسبتها في بعض الأقطار العربية حوالي 70 بالمائة من البالغين.ولا نتوقع أن يتقن العالم لغة لا يعرفها أهلها. وتعمل الأمية، من ناحية أخرى، على تكريس الازدواجية القائمة بين العامية والفصحى وزيادة الشقة بينهما. وعلى الرغم من أن ظاهرة الازدواجية موجودة في جميع اللغات الكبرى فإن درجتها تختلف من لغة إلى أخرى. وكلما تضاءلت الازدواجية تعاظم حظ اللغة في بلوغ مكانة عالمية.

رابعا، نزعم أن اللغة العربية الفصحى هي لغة واحدة، ولكن المعاجم اللغوية العربية لم تسجل، بصورة كاملة، ألفاظ الحضارة المستعملة في الحياة العامة مثل أسماء الأدوات والآلات المستخدمة في الحرف والمهن، وأسماء أدوات المنزل وأثاثه، وأسماء الأطعمة والمأكولات، وأسماء الأماكن والمركبات ووسائط النقل الأخرى وغيرها. وظل الناس يستعملون أسماء لتلك الأشياء تختلف من قطر لآخر ومن ناحية لأخرى، بل ما نزال نستخدم أسماء مختلفة لعملاتنا النقدية

ومؤسساتنا الإدارية ومراحل الدراسة وغرف الدراسة وغيرها من الألفاظ الحضارية الأساسية. ولا بد من اتفاق مجامع اللغة العربية على ألفاظ حضارية موحدة تضم كذلك ألفاظ الحضارة الحديثة مثل الحاسوب وشبكة المعلومات والحاسوب والبريد الإلكتروني وأضرابها، ونشرها وتعميمها عن طريق المدرسة ووسائل الإعلام المختلفة. وإذا كانت الألفاظ الحضارية المستعملة في الحياة العامة تختلف من قطر عربي لآخر، فإن الأجانب يزهدون في تعلم العربية الفصيحة ويفضلون تعلم اللهجات العربية. وهذا ما يفسر لنا إقدام عدد من الجامعات الأوربية والأمريكية على تعليم هذه اللهجات للراغبين من طلابها.

خامسا، لا توجد سياسة عربية واضحة في التخطيط اللغوي الذي يشمل، فيما يشمل، تعليم اللغات الأجنبية في مدارسنا ومعاهدنا، وتعليم العربية لغير الناطقين بها، والترجمة من العربية وإليها. فنادرا ما نجد، مثلا، سفارة عربية في الخارج تضم مركزا لتعليم العربية لغير الناطقين بها كما هو الحال في المراكز الأمريكية والبريطانية والفرنسية والإسبانية والإيطالية وغيرها.

سادسا، لا تشكل الأمة العربية قوة سياسية أو اقتصادية لها وزنها العالمي، وذلك للخلافات السياسية بين الأقطار العربية، وعدم وجود سوق عربية مشتركة، بل عدم اتفاق العرب حتى على تعريفة جمركية موحدة لحد الآن. وما تزال الحدود القطرية، بشكل عام، تقف حائلا أمام البضائع العربية كما تقف حائلا أمام المطبوعات العربية.

المتخلفة إلى مصاف الدول المتطورة، فإن مكانة الأمة العربيـة ستسمو بين الأمم، وإن لغتها ستضطلع بدور عالمي بارز، لأن بقية شروط عالميـة اللغـة متوفرة لها.

بعض المراجع:

ـ إبراهيم أنيس، اللغة بين القوميـة والعالميـة (القاهرة: دار المعارف، 1970)، خاصة الفصل الثامن "لغات عالمية في التاريخ" ص 255–327

ـ علي القاسمي، اتجاهات حديثة في تعليم العربيـة للنـاطقين باللغـات الأخـرى (الريـاض: جامعـة الريـاض، 1979)، خاصـة الفصـل الثـاني " مكانة العربية بين اللغـات العالميـة" ص 15ـ48، والفصـل الثـالث " اللغـة العربية في أفريقيا ومشكلاتها" ص 49ـ 56.

ـ مؤسسـة آل البيـت وآخـرون، التنميـة مـن منظـور إسـلامي (عمّـان: مؤسسة آل البيت، 1994) مجلدان

- Archibald A. Hill, "Esperanto au Dubanto," The Texas Quarterly, Vol. III, No. 1 51960- pp. 143-149.
- I.A. Richard, Basic English and its uses (N.Y. W.W. Norton & Co., 1943)
- Pierre Burney, Les Langues internationales (Paris : Que Sais-Je, 1966)

المتخلفة إلى مصاف الدول المتطورة، فإن مكانة الأمة العربيـة ستسمو بين الأمم، وإن لغتها ستضطلع بدور عالمي بارز، لأن بقية شروط عالميـة اللغـة متوفرة لها.

بعض المراجع:

ـ إبراهيم أنيس، اللغة بين القوميـة والعالميـة (القاهرة: دار المعارف، 1970)، خاصة الفصل الثامن "لغات عالمية في التاريخ" ص 255–327

ـ علي القاسمي، اتجاهات حديثة في تعليم العربيـة للنـاطقين باللغـات الأخـرى (الريـاض: جامعـة الريـاض، 1979)، خاصـة الفصـل الثـاني " مكانة العربية بين اللغـات العالميـة" ص 15ـ48، والفصـل الثـالث " اللغـة العربية في أفريقيا ومشكلاتها" ص 49ـ 56.

ـ مؤسسـة آل البيـت وآخـرون، التنميـة مـن منظـور إسـلامي (عمّـان: مؤسسة آل البيت، 1994) مجلدان

- Archibald A. Hill, "Esperanto au Dubanto," The Texas Quarterly, Vol. III, No. 1 51960- pp. 143-149.
- I.A. Richard, Basic English and its uses (N.Y. W.W. Norton & Co., 1943)
- Pierre Burney, Les Langues internationales (Paris : Que Sais-Je, 1966)

العربية بين العورية والعولمة

الأستاذ الدكتور عبد الفتاح أبو مدين

رئيس النادي الثقافي - جدة -

لعلي أهدف في ورقتي هذه إلى الحديث عن العربية كونها لغة تهمّ ما يزيد عن بليون من سكان العالم (وهو عدد المسلمين اليوم)، لا من وجهة أنها اللغة الجامعة لمئتين وسبعين مليونا من أهل المعمورة. على أني لا أنكر لهذه الوجهة الأخيرة أحقيتها ونفعها، إلا أنه ليس من الضرورة – في رأيي – أن يذهب الاشتقاق الصرفي سعيا وزحفا فنطلق– بدافع الذود والحماية – على لغتنا إذ تكافح لأجل خاصتها وميزتها، لفظ العوربة ليكافئ ويوازي وزنا وقوة هجوم العولمة. لأنه إن نحن نحونا هذا المنحى وذهبنا هذا المذهب نكون:

أولا – قد غيرنا في الحروف من جهة الترتيب الذي هو في أصل الشعار التَّالد (العروبة) بالتقديم والتأخير (تقديم حرف الراء، وتأخير الواو) وما غيّرنا في المقصد والمعنى من جهة الرابطة القائمة على اللسان – بالحصر والتحديد – إمعانا في تثبيت العصبية الأولى: عصبية القبيلة لما علق بها من مفاخرات بين البطون والأفخاذ، وبما رافق حياتها من تشتت شمل وعداوات جرّتها حروب طاحنة، لا سبب وجيه يدفعها ولا نتيجة ترتجى (حرب داحس والغبراء، حرب البسوس ..الخ).

ثانيا: غفلنا على ما في وزن العولمة وفحواها من معاني التحويل القسري وليّ الأذرع والألسن قهرا وغصبا، صرفا للتنّوع وجلبا للقالب الواحد والنمط الفرد .

المشكل الأساس – في ظننا – حين تعلق اهتمام غير العرب باللغة أو حين استهدفت رياح الغرب العربيةَ في أزمان متفرقات من تاريخ العرب المسلمين، هو أن نجدّد انتباهنا إلى: كيف السبيل لأن يكون للعربية

لعلي أهدف في ورقتي هذه إلى الحديث عن العربية كونها لغة تهمّ ما يزيد عن بليون من سكان العالم (وهو عدد المسلمين اليوم)، لا من وجهة أنها اللغة الجامعة لمئتين وسبعين مليونا من أهل المعمورة. على أني لا أنكر لهذه الوجهة الأخيرة أحقيتها ونفعها، إلا أنه ليس من الضرورة – في رأيي – أن يذهب الاشتقاق الصرفي سعيا وزحفا فنطلق– بدافع الذود والحماية – على لغتنا إذ تكافح لأجل خاصتها وميزتها، لفظ العوربة ليكافئ ويوازي وزنا وقوة هجوم العولمة. لأنه إن نحن نحونا هذا المنحى وذهبنا هذا المذهب نكون:

أولا – قد غيرنا في الحروف من جهة الترتيب الذي هو في أصل الشعار التَّالد (العروبة) بالتقديم والتأخير (تقديم حرف الراء، وتأخير الواو) وما غيّرنا في المقصد والمعنى من جهة الرابطة القائمة على اللسان – بالحصر والتحديد – إمعانا في تثبيت العصبية الأولى: عصبية القبيلة لما علق بها من مفاخرات بين البطون والأفخاذ، وبما رافق حياتها من تشتت شمل وعداوات جرّتها حروب طاحنة، لا سبب وجيه يدفعها ولا نتيجة ترتجى (حرب داحس والغبراء، حرب البسوس ..الخ).

ثانيا: غفلنا على ما في وزن العولمة وفحواها من معاني التحويل القسري وليّ الأذرع والألسن قهرا وغصبا، صرفا للتنّوع وجلبا للقالب الواحد والنمط الفرد .

المشكل الأساس – في ظننا – حين تعلق اهتمام غير العرب باللغة أو حين استهدفت رياح الغرب العربيةَ في أزمان متفرقات من تاريخ العرب المسلمين، هو أن نجدّد انتباهنا إلى: كيف السبيل لأن يكون للعربية

ولما جاءت الرسالة الإلهية، والبعثة المحمدية، حُمِّلت اللغةُ الرسالةَ وكُلِّفتْ تكليفا بالدعوة بالأمانة، من جهة أن الكتاب الكريم نزل بها وأعجز العرب بما كانوا فيها يدّعون، يتمارون ويفخرون. وكان القرآن المجيد من قبلُ قد بَعث في قوالبها وأركانها من القيم السامقات والمعاني الساميات وهذّب بأدبه عقائد القوم وسرائر أكنَّتهم، وأقوالهم الجارية على ألسنتهم، وأفعال جوارحهم وسائر ظروف معاشهم.

تدفَّقت الأقوام دخولا في دين الله عز وجلّ، ولما كانت عاجزةً ألسنتها عن أن تلهج بلغة القرآن على الوجه الصحيح، والصفة التامة، اعتماداً على ما تعودت عليه النظم التي في أذهانها من خاصة لغتها الأولى حصلت ظاهرة اللحن في حواضر بلاد الإسلام. ولأن الأمر صدر عن أقوام هم من الأمة بالانتساب والولاء، ومن الجسد بمثابة الأجزاء والأطراف، قام نفر من العلماء أشهرهم الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 170هـ) للتصدي إلى معالجة هذه المهمة. كان ذلك في منتصف القرن الثاني للهجرة حين اتجهت وجهة بناء أركان النحو وقواعده نحو أصقاع العرب ومنابت البدو والقفار، لتجمع اللغة من ألسنة الغلاظ الشداد.

1- [illegible]

على أن هذا العَوْد – على ما فيه من الدقة والشدة والقوة والصرامة – لا يلغي أبدا ما في ألسن العرب من تعدد واختلاف . بل ينهض على جمعها بمتفرقها ومتعددها [2].

ويبدو لنا أن العربية عند علمائنا الأوائل ـ إن نحن أردنا الاختصار، واختزال صورتها، وكيف تكون بأيدي مالكيها ـ قلنا هي: "كالطِّوَلِ المَرْخَي وثِنْيَاهُ باليدِ". ذلك أنه وإن اختلفت عدنان وقحطان "وتخالفت عليا تميم، وسفلى قيس، وعجز هوازن، وفصحاء الحجاز، في اللغة، وهي على أكثرها على خلاف لغة حمير، وسكان مخاليف اليمن، وكذلك في الشمائل والأخلاق كلهم مع ذلك عربيٌّ خالصٌ"[3]. لأن الوحدة الراشدة والعروة الوثقى لا تنفي بحال من الأحوال التعدد الذي عليه وضع أصل الخليقة. بل إن هذا إغناء لتلك وسند لها ما خلصت النيات وصفت السرائر. والشاهد ما رأيناه من الأمم الداخلة في الإسلام وكيف أنها أفادت بفلسفاتها ومدنياتها العرب ودفعتهم – بلحنها في اللغة واعوجاج ألسنتها – إلى بناء صرح النحو وقواعد العربية، دفعا من داخل الحواضر المتجددة القائمة في تداولها على الألسن المتعددة، وهي كلٌّ متوحدة الصف، موحِّدة لإله واحد. ولأنّ التنوع الجديد له من التنوع القديم أصول

---

[2] ـ لا نرى أنّ هذه العودة " لعالم الأعراب" – كما ذهب د. محمد كانت نتيجة ومحصلة لعملية جذب كما أوضحنا، على أنّ القرآن أضاف لكل ذلك ما فتحه للغة في معجمها من عالم الحضر الكثير، يمكن العودة لما طرحه محمد عابد الجابري في كتابه: التراث والحداثة – ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1991، ص 143–144.

[3] ـ رسائل الجاحظ، ص 476.

عند مختلف لهجات العرب، فقد أقر الإسلام أن ينفتح القرآن الكريم على الأحرف، هي السبعة الأقلام، تيسيرا على بطون العرب وتسهيلا على مَنْ بألسنتهم إعجام. "ولأنّ الأمر إذا تجاوز حده انقلب إلى ضـده" رأينـا مـا جاء في الأثر .. حينما لحن أحدهـم – قيـل – "أرشـدوا أخـاكم فإنّـه قـد ضلّ"، ومن أجل ذلك اهتدى المسلمون من بعده إلى الرجـوع إلى المصحـف الإمام، خوفا من انفراط العقد ، وشتات الأمر.

بلغ التنافس بين الأقوام والأمم مبلغه من التنافس للظفر بتعلم العربية – بعد انتشار الإسلام وعلـوّ شـأنه في العـالمين – بـل تسـابقت الألسـن في إتقانها ونيل رضوانها ، حتى أضحى من تكلّمها أو تملـك زمامـها أخـذ بأسباب التحضر وتقلّد أوسمة التمدن. وانتقل العرب بهذه الجبلة، وتلكم الحركة إلى تأكيد الحضور في أصقاع ما حلموا يوما مرورهـا بـالعبور، إنمـا هي الرسالة والهداية حين جمعت هؤلاء إلى شيع الفـرس وطوائـف الـروم وسائر أهل البرنس والمستقسمين بالأزلام تحت راية واحدة وكتاب هـــو ﴿ من اللّه نورٌ وكتابٌ مبين، يهدي به اللّه مَنِ اتّبَعَ رضْوانَهُ سُـبُلَ السَّـلام ويُخرجُهُم مِنَ الظلمات إلى النور بإذنِهِ ويهديهم إلى صـراطٍ مستقـــيم﴾ (الآية 15–16 من سورة المائدة).

ذاك ما كان في أيام انبعـاث العـرب بالإسـلام مـن رقدتـهم، ونـهوض لغتهم بعد أن أنهضتهم الرسالة من كبوتهم ، وهم في تلكـم العصـور الأولى كما أشرنا آنفاً من القوة والتمكين إذ قويت شوكتهم، وثقفت رماحهم. أما في الأواسط من العصور حين مسهم بعض مـن ضعـف في سـنامهم وتراجـع عسكرهم في ساحات قتالهم، فقد بقي الدين الذخـر والمعـين، وبقيـت بـه

العربية القـوة الداعمة، والحبل ذو الثنيـان المتين. وقد رأينـا كيـف آلـت حملات جنود جينكيز خان وهولاكو وتيمور لانك علـى أمـة الإسـلام مـن بغداد وفارس وأرض العـرب من هزيمة العـرب عنـد اللحمـة والحميـة في الحرب، إلى انتصار للدين والقرآن، إذ تحول الأعداء إلى موالين للحق بعد أن وضعت الحرب أوزارها، لاهجين بالعربية – وإن نحـن تجاوزنـا قلنـا مغزوين في عقولهم وألسنتهم – إنما هو الحـق الـذي يظـهره الله علـى مـا سواه، حتى ليذهب الغـزاة كـل مذهـب في مراجعـة موروثاتـها وعاداتـها لتستقيم على النـهج القويـم، بـل تـروح تبحـث عـن سـبل كتابـة لغاتـها بالحرف العربي – عـن طواعيـة غـير مكرهـة ولا هـي مُلزمـة – زيـادة في القرب من القرآن وإظهارا للولاء للإسلام، قناعة ثابتة وعقيدة راسخة، لا يدفعها سيف ولا حرابة، بل هي كما رأينا رابحة في الحرب لا مغلوبة .

وليس هـذا ينطبـق علـى الحضـارة العربيـة الإسـلامية خاصـة والقيـد والتحديد، بل هو مما ينسحب على كل حضارة متمكنة وثقافة متجـذرة، ولغة شاعت بهذه وتلك . فلو عدنا أدراجنا ننقب في تاريخ الأمـم لوجدنـا في العصور القديمة الموغلة في القدم ألوانا من هاتيك الحكـم، فأثنينـا علـى خسارتها في غزو الروم لها واستحلالها أرضها، ما لبثـت أن غلبـت بـأن حولت الروم إلى ثقافتها الواسعة وعلومها الشامخة، وأضحى مَن كان جاء غازيا بالأمس – وقد تحقق له ما أراد في سـاحة القتـال – مغـزوّاً في فكـره مستهدفا في لسانه. هذا يتفق مع ما أسلافنا في القانون الساري في منحى التاريخ الجاري. فإذا أضفنا لذلك أنّ حفظ العربية من حفظ القرآن، وهـو ما أكد استمرارها على مستوى نحوها وتراكيبها لما يزيد عـن أربعـة عشـر

قرنا من اقتران الإسلام بها – دون احتساب ما قبله من عهود – بينما أقصى حياة اللغات هو بين قرنين وأربعة قرون بحسب ما وضع علماء الألسن من التقديرات.

(2)

إن ظاهرة اللحن التي شهدتها حضارة الإسلام ولغته في أوج عطائها وانبثاق أنوارها لا تشبه في شيء الدعوات إلى العامية التي فرضها الغازي الجديد (الاستعمار: أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين). ذلك أنّ الأولى – إضافة إلى أنها صدرت عن أقوام اعتنقوا الإسلام ودانوا بالولاء كما أشرنا، ورغبوا من ذاتهم في تعلم العربية – فإنّها (أي ظاهرة اللحن) دعت الثقافة لأن تعيد تشييد ذاتها بالارتداد إلى دواخلها، وبناء نحوها على دعائم من جنس لغتها وجواهر معدنها. ويومئذ لم تكن للإسلام من مطامع في ما هو بأيدي الآخرين، ولا هو مضطر لإضعاف ثقافات الأمم ولغاتها وتفتيت مرتكزاتها وبنياتها، وإنما مبلغ غايته كان: كيف السبيل إلى إشاعة مبادئه السمحة وقيمه المثلى التي تحقق للإنسان عتقه وسراحه من عبودية أخيه الإنسان؟ وكان لأجل تحقيق الغاية يضطره الصدّ والمنع لإعلان حروب ضد سادات البشر ومستغليهم والحائلين بينهم وبين الدين القيّم. قلنا إن منحى الاستعمار كان خلافا لما كان عليه نهج الإسلام وسلوك المسلمين لاختلاف المرامي والأهداف، وقبله لاختلاف الوضع البشري والأمر الإلهي. ولمزيد من التفصيل في هذا نعرض لما رافق الإنجليز في حملتهم على مصر: أنّهم (على عهد الخديوي إسماعيل في النصف الثاني من القرن التاسع عشر)، قد أعدوا العدة بنية

ضرب لغة الضاد. ولما كانت لغتهم ليس لها من سبيل إلى القوم المحتّلين إلاّ إذا ضعفت عربيتهم، فقد أطلقوا الدعوة إلى اتخاذ العامية سبيلا ليس في حيز التداول اليومي – لأن ذلك ما هو جار بالواقع حاصل بالبديهة – وإنما سبيلهم ومرماهم إلى جعلها اللغة الرسمية والقانون السائر، وقد وظفوا لذلك أحد الألمان المختصّين (ولْهَلْم سبتّا)، وكان منطلق هذا الأخير ما خبره من تبدّل يعلمه وتغيّر خبره أصاب قديما اللاتينية عند الأوربيين فأضحت لغة تالَدة ولسانا معفيًّا، قامت مقامها لغات هي بالأساس والأصل لهجات تلكم الأقوام وعامياتهم. ثم طفق "سبتّا" يؤلف صرفا ونحوا بعد أن فحص مختلف ألسنة حاضرة مصر وبواديها، وزاد بأن جمع الأمثال والأزجال وقصص الذين كان يراهم أقواما يبشر بجمع متفرقهم، وتأسيس كيانهم، وتقويم لسانهم. واستثمر الإنجليز إنجازات "سبتّا" هذا، والتي كانت توصف عندهم بالدراسات "العلمية" وراحوا يبحثون عن الدواعي الكفيلة حتى يستسيغها الشعب القابع تحت قبضتهم ويرتضيها، وتهضمها بطون علمائهم ويعملوا على تطبيقها واقعا حيّا يدبّ على الأرض. ومن أهم تلكم الدواعي التي اتخذوها متكأ يستندون إليه، ومعوّلا يعتمدونه، هو حرصهم على رفع الأميّة ودفع الجهالة، ولعل اعتقادا يتلبّسهم بأنهم سدنة الشعل وحملة النور إلى شعوب بدائية وأمم متخلفة، هو أصل كل ذلك وأساسه. وغريب الأمر أن ترافق هذه الدعوة (أي دعوة رفع الأمية) العمل الدؤوب والجهد المضفي لتقنين إستعمال المصرية يومها بحروف لاتينية باسم التعارف بين الأمم وتسهيل تجارات رابحة وأرزاق وافدة، ومقاصد خيرة في تعليم أهل البلاد

ونقلهم إلى المدنية . وعلى رغم تهافت الدعوة وبـروز القصد المخبوء والنية المبيَّتة، فإنّ ذلك لم يمنع بعـض أهل العربية من المنتسبين من الانجـراف دون أن يعـوا لهذه الدعـوة بآذان صاغية طائعـة، وأقلام داعيـة حاميـة. بل لقد امتدت الفكرة وانتشرت انتشارا حتى تفرقت في بلاد الشام (لبنـان وسوريا خصوصا)، وتنوعت الإسهامات لدعـم هـذه الجلبـة بـين الكتـاب والصحيفة والمجلة. ولو ظنّ الظّانون أنّ الكتب الجامعة للأمثال الشـعبية والحكم الإنسانيـة، إنما هي أعمال الجدّ، تدعم علما هو علم الإناسة عند العـرب – وهـو لديـهم ضعيفـا – وأنّ الصحـف والمجـلات الصـادرة باللهجات المحلية هي من باب الأعمال الداعمة لأدب السخرية – وهو ما تحتاجه أمـة مقهـورة – إلاّ أنّ الحجّة تستمر في سقوطها، ولو راوح الأمر بين العلم الجاد والأدب الساخر. لأننا واجـدون في الصحـف السـاخرة في النصف الأول من القرن العشـرين سـفورا واضحـا لهـذه الأهـداف وتلكـم الأغراض حيث تتوّج اسم جريدة "المطرقة" القاهرية الصـادر عددهـا الأول في "1 آب" (أغسطس) 1924 ب "لسـان حال رابطة الزجالين"[4]. أو نجد الالـتزام بأبيـات زجليـة في افتتاحيـة كـل عـدد مـن جريـدة "الدبّـور" البيروتية، (يعود عددهـا الأول إلى 14 كـانون الثـاني (ينـاير 1923)[5]. أو

---

[4] ـ جان دايه: دوريات ساخرة ، صحيفـة الحيـاة ، السـبت 12 آب (أغسـطس) 2000 الموافـق 12جمادى الأولى 1421هـ/ العدد 13667، ص 14.

[5] ـ نفسه، الحياة، السـبت 23 ايلـول (سـبتمبر)2000 الموافـق 25 جمـادي الثانيـة 1421 هـ/ العدد 13709.

يلازم صحيفة "نهارك سعيد" للويس الحاج الصادرة صيف 1952 شعار "جريدة رصينة مستقلة تصدر باللغة التي تفهمها"[6].

وضمن وجهات النظر تجاه هذه الصحف التي كثر الجدل حولها أيام انبعاثها، يمكن الرجوع لنموذجين نقديين.. أحدهما وصفي والآخر معياري. أما الأول، فقد صدر عن جبر ضومط وهو لغوي وأستاذ الأدب العربي في الجامعة الأمريكية في بيروت، ونشر انطباعه عن مجلة "سركيس" في عددها الصادر أول تموز (يوليو سنة 1908) يقول فيها: "أما المجلة فأسخطتني أنا وأرضت امرأتي وأولادي .." وتعليقا على أحد المقالات الواردة فيها قال: "إنها قصرت وقتي وفكهت عقلي وأنستني نحوي ولم تؤثر بصرفي"[7].

أما الثاني: فهو رد اتحاد الكتاب الفلسطنيين على أحمد شاكر الكرمي الفلسطيني صاحب صحيفة "الميزان" الصادرة في دمشق غرة1925، لما أشرك الشاعر الشعبي البيروتي عمر الزعني في التحرير، وسمح له بنشر قصائده. ومما جاء في كلمة الاتحاد: إنّ في نشر قصائد الزعني "دليلا على

---

[6] ـ نفسه، الحياة، السبت 2 أيلول(سبتمبر)2000 الموافق 4 جمادى الثانية 1421هـ/العدد13688 ، ص14.

[7] ـ نفسه،الحياة، السبت 22 تموز (يوليو)2000 الموافق 20 ربيع الثاني 1421هـ/العدد13641، ص21 .

الميل إلى العامية، واستحسانا لاستعمالها، وحضا على التشبث بإحيائها. وفي ذلك جناية على لغة القرآن وعقـــــوق لأم اللغات"[8].

من هذا وذاك نتبيّن أن السـجال قديـم، والـرؤى في المسـألة تتضـارب وتتعارض، وإن كان الرأي الأوّل قـد حصـر جمـاع الموضـوع في اختـلاف الأذواق، في شقه الأدّل ما بين العالم باللغة وغيره ممّن لم يكن علـى تلـك المنزلة، ولا بلغ المرتبة، فإنّ الشق الآخر فيه إشارة واضحة ودلالة صارخة على أنّ الخطر في التساهل مع اللهجات أنـه يصيـب ناطقيـها بفسـاد في النحو دون الصرف، وآفـة الـتراكيب حسـب رأي علمـاء العربيـة عالقـة باللهجة متصلة بها.

ثم إن الثاني ينتفـض لسـبب وجيـه جـدا هـو خطـورة تداخـل الأطـر واختلاط الحابل بالنابل، لأن المجلـة عرفـت نفسـها، وحـددت صفتـها تخصيصـا وتعيينـا في افتتاحـها بأنـها جريـدة ثقافيـة، ولا يغيـب علـى صاحب بصيرة" أن تكريس اللهجة حاملا للرسالة الثقافيـة، وبديـلا عـن اللغة القومية لهو الانتحار الجماعي على عتبات ملكـة التـاريخ"[9]، ثـم لا ينأى بنا هذا الرأي عن نقده وسؤاله لما فيه من حمّية وحماسة تضمنـت خوفا على مـا لا يخـاف عليـه، وتصدِّيـا لحظـر لا يمـس إلاّ أهـل اللغـة الناطقين بها، أمّا اللغة من حيث إنها لغة القرآن، فهي **محفوظة** مصونة

---

[8] ـــ الحياة : السبت : 5 آب (أغســـطس)2000 الموافـق 5 جمـادى الأولى 1421هـــ/ العدد13660 ، ص14.

[9] ـــ أنظر: عبدالسلام المسدي، العولمـة والعولمـة المضـادة، ط1، كتـاب سـطور، مصـر، 2000، ص406.

من ربَّ ديّان، لا يصلها بسوء واصل وإن جدّ، ولا يبلغها قاصد بضرر وإن حرص كل حرصه.

(3)

أما مع الكونية الشاملة، والعولمة الجامعة فإنا واجدون السيرة ذاتها والطريق الاستعمارية المهيمنة نفسها من حيث فرض النمط الأوحد واللون الذي يتأبى عن التعدد في شكل من الغطرسة والقوة بلغت منتهاها وأصرت على تحقيق غايتها ومداها في إضعاف العربية وضرب أهلها. وإن هي – في تصورها حققت في الثانية المنى على ما عليه حالنا – فإنّ مع الأولى عاجزة ومخذولة. لأنها قاصرة على أن ترى الروح الباعثة لهذه اللغة والقوة الدافعة لها على البقاء بنحوها وتراكيبها على صورتها كما هي منذ قرون وقرون.

وإنّه لما رأوا ما في العربية من ذاك الثبات وما أدركوا فيها من قوة للاستمرار والحياة، مالوا لطرق من الإقصاء، وأساليب من التعسف ليمنعوا بقاءها بين أخواتها لغة معتمَدَة في مؤسسة هي بالأساس لخدمة أهل الأرض جميعا[10]. أضف إلى ما سبق الربط الغريب الذي تقيمه بعض الدعاوى الوافدات من أصحاب العولمة وسدنتها، بين ظاهرة التّشدد وجرائم الإرهاب، ومسألة العربية ومحاولات التعريب في مناهج مدارسنا..، وهم في ذلك يحاولون جهدهم إرجاع السبب بمسببه الذي خمّنوه – ظلما وعدوانا – إلى العربية والإسلام، فمنهم القائل إن التعريب

---

[10] – ينظر المرجع نفسه، ص 393 .

وجـهود المعربـين هـي المنشـأ والمسـند لرجـوع الناشـئة إلى دائـرة العنـف والتعصّب. ونسوا أو تناسوا حوادث تنقلها وسائلهم بالاستمرار والدوام من أعمال العنف عندهم، حتى إنها طاولت ناشئتهم وولدانـهم، بـل وتقـوم الجرائم البشعة والأعمال الدنيئة في مدارسهم وساحات علومهم. فإن نحن قسنا على ما قاسوا، وذهبنا إلى ما ذهبوا – ولسنا فـاعلين – قلنـا إنّ مـردّ ذلك إلى أن لغاتهم جميعا تعود بالأصل إلى اللاتين، وأن العنف في لغاتهم من جهة سلطة المتكلم الفرد فيها ، وإغراقها في التعدد إلى حـدّ التشـتت والتبدّد. ولمّا علمنا أن هذا الـرأي مردود بالبديهة وباطل بـالعقل، نرجّـح أن يكون مردّ عنفهم إلى ما آلت إليه حضارتهم مـن غلبـة للآلـة، وضيـاع للإنسان في رحاها. بل نزعم أننا لا نكون مغالين إذا قلنا إن حيرة الإنسان وعنفه، إنما يعـود كل ذلك إلى ضعف جانب الروح في معـترك التشـاغل عنه بنداء الأرض وتثمين للجسد وإعراض عن النفس. هو مـا أدى إلى مـا وصلت إليه حضارتهم من تآكل وتفتت.

ثم إنه من أغرب ما سارت عليه بلاد كنا نحسب أنّها تشـاغلت عنّـا بمـا مـس كيانـها مـن غـزو عولمـي، ومـا اسـتهدف لسـانها مـن هيمنـة السكسوني، هو أن تطلع علينا وزارة التربية والتعليم الفرنسية بقـرار هـي مانعته عن نفسها ومحرمته على لغاتها، ففي السابع من الشهر الأول من هذه الألفية (2000/1/7) طلعت علينا عبقرية الفرنساويين واسـتنباطاتها، بما يمس ناشئتنا ممن شـاءت أقدارهـم أن يكـون تعليمـهم لـدى الفرنجـة بحكم الغربة والهجرة. وأراد قرارها – عسفا وظلما – أن يختبر أبناءنـا في عربيتهم الفصحى، مشافهة في البكالوريا (الثانوية العامة) على أن يكتبـوا

اختبـار اللهجـة – ومـن هنـا يـزداد عجبنـا – كتابـةً مثبتـة علـى الأوراق المعتمدة. ومما يعجب منه العجب أن تتدافع دعـاواهم إلى كتابـة العربيـة بالحروف اللاتنيـة[11]، وهو ما يعود بنا إلى عهود الاستعمار التي ظننا أنا انفككنا من إسارها، وقدم أجدادنا وآباؤنا أرواحهم ثمنا لحريتهم وحريتنا من قبضتها وعقالها. على أن الفرنسـية اليـوم ليسـت بأحسـن حالهـا ولا بصحتها وعافيتها التي كانت في غابر الأزمان أيام القرن التاسع عشـر إلى الحرب الكونية في ثاني جولاتها. ويجدر بأصحابها والقـائمين عليـها أن يلتفتوا إلى إصلاح حالهم، وترتيب أوضاعهم، لعلهم يقفون على عوراتـهم وثغراتهم. ولعلّ امتناعها وتصديـها لمحـاولات العولمـة في "إدراج الثقافـة ضمن اتفاقيات التجارة الدولية"، وعمل الأمريكان على " تنشيط الأنظمـة البصرية"[12]، هو ما بوسعنا أن نؤيده فيها ونلتقـي معـها علـى صعيدهـا، على أن تَعي أن فكاكـها ذاك مـن القبضـة وصدودهـا هـو صدودنـا سـواء بسواء، وأنّ ما يدعوها إلى خاصتها وخصوصيتها هو ما دعانا بالأمس – لما عملت على تنميط ثقافتنا عند استعمارها لنا – وما يدعونا اليـوم وأجيالنـا مستوى ذاك وقدره بمستوى هذا وقدره.

ثم إن العولمة التي لا ترعوي وراعيتها التي لم تتبصر بتشـكّلها، حـين كانت في البدء خليطا من الأجناس والأعـراق عملـت علـى لم شملـه علـى

---

11 ـ أنظر : عبدالسلام المسدي، العولمة والعولمـة المضـادة، ط1، كتـاب سـطور، مصـر، 2000، ص395. وانظـر: عثمـان سـعدي، قـراءة في الخلفيـات السياسـية، (الحيـاة) الأربعـاء 14نيسـان (أبريل) 2000 الموافق 14 محرم 1421هـ/العدد 13552

12 ـ المرجع السابق، ص 397.

هوية موحدة – تزعم اليوم ألا سبيل إلى الهويات – وفي اعتقادنا أن عقلية القوة – تعود إلى الغطرسة بوجهها السافر وحالها الفاضحة في قناع عجز أن يخفيها وفشل أن يداريها.

وهي إلى ذلك بسطت ولا تزال أميتها على البلدان في الإدارة والسياسة وكذا قبضت مصائر المعائش وضيقت موارد الأرزاق واهمة.

ويجدر بنا أن ننّوه بجهود علماء الألسن من العرب، لما نبهوا إليه من مخاطر ما يتهدد أهل العربية وألسنتها في خضم التدافع العنيف والتقاتل على الفضاءات في حقل المعرفة والمعلومة التي أضحت الحرب عليها كالحرب التي عرفها سابق تاريخ البشر على الماء والحياة. وأذكر ذكرا لا حصرا صديقنا العزيز الدكتور عبد السلام المسدي الذي نبشنا كتابه الأخير الموسوم "بالعولمة والعولمة المضادة"، وقلبنا خطابه، فما وجدناه إلا كما عهدنا إفاضة في الثقافة وتبحرا في العلم. وقد أحاط بالموضوع ، وقلب جوانبه حتى لكأني أحسست أنه لم يترك أمرا دقَّ إلاّ وشمله وفحصه ودرسه. إلاّ أن ذلك لا يمنع من الحوار والمناقشة دعما للجهود المخلصة والعقول النيرة. وقد رأيت أن أعرض لمسألة عرضها ليتناولها جمعكم الكريم وأنتم أهل الدراية والعلم، قلت قد عرض صديقنا الفاضل عبدالسلام المسدي لمسألة اللغات الأجنبية وكيف أنها كانت وستظل عدواً تاريخيّا، وأضاف: "ولكننا مدعوون اليوم أن نتخذها حليفا استراتيجيا بعيد المدى فنستنبط معها عقد شراكة بكل فوائضه القيمية المربحة. أما اللهجات – لا

كأداة تعبير حي تلقائي، وإنما كوسيط ثقافي فإنها شـقيق طبيعـي يتحـول على أيدينا إلى عدو إيديولوجي بكل قيمه السلبية الناسفة"[13].

أقول إن كانت عقدة اللغة الأجنبية بما تعنيه من مظاهر "ولع المغلوب بتقليد غالبه" على ما يرى العلامة عبدالرحمن بن خلدون، ومحاكاته لها في خاصة المجالس وعمومها، فإنّها في بعض أمصارنا أخفض شـأنا وأقـل حدة – ولعل صديقنا عبدالسلام المسدي ينطلق من عينات هذا الصنف من الظاهرة العامة – لكن نرى في بعض أمصار أخـرى مظـاهر للتقليـد أشـد مضاء وأقوى بأسا، إلى الحـد الـذي يجعلـها تداخـل التعبـير التلقـائي في التداول اليومي آخـذة مـن السـياق والألفـاظ محلـها البـارز حتـى لتغيـب اللهجة أحيانا .. لهجة أبناء العرب، ولغتـهم بالكليـة وهـو مـا يُلاحظـه لدى أبناء الطبقات المرفهـة عـادة، وأمـر متمكـن في جـل الطبقـات لـدى الشعوب التي عاشت الهيمنة الاستعمارية لأزمـان متطاولـة، ثـم لا تقـف الحال عند هذا الحد، بل يتجاوز بالاستتباع إلى التـداول الثقـافي. ولسـنا معترضين على صحفنا التي تصدر باللغـات الأجنبيـة، ولا تلـك القنـوات التي تتخذ اللغة الإفرنجية لأنها أدوات لو أُحسـن توظيفـها لأزالـت مـن أذهان الفرنجة كثيرا من التصورات الخاطئة في نظرتـهم إلى أهـل الإسـلام والعربية. بل نقصد بالتحديـد والتعيين تلك المناقشات الثقافية التي تجري في مؤسساتنا وفضائياتنا التي قامت على المناقشات الأدبية واختيار العربية أداة، وإذا بالنخب القائمين عليها، والضيوف الحـالين بينـهم يتطـاولون

---

13 ــ المرجع السابق، ص 409.

مفاخرة من الحين إلى الآخر باستدعاء المصطلحات المجتلبة والكلمات الدخيلة، إمعانا منهم في الادعاء، وهم إذ يفعلون ذلك يعبرون عن عقد النقص التي استحكمت في نفوسهم، واستولت على ألبابهم، مع أننا لا نعدم الأعذار لبعضهم في ما كان اختصاصا نادرا وعلما لم نصل بعدُ إلى امتلاك أدواته ومصطلحاته. وإن كان هذا محفزا لمزيد من الدرس والتنقيب في تراث يزخر، وجني حقول من صناعة العرب الأوائل لاتزال أسرارا محفوظة وكنوزا مكنونة. مع هذا الرأي الذي رأيناه، والاعتراض الذي أبديناه، يجدر بنا أن نثمّن تعريج صديقنا وتأكيده على أنّ الهجمات المقنعة باسم دعم اللهجات إنما يهدف إلى إضعاف العربية.

انطلق المتربصون بالعربية قديما وحديثا من قضية أن اللغة أية لغة إنما هي نتاج اجتماعي تتحول بتحوّل تواضع الناس عليها، وما تحدثه حيواتها بحياتها عبر الأزمان والأمكنة، وهي حقيقة باتت من المسلمات. ونحن لا نرى أننا ملزمون في فحص لغتنا على الوقوف حِجرا عند تلك المسلمة، ذلك أن العربية قد أضيف إلى وضعها، كلغة تواضع العرب عليها أنّها اقترنت ببعد روحاني، وبكتاب محفوظ. فأخذت من قداسته مكانتها ومهابتها، ولأجله قلنا إنّ بقاءها إلى هذا الزمن هو قرين بقاء القرآن. ونضيف أنّ مستقبلها باق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ولذلك يبطل قياسها على ما في ألسن الأقوام الأخرى، لأنّ ألسنتهم كما هي حضاراتهم من الوضع البشري سليلة وإليه آيلة وعائدة، وجودها بوجودهم وحدودها بحدود أذهانهم، وما توصلت إليه رؤاهم ومخيالهم. وهي أي لغاتهم قريبة قربا شديدا إلى لهجاتهم التي يتداولون وأزجالهم

التي يزجلون، مؤثرة هذه على تلك بشكل واضح معلوم في تقلبها ودورانها وتأثرها وتأثيرها. وكـان وراء دفعـهم إلى تبـني اللـهجات في بـلاد العـرب والمسلمين قاصدين أن ينفك عقد العربية كما انفك عقد اللاتينية إلى لغات مختلفات كانت لهجات في بدئها ومولدهـا، هـي الآن متعـددة الكيانـات مستقلة في نحوها وصرفها وألفاظها تتشابه في القليل، وتختلف في المتعدد الكثير، بين إسبانية وإيطالية وإنجليزية وفرنسية..الخ. لكننا رأينا كيـف أن تلك الدعوة بطلـت وتشـتت شملـها واندثـرت، علـى أنّـها اسـتفرغت جهدها لمدة غير يسيرة منذ أوائل القرن التاسع عشـر إلى هـذا اليـوم مـن الاستعمار العسكري للبلاد العربية، إلى الهيمنة الاقتصادية الـتي لازمتـها الهيمنة الثقافية ولا يعود مرد اندحار هذه الدعوة لتصدي نفر من علمائنـا الخلص لهذه الحملات، لأنّ قصارى ما حققته هذه العصبـة الكريمـة هـو ليس الحفاظ على العربية من الاندثار – لأنّ ذلك في رأينا هو ما تكفل بـه الله عزّ وجلّ إذ حفظ كتابه – وإنما هي ذادت عن ألسنة ناشئتنا وحفظت سلامة لغتها من الزيغ والعجمة، سواء بعملها على ربط الصبيـان بـالحفظ والرجوع إلى معدن اللغة الخالص (القـرآن)، أو في وضـع المنـاهج وتسـطير البرامج في مدارسنا المدنية ومؤسساتها الحضريـة في جـانب درس العربيـة وتيسيرها ثم تداولها بين الأجيال علـى صورتـها الناصعـة. وتلـك لعمـري رسالة العلماء التي هي من رسالة الأنبياء الأطهار، نعمل ما وسعنا لدعمها ودفعها وتشجيعها.

لأجل كل ما تقدم فإننا لا نرى من مبرر لقياس العربية على ما يعتري اللغات الأخرى حين النهوض لتحسين أداء ناشئتنا، لأن الفـوارق ظـاهرة

بارزة. وواضحة جلية: أهمها تعلق العربية بالرسالة، وأدناها التحام الألسن الأخرى بصفة الضعف البشري والقصور الإنساني في أصل اللغات التي لم تتحول عن طابعها الوضعي، وصورتها الطينية الأرضية ولا هي تعلقت بالسماء من جهة إعجاز رسالاتها النبوية.

من ذلك فإن الخائفين – في رأينا – على العربية مما يحسب أنه يتهددها من مخاطر، وما يظن أن عواصف تستهدفها كمن هو خائف على الإسلام والقرآن مما يحيكه أعداؤهما ، وما يتربص به ألداؤهما هذا سواء بسواء مع ذاك في الفهم والدرجة. وحقيقة الأمر في رأيي ليست المسألة على ما يُظَنُّ كذلك، بل قصارى المصيبة ومنتهاها أن المسلمين يُصَابون بالسهام، والناطقين بهذه اللغة تمسهم الشظايا وتحرقهم نيران أعدائهم. (ذاك بمثل ما يصيب أطفال الانتفاضة المباركة في فلسطين المحتلة هذه الأيام). مما يجعلنا لا نتوقف على التنبيه إلى حسن تعليم الناشئة لغتهم منذ وقت مبكر، وإصلاح ما مسّ ألسنة الداخلين علينا بدون استئذان المتحدثين إلينا – وهم منا – عبر الشاشات والإعلان. أما العربية والقرآن فهما في حفظ ربّ الأكوان.

الحلـــول العلمـــية
لمشاكل اللغة العربية

الأستاذ الدكتور أحمد الأخضر غزال

عضو أكاديمية المملكة المغربية

ونائب رئيس المجلس الدولي للغة الفرنسية

آلفِ) مُناقَلة الحُروف الفَرَنسِيّة بالَمحارف العَرَبية

تَوطئة :

لقد اهتم بـهذا الموضـوع منـذ بدايـة القـرن العشـرين عـدد مـن العلمـاء اللسانيين ومن مؤلفي المعاجم المزدوجة اللغة، وكـذا مـن أعضـاء المجـامع اللغوية قصد إيجاد حل لهذا المشكل، وأخيرا أدرج هذا الموضوع في برنامج عمل المنظمة العربية للمواصفـات والمقـاييس (م.ع.م.م.= ASMO) الـتي كلفت لجنتها التقنيـة رقـم 05 (وهـي لجنـة الحـرف العربـي المؤلفـة مـن ممثلين عن بلدان عربية من بينـها المغـرب) بدراسـة مشـروع موحـد قصـد وضعه موضع نميطة (norme) عربية موحدة على غرار مـا تم بالنسـبة إلى "الشفرة العربية الموحدة" [1]. وعلى هذا الأساس قام الفـرع التونسـي (لهـذه اللجنة رقم 05) بوضع مشروع أرسله إلينا للنظـر فيـه، ولم نبـد في شـأنه ملاحظات من قبل، لما تطلب منا هذا الموضوع من دراسـات تشـمل جميـع جوانب ما سميناه بالمناقلة الإصاتية[2]

---

[1] ـ الشَّفرة: هي النصل والشِّفرة هي الكتابة السرية ونفضل لفظة القنن الآتيـة مـن الجـذر الحـامي السامي اقن بمعنى "اربط وقَيِّدْ" ، نقول بالأمازيغية أقِّنْ تايمـارت أو "تيفلـوت" أي اربـط البهيمـة أوالباب، ومنها اشتقت ألفاظ القانون والتقنين الخ.....

[2] ـ صات وأصات بمعي واحد لذلك خصصنا لفظة الإصاتة للأصوات اللغويـة في مقـابل المصطلـح الفرنسي (فونياتيك) والمصات هو le phonème.

والمناقلة الحرفية[3].

والآن وقد أتممنا هـذه الدراسـات فإننـا نغتنـم هـذه الفرصـة للتعريـف بمشروعنا مقتنعين بأنه سيحظى بالعناية وحتى بالموافقـة بـإذن الله، لأنـه مبـني علـى الأسـس العلميـة والتقنيـة والعلميـة الـتي يقتضيـها حـل هـذا المشكل.

ونبدأ بتوضيح مبادئنا العامة الـتي يجـب النظـر فيـها ودراسـتها قبـل الانتقال إلى دراسة المشروع.

المبـادئ العامـة

في الميدان العلمي

1 ـ من ناحية المقصود : إن المشروع التونسي يقدم دراسة قيمة حقـا، لكن من باب واحد، وهو قام به أجدادنا من تعريب (لامناقلـة) أصـوات أعجمية بأصوات عربية، مثلا:

1ـ عرب صوت حـرف p بالبـاء، أو الفـاء، وعـرب صـوت حـرف v بالفاء، وعرب صوت gu بالغين الخ... وهي أصوات غريبة عن العربية.

---

[3] ـ يحاول بعضهم أن يطلق عليهما مصطلحي "النقحرة" ـ نحتا من النقل والحرف و ـ"النقصتـة"ـ نحتا من النقل والصوت — وهما مصطلحان لا يروقاننـا. وإن كـان لابـد مـن إيجـاد كلـمة واحـدة ينسب إليها ويشتق منها تطبيقا لتوصيات مجمـع القـاهرة، فيمكـن أن نسـتعمل لذلـك إمـا صيغـة المفاعلة، على غرار المياومة (أي المعاملة بالأيـام) فنقـول "المصاوتـة" أي المعاملـة بالاصـــــوات، و"المحارفة" أي المعاملة بالحروف. كما يمكن أن نستعمل لذلـك صيغـة اسـتفعال، بمعنـى طلـب الشـيء علـى غـرار الاسـتئذان أي طلـب الإذن، فنقـول: الاسـتصوات (أي طلـب الأصـوات) والاستحراف (أطلب الحروف).

2- ولكن عرب صوت k و c بالقاف رغم وجود هذا الصوت (الكاف) في العربية. هذا في ما يتعلق بالصوامت. أما في ما يتعلق بالصوائت فإننـا لم " نتوصل" بأي وثيقة في موضوعه إلى حد الآن، ورغم ذلك فإننا نعلم أن :

صوت a عرب تارة بالفتحة أو الألف

صوت e عرب تارة بالضمة أو الواو وبالفتحة أو الالف

صوت I عرب تارة بالكسرة أو الياء.

صوت o عرب تارة بالضمة أو الواو.

صوت u عرب تارة بالضمة أو الواو وبالكسرة أو الياء.

أما الصوائت المزدوجة والصوائت الغنية فغالبا ما كـانت تفكـك فتمثـل بحرفين.

3 ـ وبناء على هذا فإن المشروع التونسـي يرفـض "استحداث أصوات جديدة تدخل في النظام الإصاتي العربي مثل ب و ك و ف" تقيـدا بـالقنن العربي الموحد (المواصفة رقم 449)". وإذن فليس هذا هو المقصود، لاسـيما وأن ما سمي بالشفرة العربية الموحدة "شـفرة في المعلوميـات خاصـة باللغـة العربيـة في حـد ذاتـها، كمـا أن "الشـفرات" الأخـرى في جميـع اللغـات الأوربية وغيرها خاصة بلغاتها في حد ذاتها، أضف إلى ذلـك أن مـا ذكـره المشروع التونسي ليس موقوفا على اللغة العربية وحدها، بل هو عـام علـى جميع لغات العالم . فاللغة الفرنسية مثلا لهـا نفـس الظـاهرة بالنسـبة إلى اللغة العربية (وغيرها) إذ الخاء "تفرنس" kh وgh وr وk وc الخ، والغـين تفرنس g وgh وrh الخ... بالإضافة إلى القـاف الـتي تكتـب q و qu و k و c و ck الخ...

وعلى هذا الأساس فإن ما تطرق إليه المشروع التونسي هو كيف "نطق فكَتَبَ" أجدادنا أصواتا أجنبية بالنسبة إلى المحيط الثقافي لعصرهم. ومن طبيعة اللغات أنها لا تدخل في نظامها الإصاتي أو الحرفي أصواتا أجنبية (بحروفها) كما أنها لا تحذف من نظامها الإصاتي (أو الحرفي) شيئا إلا إذا دعت الضرورة أو التطور إلى ذلك . ولا يتم هذا الإدخال إلا بعد مدة طويلة تقدر عادة بقرون مثل ما حدث في اللغة الفرنسية بالنسبة إلى حرف y (أي صوت الكسر اليوناني) وحرف w(أي صوت الواو من الإنكليزية).

أما موضوع تمثيل مصاتات أجنبية لغاية علمية يقتضيها المحيط الثقافي المعاصر (مثل ما هو سائد عند الشعوب المتقدمة اليوم)، فإنه لم يأخذ حقه من العناية إلى حد الآن، بينما نرى البلدان العربية تساهم بكيفية فعالة في مشروع توحيد كتابة المصاتات العربية بالحروف اللاتينية.

ب ـ من ناحية المفهوم :

ومعنى هذا أن المقصود ليس هو كيف نمثل مصاتا أجنبيا بمصات عربي، ولكن كيف نمثل مصاتا أجنبيا بحرف عربي يحمل علامات تمكننا من النطق بصوته الأصلي لا بصوت عربي يماثله أو يقاربه . وهذا ما يطلق عليه مصطلح "اترانسكريبسيون"(ترجمته الحرفية : نقل الكتابة، فصار معناه نقل المصاتات) وهو غير "اترانسليتيراسيون"(ترجمته الحرفية : نقل الحروف).

1ـ المناقلة الحرفية لا تهتم هذه العملية إلا بالحروف، وبهذا فإنها تنتمي إلى الإملاء أكثر منها إلى النطق :

مثال ذلك في العربية كلمة "الشمس" فإنها تكتب بشكل وتلفظ بشكل آخر، بمعنى أننا لا ننطق باللام هكذا "اَلْشَمْس" بل ننطق هكذا "أ شّمْس"، وكلمة "ماءة" ننطق بها "مئة" خلافا لنوع من كتابتها، وكلمة "ضربُوَا" لاننطق بها "ضربوا" وكلمة "عمرو" نلفظها "عمر" لا "عمرُو".

ومثال ذلك بين العربية والفرنسية كلمات "louis"و "Bernard"و "Broglie" فإن كتبناها " لويس" و"بيرنارد"و" ابروكلي" فتلك هي المناقلة الحرفية (أو المحارفة) وبين العربية والإنكليزية كلمات: " tough" و"Nation" إن كتبناها " توغ" و"ناسيون".

2– المنافلة الإصاتية: لاتهتم إلا بالمصاتات، فمثلا الكلمات السابقة إن كتبناها "لوي" و"بيرنار" و"برواغلي" و"طاف" و"نيشن" فإننا نكون قصدنا بذلك النطق لا الكتابة الحرفية.

وخلاصة القول: إن جميع الذين اهتموا بهذا الموضوع لم يفرقوا بين نقل المصاتات ونقل الحروف، بل إنهم خلطوا بينهما، علاوة على أن أحدا منهم لم يذكر (أو لم ينتبه إلى) أن المناقلة الإصاتية قسمان قسم لا يستعمل إلا حرفا واحد في مقابل المصات[4] الأجنبي، الواحد وقسم يستعمل أكثر من حرف واحد لذلك. وسندرس هذا فيما بعد إن شاء الله.

ج – من ناحية المشاريع: نبدأ هنا بالمشروع التونسي ومشروع مجمع اللغة العربية بالقاهرة وكذا بما يوجد في الموضوع من الكتب والقواميس العصرية، تاركين للأعضاء الزملاء الذين يهتمون بالتراث والتاريخ إفادتنا

---

[4] ـ المصات : اسم مفعول لأصات في مقابل فونيم (phonème)

بما يوجد في كتبنا القديمة من أشكال لحروف عربية في هذا الميدان تصلح لإغناء المشروع. ففي ما يتعلق بالصوامت نجد ما يلي (حسب التاريخ)

1) في كتاب "الترجمان الفرنساوي" (مكتبة صادر ببيروت- بدون تاريخ الذي نرمز إليه ب "تر".

2) وكتاب" الكافي في اللغة الفرنسوية" (تأليف أحمد أبو الخصر منسي، مكتبة الهلال بمصر بتاريخ 1927 م) الذي نرمز إليه ب"كا"3

3) والقاموس الحديث، فرنسي، عربي" (تأليف متري إ لياس – مصر بتاريخ 1952) الذي نرمز إليه ب "قا".

4) وكتاب "مجموعة القرارات العلمية" (لمجمع القاهرة بتاريخ 1963 م) الذي يرمز إليه ب "مج" 5) وأخيرا مشروع تونس (1986) نرمز إليه ب"تو". وهذا جدول ما جاء في كل من هذه الوثائق.

في ما يتعلق بالصوامت، فإننا نجد ما يلي:

الحرف الأجنبي	تر	كا	قا	مج	تو
C (ca, co, cu)	ک	ک	ک	ق	ق
C (ce, ci, cy)	س	س	س		
G (ga, go, gu)	ک	ج	ک	كَ	غ
J (ge, gi, gy)	ج	ج	ج	ج	غ
H	هـ	هـ	هـ	هـ	هـ
P	ب	ب	ب	ب	ب
V	ق	ق	ق	ق	و
W	ق، و	ق، و	ق، و		و

2) في ما يتعلق بالصوائت، فإننا نجد ما يلي :

	تر	كا	قا	مج
a	أ، ا، ـَ،	أ، ا، ـَ،	أ، ا، ـَ،	أ ا
e	<	(و)	ا، ـِ، ـْ	و
é è ê	أ	ـِيهْ	ـِه، إ	ا
O	و،	أُ		اوَ
U	> ي	إ (و)	إ ي، يـ	و

وفي ما يلي نقدم أمثلة لنتائج هذه المشاريع :

تـر : يْـر > مْيـاه = (PREMIER) سـاكَوْن = (second) ، قــان ت! 2اينيــام= (vingetuniéme) قَــانْدر > دي = (vendredi) ل لق! د2ي سولـ! يْل= (le lever du soleil) لا > يتيـت في (la petite fille).

كا: أكسَنتيهْ جي (و) = (accent aiguë)، ايهْ تيهْ = (été)

قيرْجِيْ (و) ل = (virgule) دِيه (و) يوانْ = (deux points)

أرْكنِسْيِلْ = (arc - en – ciel) لاَنْ (l'âne)

قــا: الْجِــبْر = (algébre) اَلْينــه (aliéné) لــه ز2 م = (les hommes)

أبِـــي يْـــه = (habiller) ايِيثْيوبِـــه = (habituer) – مُـــرْدَن = (mordant) مُورِي = (morue).

د ـ من ناحية التعليلات الصوتية :

e :

تر : "هذه العلامة عبارة عن فتحة وكسرة ممزوجتين معا دلالـــة علـى الحرف الفرنسي (e) الساكن وما جرى مجراه مثل (eu) وتلفظ بإمالة مـــع ضم خفيف نحو : (le) أداة تعريف تكتب هكذا : ل>

كا : إيه (و) : يجب أن تخرج (هذا الصوت) بضم الشـفتين بحيـث يتكون منهما حلقة ضيقة لا يكاد يمر منها الخنصر . ومن أجل هذا رمزنـا إلى الضم بحركة (ضمة) بين قوسين.

قـا : "ا" بضـم الشـفتين قليـلا إذا كـان في نهايـة مقطـع – je (ˆجـه) بخلاف هذا يلفظ بدون ضم الشفتين، أما إذا وقع في آخر كلمة تزيـد علـى مقطع واحد فلا يلفظ.

مج : يكتب الحرف e المشـم في الفرنسـية أو غيرهـا واواً ويرسـم علـى حرف العلة علامة كالرقم 1 مثل كوته (goethe) .

é , è , ê :

تر : "هذه الفتحة الواقفة (َ) دلالة على الحرف (é) وما جـري مجـراه مثل (er) و(et) وتلفظ بإمالة مع فتـح خفيـف نحـو (méthode) وتكتـب هكذا ماتود. وإذا وقعت هـذه الحركـة في آخـر الكلمـة يضـاف إليـها هـاء النهاية نحو blé (قمح) تكتب هكذا: بْله".

"وهذه الفتحة الواقفة الملحقة بألف فمد (َ آ) دلالة على الحرف é وما جرى مجراه مثل ei و ai وكيفية التلفظ بها إمالة مع فتـح كثـير: mère (أم) تكتب هكذا : ما ّر".

كا: "é" أكْسَنْتِيهْ جِي (و) "، وهي تفتح ال e فتحة اعتيادية مثـل été (ايـهْ تِيـهْ) أي "صيـف" و"é" اكسَنجراقْ" ، وهـي تزيـد في فتحـة ال e فتخرجها مفتوحة من الحلق مثل père (ييهْ رْ) أي "أب".

و"é" اكسنسير كنفِلكسْ " مثل âne (آن) أي"حمار".

وهذه الحركة الأخيرة حركة مد وتوضع فوق جميع الحـروف المتحركـة ما عدا حرف "y".

قا: "ا بدون ضم الشفتين أي ككسرة عادية – ِاقـراء، علـم. حـرف e الذي عليه علامة لا يكون أنفياً بـل يُلفـظ دائمـا اِأي بتطويـل وبـدون ضـم الشفتين كحرف تحته مدة père ...بيْر".

مج: "فيما يتعلق بالإمالة، رأى المجمع أن توضـع علامـة أشـبه بـالمدة الرأسية للدلالة على هذا الصوت كما في "seine " مثلا فتكتب "سنين".

O :

تر: " هذه الضمة المقلوبة (،) يتبعها الحرف (و) توضع فـوق الحـرف دلالة على الحرف O، وكيفية التلفظ به ضم مخفـف كمـا تلفـظ الضـمة في "قُم "، مثل bord (شاطئ) تكتب هكذا "بور".

كا : " أ تلفظ كما في (أ) من أ بوَّة وأجرة ".

قا : أ مثل tome تُوم و office أُفيس .

مج: يكتب الصـوت المقـابل الحـرف "0 " ومـا يشـابهه واواً إذا كـان الصوت ممدودا مثل " hood" و" wood" أمـا إذا كـانت الـواو مائلـة إلى الألف مثل "Rome" و" hom" و"slanghter" فإنــها تكتـب واوا أيضـا، وتوضع علامة قصيرة كالألف على الحرف السابق للواو".

U:

تر: "هذه العلامة (ُ) عبارة عن ضمة وكسرة ممزوجتين سـوية دلالـة على حرف U.وكيفية التلفظ به ضم مع كسرة مثــل mur (حـائط) تكتـب هكذا: ميرْ".

كا: إ (و) [لم يشر إلى أكثر من هذا].

قا: يلفظ "إيˇ " بمد وبتدوير الشفتين كأنك تصفر Une إيْـن، pure يير.

مج : رأى المجمع أن توضع علامة "V" على "U"المخفف مثلا jean de luz فيكتب في العربية "جان ده لوّس" وعلى حـرف العلـة مـا يشـبه الرقم "v"للدلالة على هذا الصوت".

وفي ما يتعلق بالأصوات الغنية فكلها أشارت إليها بإضافة حرف النون إلى الصائتة.

هـ – من ناحية التعليلات الإمازية (5): لم يشـر أي مؤلـف منـهم إلى شرح السبب الذي جعله يستعمل العلامات التي وضعـها علـى أو بجـانب الصوائت.

2)– **في الميدان التقني**: ومعناه اعتبار الآلات العاديــة للطبـع بمفهومـه العـام، أي تمثيـل الحـروف بــآلات التصفيــف أو الرقــن أو الإبــراق أو

المعلوميات، إذ كما هو معلوم، تختلف إمكانات كل منها عن إمكانات الأخرى.

ا ـ من ناحية الكتابة اليدوية : كل شئ ممكن من ناحية الكتابة اليدوية إذ يمكنك أن تضع على الحرف أو تحته أو بجانبه كل علامة ارتأيتها صالحة وذلك بلا قيد ولا شرط.

ب_ من ناحية الطبع التصفيفي: وهو نوعان، يدوي وآلي.[5]

1–الطبع التصفيفي اليدوي[6]. يتم برصف المحارف[7] يدويا. والمحارف يجب أن تكون مسبوكة من قبل، على أساس أقياس[8] معينة، ثم ترتب في صندوق فيه خانات توضع فيها المحارف. فالعلامات هذه تكون إما مسبوكة على او تحت الحرف الواحد في نفس المحرف، وإذّاك يجب تعددها بالنسبة إلى كل صائبة، وإما تكون مسبوكة بمفردها وعلى حدة وإذّاك فليس هناك مشكل. إلا أن الذي يجب أن يفهم من هذا هو أن عدد هذه المحارف سيضاف إلى العدد اللازم لتصفيف اللغة العربية (وهذا في جميع أنواع الطباعة).

---

[5] علامة إمازية = signe diacritique، والإمازة (diacritisation) هي وضع علامات الفرز، المصطلح الفرنسي آت من اليونانية diakritikos = الذي يفرز.

[6] نشير في هذا البحث إلى الإمكانات الطباعية القديمة بالرصاص الساخن والبارد رغم أن الطبع أصبح تصويريا، محوسبا أو مراقما (numérisé) لأن بعض بلداننا العربية والإسلامية مازالت تستعمل هذه الوسائل الطباعية القديمة .

[7] – محرف : نضعه في مقابل (caractère)بمعنى الأداة التي تطبع الحرف

[8] ـ أقياس، جمع قاس : نضعه لمقابلة (dimension) تاركين لفظة بعد لتأدية معناها الأصلي.

2–الطبع التصفيفي الآلي: وهو نوعان ساخن وبارد .

2.1 – الساخن: إمكانياته محدودة. ولكن هذا النوع هو في طريق الاندثار.

2.2 –البارد: إمكانياته أوسع من التصفيف الساخن ولكن عدد محارف النسقات يتراوح ما بين 90 و120 موقعا حرفيا.

وإذا تعدى عدد المحارف هذا العدد فإن العدد الزائد يجب أن يوضع في نسقة ثانية، فتصبح هذه النسقة الثانية قاصرة على استيعاب ما يجب من محارف، وقلّ مثل ذلك بالنسبة إلى النسقات الأخرى .

3 – الطبع الرقاني: وهو ثلاثة أنواع حيْليّ [9] وكَهربائي وكُهروبي (ايليكترونيك)

3.1 الحيْلي: يحتوي على 92 موقعا حرفيا ولا يسمح بأية زيادة على هذا العدد كما أنه لا يحتوي إلا على زرّ ساكن (أو ميت) واحد.

3.2 – الكَهربائي: يحتوي على 88 موقعا حرفيا ولا يسمح بأية زيادة على هذا العدد. كما أنه لا يحتوي إلا على زر ساكن واحد .

3.3 – الكُهروبي: يحتوي على 100 موقع حرفي لا غير وعلى زر ساكن واحد. وهو إما شفاف وإما معالج.

3.3.1 – الشَّفَّاف، هو الذي يخرج الحروف في صورتها المرسومة على الزّر. كما هي، بدون معالجة بالنسبة إلى السياق.

3.3.2 – المُعالَج، هو الذي يخرج الحروف في صورها بالنسبة إلى كتابتها باليد رغم أن صورتها تكون في شكل واحد مرسوم على الزر

---

[9] حيلي : ميكانيكي

(وغالبا ما يكون هذا الشكل يمثل الحرف في صورته المفردة) وتتم المعالجة بواسطة معالج[10] دِقَّيِة يطلق عليها لفظ"مولِّدات" (وأفضل مصطلح"منشِّئات" لأن العملية تقتضي وجود عناصر حرفية مسجلة سابقا ومنها تنشَّأ أشكال إضافية للحروف).

-**الطبع الإبراقي**: وهو نوعان كَهْربائي وكُهروبي، فالكَهربائي شفاف دائما والكُهروبي إما شفّاف (في اللاتينية) وإما معالج (في العربية).

5- الطبع المعلوميّاتي: بالإضافة إلى ترئية الحروف على شاشات المطاريف[11] التي تتم ضوئيا، فإن هناك نوعين من الطبع المعلومياتي: النوع الأول يتم بواسطة طابعة موصولة بالمطراف (وتسمي الطابعة المطرافية)وطبعها إما شفاف وإما معالج، أما النوع الثاني فإنه يتم بواسطة سلسلة محرفية مادية (أي غير ضوئية) ولا يقبل عملية التنشئة (مع أنه يقبل عملية الترجيع أي إعادة طبع متراكب).

3 – في الميدان العملي: أي بالنسبة إلى العمل المطلوب والآلات التي يجب توفيرها للقيام بهذا العمل قياما صالحا، وهذا الأمر يقتضي الإجابة عن السؤال الأساسي الآتي: وهو؛ هل يجب أن تكون هذه الحروف الممازة[12] متوفرة في جميع وسائل الطبع علاوة على كتابتها باليد؟ فإذا كان الجواب منفيا فليكن في علم الجميع أنه لا يمكن تمثليها في الطباعة إلا في ميادين محدودة وبعد القيام بعمليات يدوية أو آلية معقدة. ونتناول فيما بعد دراسة الجواب عن هذا السؤال الأساسي الذي أهمله حتى الأوربيون

---

[10] معلج دقي ج معالج دقيقة في مقابل (microprossesseur)

[11] مطراف جمعه مطاريف : في مقابل (terminal)

[12] ممازة: في مقابل (diacrité)

إلى حد الآن (في دائرة المعارف الإسلامية مثلا لتخزينها في قاعدة معيارية للمعطيات).

ا – فيما إذا كان الجواب إيجابيا: أي أن تكون الحروف الممازة متوفرة في جميع الآلات حتى يتم استعمالها في جميع النصوص (المطبوعة والمرقونة والمبرقة والمحوسبة). وفي هذه الحالة: في الطباعة: يمكن دلك بسهولة في التصفيف اليدوي بمجرد سبك الحروف الممازة الجديدة وإضافتها في مخانة[13] التصفيف اليدوي بدون حذف للمحارف الموجودة، أما في الطباعة الساخنة فيجب بعد سبك أمهات المحارف الجديدة حذف محارف تقليدية.

وأما في الطباعة الباردة فالقضية أصعب لأن المحارف مصورة في أقراص أو أسورة[14] يجب إعادة صنع هذه الأقراص أو هذه الأسورة، اللهم إن تقرر تخصيص قرص أو سوار لها.

في الرقانة: لا يمكن ذلك إلا بحذف عدد المحارف المقابل للمحارف الجديدة (في الرقانة الحيلية أو الكهربائية) أو بإعادة صنع اللؤلؤية[15].

في المبرقة : لا يمكن ذلك في المبرقة الحيلية. إما في المبرقة الكهروبية فذلك ممكن إذ إمكانيتها توفر 52 مكانا للمحارف بينما لا نستعمل منها إلا 38 مكانا.

في المعلوميات : لا يمكن ذلك إلى حد الآن .

---

13 مخانة : صندوق الخانات

14 سوار : في مقابل (segment) أي نصف دائرة فلزية تصلح للطبع

15 اللؤلئية : في مقابل (marguerite)

ونستخلص من الإجابة عن هذا السؤال أن توفير محارف جديدة متعذر في المعلوميات بصفة عامة، بينما هو متيسر في سائر الوسائل الأخرى، ولكن هذا يتطلب؛ أولا: (قرارا رسميا ، ثانيا): نفقات، أو فتح سوق، لصالح الصانعين. ونكرر أن كل هذا بالنسبة إلى سبك حروف جديدة يجب إضافتها في جميع وسائل الطبع. أما إذا لم نرد سبك حروف جديدة، وأردنا أن نكتفي بما لدينا من حروف مع إمكان توفير الدلالة على أصوات غير عربية، فهناك طريقة أخرى مستعملة لإمازة الحروف لا بصورة جديدة ولكن باستعمال محارف لعلامات الوقف والحساب الخ... تضاف بجانب المحارف (عوضا من وضع علامات فوقها أو تحتها) وحتى تتضح الأمور فإننا نقسم الإمازة إلى قسمين (كما فعلنا بالنسبة إلى علامات الشكل) إمازة متراكبة، وهي التي تطرقنا إليها إلى حد الآن وإمازة متجانبة ومعناها وضع علامة تمييز الصوت بجانب المحرف لا راكبة فوقه لتوفير المعيارية والقراءة المبصارية الخ...

وكَيفَما كانت الطريقة التي نريد استعمالها لإمازة الحروف يجب قبل كل شيء أن نحدد العلامات الإمازية هذه.

ب ـ تحديد العلامات الإمازية:

1 – بالنسبة إلى الصوامت: فباستثناء الصامتة"p" التي تماز من زمن بعيد بحرف الباء منقوط بثلاث نقط من تحت هكذا "ب" فإن صوامت أخرى مثل "g" و"v" لم يحصل اتفاق على إمازتها، وذلك لأن الصامتة"g" تمثل في مصر بحرف الجيم (وتمثل مصر بصوت الجيم المعهود عندنا بنفس الحرف تحته ثلاث نقط هكذا "ج"، في حين أن هذه

الجيم بثلاث نقط من تحت تمثل صوت" أُتش" في الكردية والفارسية) ونمثله في المغرب الكبير تارة بحرف الكاف عليه ثلاث نقط هكذا "ك" (وكان موجودا في محارف الطباعة في المشرق بهذه الكيفية فعوض من طرف مجمع القاهرة بحرف الكاف عليه شرطة هكذا "كـ" أي: الكاف الفارسية، وعلمنا أنه عدل عنه فيما بعد) وتارة بحرف القاف عليه ثلاث نقط هكذا "ق" (مع العلم أن القاف المازة بهذه الكيفية تعبر في المشرق عن صوت"v") وتارة أخرى بحرف الغين عليه ثلاث نقط هكذا "غ".

وإذا أردنا التوحيد فإننا نقترح أن تكف مصر عن استعمال حرف الجيم بثلاث نقط من تحت "ج" لتأدية صوت الجيم التقليدي بصوت آدج "الشائع في كثير من الأقطار العربية وكذا في قراءة القرآن. هذا من جهة . ومن جهة أخرى نترك الجيم المازة هكذا "ج" لتأدية صوت "تش" الخاص ببعض البلدان الإسلامية في إطار المحافظة على الحرف العربي فيها. وفيما يتعلق بصوت "gu" نقترح إمازته هكذا "كـ" حسب ما هو شائع عندنا (وكان شائعا من قبل في المشرق كما ذكرنا) وفي مقابل ذلك نتنازل نحن في المغرب الكبير عن إمارته "ب"."ق" (التي نخصصها لتأدية "v" ونتنازل عن تأدية "v" هذه ب"ق") كما نتنازل عن تأديته ب"غ" (في تونس الشقيقة بالخصوص) .

فتصبح إمازة الصوامت المذكورة هكذا:

p= ب ، gu= كـ أو كـ الكاف الفارسية، v = ق

2 – بالنسبة إلى الصوائت: إننا نقترح في الأمثلة المذكورة أعلاه بالنسبة إلى المصادر المشار إليها ب"تر" و "كا" و"مج" و"قا" إمازة

الصوائت بحروف المد، وقبل ذلك يجب أن نتفق على العلامات التي نميز بها الصوائت الأجنبة اعتمادا على ميزتها الصوتية بالنسبة إلى صوائتنا العربية مع العلم أننا لا نتطرق إلى هذا الموضوع من باب الإصاتيات الدقيقة، لأن المقصود ليس هو تعليم إخراج الأصوات الأجنبية بكيفية علمية، ولكن بكيفية تقريبية تضمن مع ذلك نطقا مرضيا، فنقول:

a – نميز هذه الصائتة بالفتحة على الألف في أول الكلمة وبالألف في وسط الكلمة مثال ذلك: "catala = كاتالا،[16] "Abadie" آبادي[17].

(e وeu و oe الخ ..) نعتبر أن هذا الصوت يقابل الصوت المضموم عندنا مع شيء من الفتح إذ انطلاقا من أوضاع الفم أثناء إخراج الصوت المضموم نلاحظ أن الفم ينفتح شيئا ما عند إخراج هذا الصوت لذلك نميزه بفتحة واقفة على الواو (في شكل علامة المحذوف) حتى لا يقع الخلط بالفتحة المضطجعة، ولضرورة التجانب نعوض علامة المحذوف بعلامة التعجب التي نطمس نقطتها. ويمكن أن نبقيها كما هي ولا حرج! هكذا "lessieur"= لو! "سييوار" ، "euripide" = او!ريبيد ، "beurre"= بو!رّ، "oeuf" او!ف.

U ـ إذا وضعنا الفم في حالة النطق بالصوت المكسور وضممنا الشفتين تدريجيا حتى الوصول إلى النطق بالصوت المضموم فإن الصوت الذي يخرج هو صوت "u" لذلك نميزه بنقطتين (نقطتي الياء) على الواو على غرار إمازته بعلامة"الأوملاوت" في اللغة الألمانية، هكذا "ü" ولضرورة التجانب

---

[16] لا اعتبار للحروف المفخمة في ميدان الإمازة.

[17] في أول الكلمة نضع الفتحة (لا الهمزة) على الألف لأن الهمزة القطعية لا وجود لها في اللغة الفرنسية بصفة عامة.

نعـوض النقطتـين بعلامـة المزدوجتـين ونســبقهما بــألف في أول الكلمــة.

الأمثلـة : "lustrucru"= لـو "سـترو "كـرو"، "ursul" =" او"رســو"ل" ،

"lui" = "لو"يي".

1– نميز هذه الصائتة بالياء داخل الكلمة، أما في أولهــا فإننـا نسـبقها بألف . الأمثلة : "Mississippi" = ميسّيسيبي.

o و au إلخ . .ـ نعتبرها صوتا مضموما ومفخمــا. لذلـك نميزهـا بنقطـة فوق الواو (والنقطة هي علامــة التفخيـم في الإمـازات الدُّوليـة) أمـا في أول الكلمة فنسبقها بألف. الأمثلة:

"Bordereaux" = بوردو، "also" = اوسلو، وعمــلا بمبـدأ التجـانب نمثلها بوضع السكون بعدها وطمس عينه.

- ; er, ait ect é è ê لا نفـرق بـين أنـواع هـذه الصائتـات الـتي نعتبرها بمثابة الكسر المفتوح، لذلك نميزها بفتحــة قائمـة علـى اليـاء مـع العلم أننا نسبقــها بألف في أول الكلمــة. الأمثلـة: "Egée" = ايجــي! "terre" = تيلرّ.

كل ما سبق يخص الإمازة بعدم إضافة محارف جديـدة وبالاكتفـاء بمـا يوجد مــن علامـات في آلات الطبـع الجـاري بـها العمـل نسـميها الإمـازة المتجانبة ونقدم الأمثلة السابقة مرقونة بها. ونقترح أن نمثل الغُّنة بحـرف النون عليه سكون أمّا الصوت الممدود إن كان لا بــد مــن اسـتعماله فنقـترح تمثيله بالنقطتين المتراكبتين كما هو الشأن في المناقلة الإصاتية الدولية.

الأمثلة:

النوع الأول هو الآتي:

ARLES = آ:ر

EURES = او!:ر

Istres = ايستر

Ohio = اوهيو:

Ur = او":ر

Elbe = ايا:لب

Anger = آنْجي!:

Engels = او!نْجي!:ل

Indres = اينْدر

Unverzagt = او"نْقيرزا: كَت

ABERLARD = ا ّبيلا:ر

Euripide = او!ريبيد

IIIyrie = ايلّيري

Narbonne = ناربوْ:نْ

Saussure = سوْسو":ر

Hubert = هو"بيا:ر

Solange = سوْلانْ:ج

Alembert = الو!نْبيا:ر

Robinson = روْبينْسوْنْ

Embrun = او!نْبرون"نْ

جدول المصاتات الفرنسية وإمازتها:

المصاتات		الإمازة في الأول	الإمازة في الوسط الثاني	التعليلات
P	ب	او	ـو! ،و!	إشارة إلى الضم المفتوح
V	ق			
eu	كـ أوكَ	أيّ	يا، ي!	إشارة إلى الكسر المفتوح
e, eu, etc		أوْ	ـوْ، و	إشارة إلى الضم المفخم
e, eu, etc		او"	ـو" و"	إشارة إلى الضم المكسور
O		ا ّنْ	ـانْ، ـانْ	إشارة إلى غنة a
U		او ! نْ	و! نْ، ـو! نْ	إشارة إلى غنة e
an		أينْ	ينْ، ينْ	إشارة إلى غنة i
en, em		او "نْ	و" نْ، و" نْ	إشارة إلى غنة u
in, aim				
un				

ونظن أن في هذا العرض ما يكفي من المعلومات في موضوع المناقلة الإصاتيـة آملين أننا بعد المناقشـة سـنخرج بطريقـة علميـة وتقنيـة وعمليـة تلـبي رغبـة الجميع إن شاء اللّه.

وقبل الختام نعرض فيما يلي صفحتين من المناقلة الصوتية للغة العربية بالحرف اللاتيني، الأولى لـ"ويليـام مارسـي" في كتابـه " تكسـت آرا: ب دو! طـانجي"، والثانيـة لـ "جـورج كولـين" في كتابـه "كريستوْماسـي ماروْكين". والمناقلتان بإمـازة متراكبـة إصاتيـة (فونيتيكـ)، ونسـرد كذلـك بعدها علامات الألفباء الإصاتية الدولية، لكل غاية مفيدة.

اللسانيات العامة
وواقع اللغة العربية

الدكتور. أحمد يوسف

جامعة وهران

مدخل عام:

مما لاشك فيه أن اللسانيات العامة كما هي مبسوطة في مصنفات المحدثين ومطروحة في مراجعهم تعد أكثر حداثة إذا قيست بعمر تاريخ التفكير اللغوي العريق، وبخاصة ما تعلق بجهاز المفاهيم والأدوات العلمية المطبقة في دراسة اللغة، وتحليل الخطاب. فقد رافقت هذا الجهاز جملة من المصطلحات لم تكن معهودة في العصور الغابرة، وجملة من المقولات النظرية خالفت المعتاد، ونقضت السائد بداية من القرن التاسع عشر الذي بدأت تظهر فيه طلائع مصطلح "اللسانيات العامة".

يرجع بعض المؤرخين تداول هذا المصطلح إلى عام 1833، لكنه يعود استعماله إلى ريمون Raymoun الذي تضمنه مؤلفه "المنتخبات الشعرية للشعراء المتجولين" سنة 1816، ثم ما لبث أن شاع المصطلح في أوساط علماء اللغة المعاصرين. ففي عام 1906 ألقى أنطوان مييه A. Meillet [1866–1936] درسه الافتتاحي في معهد كوليج دي فرانس Collége de France؛ حيث كان هذا الدرس أول محاضرة في "مادة النحو المقارن" التي أطلق عليها اسم "اللسانيات العامة".

شكلت هذه المحاولات الإرهاصات الأولى للبحث عن الأنساق اللغوية؛ على الرغم من أن جهود أنطوان مييه انصرفت جملة إلى الاهتمام بالتطور التاريخي للغة، وأغفلت الجوانب الهامة التي وقفت عليها اللسانيات العامة مثل طرائق اشتغال اللغة ووظيفتها، لكنه ألمح إلى تلك

الصلات الحميمة –التي لم ينكرها دو سوسير F. De Saussure [1857–1913] في محاضراته – بين الجوانب اللغوية والجوانب الاجتماعية؛ إذ ستصبح اللغة فيما بعد مؤسسة اجتماعية في نظر ويتني، وكذلك مييه الذي يتساءل عن العلاقة الاجتماعية والبنية اللسانية وكيفية فهم التغيرات اللسانية في ضوء التحولات الاجتماعية[1].

إن أنطوان مييه سبق له –كما هو معلوم لدى أهل الاختصاص– أن تتلمذ على فردينان دو سوسير؛ ولهذا نلفيه يؤكد نظرية أستاذه التي تقول: إن اللغة إفراز اجتماعي تتأثر بما يطرأ عليها من تطورات اجتماعية وثقافية؛ وعليه فهي وثيقة الصلة بالوسط الاجتماعي. وبدون أن يقع أسيرا لنظرية داروين C. R.Darwin [1809–1882] حول أطروحة النشوء والارتقاء حدد تصوره حيال الارتباط الوطيد بين اللغة والمجتمع ارتباطا متميزا. ومن هنا أولى اهتمامه إلى البحوث الإثنولسانية Ethnolinguistique. وتجلى في كتابه "لغات العالم" تأثره الواضح بإدوارد سابير E. Sapir [1885–1939]؛ حيث مال إلى وصف اللغات الإغريقية واللغات الأمريكية الهندية.

إننا لا نستطيع أن نتبين مكانة اللسانيات العامة دون الالتفات إلى التاريخ الطويل للغة وفلسفتها، ولكننا لا نكاد نعثر على مصادر موثقة تقودنا إلى تاريخ اللغة. فقد كان للمصريين القدامى والسومريين والآكاديين والصينيين والهنود والفنيقيين والعبرانيين والإغريق والرومان والعرب إسهامات عظيمة لها نصيب وافر من النتائج الطيبة التي أشاد بها المحدثون؛ بيد أن بعض

---

[1] - Julia Kristeva, Le langage cet inconnu, Ed, Seuil, Paris, 1981, P. 214,

هـذه الإسـهامات كـانت أقـرب إلى الإشـارات العامــة منــها إلى الإضافــات النوعــية، وغلب عليها الطابع الخرافي تارة والطابع الميتافيزيقي تارة أخرى.

يهمل مؤرخو اللغة ولا سيما الغربيين منهم الحديث في الغالب الأعم جهود اللغويين العرب[2]، وإذا تمت الإشـارة إليـهم كـانت ناقصـة ويتسـم بعضـها بـالفقر في الإطــلاع المســتفيض علــى الــتراث اللغــوي العربــي القديـــــم[3]، ولكـن الدراسـين الموضوعيـــين مستشــرقين كــانوا أم غــير مستشرقين أنصفوا جهود العرب المسلمين في البحث اللغوي[4]. فإذا حاولنا أن نقارن بين مدرسة بور روايال Port-Royal التي دأبـت علـى وضـع أسس لعلم النحو العام مقتفية في ذلك أثر المناطقة وفلســفة ديكـارت علـى وجه الخصوص. فقد كان للنحاة العرب قُدْمـة في هـذا المجـال بـدءا مـن الخليل بن أحمد الفراهيدي [100 هــ-175 هــ] وسـيبويه [284 هــ-358 هـ] وانتهاء بالنحاة المتأخرين.

صحيح أن اللغويين الغربيين قــد قدمـوا دراسـات وبحوثـا في مجـال النحو المقارن واللسانيات التاريخية، وبذلوا جهودا معتبرة في وضع تاريخ اللغة لدى القدماء مثـل الإغريـق والرومـان، ولكـن الدارسـين العـرب[5] لم

---

[2] – ينظر جورج مونان: تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين، تر. بدر الدين القاسم، مطبعة جامعة دمشق، سورية، 1972.

[3] - Julia Kristeva, Le langage cet inconnu, PP. 129-134.

[4] - Voir Encyclopédia Universalis.

[5] – نذكر من هؤلاء محمود شاكر وعبد السلام هارون ومحمد علي النجار وعلي محمد ومحيي الدين عبد الحميد ومصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي وأحمد عبد الجواري وعبد الله الجبوري وشوقي ضيف وموسى نويوات ومحمد بن أبي شنب.

يكونوا في حل عن هذا المسعى؛ إذ انبروا بالعرض والوصف والتصنيف للتراث اللغوي العربي القديم، ولم يقصروا في تحقيق المصنفات النحوية والصرفية والبلاغية، فأخرجوها للقارئ إخراجا علميا دقيقا.

كانت هناك تلميحات محتشمة إلى اللسانيات العامة حتى بداية القرن العشرين في مؤلف ميبه الذي أوقف جهوده على دراسة اللغات الهندية الأوروبية دراسة مقارنة. فقد تعرض إلى جملة من القضايا ذات الصلة الوطيدة بموضوع اللسانيات العامة، بينما كان حظ هذا العلم أوفر في مؤلف "اللغة" لـ: "جفريسن" Jefresen، والأمر نفسه ينسحب على كتاب "اللغة" لـ: بلومفليد Bloomflield [1887–1949].

تواصلت الجهود العلمية في تأسيس الأرضية لظهور "اللسانيات العامة" في بعض المؤلفات التي كان غرضها وضع برامج علمية لقواعد اللغة في أغلب الأقطار الغربية، وكذا العربية. وفي هذا الإطار لم يفت لويس كوكنهايم L. Kukenheim من التصدي للعلاقة التي تربط بين التاريخ واللغة الفرنسية واللسانيات العامة، ولكن هذه الدراسات ذات المنحى التعليمي لم تسطع فكاكا من سلطان الدراسات التاريخية؛ لهذا غلبت عليها النظرة المعيارية الضيقة أكثر من النظرة الوصفية التي تنهجها اللسانيات العامة.

بدأت الدراسات التاريخية للغة مع ظهور كتاب فرانز بوب Franz Bopp [1791–1876] "النسق الصرفي في اللغة السنسكريتية مقارنة باللغات الإغريقية واللاتينية والفارسية والألمانية" عام 1816 "

Le système de conjugaison de la langue sanscrite, comparé à celui des langues grègue, latine, persane et germanique، بيد أن هذه الدراسات لازمها مصطلح كان يشيع في أوساط الباحثين اللغويين الألمان وهو النحو المقارن Grammaire Comparée. وإلى جانب فرانز بوب نلفي الأخوين شليجل A. W. et F. Von Schlegel وجريم J. L. Grim [1821–1867].

اهتمت هذه البحوث كثيرا بمواطن التشابه بين اللغة السنسكريتية واللغة الهندية القديمة المقدسة، ولم تكتف بالحرص على مواطن التشابه بينهما، وإنما وقفت على القرابة التي تجمعها مستعملة المنهج المقارن في بحوثها مع تركيزها على العناصر النحوية التي تعد ضرورية بالنسبة لمن يشتغلون على موضوع الاشتقاق.

وعلى الرغم من الأهمية القصوى التي تكتسبها الدراسات التاريخية و النحو المقارن إلا أنها لم تغن كثيرا اللسانيات العامة؛ وبخاصة ما تعلق بالمنهج والطريقة الإجرائية في تحليل اللغة الطبيعية والبحث عن نسقها العام، وليس أدل على ذلك من التلميح العابر الذي خصه به مالمبرج Malamberg [1913–؟] في كتبه "التيارات الحديثة في اللسانيات" وما قيل عن مالمبرج يقال –أيضا– عن سفيجينسف Svegincev وتاكيافيني Taghiavini و كراور Grawer؛ وهذا لا يعني إفراغ الدراسات التاريخية للغة من كل قيمة علمية.

وضع أمثال بيدرسن Pederseon بين أيدي الباحثين اللغويين معلومات قيمة عن التواريخ التي اكتشفت فيها بعض اللغات والتوصل

إلى فهم رموز بعض الكتابات وتاريخ النحو المقارن وكذا تاريخ الكتابة. كل ذلك يقف عليه الباحث في كتاب بيدرسن "اكتشاف اللغة".

و من حق الباحثين أن يتساءلوا عن الأطر المرجعية التي انطلقت منها اللسانيات العامة، واستقت منها تصوراتها، واستوحت منها مصطلحاتها. فمما لا ريب فيه أن دو سوسير لم يصل إلى تلك الآراء الخلاقة التي بثها في محاضراته من العدم. فظلال ويتني وكوندياك [1715–1780] وبريال حاضرة في متن المحاضرات، وبخاصة مفهوم اعتباطية العلامة، ينضاف إلى ذلك الخلفيات المعرفية الأخرى التي نقف عليها في المحاضرات مثل: دور علم الاجتماع النفسي و علم النفس العام وحتى علم الاقتصاد؛ ولا سيما في أثناء مدراسة أمر السيميولوجية التي تنبأ باكتساحها لمجال الدراسات اللغوية و غيرها من العلوم التي تصطنع العلامة سواء أكانت لسانية أم غير لسانية. فقد كانت دراسته للسان دراسة بنوية وسيميائية في الآن نفسه.

وهذا ما دفعنا إلى أخذ العلوم والمعارف الإنسانية بالحسبان، ونحن نهم بالحديث عن اللسانيات العامة؛ ذلك لأن نشأة علم اللغة لا يكون بالضرورة منبثقا من حاجات لغوية بحتة، بل قد تتحكم فيها عوامل لا علاقة لها بالبحث اللغوي الصرف؛ وهذا ما ينطبق على نشأة النحو العربي الذي انبثق من ظاهرة تفشي اللحن بين الناس، والخوف من العواقب الوخيمة التي تمتد آثاره السلبية إلى قداسة القرآن. فالعامل الديني كان سببا لميلاد النحو العربي كما كان الشأن بالنسبة للهنود

القدامى. فلم تكن الحاجة إلى فهم اللغة في ذاتـها وراء انبثـاق علـم اللغـة العربية؛ وهذا ما نلمسه -أيضا- في بعض اللغات الإنسانية الأخرى.

ينضاف إلى ذلك صعوبة التأكد من الحياد الموضوعي لمؤرخـي اللغـة؛ فمن العسير أن يتجرد المؤرخ اللغـوي قديمـا كـان أم حديثـا مـن الشـروط النفسية والاجتماعية والعقائدية وغيرها. فكلها تؤثر تأثيرا مباشـرا أو غـير مباشر في عمل المـؤرخ أو حتـى في وضـع اللغـة ذاتـها أو في المنـهج الـذي يتخذه الباحث أداة لتحليله اللغوي. وتعد مسألة المنهج هي الفيصل بـين الدراسات التاريخية واللسانيات العامة.

إن التاريخ بوصفه شرطا علميا لدراسة اللغة لا ينبغي أن يتحـول إلى عائق إن هو أصبح غاية بدل أن يكون وسيلة. وهنا لا بد من الحديث عن ضرورة استدعاء المنهج الإبستيمولوجي لتحقيق قطيعـة علميـة مـع طريقـة البحث من أجل فهم اللغة فهما أعمق؛ وهذا ما اهتـدت إليـه اللسـانيات العامة في محاضرات دو سوسير بعدما كانت السمة التاريخية هـي المميزة لعلم اللغة في القرن التاسع عشر وحتى بداية القرن العشرين.

وكثيرا ما كـان يعـاب علـى البحـث اللغـوي الـذي تعـوزه الحاسـة التاريخية في أثناء تصنيفه للوقـائع اللغويـة والاقتصـار علـى وصفـها دون القدرة على تفسيرها، بينما عيب في المقـابل علـى تلـك المحـاولات الـتي كانت شغوفة بالتحليل العلمي لظواهر اللغة والبحث عن أسسها المنطقيـة كما كان الشأن بالنسبة لقواعد جماعة بور روايال التي أعلنت عـن وجـود مبادئ تخضع لها كل اللغات، وتمنـح تفسـيرا أكـثر عمقـا لاسـتعمالاته؛

حيث حاول لانسلو Lancelot وأرنولد Arnauld الاقتداء بالمبادئ التي وضعها روني ديكارت René Descartes[6] [1596–1650].

وفي كل الأحوال فإن مسعى اللسانيات لم يكن له أن يقفز على تاريخ التفكير اللغوي، ويتجاهل هذا إرثه الطويل. فلا بد أن يضع قدمه على أرضية حتى تمكنه من تحقيق فضيلة التجاوز؛ لأن الالتفات إلى الماضي اللغوي ضرورة لكل محاولة من أجل اسكتشاف أخطائه وإدراك نقائصه؛ وتاليا التفكير في وضع متصورات جديدة للسانيات استوعبت ما سبقها من تفكير حول اللغة، فانتهت إلى معاييبه، ثم فكرت تفكيرا علميا سديدا في تقويم ما ارتأته ناقصا بما في ذلك الدراسات الميتافيزيقية للغة ذات الصبغة الفلسفية الخالصة؛ لأن ذلك يعد جزءا لا يتجزأ من تاريخ اللغة.

لهذا أو ذاك ألفيتَ بعض اللسانيين المعاصرين يدافعون عن إقامة تاريخ خاص وموجز للسانيات العامة؛ وهو أمر يبدو للوهلة الأولى مستغربا ومليئا بالتناقضات. فأنى لهذا التاريخ أن ينسجم مع مقولات اللسانيات البنوية –مثلا– التي تنكرت جملة وتفصيلا لدور التاريخ في الدراسات التاريخية، وأعطت الأولوية للنسق على أي عامل آخر في هذا المجال. بيد أن هذا التاريخ يمكن أن يعين الباحثين على معرفة التحولات المنهجية التي حققتها المدارس اللسانية المعاصرة؛ وهو أمر محقق في الدراسات الغربية الحديثة.

– [6]Julia Kristeva, Le langage cet inconnu, P. 157.

إن حجة هؤلاء تتمثل في أن مثل هذا التاريخ للسانيات العامة قادر على أن يقدم للباحثين معطيات ومعلومات عن دور هذا العلم وإنجازاته ويمكنهم من فهم أدق لتاريخ اللغة ما قبل ظهور اللسانيات العامة، وكذا بعض الجهود العلمية المبذولة في هذا الصدد؛ وهو واقع لا ينبغي الاستهانة به أو التقليل من أهميته ودوره بمنطق عاطفي لا يصمد أمام النتائج الدقيقة التي يمكن أن يتوصل إليها تاريخ اللسانيات العامة.

بإمكان هذا الاختصاص الجديد أن يضاهي التخصصات العلمية في معارف مختلفة لكونه أخضع حقله للنزعة الوضعية، فبات أنموذجا للعلوم الإنسانية لكي تخرج من دائرة الدرس الضيق إلى دائرة العلم الفسيح. فبعدما استفادت اللسانيات من مرجعيات علمية مختلفة تحولت هي الأخرى إلى مرجعية فكرية بدأت تستمد منها بعض العلوم الإنسانية جهازها المفاهيمي ومعجمها الاصطلاحي.

لقد استطاعت اللسانيات أن تدخل تغيرات جذرية على التاريخ اللغوي القديم، وتمكن الدرس اللغوي من الخروج من المعيارية إلى مجال الوصف، وتيسير تعلم اللغة وتعليمها، وإدخالها إلى عالم التكنولوجية الحديثة. ((فاللسانيات فرضت وجودها على كل ميادين المعرفة الإنسانية لأنها تبحث في أصولية آلية الإنتاج العلمي التي تعزز بها كل العلوم: اللغة. وهكذا تمكنت اللسانيات من إعادة هيكلة ومنهجة جل العلوم الإنسانية الحديثة وجعلتها سهلة التناول كما جعلت المثقف يجدد

نفسه باستمرار، وللأسف الشديد نجد أن حظ الثقافة العربية يسير من هذا المنهج، وخاصة ميدان الدراسة اللغوية العربية))[7].

وهذا الشعور له ما يبرره، وإن كانت الدراسات اللسانية العربية الحديثة قد بذلت جهدا لا يستهان به في هذا المضمار في أقطار عربية من أبرزها منطقة المغرب العربي ولبنان ومصر وبعض الأمصار الأخرى التي تولت جانب الترجمة، ويسرت هذا العلم الجديد للقارئ العربي، ولكنه لم يبلغ شأوا عظيما، ولم يتعد بعد إطار التعليم وتقريب العلم واكتشاف اللسانيات وعقد الصلة الحميمة بينها وبين القارئ العربي لكي يتذوق هذا العلم الحديث ويلم به[8]؛ هذا دون أن نغض الطرف عن تلك المحاولات الجادة التي سعت سعيا حثيثا من أجل وضع نظرية لسانية عربية حديثة[9] من منطلق بعث التراث اللغوي بعثا جديدا وصوغه صوغا علميا يأخذ بأسباب النظرية اللسانية العالمية بعد استيعابها استيعابا واعيا[10] ونقدها نقدا علميا موضوعيا.

---

[7] – محمد الحناش: البنيوية في اللسانيات – دار الرشاد الحديثة – الدار البيضاء – المغرب – ط. 1 – 1980 – ص. 6.

[8] – ميشال زكريا: الألسنية (علم اللغة الحديث) المبادئ العامة والأعلام، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط. 2، 1983، ص. 19–6.

[9] – ينظر أطروحة مازن الوعر: نحو نظرية لسانية عربية حديثة لتحليل التراكيب الأساسية في اللغة العربية، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، سورية، ط. 1، 1987.

[10] – أحمد حساني: السمات التفريعية في البنية التركيبية، مقاربة لسانية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993، ص. 7.

لقد أدرك اللسانيون العرب المحدثون أهمية هذا العلم وضرورة الإلمام بأسبابه إلماما واسعا والإحاطة بنتائجه إحاطة شاملة بغية تقويم العمل اللغوي العربي القديم[11] ؛ لهذا لم يتوانوا في التعريف بهذا العلم والقيام بترجمة المؤلفات اللسانية الهامة، وتقديم محاضرات في هذا المجال، ثم تشيعوا لهذه المدرسة اللسانية أو تلك، ولكنهم اعترافوا بالتقصير والتأخر عن ركب اللسانيات الحديثة، وإلا كيف نفسر هذا التأخر الفظيع في ترجمة كتاب "دروس في الألسنية العامة" لدو سوسير الذي ظهر في سنة 1916، ولم يعرب[12] إلا في سنة 1985. ونحن لا نشك في أن الاهتمام به كان مبكرا، وظهر في الكثير من المؤلفات العربية قبل هذا التاريخ بكثير؛ إذ يقول ناقلوه إلى العربية: ((لئن بادر اليابانيون 1928 والألمان 1931 والروس 1933 بنقل هذا الكتاب إلى لغاتهم، فإنه لم يترجم إلى الإسبانية إلا سنة 1945. أما ترجمته إلى الإنجليزية والبولونية والإيطالية فقد تمت في وقت متأخر، وظهرت على الترتيب سنة 1959 و1961 و1967، ثم إن الاهتمام بالألسنية في هذه الديار وفي العالم العربي بصورة عامة أمر حديث العهد نسبيا إذ لا نكاد نجد منه أمرا يذكر قبيل الستينيات سواء في ميدان التدريس أو البحث))[13].

---

[11] – صالح الكشو: مدخل في اللسانيات، الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا، 1985، ص. 5.

[12] – هناك ترجمة أخرى لهذه المحاضرات من قبل يوسف غازي ومجيد النصر ظهرت سنة 1984 عن دار عثمان للثقافة بلبنان، ولكن الترجمة التونسية أدق. إننا نعتقد بأن الفارق بين الترجمتين يقدر بسنة، ولا يضر كثبرا في إقرار فداحة التأخر في ترجمة هذه المحاضرات.

[13] – ينظر مقدمة معربي دروس في الألسنية العامة، تع. صالح القرمادي ومحمد الاشوش ومحمد عجينة، الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا، 1985، ص. 8.

إن تأخر يقدر بأكثر من نصف قرن ليس بالأمر الهين. وهو ما يعكس مدى التخلف الرهيب للثقافة العربية عن مسايرة ركب المعرفة اللسانية الحديثة مما يجعلها مطالبة بتكثيف جهودها من أجل استدراك ما ينبغي استدراكه، وتجاوز تلك المناقشات البيزنطية حول المفاضلة بين اللسانيات والتراث العربي، وتراشق التهم بالمظنات بين نزق الحداثويين وانغلاق التراثيين. فلا هؤلاء ولا أولئك يقدمون الكثير للعربية من أجل تطويرها ومواكبتها للعصر. فما أحوجنا إلى علماء لهم بصيرة بما ينبغي القيام به خدمة للغة العربية وثقافتها. فلهم اطلاع مستفيض بتراث العربية العريق ولهم إلمام واسع بالمناهج العلمية الحديثة مع توافرهم على حاسة الإبداع. وبالفعل فإننا لا نعدم وجود مثل هذه الشريحة في العالم العربي. فهم كثيرون.

ولعل من أهم القضايا التي تشغل بال الباحثين إشكالية المصطلح اللساني وكيفية تعريبه ((فاختلاف الينابيع التي ينهل منها علماء العرب اليوم بين لاتيني وسكسوني وجرماني وسلافي، وطبيعة الجدة المتجددة التي تكسو المعرفة اللسانية المعاصرة، وتراكب الأدوات التعريفية والمفردات الاصطلاحية مما يقتضيه تزاوج مادة العلم وموضوعه في شيء واحد هو الظاهرة اللغوية، ثم طفرة الوضع المفهومي وما ينشأ عنه من توليد مطرد للمصطلح الفني بحسب توالي المدارس اللسانية وتكاثر المناهج التي يتوسل كل حزب من المنتصرين للنظرة الواحدة أحيانا. كل ذلك قد تضافر فعقد المصطلح اللساني العربي، فجعله إلى الاستعصاء والتخالف

أقرب منه إلى التسوية والتماثل))[14]. إن المعضلة الاصطلاحية قد تقلل إن لم نقل تعرقل مردودية عطاء هذا العلم. وقديما كان ابن خلدون [1332–1406] قد أشار إلى أن كثرة التآليف في العلوم تعوق عن التحصيل لاختلاف الاصطلاحات في التعليم[15].

وهو أمر حاصل في كثير من العلوم المنقولة إلى العربية لبعد الشقة بين المعرفة الأصيلة وواقع اللغة المنقول إليها؛ وهذا عبء يتجشمه علم الترجمة، وتتكفل به المجامع اللغوية، وإلا ظل العطب يلازم الدراسات اللغوية الحديثة ، وتبقى حائلا بينها وبين الإبداع والابتكار فيحرمها من الإسهام النوعي في الثقافة الإنسانية العالمية مثلما أسهم اللغويون العرب إسهاما بلغ درجة من الرقي إلى أن أصبح جزء كبير منه أكثر حداثة من البحوث العربية المعاصرة.

ولتحقيق هذا المبتغى لا بد من تعميم الاهتمام باللسانيات وتشجيع طلبة العلم للأخذ بأسبابها والإحاطة بالتراث اللغوي توخيا لمقاصد الدفع باللغة العربية إلى عوالم البحث المستمر، وإلى أخذ مكانتها اللائقة بين سائر اللغات الأخرى، وأن أفضل طريقة لتقديسها هي الانكباب على تطويرها وتحديثها، ودراستها دراسة علمية؛ بحيث تجتمع لها أسباب المناعة من أجل مواجهة تحديات العصر؛ وذلك بتذليل الصعاب أمام العربية الفصحى ومواجهة الازدواجية في التخاطب اليومي والقضاء على

---

[14] – عبد السلام المسدي: قاموس اللسانيات، عربي فرنسي وفرنسي عربي مع مقدمة في علم المصطلح، الدار العربية للكتاب، تونس وليبيا، 1984، ص. 55.

[15] – بن خلدون: المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1979، ص. 1021.

كل ما يعيق انتشارها واتساعها للمصطلحات الوافدة واستثمار قابليتها لمواكبة تطورات العصر.

فالدعوة إلى تحديث اللغة العربية وتيسير نحوها وصرفها وهجران الغريب منها لا ينبغي أن تكون حجة لتلك الأصوات الانعزالية والتغريبية الداعية إلى التخلي عن العربية الفصحى وإحلالها بلهجات أو لغات عامية أو دارجة؛ لأن في ذلك إهدارا لثقافتها برمتها، وإلغاء لرصيد روحي وفكري ليس من السهولة بمكان التخلي عنه. لقد ثبت فشل هذه الأصوات وانتهت إلى الزوال، وانكشف غطاؤها الإيديولوجي الوثوقي الذي كثيرا ما تلبس لبوس العلم؛ بيد أن الأصوات المحافظة -أيضا- لا تقل في الإساءة للغة العربية عن تلك الأصوات الناعقة باسم العلم. فهي تتوهم المحافظة عليها وصونها من كل انحراف بالانغلاق وعدم التفتح. فهي تضر من حيث إنها تعتقد بأنها تحسن صنعا.

ولهذا فنحن بحاجة إلى من ينبري للبحث العلمي عن المشكلات التي تعترض طريق اللغة العربية في إكمال مسيرتها دون ذوبان ودون تقوقع، وتيسيرها للتعلم السريع والتعليم المكين. إن هذا التوجه ينبغي أن نشايعه، وندعو إليه. لا يخيفنا نزق التغربيين، ولا يثنينا جمود المحافظين. فحبنا للعربية يدفعنا إلى خدمتها انطلاقا من هذا التصور الذي سبيله الإقرار بقيمة التراث اللغوي وضرورة إغنائه بالبحث العلمي الجاد الذي لا يقتنع بأي إيديولوجية خفية، ويصطنع مناهج حداثية ليست لها وجهة سوى قبلة العلم.

لا ترانا نقول كلاما مكرورا عندما نقر بأن البحث اللغوي في العالم العربي مازال بكرا، ويحتاج إلى لفيف متزايد من الباحثين الذين يضطلعون بهذه المهمة التي ألمح إليها قبلنا غيرنا من العلماء الأجلاء. فقد أشار جرجي زيدان في مؤلفه "الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية" إلى أن ((البحث في فلسفة اللغة لا يزال جديدا عندنا يحتاج إلى تمحيص وانتقاد. فنتقدم إلى أرباب الأقلام أن ينتقدوه، وستلفت انتباه أئمة اللغة إلى النظر فيه والتوسع في موضوعه للانتفاع بنتائج أبحاثهم، وثمار قرائحهم))[16]. وإذا كان هذا هو حال كل علم جديد يظهر على الناس في حينه بمظهر الغريب فيتوجسون منه خيفة، ويحيكون حوله الأساطير والخرافات، ويرمونه بالمظنات فالأمر لا يختلف بالنسبة للسانيات العامة وغيرها من المعارف الطارئة.

لا ينبغي للغوي العربي أن يركن إلى الدعة، ويقنع بما هو أقل من القليل، بل عليه أن يرتاد مجاهل البحث غير هياب ولا مرتاب حتى إذا ظفر بشيء مما كان ينتظره طلع به على الناس ليمحصوه وينتقدوه، ويدفعون به إلى طريق الكمال؛ وبخاصة أن العصر الحديث يوفر للباحثين ما كان أمرا معجزا في غيره من الأمصار والأعصار. فهناك وفرة من المراجع وبنوك المعلومات والإعلاميات المتطورة. وأخيرا هناك شبكات الأنترنيت التي تأتيك بالمعلومات في لمح من البصر مهما بعد المزار.

---

[16] – جرجي زيدان: الفلسفة اللغوية والألفظ العربية، مر. وتع. مراد كامل، دار الحداثة، بيروت، ط. 2، 1982، ص. 17.

لهذا يتملكنا العجب كل العجب من الذين مازالوا يشكون في جدوى العلم، ويؤذون أهله بالقذف والمظنات والتشكيك في عقائدهم؛ ولا سيما عندما يطالبون من يبغون ارتياد المعرفة الجديدة بالمسوغات، وكأنهم يريدون أن يصدوهم عما جعلته الشرائع السماوية عبادة وإرثا للأنبياء. فمن البدعة أن يعم الجهل، وينشر الفقر المعرفي من قبل ذهنيات أصابها البلى وران عليها الصدأ، وتكلس في داخلها الظلام.

لا تحتاج المعرفة لأي مسوغ لتبرير حضورها في الفكر العربي الإسلامي المعاصر، من منطلق أن يكون العلم له انتماء إلى وطن أو جنس ما أو حضارة ما. فما أحوج اللغة العربية إلى أن تحافظ على ديمومتها بالانفتاح لا بالانغلاق، وبالإقبال على كل جديد لا بالصد عنه، فباستطاعتها أن تضيف إلى رصيد تاريخها العريق إضافات نوعية دون أن تتلاشى، وتذوب في غيرها. ولا ينبغي أن تحرمنا تلك الدعوات الانعزالية التي تنادي بالقطيعة مع تراثنا اللغوي والانفصال عنه، ونبذ تركته العريضة والثرية من استثمار مستجدات البحث العلمي والكروع من حياض المعرفة السيالة.

إن هذا الفهم مخطوء للحداثة من جهة، وسوء تقدير للعلم من جهة أخرى. فالحداثة لا تنطلق من جذور مقطوعة. فاللغة العربية لا يضيرها تلك الصيحات التي تذهب سدى. فهي أكبر من أن تنالها دراسة متسرعة، وبحث تعوزه الدقة واليفاعة والنضوج. وأما الاعتقاد في إغلاق اللغة العربية في وجه كل اجتهاد يريد إثراءها وتيسيرها وتحديثها سبيلا لصونها والحفاظ عليها أمر بالغ الخطورة، واعتقاد فاسد؛ لأنه سيرمي

بالعربية إلى متـاحف اللغـات الميتـة، ويبعدهـا عـن مواكبـة سـير التطـور وحرمان المتكلمين بها من الاستفادة بها في مجالات التكنولوجية الحديثـة واستخدامها استخداما واسعا.

وفي هذا الإطار يجب على المؤسسات العلمية التي تضطلـع بـالبحث في علوم اللغة من جامعات ومراكز بحوث ومجامع لغوية وأكاديميـات أن تضع إستراتيجيات متفاوتة المدى من أجل الوصول بالعربية إلى مـا يليـق بمقامها دون الاتكاء على تلك الخطابات العاطفيـة الـتي تجـدي نفعـا أو تلك السياسات الفاشلة التي تضر أكثر ممـا تنفـع. ولإدراك هـذه المقـاصد النبيلة ينبغي أن يتوافر الباحثون على قدر غـير قليـل مـن الإطـلاع علـى التراث اللغوي القديـم والاسـتيعاب العـالمي والواعـي لكـل مـا اسـتجد في ميدان اللسانيات الحديثة بمختلف تياراتها ومدارسها.

ومن هنا اتكبت هذه الدراسـة علـى جملـة مـن الأسـئلة الـتي تتصـل بالتطور العلمي المذهل للسانيات العامة والتطبيقية في مدارسة ظاهرة اللغة والوقوف على بناها وأنساقها، وفي مقابل ذلك نلفي وضعا غير صحي للغة العربية التي لم تحظ بالدراسـات العلميـة الجـادة الـتي تدفعـها إلى أخـذ مكانتها المميزة بين نظيراتها من اللغات الحية؛ وذلك لاعتبارات كثيرة لا يتسع المقام للتفصيل فيها في هذ البحث.

إن الأمر الذي نؤكده –هنـا– أن اللغـة مرتبطـة بمتكلميـها. فتقدمـها مرهون بتقدمهم وتأخرها راجع إلى تأخرهم. فاللسـانيات حسـمت مسـألة التفاضل بين اللغات من منطلق وظيفتها التواصليـة، وإن كنـا نعتقـد بـأن

حصر اللغة في بعدها الوظيفي هدر لطاقاتها الخلاقة على الإبداع والتفاعل. ولعلنا نخلص إلى جملة من الاقتراحات التي لا نعتقد بأننا نحوز بها على قصبات السبق، بل ندعم من سبقنا إليها المشتغلون في حقل الدراسات اللغوية، وكل من يحب الخير للعربية، ونجمل بعضها فيما يلي"

-الضحالة المعرفية بالتراث اللغوي والمناهج اللسانية الحديثة للمكونين. فهناك أنظمة بيداغوجية جديدة متبعة في الدول المتقدمة مثل ألمانيا وإيطاليا، ويتمثل ذلك في تكوين المكونين معرفيا ومنهجيا تكوينا عاليا. ومنه تنطلق قاعدة التحديث التربوي و العلمي وفق استراتيجية محددة لها أهداف معينة.

-ترشيد العامية في العالم العربي، وتقريبها من العربية الفصحى بعدم الاستعمال المتعسف لبعض الوحدات المعجمية غير المتداولة في الخطاب اليومي للناطقين بالعربية سواء أكانوا من العامة أم من المختصين، وضرورة تقريبها من الواقع اليومي. فلا بد من انكباب الدراسات على البحث عن الأصول العربية للعامية، ودمجها ضمن الذخيرة اللغوية[17]، وتعميمها في وسائل الإعلام.

-غياب المعاجم اللغوية التي تراعي مسألة النطق نظرا لإهمال الأبجدية الصوتية وكتابتها على غرار ما نلفيه في معاجم بعض اللغات الأوروبية مثل لاروس مثلا. لأن المعاجم توضع -أساسا- للناطقين باللغة

---

[17] - وذلك تماشيا ما دعا إليه عبد الرحمن الحاج صالح.

وغير الناطقين بها. فالأصوات اللغوية متباينة من لغة إلى أخرى؛ ويتعذر على غير أهلها النطق السليم لبعض أصواتها مثل صوت الحاء للفرنسيين على سبيل التمثيل لا الحصر.

-عدم العناية بتدريس العربية عن طريق المحادثة والنصوص السلسة التي ينشئها المبدعون؛ وهذا ما هو متبع في البيداغوجية الغربية التي تنشئ أطفالا يتحدثون لغاتهم حديث طليقا مع التفكير الجدي في إيجاد سبل لتيسير الكتابة العربية حتى تسهل قراءتها وتعامل الكومبيوتر معها.

-خطورة الازدواجية على التعلم السليم للغة الأم، وبخاصة بعض الأسر التي تتحدث في داخل بيوتها بلغة غير اللغة التي يتعلمها الطفل في المدرسة.

-تحديث العربية عن الطريق التعليم الإلكتروني في عصر بدأ يدير ظهره للطرائق التقليدية في اكتساب اللغات والمعارف سواء أتمثل ذلك في الكتابة أم القراءة أم في الحصول على المعلومة في لمحة بصر.

-تبادل الخبرات بين المراكز العربية والانفتاح على المنجزات العصرية في مجال تطوير مناهج تعليم اللغات. والاستفادة مما حققته بعض اللغات الأخرى في هذا الميدان.

-تفعيل حركة الترجمة عن طريق دراسة المعوقات اللسانية التي تطرحها بعض اللغات التي لا تنتمي للعائلة اللغوية الواحدة تذليلا لصعوبة المصطلح المهاجر إلى ثقافتنا العربية المعاصرة، ومن هنا اقترح على

المختصين في هذا المجال أن يسهموا في حل بعض المعضلات التي يطرحها مشكل المصطلح في العلوم الإنسانية والاجتماعية. كأن يجتهدوا مثلا في إيجاد ما يقابل ظاهرة السوابق Suffixes واللواحق Préfixes في اللغات الهندية الأوروبية بما يلائمها في اللغة العربية.

اتهامات وأوهام:

– اتهام العربية بعجزها عن تمثل كل ما هو مجرد، ويرجعون السبب إلى طبيعة قواعدها ونسقها العام مثل مسألة الترادف، ويرد إدوارد سعيد على هذه النزعة الاستشراقية بأنها تستكشف عن قصور عقلي ساذج معبأ بالأوهام يعود إلى شحن بعض العقول الغربية بأفكار مسبقة عن العربية والعرب وثقافتها وحضارتها.(شوبي)

– غياب الدقة والوضوح في كلام العرب بسبب عدم وجود تفصيل دقيق للنسق الزمني في العربية. والواقع أنه من غير المعقول اتهام لغة بالنقص أو الكمال. فاللغة تمتلك نظاما أو نسقا عاما يمثل طبيعة اللغة ذاتها.(باتاي)

– تقوقع العربي على نفسها، وعدم قبولها للغات أخرى نظرا لأنها تخضع الكلمات الدخيلة إلى نظامها الصرفي. (لافين)

– بعد العربية عن الواقع، وميلها إلى التصورات المتافيزيقة؛ لأنها لا تأخذ في حسبانها البعد التاريخي في التعبير عن حركة التحولات التي

تطرأ على المجتمعات. ومـن هنـا توصـف هـذه اللغـة بالتـأخر والجمـود. (الجابري).

لقد فندت اللســانيات العامـة هـذه الاتـهامات والأبـاطيل مـن منطلـق تخليـها عـن النظريـات اللغويـة الـتي كـانت سـائدة في العصـور القديمـة وتخلـت -أيضـا- عـن كثـير مـــن المســائل الــتي كــانت تشــغل بــال التفكيراللغوي القديم من مثل البحث عن أصل اللغـة ونشـأتها والتفـاضل بين اللغات ونسبها. لقد أصبحت اللسانيات تنظــر إلى اللسـان علـى أنـه موضوعها بصرف النظر عن صفته، وتدرسه دراسة علمية وصفيــة تتوخـى الموضوعية في نتائجها، ولا تنطلق منطلقا إيديولوجيا في مدارستها. وعليــه فإننا نعتقد بأن تلك الاتهامات والأباطيل أضحت من قبيل الأوهام التي لا يصدقها إلا من كــان في قلبـه مـرض، وإن كنـا لا نغفـل مـا تحملـه هـذه الاتهامات مــن قضايـا لغويـة حساسـة ينبغـي ألا نغـض الطـرف عنـها، ونواجهها بنظرة علمية صارمة تحقيقا للمقاصد التي ننشــدها بغيــة ترقيـة العربية والمحافظة على حيويتها.

الدرس اللغوي في العربية
بين التراث والمعاصرة

الأستاذ الدكتور: رمضان عبد التواب

العميد السابق لكلية الآداب

جامعة عين شمس

لا ينكر أحد ما بذله أسلافنا من جهد كبـير في البحـث والتنقيـب، و مشافهة العرب، وجمع ألفاظ اللغة، وتوسيط في أنواع شتى مـن الـترتيب والتبويب وفي أبنية الكلمة ونظام الجملة، ووظـائف الجمـل والكلمـات في داخل هذه الجمل، نجد عند نحاة العرب تراثا ضخمـا تبـاهي بـه الأمـة العربية سائر الأمم، في هذا المضمار.

أما كتب فقه اللغة العربية، فإنـها تبعـث علـى الإعجـاب والإكبـار، كالخصائص، وسر صناعة الإعراب، لابن جني، والصاحبي في فقه اللغة، لابن فارس، والمزهر في علوم اللغة وأنواعها، للسيوطي.

وعلى الرغم من أن شيئا غير قليل من هـذا الـتراث اللغـوي، قـد عفـا عليـه الزمـن، وتجاوزتـه النظريـات اللغويـة الحديثـة، لانشـغاله ببعـض الفروض الظنية، والتعليلات الواهبة، والجدل العقيم الذي يبعد عن الواقع اللغوي، ونقص الاستقراء، والتعميم السريع للأحكام فإننـا نقـع فيـه هنـا وهناك في بعض الأحيان، على الكثير مـن الآراء والنظريـات، الـتي يظـن بعض الناس أنها وليدة الفكر في عالمنا المعاصر.

فإذا كان علم اللغة الحديث، ينادي مثلا بالابتعاد عن تفضيل لغة مـا على غيرها ويرى"دي سوسيرٍ" أبو الدراسات الوصفية الحديثة أن"موضوع علم اللغة الصحيح والوحيد، هو اللغة في ذاتها، ومن أجل ذاتها[1]

---

[1] ـ انظر: 232

De s'assure, course in Général linguistics, p . 232

فإننا نقرأ مثل هذا الذي دعا إليه "دي سوسير" عند بعض علماء العربية، كابن حزم الأندلسي (المتوفى سنة 456 هـ) الذي يقول: " وقد تَوَهمّ قوم في لغتهم أنها أفضل اللغات، وهذا لا معنى له؛ لأن وجوه الفضل معروفة، وإنما هى بعمل أو اختصاص، ولا عمل للغة، ولا جاء نص في تفضيل لغة على لغة.

"وقد غلط في ذلك جالينوس، فقال: إن لغة اليونانيين أفضل اللغات، لأن سائر اللغات، إنما هي تشبه إما نباح الكلاب، أو نقيق الضفادع. وهذا جهل شديد؛ لأن كل سامع لغة، ليست لغته ولا يفهمها، فهي عنده في النصاب الذي ذكر جالينوس ولا فرق[2]. والسليقة اللغوية عند المحدثين من علماء اللغة لا تعدو أن تكون مرحلة من مراحل إتقان اللغة، عندها لا يكاد يشعر المتكلم بخصائص كلامه من حيث الأصوات، وأبنية الألفاظ، وتراكيب الجمل، فهو يؤدي الكلام بصورة آلية، دون أن يكون له أي اختيار في هذه النواحي، بل تصدر منه دون تكلف أو تعمد، وإنما على حسب ما سمع في صغره ممن حوله من الكبار.

وقد فطن إلى مثل نظرية المحدثين في السليقة اللغوية، العلامة ابن خلدون (المتوفى سنة 808 هـ)، فقال: أعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة؛ إذ هي ملكات في اللسان لا عبارة عن المعاني... والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال؛ لأن الفعل يقع أولا، وتعود منه

---

[2] ـ الإحكام في أصول الأحكام 1/ 32

للذات صفة، ثم تتكرر فتكون حالا، ومعنى الحال أنه صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة، أي صفة راسخة.[3]

وإذا كان المستشرقون لم يعرفوا العلاقة بين اللغات السامية، إلا منذ القرن الثامن عشر الميلادي، فإن العرب من قدامى اللغويين قد أدركوا هذه العلاقة منذ فجر التأليف في العربية، كالخليل بن أحمد الفراهيدي (المتوفى سنة 175 هـ) وأبي عبيد القاسم بن سلام (المتوفى سنة 224 هـ) وأبي إسحاق الزجاج (المتوفى سنة 311 هـ). وكذلك أدرك ابن حزم الأندلسي (المتوفى سنة 456 هـ) علاقة القربى بين العربية والعبرية والسريانية، فقال: "من تدبر العربية والعبرية السريانية، أيقن أن اختلافها، إنما هو من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان واختلاف البلدان ومجاورة الأمم، وأنها لغة واحدة في الأصل.[4]

كما عرف أبو حيان الأندلسي (المتوفى سنة 854 هـ) اللغة الحبشية، وأدرك العلاقة بينها وبين العربية، وألف فيها تأليفا مستقلا، فقال: "وقد تكلمت عن كيفية نسبة الحبش في كتابنا المترجم عن هذه اللغة المسمى بجلاء الفبش عن لسان الحبش.[5]

ومما يعرفه علماء الأصوات في الوقت الحاضر، أن الفروق بين الحركات معروفة عند بعض القدماء من اللغويين العرب، يقول الخوارزمي

---

[3] ـ مقدمة ابن خلدون 648

[4] ـ الإحكام في أصول الإحكام، لابن حزم 1 / 30

[5] ـ البحر المحيط 4 / 162

(المتوفى سنة 387 هـ): "الواو الممدودة اللينة ضمة مشبعة، والياء الممدودة اللينة كسرة مشبعة، والألف الممدودة فتحة مشبعة.[6]

كما ذكر مثل ذلك معاصره أبو الفتح عثمان بن جني (المتوفى سنة 396 هـ) فقال: "أعلم أن الحركات أبعاد حروف المد واللين، وهي الألف والياء والواو، فكما أن هذه الحروف ثلاثة، فكذلك الحركات ثلاث".[7]

ومن دراساتنا للغات السامية، نعرف أن التنوين في العربية علامة على تنكير الاسم تلحق بآخره، في مقابل أداة التعريف التي تلحق أوله. وعلى الرغم من أن جمهرة النحاة العرب، يقصرون دلالة التنوين على التنكير، على بعض الأسماء المبنية، مثل: "سيبوب" للدلالة على أي إنسان سمي بهذا الاسم.[8] فإن بعض قدامى اللغويين العرب، كانوا يعرفون بحسهم اللغوي، هذا الذي عرفناه عن طريق المقارنات السامية.

فهذا هو ابن جني مثلا، يقول: " ويدل عندي على أن حرف التعريف قياسه أن يكون على حرف واحد، أنه نقيض التنوين، وذلك أن التنوين يدل على التنكير، واللام تدل على التعريف[9]".

وينفي السهيلي ما شاع عند النحاة، من أن التنوين في الأسماء المعربة للتمكين، وإن كان يعده علامة الانفصال، فيقول: "التنوين علامة

---

[6] ـ مفاتيح العلوم، للخوارزمي 31

[7] – سر صناعة الإعراب 1 /19

[8] – انظر: كتاب سيبويه 1 / 312 وشرح الأشموني على الألفية 1 /34

[9] ـ نفس م س

للانفصال، وإشعار بأن الاسم غير مضاف إلى ما بعده، ولا متصل به. وليس دخول التنوين في الأسماء علامة للتمكن، كما ظنه قوم[10]".

ودخول التنوين – وهو للتنكير كما ذكرنا من قبل في الأعلام العربية، مثل: محمد وعلي، أمر يبدو صعب التفسير، لأن العلم معرفة كما نعلم. غير أنه يمكن أن يكون في كل علم شيء من الشيوع، وإن كان أقل من شيوع النكرة، إذ كثيرون يسمون بمحمد وعلي وغيرهما، فالتنوين في الأعلام للدلالة على هذا الشيوع النبي، ولذلك نراه يزول عندما يوصف العلم بكلمة: (ابن)، لأن الدائرة قد ضاقت بهذا الوصف، وأصبح العلم محدّدًا غاية التحديد، ببيان النسب، ولذلك لا يدخله التنوين في هذه الحالة، فيقال مثلا: (محمد بن علي) وما أشبه ذلك.

ويدل على أن التنوين في الأعلام لتنكيرها كذلك، أنه إذا تحدد تعريف العلم تحديدا قاطعا بالنداء، منع التنوين، كقولنا مثلا: (يا محمد) و(يا عليُّ).

ومن الأمثلة في الصيغ كذلك، ما نقرؤه في كتب الصرف العربية، من أن كلمات مثل: اطمأنَّ، واشمأزَّ، واشرأبَّ، وزنها: افعلَلَّ. وهذا يعني أن الهمزة في هذه الكلمات وأمثالها أصلية.

وقد أثبتنا في بحث لنا عن <<أثر الوزن الشعري في أبنية العربية[11]>> أن الشعر العربي لا يقبل ما يقبله النثر، من التقاء الساكنين على حدّهما، كما يقول النحاة، وهو أن يكون الأول حرف مدّ والثاني مرغما في مثله، نحو: دابّة، وشابّة، والضالين، ومدهامتّان،

---

[10] – الخصائص 3/ 240

[11] – انظر كتابنا: فصول في فقه العربية 193 – 226

والثاني مرغما في مثلــه، نحـو: دابّـة، وشـابّة، والضـالين، ومدهامتّـان، واحمارّ واصفارّ، وغيرها.

وأثبت بحثنا ذاك أن الشاعر العربي، كان إذا أراد استخدام كلمة مـن هذه الكلمات في شعره، أقحم فيها همـزة، لتتـواءم هـذه الكلمـة مـع وزن الشعر، وأن بعض الكلمـات ظـل الأصـل فيـها شـائعا في النـثر، وإن ورد مهموزا في الشعر، مثل: (احمارّ) التي وردت عنـد كثـير عـزّة مـهموزة في قوله:

وأنت ابن لَيْلَى خير قومك مشــهدًا * * * إذا مـا احمـأرّت بـالعبيط العوامل[12]

كما أثبت البحث أن جبهة كبيرة من هذه الكلمات، شاع اسـتخدامها في الشعر بكثرة، ونسي أصلها غير المهموز، فخرجت مهموزة من الشـعر، واستخدمت بهذه الصورة الجديدة المهموزة في النثر كذلك.

ومما أحصيته من تلك الكلمات: (اشرأبّ) بمعنـى: ارتفـع. و(اشمـأن) بمعنى: نفر و(اطمأنّ) بمعنى: هبط، أو هدأ واستقرّ.

ويسر المرء كثيرا، حين يرى بعض علمائنا القدامى، يسـبقون إلى هـذه النظرة الحديثة، في الوقوف على أصل هذه الصيغ والتنبيـه عليـها. ومـن هؤلاء أبو حاتم السجستاني (المتوفى سنة 255 هـ) وأبو منصور الأزهري (المتوفى سنة 370 هـ) وابـن فـارس اللغـوي (المتوفـى سـنة 395هـ). ومنهم الزمخشري (المتوفى سنة 538 هـ) الذي ذكر أن الهمزة في (ازلأم)

---

[12] ـ انظر: ديوانه ق 46 / 10 ص 294 ولسان العرب (جنن) 16 / 249 وعبت الوليد 69 ويروى البيت كذلك: " إذا ما الطولي بالعبط حمأرت " في الخصائص 3 / 126؛ 3 / 148 وألف باء للبلوى 2 / 123

بدل من ألف (أفعال)، وأن << الكلمة ثلاثية، فلا تكون الهمزة أصلية، لوضوح اشتقاق الكلمة من قولهم: مرَّ يَزْلمُ ويَحْزمُ، إذا قارب الخطو مع سرعة[13]>>

* * *

أما في الدراسة التركيبية ونظام الجملة، وهو ما عالجه اللغويون العرب القدامى، تحت اسم: "النحو العربي"، فإننا حين نقلبها جيدا، ونتفهم بعمق مناهج نحاة العربية، نجد فيها كثيرا من المبادئ التي ينادي بها أصحاب المدارس الوصفية في القرن العشرين، من البنيويين والتحويليين التوليديين.

فمن مبادئ المدرسة البنيوية مثلا: وصف الواقع اللغوي، من خلال السماع عن أصحاب اللغة أنفسهم. ولم يكن هذا المبدأ غائبا عن نحاة العربية، فالسماع أصل من أصول الاحتجاج اللغوي عندهم.

وكلنا نذكر أن الكسائي حين قدم إلى البصرة، فلقي الخليل بن أحمد، وجلس في حلقته، قال له رجل من الأعراب كان في المجلس: تركت أسدا وتميما، وعندهما الفصاحة، وجئت إلى البصرة؟ فقال للخليل: من أين أخذت علمك هذا؟ فقال: من بوادي الحجاز ونجد وتهامة، فخرج الكسائي إلى البادية، وأخذ يسائل البدو عن لغتهم ويكتب عنهم ما يروونه. وتذكر المصادر أنه أنفد خمس عشرة قنينة من الحبر في الكتابة عن العرب، سوى ما حفظ[14].

---

[13] – الفائق، للزمخشري 1 / 462

[14] – انظر مصادر هذه القصة في هكش " ما تلحن فيه العامة " للكسائي 13

وهذا كتاب سيبويه، يمتلئ بتصريحه بالسمع عن العرب، وأبـو عبيـد القاسم بن سلام، يملأ كتابه: " الغريب المصنف" بالرواية عن الأعراب.

بل لقد أتيح لبعض علماء القرن الرابع الهجري محاورة بعض فصحـاء الأعراب في عهدهم، والإفادة من هذه المحاورات في مؤلفاتـهم، فـهذا هـو أبو منصور الأزهري يقع أسيرا في أيدي القرامطة، فتتاح له الفرصـة لكـي يختلط بالبدو والعرب الخلص، فنقل عنهم الكثـير في معجمـه: "تـهذيب اللغة". وقال في مقدمة هذا الكتاب: "فبقيت في إسارهم دهرا طويلا. وكنا نتشتى الدَّهْناء، ونتربَّع الصمان، ونتقيظ الستارين.

واستفدت من مخاطباتهم، ومحاورة بعضهم بعضا ألفاظا جمة، ونوادر كثيرة، أوقعت أكثرها في موقعها من الكتاب".

وهذا ابن جني يروي في كتبه عـن بعـض الأعرابـ، كقولـه مشـيرا إلى بعض جلساته مع أبي عبد الله محمد بن العاف الشجري التميمي، الذي كان يعجب بفصاحته، ويلتذ بمطاولته الحديث، ويجري على العادة معه في إيقاظ طبعه، واقتراح زند فطنتـه[15]: "وسـألته يومـا فقلـت لـه: كيـف تجمع (دكّانا)؟ فقال: دكاكين. قلت: فسرحانا؟ قال: سـراحين. قلـت: فعثمانا؟ قال: عثمانون. فقلت له: هلا قلت أيضا: عثامين؟!

قال: عثامين؟! قال: انس عثامين؟! أرأيت إنسانا يتكلم بما ليس مـن لغته؟ والله لا أقولها أبدا[16].

---

[15] – انظر هذا الوصف لابن العساف الشجري، على لسان ابن جني، في معجم الأدباء 12 / 105

[16] – الحصائص 1 / 242

وقد اختلط وصف الواقع اللغوي عند كثير من النحاة العرب، بالتفسير والتعليل، ولكننا لا نعدم هنا وهناك في بعض الأحيان، ميلا إلى الوصف المحض الذي يثبت الظاهرة اللغوية، كما ذكرها أصحابها من العرب، فقد رووا من الكسائي مثلا أن سئل يوما بحضرة يونس بن حبيب: لم لا يجوز: أعجبني أيهم قام؟ فقال: "أيٌّ كذا خلقت"! فاكتفى بوصف هذا الواقع اللغوي، ولم يحاول تعليل سلوك العربية هذا المسلك في استخدام (أيّ)[17]. وهذا هو قمة المنهج الوصفي في العصر الحاضر.

والاهتمام بالشكل في المقام الأول مع عدم الانصراف عن أخذ المعنى في الحسبان، هو أحد المبادئ المقررة عند البنيويين؛ فقد كان "بلومفيلد" Bloomfield وهو من أتباع هذه المدرسة مثلا، يقرر أن اعتبار المعاني يعد أضعف نقطة في دراسة اللغة[18].

والمتصفح للمؤلفات النحوية العربية يرى هذا المبدأ هو المسيطر على الفكر النحوي عند النحاة العرب منذ أيام سيبويه. وما علاجهم للتعريف والتنكير، والتذكير والتأنيث، والإفراد والتثنية والجمع، والمبتدأ والخبر، والفعل والفاعل، وغير ذلك، إلا أثر من آثار المنهج الشكلي عند نحاة العربية.

فنراهم على سبيل المثال يعربون: "أنكر الإناء" فعلا وفاعلا، مع أن الفاعل الحقيقي في المعنى لا وجود له في اللفظ. كما يعربون نحو: "

---

[17] – انظر في هذه القصة أخبار النحوين البصريين 27 وأوضح المسالك 27 والخصائص 3 / 292

[18] – انظر كتابه: language140 .

خاصم محمد عليا" فعلا وفـاعلا ومفعـولا، مـع أن المفعـول هنـا فـاعل في المعنى كذلك !

وإذا تركنا المدرسة البنيوية إلى المدرسة التحويلية، نجد أنها تنادي في الوقت الحاضر بشيء من المبادئ التي فطن إليـها نحـاة العربيـة، وإن لم يسموها بالأسماء المعروفة الآن عند أتباع هذه المدرسة. فمن مبـادئ النحـو التحويلي مثلا: المبدأ الذي سمي في بعض التراجم العربية باسم: " البنية العميقـة" Deep Structure و"البنيـة السـطحية" Surface Structure ونؤثـر نحن أن نسميه باسم: "التركيب المقصود" و"التركيب الظاهر[19]". وهذا هو ما عبر عنه نحاة العربية أحيانا بـالأصل والفـرع، أو ظـاهر اللفـظ والمـراد منه.

أما فكرة " التوليد" وإنتـاج عـدد غـير متنـاه مـن الجمـل، بنـاء علـى القواعد الراسخة في عقل الجماعة المتكلمة بلغة مـا، فإنـها فكـرة لم تكـن غائبة عن ذهن نحاة العربية القدامى. وهذا هـو عبـد القـاهر الجرجـاني، صاحب "نظرية النظم" المعروفة في التراث النقدي العربـي، يقـول: "وإذا عرفت أن مدار أمر النظم على معاني النحو، وعلى الوجوه والفـروق الـتي من شأنها أن تكون فيه، فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة ليـس لهـا غايـة تقف عندها، ونهاية لا تجد لها ازديادا بعدها"[20].

وقد عادت قضية العمل التي سخر منها ابن مضـاء النحـوي، وتابعـه على ذلك مجموعة من الباحثين العرب المحدثين متأثرين بمبادئ المدرسة

---

[19] – انظر كتابها: المدخل إلى علم اللغة 190

[20] – دلائل الإعجاز 93

البنيوية - عادت مرة أخرى إلى الظـهور عنـد التحويليـين، بصـورة تكـاد تقترب مما كان عند نحاة العربية وهم يربطون بين هـذه القضيـة وقضايـا أخرى كثيرة التفت إليـها نحـاة العربيـة، كـالحذف والتقديـر، والتقديـم والتأخير، وغير ذلك.

ففي جملة مثل: " محمد أراد أن يسافر"، يقول التحويليون إن الفاعل للفعل: "يسافر" محذوف، يدل عليه "محمد" السابقة. وهذا هو عـين مـا يذكره نحاة العربية، حين يقولون: إن الفاعل في: "يسافر": ضمير مستتر يعود على "محمد".

وتمتلئ كتب النحو العربي بقضايا ترتيب الجملة، والتقديم والتأخير، وتقدير الأصل والفرع، ووجوب صورة معينة، وجواز أخرى. ويذكرنا هـذا بما يعرفـه أصحـاب النظريـة التحويليـة، تحـت اسـم: "الجمـل النـواة" Kernelsentences و"الجمل نمير النواة" Nonkernelsentences.[21]

ويكفي أن نذكر هنا كذلك بما يقوله نحاة العربية، من وجـوب ثبـات جملة: " ضرب موسى عيسى" على هذا النحو، إن أريد لموسى أن يكـون فاعلا، ولعيسى أن يكون مفعولا، وجواز أن يقال: "ضـرب محمـد عليـا" و"ضرب عليـا محمـد". وليـس بعيـدا عـن هـذا ردهـم لمثـل قولـه تعـالى: ﴿واشتعل الرأس شيبا﴾ إلى: واشتعل شيب الرأس، وغير ذلك مما سمـوه بالتمييز المحول.

وقد يذكرنا بعض هذا بما تقول به النظرية التحويليـة التوليديـة، مـن بعض الصور اللغوية للجمل التي تبدو متغايرة، تؤول عن طريـق التحويـل

---

[21] – انظر كتابنا: المدخل إلى علم اللغة 189

إلى تركيب مستتر واحد (من حيث النظم، لا من حيث الدلالة أو الأصوات) فإن الجمل: "أبو محمد قادم" و"محمد قادم أبوه" و"محمد أبوه قادم" و"قدم أبو محمد" و" محمد قدم أبوه" و"محمد أبوه قدم"، تؤول إلى تركيب مستتر واحد هو: "أبو محمد قدم".

ويطول بنا القول، لو ذهبنا نعدد الأمثلة على سبق علماء اللغة العرب القدامى، لبعض قضايا النظريات اللغوية الحديثة، وأنهم في هذا الذي سبقوا به في العصر الحاضر بمئات السنين، يستحقون ان يوصفوا بحق بأنهم "قدماء معاصرون"

غير أنني أحب أن ألفت النظر هنا إلى أمر مهم جدا، وهو أن هناك من قد يفهم كلامي هذا، على أنني من التراثيين السلفيين الذين يؤمنون بأن اللغويين العرب قد سبقوا إلى كل شيء، وأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، وأنه قد وضع القلم، وجفت الصحف في الدرس اللغوي، إلى غير ذلك مما نسمعه هنا أو هناك.

ولكنني في الحقيقة ـ ممن يدعون ـ وبإلحاح شديد إلى أن نفتح عيوننا على كل جديد، وأن ندرسه، وأن نتأمله، شأن علمائنا القدامى مع التراث الإفريقي والسرياني، عندما نقله المترجمون في العصر العباسي الأول إلى العربية.

ولي في هذا المقامعبارة لا أمل من تكرارها، وهي: "قولوا في المقول، وعملوا المعقول في المنقول". كما أقول دائما: " إننا واللغويين العرب القدامى سواء أمام النصوص اللغوية المروية. أما تفسيراتهم لهذه النصوص، فقد نتفق معهم فيها، وكثيرا ما نختلف".

•

وهذا هو ابن جني يقول عن النحو: " إنما هو علم منتزع مـن استقراء هذه اللغة، فكل من فرق له عن ملة صحيحة، وطريق نهجة، كان خليل نفسه، وأبا عمر وفكره[22]".

ومن كل هذا الذي سبق نرى ضرورة التعمق في الدرس اللغوي الحديث، وألا نصم آذاننا عن الاستماع إلى كل جديد يأتي به هذا الدرس اللغوي.

"إن الدعوة إلى رفض المناهج اللغوية، دعـوة غـير صحيحـة، بـل هـي دعوة غير إنسانية، ولا أشك لحظة في أنها ضـارة بالعربيـة نفسـها. مـن الضروري أن نفيد مما يطوره الناس، وأن نشارك نحن في هذا التطوير. ولا أشك لحظة أيضا من أن المناهج الحديثة مع إدراكنا أصول النحو العربـي تقدم فهما أفضل للعربية [23]".

وأحب أن أقـف قليـلا عنـد الجملـة الأخـيرة في كـلام الدكتـور عبـده الراجحي، فأقول لهؤلاء الذين يهجمون على الـدرس اللغـوي الحديـث، ويفتنون به، ولا يأوون في ذلك إلى ركن ركين من الـتراث العربـي، إنـهم يسيئون إلى هذا الدرس اللغوي الحديث أيما إساءة، عندما يكتبـون بلغـة خاصة بهم، وتعبيرات هي بنعيق الغربان والبـوم أشـبه، لأنـها في بعدهـا عن اللغة التي يقرأ بها العرب ويفهمون، تساوي بعدهم هم عن تراث هذه اللغة الذي يعيد كثـيرا في تقريـب النظريـات اللغويـة الحديثـة إلى عقـول شيوخ العربية. والله من وراء القصد منها.

---

[22] – الخصائص 1 / 189

[23] – (سقطت الإحالة من الندى، فمعذرة).

دور مكتب تنسيق التعريب في خدمة اللغة العربية وإغنائها بالمصطلحات العلمية الموحدة على مستوى الوطن العربي

الأستاذ الدكتور: إسلمو ولد سيدي أحمد

مدير مكتب تنسيق التعريب

الرباط

لغتنا العربية لغة عالمية بكل المقاييس لما لها من قدرة على مواكبة العصر ومسايرة علومه ومعارفه يدعمها في ذلك ما تتمتع به من خصائص ذاتية وبحكم تجربتها الحضارية الضاربة في أعماق التاريخ..

واللغة تقوى بقوة أهلها وتضعف بضعفهم، فعندما كانت العربية في أوج ازدهارها استطاعت أن تستوعب، بصدر رحب، كل التراث الفلسفي والعلمي في ذلك العصر، فنقلت إلى المكتبة العربية كنوز وذخائر الفكر والعلوم والثقافة الأجنبية. ويشهد الجميع على أن النهضة الحديثة في أوروبا قد اعتمدت أساسا على ما انتقل إليها من تراث العرب العلمي والحضاري، ولقد ظلت اللغة العربية على مر العصور تمثل أقوى رباط يربط هذه الأمة، وذلك على الرغم مما لحقها من قصور في العصور المتأخرة بسبب ما فرضه المستعمر من غزو لغوي وتشكيك في قدرتها على أن تكون لغة علم قادرة على الوفاء بحاجات العصر المتطورة. وعالمية اللغة العربية اليوم تتوقف على عزم أهلها وهمتهم، ويسعدنا أن نلاحظ أن هذه اللغة، بالإضافة إلى خصائصها الذاتية، تمتلك الآن الأدوات اللازمة لمسايرة العصر.

نبذة عن مكتب تنسيق التعريب

تأسس المكتب بقرار من مؤتمر التعريب الأول الذي عُقد بالمغرب من 3 إلى 7 إبريل سنة1961 م.

ألحق المكتب بجامعة الدول العربية في 1969/3/16م، بقرار من مجلس الجامعة ، وألحق بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بتاريخ 1972/5/8، بقرار صادر عن الأمانة العام لجامعة الدول العربية.

من مهام مكتب تنسيق التعريب

جاء في النظام الداخلـي للمكتـب الصـادر بتـاريخ 1973/1/27 (بعـد انضمامه للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم) ما يأتي:

"يقوم المكتب بالمساهمة الفعالة في الجهود التي تبذل في الوطن العربـي للعناية بقضايا اللغـة العربيـة، ومواكبتـها للعصـر ، واسـتجابتها لمطالبـه وذلك عن طريق :

أ- تنسيق الجهود الـتي تبـذل للتوسـع في اسـتعمال اللغـة العربيـة في التدريس بجميع مراحل التعليـم وأنواعـه ومـواده، وفي الأجـهزة الثقافيـة ووسائل الإعلام المختلفة.

ب- تتبع حركة التعريب وتطور اللغة العربيـة العلميـة والحضاريـة في الوطن العربي وخارجه بجمع الدراسات المتعلقة بهذا الموضـوع ونشـرها أو التعريف بها.

ج- تنسـيق الجـهود الـتي تبـذل لإغنـاء اللغـة العربيـة بالمصطلحـات الحديثـة ولتوحيـد المصطلـح الحضـاري في الوطـن العربـي بكـل الوسـائل الممكنة.

د- الإعداد للمؤتمرات الدورية للتعريب.

ويقوم المكتب في سبيل تحقيق أهدافه بالعمل في المجالات الآتية:

ـ تنميـة اللغـة العربيـة ونشـر الثقافـة الإسـلامية في الخـارج، وذلـك بالتوسـع في إصـدار المعـاجم المتخصصـة في ميـادين المعرفـة وإبـراز دور الحضارة العربية الإسلامية في نمو المعرفة الإنسانية، ووضـع المصطلحـات العربية الموحدة للمفاهيم الجديدة وتعميم استعمالها وتداولها، والإفادة من

التقنيات الحديثة في نشر اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية في الداخل والخارج.

ـ نشر المعلومات والاستفادة منها، بواسطة بنك المصطلحات، وتتبع وخزن الرصيد المصطلحي المستجد، ودعم المكتبة بالمراجع والكتب والدوريات.

ـ التعاون مع الأمانة العامة لجامعة الدول العربية والمنظمات المتخصصة والمنظمات والهيئات الإقليمية والعالمية، قصد الوقوف على الأساليب الحديثة في المعجمية والمصطلحية والإسهام في البحوث والدراسات وإبراز أعمال المنظمة في مختلف الميادين العلمية والثقافية والإعلامية، وذلك:

* بتتبع ما تنتهي إليه بحوث المجامع اللغوية والعلماء ونشاط الأدباء والمترجمين وجمع ذلك كله وتنسيقه وتصنيفه تمهيدا للعرض على مؤتمرات التعريب.

* بالتعاون الوثيق مع المجامع اللغوية والهيئات والمنظمات التعليمية والعلمية والثقافية في البلاد العربية.

* بالإعداد لعقد الندوات والحلقات الدراسية الخاصة ببرامج المكتب.

* بإصدار مجلة دورية لنشر نتائج أنشطة المكتب.

* بنشر المعاجم التي تقرها مؤتمرات التعريب.

* غير ذلك من الأعمال الكفيلة بتحقيق أهداف المكتب

مؤتمرات التعريب

مؤتمرات التعريب هي السلطة العليا صاحبة القرار السياسي بالنسبة للسياسة الخاصة بمكتب تنسيق التعريب، وتنعقد هذه المؤتمرات بصفة دورية كل سنتين، أو عند الاقتضاء، على مستوى وزراء التربية والتعليم في الوطن العربي أو من يمثلهم. يشكل المؤتمر لجان متخصصة تعكف، أثناء انعقاده، على دراسة المشروعات وأوراق العمل التي يعرضها المكتب على المؤتمر لدراستها وتمحيصها واتخاذ القرارات المناسبة بشأنها.

نبذة عن مؤتمرات التعريب

المؤتمر الأول للتعريب

عقد مؤتمر التعريب الأول بالمملكة المغربية فيما بين الثالث والسابع أبريل سنة 1961، بغية تحقيق معنى التعريب في كل مرفق من مرافق الأمة العربية في كل بلد من بلاد العرب.وقد أوصى المؤتمر بأن يصبح هيئة دائمة وأن يستمر انعقاده دوريا وينشأ له مكتب دائم مقره المملكة المغربية ،تحت إشراف الجامعة العربية، وتمثل فيه جميع البلاد العربية، مهمته أن يتلقى ويتتبع ما تنتهي إليه بحوث العلماء والمجامع اللغوية ونشاط الكتاب والأدباء والمترجمين. ويقوم بتنسيق ذلك كله وتصنيفه ومقارنته ليستخرج منه ما يتصل بأغراض المؤتمر لعرضه على المؤتمرات المقبلة.

وهذا المكتب هو: مكتب تنسيق التعريب بالرباط.

كما أوصى المؤتمر بأن تكون اللغة العربية لغة التعليم لجميع المواد في جميع المراحل والأنواع وفي كل قطر عربي دون أن يعني ذلك منع تدريس اللغات الأجنبية كلغات.

وقد أوصى المؤتمر الدول العربية بوضع خطة لتوحيد وسائل الإعلام العامة؛ من صحافة وإذاعة وسينما وغيرها، لتكون وسيلة من وسائل التعريب ونشر اللغة الفصيحة بين طبقات الشعب المختلفة وتقريب لغة التخاطب من الفصحى.

وكان المؤتمر، في جميع توصياته، يرمي إلى " بناء جيل عربي واع مستنير، يؤمن بالله وبالوطن الأكبر، ويثق بنفسه وأمته ويستهدف المثل العليا في السلوك الفردي والاجتماعي، ويستمسك بمبادئ الحق والخير ويملك إرادة النضال المشترك وأسباب القوة، والعمل الإيجابي، متسلحا بالعلم والخلق، لتثبيت مكانة الأمة العربية المجيدة وتأمين حقها في الحرية والأمن والحياة الكريمة".

المؤتمر الثاني للتعريب

عُقد مؤتمر التعريب الثاني في الجزائر من الثاني عشر حتى العشرين من شهر ديسمبر (كانون الأول) 1973.

وقد تضمنت وثيقة المؤتمر جملة من المبادئ والاتجاهات والتوصيات نذكر منها:

أولا: المبادئ

ـ اللغة مقوم رئيسي من مقومات وجود الأمة واستمرارها.وكل خطر يهدد اللغة هو خطر يتهدد شخصية الأمة واستمراريتها وارتباط ما بين أجيالها.

ـ إن تأصيل العلوم وانتشار المعارف في أمة من الأمم لا يكون إلا بلغتها. ولذلك فإن لحاق البلاد العربية بالحضارة العلمية المعاصرة ومواكبتها لها، ثم مشاركتها فيها، يجب أن يبدأ باستخدام اللغة العربية لغة للتدريس، وإعداد المصطلحات العلمية الموحدة لذلك.

ـ إن تأصيل اللغة لا يقتصر على الأخذ بها في مرحلة دون مرحلة وإنما يجب أن يمازج مراحل التعليم كلها منذ بدايتها، حتى يتيسر لأبناء هذه اللغة أن يعايشوها معايشة كاملة تساعد بعد ذلك على التصرف بها وتطويرها.

ـ إن ما لحق اللغة العربية من قصور في العصور المتأخرة لا يعود إلى العربية نفسها وإنما يرتد إلى ما فرضه الغزو اللغوي – على درجات متفاوتة– من مباعدة بينها وبين أصحابها، ومن تشكيك فيها، وعزل لها عن الحياة والمجتمع. والتجارب اللغوية المعاصرة في العالم تثبت، على نحو لا يقبل الشك، أن دؤوب أصحاب اللغة على الأخذ بها وإشاعة استعمالها في كل الميادين النظرية والعلمية،والدراسات العلمية والإنسانية– كفيل بتمكينها من الوفاء بحاجات العصر المتطورة.

ـ إن اللغة العربية قادرة – بحكم طبيعتها وخصائصها وتراثها الذي أسهمت فيه في الحضارة الإنسانية– على أن تكون لغة العلم الحديث: تدريساً وتأليفاً وبحثا.

ـ إن الدعوة إلى تدريس العلوم باللغة العربية والعناية بهذه اللغة لا تعنى إهمال الاهتمام بتدريس اللغات الأجنبية ولا تقصد إليه.

ثانيا: الاتجاهات

إن المؤتمر ينعقد في ظل غاية رئيسية هي: توحيد المصطلح العلمي.

ـ والأعضاء الذين يشاركون فيه من البلاد العربية يصدرون عن إيمانهم بملاحقة التطور العلمي ومصاحبته، ولكنهم يلاحظون أن نقل المصطلح العلمي أو وضعه أو الأخذ به تفاوت بين قطر وآخر تفاوتاً أضحى يحتم عليهم توحيد هذا المصطلح تمهيداً للغة علمية مشتركة.

وهم يدركون أن أسباب هذا التفاوت تعود إلى فقدان العمل المنظم في هذه السبيل ، فقد أسهمت فيه مجامع وجامعات، وهيئات وأفراد، وكان أكثر النقل فيه عن اللغتين الفرنسية والإنجليزية، واتخذت في اصطناعه أساليب مختلفة من الوضع والترجمة والنحت والتعريب. ولذلك فإن توحيد هذا المصطلح يرتبط بسلسلتين من العوامل: عوامل تتصل باللغة العربية والتعليم العربي والطباعة العربية، وعوامل أخرى تتصل بالظروف الاجتماعية والسياسية. ولابد لذلك من أن يتخذ العمل في المصطلحات وجهة تتلخص في دراسة هاتين السلسلتين دراسة علمية، واصطفاء ما يؤدي إلى الالتقاء والتوحيد، والابتعاد عما يقود إلى التفرق والتشتت.

ـ إن اختيار المصطلحات العلمية في هذا المؤتمر لمقابلة المصطلحات العلمية الأجنبية لا يؤلف غاية في ذاته بقدر ما يكون سبيلا إلى غايات أخرى هي تطبيق هذه المصطلحات واستعمالها في كل مجالات الأداء والإبلاغ: في المدارس والأندية، وفي وسائل الإعلام وفي الدوائر والمكاتب، وذلك في عمل مشترك عام يعايش المجتمع في كل طبقاته وفئاته وفي كل مراحله التعليمية، حتى يتم التفاعل بين اللغة والمجتمع على نحو يقود التطور الفكري والتطور اللغوي في خطين متكاملين، يقطع الطريق على التفاوت أو التناقض الذي نشهده أحياناً بين الحياة واللغة وتطبيقاتها المختلفة.

ـ إن اختيار المصطلح العلمي في نطاق التعليم العام في المؤتمر الثاني للتعريب لا يعني أن المؤتمر يريد أن يقف باللغة العلمية عند حدود التعليم الثانوي، ولكنه يعتبر أن عمله هذا تمهيد للخطوة التي يجب أن تلي بعد ذلك، أي نحو المصطلح العلمي في التعليم الجامعي. ـ ذلك لأن تدريس العلوم بالعربية في المرحلة الثانوية وحدها نوع من العمل الناقص لا يضمن تحقيق الغاية المرجوة.. ولهذا فإن المؤتمر يأخذ بالاتجاه إلى تدريس العلوم باللغة العربية في التعليم العالي كله في الجامعات والمعاهد، ويؤكد أن هذه البيئات العالية تشكل ميداناً بالغ الأهمية يجب أن تتجلى فيه إرادة الأمة العربية في صيانة لغتها وإعطائها الفرص الحقيقية والمنتجة للتعبير عن المفاهيم الفكرية للعصر ومنجزاته التطبيقية والتقنية، ويرى المؤتمر في التجربة التي قدمتها بعض الأقطار العربية والتي أعطت أطيب ثمارها تأكيداً لسلامة هذا الاتجاه ولضرورة الأخذ به.

- إن النتائج التي انتهى إليها المؤتمر في هذه المصطلحات التي تدارسها، مقدمة لاستخدامها في التعليم والتأليف ووضعها موضع التجربة والممارسة. غير أن اختيار المصطلح لا يعني تجميده، فالمصطلحات العلمية بطبيعتها عمل مستمر متصل.

ثالثا: التوصيات

أوصى المؤتمر باتباع منهجية للعمل في مشروعات المصطلحات في المستقبل على أن تتناول هذه المنهجية مراحل العمل كلها في الإعداد والدراسة والإقرار. ففي الإعداد: لا بد من عمل أولي منظم يتناول استقصاء المصطلحات القديمة وجمع المصطلحات الحديثة. وفي الدراسة: لابد من اللجوء إلى نظام المراحل المتدرجة فتتقدم مرحلة الجمع والاستقراء والاستقصاء على أية مرحلة ثم تأتي مرحلة اللجان المتخصصة والندوات للتمحيص والغربلة قبل مرحلة المؤتمر العام ولجانه للمصادقة. وفي إقرار المصطلحات: لابد من استلهام هذه الأصول والقواعد والتقيد بها لتتوافر للمصطلحات: السلامة في اللغة، والسهولة في الأداء، والوضوح في الفكر، والدقة في التعبير.

وفي الالتزام، يرى المؤتمر أن قضية المصطلح العلمي لم تنل من العناية في التنفيذ قدر ما نالت من عناية في الإعداد والدراسة والإقرار، وأنه إذا كانت قضية المصطلح عملية مستمرة فإن ذلك يقتضي ألا يستمر الجدل النظري حولها إلى ما نهاية له، وأنه لا بد من أن يخرج هذا النقاش النظري إلى مرحلة التطبيق والتجربة العلمية حتى يكون استخدام المصطلح هو الذي يحقق امتحانه والحكم عليه.

ولذلك فإن أعضاء المؤتمر يذهبون إلى وجوب الأخذ بمبدإ الالتزام بهذه المصطلحات يلتزمونها هم في مدارسهم وجامعاتهم وبحوثهم ومعاجمهم ويدعون إليها حتى حين يكون تدريسهم باللغة الأجنبية، ثم يهيبون بالسلطات المختصة أن تلتزم بها، ما كان ذلك ممكنا، في المدارس والإدارات والمؤسسات ووسائل الإعلام والشركات حتى تكون جزءا حيا في الحياة العلمية والعملية والإدارية، وحتى يتحقق لها أكبر قدر من الشيوع والاستقرار.

والمؤتمر حين يؤكد هذا المبدأ يؤمن بأنه لابد من إتاحة الفرصة أمام الأقطار العربية -حسب قدرة كل قطر وظروفه- للأخذ بذلك، آملا أن يكون الجهد في الأخذ بهذا المبدإ أقوى من الصعوبة وأن يكون التعارض بين الرغبة والإمكان أدنى إلى غلبة الرغبة على عوائق الإمكان.

وقد صادق مؤتمر التعريب الثاني على توحيد قوائم مصطلحات صدرت في ستة معاجم، في موضوعات: الحيوان والنبات والفيزياء والكيمياء والجيولوجيا والرياضيات تشتمل على 17761 مصطلحا بثلاث لغات (العربية- الإنجليزية- الفرنسية).

المؤتمر الثالث للتعريب

عقد مؤتمر التعريب الثالث بطرابلس (ليبيا) من 7-1977/2/16م

أكد المؤتمر من جديد أهمية العامل اللغوي في الحياة العربية، كما أكد قدرة اللغة العربية على الوفاء بالتقدم العلمي والاجتماعي، بما لها من خصائص ذاتية، وما في تراثها من زاد غني ساعدها على أن تكون لغة

الحضارة، ويرى أنها بهذه الخصائص والقدرات، وبما عند أبنائها من إيمان وعزم، قادرة على أن تستأنف مسيرتها الحضارية بنجاح أكيد.

وبالنسبة للتعريب، يرى المؤتمر أن الأمة العربية يجب أن تكون قد تجاوزت في أقطارها كلها فترة التفكير في التعريب، إلى الأخذ به والتماس كل الوسائل، وقطع الطريق على مراحل التشكيك فيه، واعتباره –في المرحلة الحاضرة– هدفا أساسياً من أهدافها، وأسلوبا رئيسياً من أساليب تحقيق وجودها الفكري وشخصيتها الحضارية، ووحدتها النفسية واللغوية.

وقد صادق المؤتمر على توحيد مجموعة مصطلحات في موضوعات التاريخ والجغرافيا والفلك والفلسفة والمنطق وعلم النفس والصحة وجسم الإنسان والرياضيات والإحصاء تبلغ 10393 مصطلحا باللغات الثلاث (العربية– الإنجليزية– الفرنسية).

المؤتمر الرابع للتعريب

عُقد مؤتمر التعريب الرابع بطنجة (المملكة المغربية) في الفترة من 20إلى1981/04/22م.

أكد المؤتمر مرة أخرى إيمانه المطلق بأن "اللغة العربية"– وهي لغة القرآن الكريم– أقوى الروابط التي بقيت تربط بين أجزاء البلاد العربية لتجاوز عوامل التجزئة والتقسيم التي تعانيها.

وبخصوص حركة التعريب في الأقطار العربية، قدم رؤساء الوفود المشاركة مذكرات مكتوبة عن جهود بلادهم في ميدان تعريب التعليم

وأثارت هذه المذكرات مناقشات مستفيضة دار أكثرها حول الحقائق الآتية :

ـ للغة العربية– إذا قيست باللغات الأخرى– مقدرات رائعة تمكن لها من مواكبة العلوم والمعارف ومسايرة تطورها، بحكم خصائصها الذاتية من جهة ، وبحكم تجربتها الحضارية من جهة أخرى، وهي تجربة تمثلت في احتواء علوم العصور قبلها ، علوم الرومان واليونان وشعوب الشرق وفي استيعاب الحضارة الإسلامية بكل ما جددت وحصلت من علوم وفنون.

ـ التعليم باللغة العربية ليس استجابة للمشاعر القومية ولازلفى لها ولكنه كذلك استجابة للحقائق التربوية التي أثبتت أن تعليم الإنسان بلغته أقوى مردوداً وأبعد أثراً وأنه أحفل بالنتائج الخيّرة من الناحيتين الكمية والكيفية.

ـ إذا كان هذا هو شأن اللغة العربية وقدرتها وامتيازاتها وتاريخها ومكانتها الحضارية وعائداتها على التعليم بها، فإنه آن الأوان لتكون هي لغة الحياة العلمية، ولغة الحياة التعليمية في مراحلها كلها، ولغة الحياة اليومية على اختلاف مستوياتها، ولغة الحياة الإدارية في كل جوانبها.

وبعد أن درس المؤتمرون بعض الظروف التى تحيط بالتعريب، ووقفوا على الآراء التي تكتنفه، وهي آراء تتأرجح بين الأناة وبين مجاراة الزمن انعقد الإجماع على أنه من الخير لو استطاعت الدول العربية أن تتخذ في ذلك قرارا سياسياً حتى لا يظل الأمر عرضة لتكرار القول وإعادته في هذا التعريب. وانتهى المؤتمرون إلى التوصية الآتية :

يكرر المؤتمر، مرة جديدة، بعد سلسلة من المرات السابقة آماله في أن يتحقق هذا التعريب في خطوط متوازية في نطاق التعليم ، وفي نطاق الإدارة، وفي نطاق الحياة اليومية.

وقد صادق المؤتمر على توحيد مجموعة أخرى من المصطلحات في موضوعات: الكهرباء، وهندسة البناء، والمحاسبة، والنجارة، والتجارة، والنفط، والجيولوجيا، والحاسبات الإلكترونية ، تبلغ 23000 مصطلح بثلاث لغات (العربية– الإنجليزية– الفرنسية).

المؤتمر الخامس للتعريب

عُقد مؤتمر التعريب الخامس بعمان (المملكة الأردنية الهاشمية) في رحاب مجمع اللغة العربية الأردني، في الفترة من 21–25 سبتمبر (أيلول)1985م.

أكد المؤتمر ما سبق أن أقره في المؤتمرات السابقة من توصيات خاصة بالمبادئ التي يرتكز عليها التعريب في الوطن العربي، كما أوصى من جديد باتباع منهجية للعمل في مشروعات تعريب المصطلحات، تتناول مراحل العمل جميعا في الإعداد، والدراسة، والإقرار.

وقد بارك المؤتمر الأعمال التي أنجزها مكتب تنسيق التعريب والتي ساعدت على تدعيم تعريب العلوم في مراحل التعليم العام.

وصادق المؤتمر على توحيد مجموعة أخرى من المصطلحات تبلغ 40067... مصطلحا في موضوعات: الفيزياء، والتربية، وعلم الاجتماع والأنتروبولوجيا، والكيمياء، واللسانيات، والألعاب الرياضية، والزراعة والإحصاء، والسكك الحديدية.

المؤتمر السادس للتعريب

عُقد مؤتمر التعريب السادس بالرباط في الفترة من 26–1988/9/30.

أكد المؤتمر ما سبق أن أصدره من توصيات في مؤتمراته الخمسة السابقة. وقد ألح بصفة خاصة على أن اللغة العربية مقوم رئيسي من مقومات وجود الأمة العربية... وأن تأصيل العلوم لا يكون إلا بلغة الأمة... وأن ما يهدف إليه التعريب هو بالدرجة الأولى توحيد المصطلح العلمي، وتطبيق هذا المصطلح، واستعماله، وتداوله في كل مجالات الحياة أداء وإبلاغاً، وأن القرار السياسي لا غنى عنه لنقل المصطلحات العربية إلى المجال التطبيقي.

وقد وضع المؤتمر أمام المختصين أهم الأفكار والملاحظات والاقتراحات التي قدمها السادة المؤتمرون عند معالجتهم لموضوع منهجية تعريب العلوم، تتلخص في أن ثمة أربع منهجيات كبرى في التعريب هي:

* المنهجية التكنولوجية وتتجلى في أن نوفر للغة العربية الوسائل التقنية التي تنقصها، وفي طليعتها الحرف العربي، وقاعدة المعلومات اللازمة.

* المنهجية العلمية وتكمن في كيفية وضع المصطلحات وتوحيدها وتنميطها.

* المنهجية التنسيقية التنظيمية وتتجلى في كيفية تنظيم أعمالنا في التعريب داخل البلد الواحد ثم بين البلاد العربية.

* منهجية السياسة اللغوية إذ أنه لا توجد حتى الآن سياسة لغوية في الوطن العربي.

* وقد صادق المؤتمر على توحيد مجموعة مصطلحات تبلغ 10465 مصطلحاً، في موضوعات: الموسيقى، والآثار، والجغرافيا، والاقتصاد، والقانون.

المؤتمر السابع للتعريب

عُقد مؤتمر التعريب السابع بالخرطوم في الفترة 1994/1/25–1994/2/1.

أكد المؤتمر ما سبق أن أقرته مؤتمرات التعريب الستة السابقة من ضرورة العناية باللغة العربية والتعريب. وقد جاء في كلمة السيد المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، في الجلسة الافتتاحية للمؤتمر: ..." إن الإشكاليات الموروثة والمتراكمة عبر تحولات اجتماعية وثقافية متفاوتة ومتباينة تدعونا إلى تناول موضوع التعريب من زوايا متعددة. فالتعريب في سياسة المنظمة، مثلما هو في نظر عدد من المفكرين العرب، ليس رصفا لقوائم المصطلحات لهذا العلم أو ذلك، بلغة واحدة أو بعدة لغات بل هو جزء هام وحيوي من خطط المنظمة الآنية والمتوسطة والبعيدة المدى. فهو في استراتيجية إدارة العلوم مسعى طموح يهدف إلى نقل التكنولوجيا واستيفائها في الوطن العربي مع تأصيل يمهد للابتكار، وليس عن طريق تقليد سطحي ومجرد نسخ يؤدي إلى الاستلاب والمسخ. وبذلك يصبح استعمال العربية استعمالات مبدعا في المخابر والجامعات ومراكز البحوث، بما يجعل من التعريب في استراتيجية دائرة الثقافة بالمنظمة تنويرا للفكر العربي وإعادة تكييفه حتى يصبح قادرا على محاورة نظيره الأجنبي، يساويه اندماجا في حضارة العصر، ويأخذ عنه دون أن

يكون عالة عليه. وهو في سياسة إدارة التربية تطويـع للعلـوم وتمكـن مـن مفاتيح التكنولوجيا بما يؤدي إلى تعريب التعليم العلمي الجامعي في إطـار حركة إبداعية صاعدة تضمن ارتفاع المسـتوى، منـهجا ومدرسـة، أسـتاذاً وطالباً "⑦ .

وصادق المؤتمر على توحيد مجموعة مصطلحـات بلـغ عددهـا 12667 مصطلحا بثلاث لغات (العربية- الإنجليزية- الفرنسية)، في موضوعات: السياحة،والزلازل، والبيئة، والطاقات المتجددة.

كما صادق على " نظام الرموز العلمية للغة العربية" الذي أقرته الندوة التي عقدها اتحاد المجامع اللغوية العربية بعمان 1987م، وكلف مكتـب تنسيق التعريب بإعادة نشره وتوزيعـه علـى الجـهات المختصـة في الوطـن العربي، وهو ما قام به المكتب سنة 1996.

المؤتمر الثامن والتاسع للتعريب

عقـد مؤتمـر التعريـب الثـامن والتاسـع، في مؤتمـر واحـد، بمراكـش (المغرب) في الفترة من 7 إلى 11 محرم 1419، 4 إلى 8 مايو 1998. أكـد المؤتمر ما سبق أن أقرته مؤتمرات التعريـب السـبعة السـابقة مـن ضـرورة العناية باللغة العربية والتعريب، والترجمة والمصطلح.

وصادق المؤتمر على مجموعـة أخـرى مـن المصطلحـات تبلـغ 21000 مصطلحا في موضوعات: التقنيات التربويـة، الفنـون التشـكيلية، الإعـلام الاستشعار عن بعد، الأرصاد الجويـة، علـوم البحـار، الميـاه، المعلوماتيـة والهندسة الميكانيكية.

وقبل الانتهاء من الحديث عن مؤتمرات التعريب، يطيب لنا أن نشير إلى أن مكتب تنسيق التعريب يعكف حاليا على الإعداد لعقد مؤتمر التعريب العاشر الذي تقرر عقده بدمشق سنة 2002 إن شاء الله.

وبالإضافة إلى البحوث التي ستلقى في المؤتمر، فقد أعد المكتب خمسة مشروعات معجمية سيعرضها على المؤتمر للمصادقة عليها، تمهيدا لطبعها وتوزيعها على الجهات المختصة في الوطن العربي. وتتناول هذه المشروعات موضوعات: الصيدلة الطب البيطري، تقنيات الأغذية، الجينات (المورثات)، الحرب الإلكترونية.

كما يعكف المكتب على إعداد ثمانية مشروعات معجمية أخرى في مجالات : الإدارة العامة والمرافق المختصة، الغزل والنسيج، التدبير المنزلي، الأزياء، المعادن، الطب (علم التشريح)، تقنيات المعلوميات وألفاظ الحضارة، وذلك للعرض على مؤتمري التعريب الحادي عشر والثاني عشر.

بنك مصطلحات المكتب

لقد شهد العالم في العقود الأخيرة طفرة غيرَ مسبوقة في مجال تدفّق المصطلحات مما جعل الوسائل التقليدية عاجزةً تماماً عن استيعاب ومعالجة هذا الكمّ الهائل الذي يتزايد يوما بعد يوم. ولعله من حسن الطالع أن يتزامن هذا الوضع مع التقدم الهائل المتسارع الذي حدث في مجال تقنيات المعلومات، وما حققته هذه الآلة العجيبة، التي اصطلحنا على تسميتها في اللغة العربية "الحاسوب"، من تيسير للتعامل مع هذه المصطلحات، خاصة فيما يتعلق بتخزينها ومعالجتها واسترجاعها ونشرها

وتوزيعها.. ولا يفوتنا، في مجال الحديث عن التطور العلمي، أن نشير إلى "الانترنيت" التي اخترقت المسافات وأزالت الحواجز في مجال الاتصال. ولا شك أن بنوك المصطلحات أصبحت هي الأخرى أداةً فاعلة لا غنى عنها في مجال التعامل مع المصطلحات في عهد العولمة والحوسبة، فالعالم أصبح قرية واحدة والحاسوب أصبح في كل بيت - تقريباً - جنبا إلى جنب مع الأجهزة العادية التي تعودنا عليها من مذياع وتلفاز.... وبنك المصطلحات ما هو إلا حاسوب كبير، بمواصفات معيَّنة، تُخزَّن فيه المصطلحات لمعالجتها والاستفادة منها في تحقيق الغرض المنشود.

وعلى الرغم من أن المكتب استطاع، بوسائلَ يدوية، أن يُنجِز ما يناهز مائتي ألف مصطلح في مختلِف التخصصات، فإنه أدرك، منذ بداية الثمانينات على الأقل، أن هذا الكمّ الهائل من المصطلحات العربية الموحدة، سيظل دون فائدة تُذكَر إذا لم تتم معالجته بالوسائل التقنية الحديثة، خاصة إذ علمنا أن هذه المصطلحات العربية المبثوثة، في معاجم المكتب الموحدة، تقابلها مصطلحات بالإنجليزية والفرنسية، بالإضافة إلى بعض الشروح والتعريفات والمعلومات التوضيحية الأخرى، ومن ثم فإننا أمام كمية ضخمة من المفردات والمعلومات التي تحتاج إلى تصنيف وتبويب وفهرسة... والاعتماد على العمل اليدوي في هذه الحالة يُعتبَر ضربا من العبث، في الوقت الذي توجد فيه الحواسيب المتطورة التي تساعد على القيام بكل هذه العمليات وغيرها في زمن قياسي.

وكانت أول خطوة عملية لتشغيل بنك مصطلحات المكتب هي توفيرُ الأطر اللازمة لتشغيل البنك، وفي هذا الإطار، تمّ إحداث وحدة خاصة

بـالمكتب هـي: وحـدة الشـبكة المعلوماتيـة، وأسـندت مسؤولية تسـييرها لزميلنا، بالمكتب، الأستاذ إدريس القـاسمي، المتخصـصِ في هـذا المجـال الذي قام – في إطار الإعداد لإرساء البنك – بتصميـم برمجيـات التشـغيل للإدخال والمعالجة والاسترجاع، وأشرف على تصميـم الجـذاذة، وتحديـد أسلوب للتدقيق الفوري لإدخال المعلومات باستخدام المدقِّق الإملائي ... ثم باشر عمله، بالتعاون مـع خـبراء المكتـب (كـل فيمـا يخصـه)، في تنفيـذ الخطة المرسومة لهذا الغـرض والـتي تشـتمل علـى عمـل البنـك وأهدافـه والمسـتفيدين منـه، وأسـاليب جمـع المصطلحـات ومصادرهـا، وتفريـغ المصطلحات في الجذاذات، وأساليب الإدخال والمعالجة والاسترجاع...

وتجدر الإشارة هنا إلى أننا تمكنا حتى الآن من خـزن أكـثر مـن مائـة ألف مصطلح من معاجم المكتب الموحدة في بنك المصطلحات واقتنينا موقعا على الإنترنيت سيكون في متناول العموم – إن شاء الله – قبل نهاية السنة الجارية (2000)

مجلة اللسان العربي

دورية متخصصة نصف سنوية، تصدر عن المكتب بانتظام وتُعنَى بنشر الأبحاث اللغوية والدراسات المتعلقة بقضايا المصطلح والترجمـة والتعريـب ومشروعات معاجم المصطلحات. وقد صدر منها حتى الآن ثمانية وأربعون عـددا. وتنشـر الأبحـاث في المجلـة بثـلاث لغـات (العربيـة والإنجليزيـة والفرنسية) وتفتح صدرها لكل الكتاب والمفكرين في أرجـاء المعمـورة، كمـا تنشر – في أعداد خاصة–نتـائج أنشـطة المكتـب المختلفـة، مـن مؤتمـرات وندوات...

الخاتمـــــة

لقد حاولنا في هذه الدراسة إلقاء الضوء على دور مكتب تنسيق التعريب في خدمة لغتنا العربية وإغنائها بالمصطلحات العلمية الموحدة، وذلك بغية توفير الأدوات المساعدة على التعريب الشامل في الوطن العربي، وقد أنشئ المكتب منذ أربعين سنة لتنسيق الجهود العربيـة الـتي تبـذل للوصـول إلى تحقيق هذا الهدف النبيل الـذي تتمثـل فيـه شـخصية الأمـة. والتعريـب قضية كبيرة ومعقدة وذات أبعاد متعددة، والعقبات الـتي تقـع في طريـق تحقيق هذا النوع من القضايا تكون عادة كثـيرة ومتشـعبة تشـعب القضيـة نفسها، ومن ثم فإنه يستحيل التغلب عليها بـين عشـية وضحاهـا. ومـع ذلك فإن المشاكل التي تواجهها عملية التعريب لا يسـتعصي حلـها علـى أمة عظيمة مثل أمتنا العربية، أمة غنيـة بإيمانـها وإرادتـها وتصميمـها، وبأبنائها وعلمائها النابغين المبرزين الذيـن تعـج بـهم المؤسسـات العلميـة ومراكز البحث في كل مكان من المعمورة. يؤكد ذلك ما نـراه مـن تجـارب عملية ناجحة، في بعض الأقطار العربية، حيـث أصبـح التعريـب شـاملا وكليا في الكثير مـن القطاعـات، بـل وفي أجـهزة الدولـة كلـها (التجربـة السورية).

ومع أننا اعتبرنا موضوع التعريب موضوعا شائكا ومعقدا، فإن ذلك يجب أن لا يصيبنا بالإحباط أو التراخي، بحيث نظل ننتظر ونتردد، في عملية التعريب، إلى ما لا نهاية له. إن السـماء لا تمطـر ذهبـا؛ وهـي كذلـك لا تمطر حلولا للمشاكل. لابـد أن نتحـرك، لقـد طـال الانتظـار، والزمـن لا يرحم، خاصة وأننا اليوم في عهد السرعة. وحتى لا نظـل نـردد مـا ردده

الآخرون من قبلنا، حول هذا الموضوع، دعونا نقرر- ولنكن صريحين- أن مفتاح هذه القضية العربية المصيرية (قضية التعريب) يوجد بأيدي أصحاب القرار في أقطارنا العربية؛ لا بد من اتخاذ قرار سياسي حاسم وملزم في هذا الموضوع، قرار لا يفتح الباب أمام أي استثناء،لأننا لاحظنا- بالتجربة- أن الاستثناء في أحيان كثيرة يصبح هو القاعدة، وهذا ما حدث فعلا بالنسبة للتعريب، عند ما تقرر أن يكون متدرجا، وفي قطاعات معينة، إلى أن يتم الاستعداد لتعريب القطاعات الأخرى، خاصة فيما يتعلق بالتعليم العالي والجامعي.

والقرار السياسي- على أهميته- لا يكفي وحده للوصول إلى الهدف المنشود، ذلك إنما أشرنا إليه آنفا من أن مفتاح التعريب يوجد بحوزة أصحاب القرار، نعنى به أنه لا بد من وجود إرادة معززة بقناعة، لدى كل الأوساط العربية الفاعلة، من أجل خوض عملية التعريب، كل فيما يخصه، وعلى جميع المستويات. ولنأخذ- على سبيل المثال- تعريب التعليم العالي، في التخصصات العلمية خاصة؛ لقد ثبت- بالتجربة- أن جميع الأساتذة العرب، وحتى الذين تلقوا تعليمهم بلغات أجنبية قادرون - إذا ما توفرت لديهم القناعة- على إلقاء محاضراتهم وإعداد بحوثهم باللغة العربية، وأن العدد القليل من هؤلاء الأساتذة يتلقى، في ذلك صعوبات طفيفة يتم التغلب عليها في فترة وجيزة. مع ملاحظة ارتفاع درجة استيعاب المواد العلمية لدى الطلبة بفضل تلقيهم العلم باللغة الأم.

تحديات اللغة العربية
في الألفية الثالثة

الأستاذ الدكتور: صالح بلعيد
عضو المجلس الأعلى للغة العربية

سأتحدّث في هذا الموضوع عن تحديات اللغة العربية في الألفية القادمة من منظور القواعد الجديدة التي تفرضها اللغة الإنجليزية على كل لغات العالم، وهو واقع الأنجلزة الذي توظّف فيه المضايقات التقنية العصرية من موقع التحكّم في أعلى التكنولوجيات التي تتوافر وتتحكّم فيها وبجدارة، أكثر من اللغات الأخرى، وهي الدعامة الأساس للهيمنة وفرض المعيار الخاص باللغة الإنجليزية.

وهذا الواقع رهين العولمة بمعناها العام والتي لا مناص منها كون العالم اليوم يعيش في الخيمة المعلوماتية فهو يتأثّر أخذا وعطاءً.

فهل ستصمد العربية في ظلّ العولمة العابرة للقوميات عن طريق التكنولوجيا؟ وهل يمكن أن يكون للغة العربية موقع في هذه القرية؟ وبناءً على ذلك رأيت مقاربة هذه المداخلة كما يلي:

1- حاضر اللغة العربية.

2- العولمة والهيمنة اللغوية.

3- أي موقع للغة العربية في الألفية القادمة؟

4- توصيات.

تِلْكُم في الحقيقة إشكاليات جوهرية في هذا الموضوع، أريد من خلالها الحديث عن تفعيل لغتنا في المرحلة القادمة كي لا تهتزّ شخصيتنا، ولكي

لا نذوب وننقرض في إطار مدّ العولمة المتلاحق الذي تفرضه لغة تكنولوجيا الاتّصال الحديثة التي يعتمد معظمها على اللغة الإنجليزية. فهل تنبّهت اليونسكو لهذا؟ وماذا قدّمت الأليسكو لصون اللغة العربية، وهل أعدّت الإسيسكو برنامج حماية الهوية والثقافة الإسلامية؟

وأمام كل هذا كان علينا تفعيل اللغة العربية كما فُعِّلت سابقاً، وإبراز صورتها الحقيقية ودورها الحالي في منظومة الاتّصال الكوني، على أنّها اللسان العربي المبين الذي له من القِدَم ما ليس لأية لغة مثيل، وعلى أنّها وسيلة اتّصال أدبية وعلمية تتفعّل حسب مقتضيات الحال. فهي مطواعة لمقتضيات العصر تأخذ وتعطي، وتجري عليها سيرورة وصيرورة الزمن تخضع عبر كل ذلك للتشذيب.

نصّ المداخلة كاملة

مقدمة: سأتحدّث في هذا الموضوع عن تحديات اللغة العربية في الألفية القادمة من منظور القواعد الجديدة التي تفرضها اللغة الإنجليزية على كل لغات العالم، وهو واقع الأنجلزة الذي توظّف فيه المضايقات التقنية المتطوّرة من موقع التحكّم في أعلى التكنولوجيات التي تتوافر وتتحكّم فيها هذه اللغة وبجدارة، أكثر من اللغات الأخرى، وهي الدعامة الأساس للهيمنة وفرض المعيار الخاص بمعيارها. وهذا الواقع رهين العولمة بمعناها العام والتي لا مناص منها كوْن العالم اليوم يعيش في الخيمة المعلوماتية فهو يتأثر أخذا وعطاءً. فهل ستصمد العربية في ظلّ العولمة العابرة للقوميات عن طريق التكنولوجيا العملاقة؟ وهل يمكن أن يكون للغة العربية موقع في هذه القرية؟ وهل الحديث عن صون العربية من أي نسمة

حدودها. ونحن نلهج بعالميتها وقدرتها وقوّتها وقبولها للإنتاج العلمي، وواقعها اليوم مدعاة للقلق، وستبقى ناقصة ما دامت بعيدة عن العلم وأسلوبه ومنهجه ومصطلحه وقد تخلينا عنها في هذا المجال. وربّما حان وقت قول ابن خلدون علينا: إنّ الأمة إذا غلِبت وصارت في مُلك غيرها أسرع إليها الفناءُ.

إنّها إشكالية عصرية لابدّ من التركيز عليها قبل كل شيء، وهي أول بادرة يجب علاجها بمنطق قوة العصر الذي لا يقرّ إلا باللموس، منطق يعالج العربية التي استجابت لتقنيات مضت، والآن لا تستجيب للمضايقات العصرية، منطق صعوبتها من حيث تعقّد القواعد وكثرة الجوازات والارتكاز على قياس الحاضر على الغائب، وتجسيد منطق اعتمادها على بعض الطرائق التقليدية في التلقين، منطق المضايقات الكتابية أمام التقنية العصرية التي لا تقرّ باللبس... الخ. تلك صعوبات يجب أن تُتدارك في هذا الوقت، والأحرى مراجعة بعض المسلمات أو الطابوهات، ويصاحب هذا الترخيص لبعض المستعمل في اللغة، وترقية الكلام الدارج القريب من الفصيح والمشترك. وبهذا يمكن للغة العربية امتلاك سلاح المعلومات للصدّ أو الوقوف في وجه هذه المضايقات والتغيّرات والثقافات العالمية. ولن يحصل هذا التمنّي ما لم ننطلق من الواقع وننظر في موقع العربية بين اللغات العالمية، مع الإفادة الكاملة من التقنيات الحديثة، ورسم ملامح المستقبل في ضوء التجارب المحلية والقومية والعالمية.

الذي سيطر على نُخبها وعلى مفكريها، وبالتطبيقات التقنية التي مسّت منظومتها الفكرية. ولنعلم أنّ الصناعة الأمريكية ارتكزت على دعائم الفكر العلمي والثقافي العصري حتى كانت لها الريادة. والنهضة الأوربية قامت على أساس ثقافي أولاً، ثمّ لحقت عوامل أخرى، كما أنّ التطوّر الآسيوي اعتمد مبدأ الأخذ من العلوم (النقل) والخروج بنظرية خاصة. وكان في كل اجتهاد للعصرنة دعوة إلى الإصلاح التربوي الذي يرتبط بالإصلاح اللغوي الذي تنشده المعرفة العلمية في وقتنا الحالي. "وها هو ذا كونفوشيوس حكيم الصين العظيم يستشيره الإمبراطور حول السبيل الأقوَم إلى إصلاح الإمبراطورية، فيقول له: ابدأ باللغة، ولم يقل له ابدأ بالاقتصاد"[1]. والبدء باللغة يعني التمسّك بها أصالة وتحديثاً؛ حيث الأصالة لا تعني الانغلاق والانقطاع عن العالم، بل تعني المعرفة العلمية التي هي إدراك الأشياء وتصوّرها كماً ونوعاً، واستخلاص موجباتها واستئصال نقائصها. وحيث التحديث الذي هو خوض معركة العصر بكل تجلياتها المعرفية فكراً وإنتاجاً.

وإذا عدنا إلى ماضي اللغة العربية نجده غنياً ومنتجاً، وكان له الحظوة في كل إبداع، وهذا لا يعني العيش في كنف (**كان أبي**) وهو ما أمقته، بل إنّ العودة إليه لاستكناه تاريخنا علّه يكون المهتدى للتفعيل في عصرنا كما فعّل أولونا. كما أنّ التاريخ عامة كان سجلاً لجملة المعارف التي يقصد بها الكشف عن الجيّد منها وتحسينه، وعن الرديء لاجتنابه. وكان التاريخ العربي الإسلامي حافلاً بالإبداع، وهذا الماضي كان يرتكز على

---

[1] – مصطفى سليمان "اللغة والهوية" مجلة الهوية. الكويت: الغرسة السادسة عشرة، ص 15.

عبقرية اللغة العربيـة في لسـانها وتطبيقاتـها الـتي اسـتوعبت أدقّ العلـوم التقنية، والدليل ما أنتجه ابن الهيثم وابن حيان وابن سينا والرازي. وإنّ الشهادة الدامغة حول ذلك العصر يؤخذ من علماء غير عرب؛ فهذه العالمة زيغريد هونكة في كتابها (**شمس العرب تسطع على الغـرب**) تقرّ بعظمـة العلوم العربية وتأثيرها على الغرب. وقال Alvaro يومها: لقد أصبح شبابنا لا يعرفون من اللغة اللاتينية شيئاً وهم عاجزون عن قـراءة صفحـة واحـدة من الكتاب المقـدّس، ويتبـاهون بكتـب العـرب يحملونـها تحـت إبطـهم ويتكلّمون بها في الأسواق. وكان في ذلك الوقت أنّ المثقف العالمي هـو مـن يجيد اللغة العربية، ولذلك أحرق الأسـبان الكتـب العربيـة في السـاحات العمومية كي لا تنافس كتبهم. ولكن ذلك زمان قـد ولّـى فمـا حـال اللغـة العربية الآن، وماذا قدّمنا تجاه الأمة العربية الـتي تنظـر بعـين التقديـس لهذه اللغة؟ وماذا تقدّم اللغة العربية في عصر التقنية أمام اللغات الحيّة؟

إنّنا في موقف يُحسد عليه، ومن هنا لسنا في حاجـة إلى العـزف علـى عالمية وحضارة اللغة العربية ودورها في المعرفـة الإنسـانية، ذلـك شـيء لا يمكن نكرانه، ولكنّا الآن في حاجة إلى كيفيـة إبـراز الـدور الجديـد لهـذه اللغة في هذا الوقت، وكيفية تفعيلها خارج أوطانها. لأنّ اللغة العصرية أو الحيّة أو العلمية هي تلـك الـتي تتعـدّى حدودهـا لتنـال وضعـاً جيـداً في الخارج. وإنّ البعد العلمي والعالمي يجب أن يطغـى في اللغـة العربيـة إذا أريد لها البقاء والتفعيل في هذا المحيط، وتبقى العربية بـلا مصداقيـة إذا استمر تراجع اللغات الإسلامية والإفريقية والعالمية عـن توظيـف الحـرف العربي في كتابة لغاتها، وتبقى بلا مصداقية دون العمل على نشرها خارج

حدودها. ونحن نلهج بعالميتها وقدرتها وقوّتها وقبولها للإنتاج العلمي، وواقعها اليوم مدعاة للقلق، وستبقى ناقصة ما دامت بعيدة عن العلم وأسلوبه ومنهجه ومصطلحه وقد تخلينا عنها في هذا المجال. وربّما حان وقت قول ابن خلدون علينا: إنّ الأمة إذا غلِبت وصارت في مُلك غيرها أسرع إليها الفناءُ.

إنّها إشكالية عصرية لابدّ من التركيز عليها قبل كل شيء، وهي أول بادرة يجب علاجها بمنطق قوة العصر الذي لا يقرّ إلا باللموس، منطق يعالج العربية التي استجابت لتقنيات مضت، والآن لا تستجيب للمضايقات العصرية، منطق صعوبتها من حيث تعقّد القواعد وكثرة الجوازات والارتكاز على قياس الحاضر على الغائب، وتجسيد منطق اعتمادها على بعض الطرائق التقليدية في التلقين، منطق المضايقات الكتابية أمام التقنية العصرية التي لا تقرّ باللبس... الخ. تلك صعوبات يجب أن تُتدارك في هذا الوقت، والأحرى مراجعة بعض المسلمات أو الطابوهات، ويصاحب هذا الترخيص لبعض المستعمل في اللغة، وترقية الكلام الدارج القريب من الفصيح والمشترك. وبهذا يمكن للغة العربية امتلاك سلاح المعلومات للصدّ أو الوقوف في وجه هذه المضايقات والتغيّرات والثقافات العالمية. ولن يحصل هذا التمنّي ما لم ننطلق من الواقع وننظر في موقع العربية بين اللغات العالمية، مع الإفادة الكاملة من التقنيات الحديثة، ورسم ملامح المستقبل في ضوء التجارب المحلية والقومية والعالمية.

2- العولمة والهيمنة اللغوية:

إنّ قيام النظام العالمي الجديد ولّد مصطلحاً يسمى (الخطاب الأمريكي للعولمة). ولذلك نعني العولمة الكوكبية بوصفها فضاء تعميم التبادلات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية على نطاق الكرة الأرضية، وفي هذا الفضاء تتحرّك الأشياء والأفكار والأشخاص بصورة لا سابق لها من السهولة والديمومة والشمولية، وفيها تتجاوز الثقافات والحضارات وتتحاور في حركة دائبة من التأثير والتأثّر السريع. وهذا الحِراك الجماعي لا يبقى فيه إلا الصالح والأمكن، أمام السرعة المذهلة التي تعرفها الأقمار الصناعية التي تسبح في سمائنا؛ وهي مدرّة للإنتاج المعلوماتي، وباعتماد الاختيارات الحديثة من تكنولوجية الرقمية، وخطوط الاتّصالات العريضة، والألياف البصرية. وكل هذا يعمل على إشاعة نمط جديد من الفكر والعيش والمصطلحات الجديدة، وهي محملة بأنماط الحياة وأساليب التفكير والسلوك الغربي الأحادي والمفروض رغماً أو حباً، وهذا ضمن مصادرة الضمائر ومناهج التفكير وطرائق العيش لكل من هو خارج الفكر الغربي، بغية وضعه في بوتقة الشمولية الواحدة التي تقرّ بالقوة وثقافة العنف تجاه الرأي المخالف، ولا بقاء فيها إلا من يتنزّل منزلة الندية. ولقد رأينا فِعل العولمة ظاهراً في تفكير شبابنا الذي أصبح فيه يراجع ذاته سلباً من خلال:

1/2- التراجع عن الهوية الوطنية.

2/2- دعوة: التاريخ في المزبلة.

3/2- التشكيك في اللغة العربية.

4/2- مصادرة كل إنتاج وطني مهما كانت جودته.

5/2- قبول ما يأتي من الغرب دون مناقشة.

وأمام هذا التراجع والتشكيك فإنّه لا يمكن أن نعارض التجديد، فهو أمر حاصل منذ العصور الأولى، ولكنّه كان يجب أن يكون التجديد من داخل المنظومة الاجتماعية الخاصة ومن داخل المنظومة التربوية لمجتمعنا؛ أي يحصل التطوّر من الداخل. ولا يستجلب غريباً عن ذلك الروح من الأباعد، إلا إذا كان يخدم الفكر أو اللغة العربية ويرقيها. وأركز في هذه النقطة على تفعيل المنظومة التربوية التي هي أسّ العملية العلمية الجيّدة إذا أحسن توجيهها الوجهة الروحية أولاً، ثمّ وجهة الأصالة والتحديث. وإنّ كل الأمم تركز على المضمون الذي تحمله منظوماتها التربوية، فهي التي تعمل على التغيير والتطوّر، وكان حسناً ما قام به رئيس الجمهورية من تنصيب لجنة إصلاح المنظومة التربوية التي يجب أن تفعل آليات التغيير في سلوك الطفل الذي يجب أن يتماشى فكره مع الألفية الثالثة التي يحصل فيها تغيير جديد في أسلوب التفكير والعمل، وشعارها: **منظومة علمية أصيلة عصرية ديمقراطية متفتحة.**

ومع كل ذلك أرى أنّه لا مبرر من التخوّف الذي يشعر به البعض تجاه العولمة عامة واللغوية خاصة، إذا أخذنا نمطاً جديداً للتفعيل في هذا التغيّر الجديد. وأخذنا منطق اللغة على أنّها أداة تعبير وتفكير وهوية وإنتاج، وحصل بثّ الوعي اللغوي بين أبناء الأمة وإيقاظ غيرتهم عليها بالعمل على أن تكون لغة إنتاج وإبداع فعلاً؛ لأنّ العولمة تحتاج إلى إبداع

وإلى تفعيل المؤسسات الإنتاجية والثقافية، ونحن نتوفّر عليها، وإلى رؤوس أموال تعمل لصالح المدّ الإعلامي النشط والصناعي والدائم، ونحن نملك المال. ويمكن التخوّف من هذا النمط الجديد إذا لم يكن لنا تفعيل داخل هذه القرية التي لا تعترف بالحدود، أو لم يكن لنا التحكّم في الهوية. وإذا حصل التقاعس في العمل، فسننهزم لا شك، وهنا مكمن الخطر، بل يحصل الصدام الذي يؤدي إلى الإلغاء. وهكذا العولمة وإن كانت توحّد العالم حضارياً بفعل التقنيات الجديدة، فإنّها لا توحّده ثقافياً كذلك، وإنّ الثقافة التي تحمل المضمون الديني الصلب سيبقى لها خصوصيتها ورموزها وتخيّلاتها التي تنفرد بها، وهذا يعني أنّ العولمة ليست مِلكاً للغة الإنجليزية ولا للأمريكيين إذا كان للغات الأخرى الحضور الفعلي، وإنّما هي وقائع وإنجازات وإمكانات موضوعة برسم البشر أجمعين[2]. ومن كل ذلك نعلم أنّ الخصائص المحلية لا تذوّبها العولمة ولا تنتقص من قيمتها أو تضعف قدرتها على أداء دورها إن كانت في مستوى العطاء لا التبعية. ومن هذا المنطلق نقول: إنّ الثقافة لا تنطلق إلى آفاق العالمية إلا وهي محمولة على أجنحة من الخصوصية والمحلية، فلا عالمية بغير خصوصية. وفي هذا المقام نسأل هل حافظنا على هويتنا؟ أي موقع لنا في الخيمة المعلوماتية؟ وهل أقمنا صناعة معلوماتية متطوّرة تُبقِي على خصوصياتنا؟ أسئلة تحتاج إلى إجابات راهنة من موقع فرض وجود ومن خلال اللغة التي يشعر الإنسان بثقافته وانتمائه لأمته. وإنّ العولمة تفرض علينا أولاً أن نتعلّم ونتقن أداء لغتنا في المقام الأول، ثمّ نفهم غيرها من

---

[2] – علي حرب، حديث النهايات فتوحات العولمة ومآزق الهوية. بيروت: 2000.

اللغات إتقاناً، وهذا ما تفرضه حتميات التواصل مع الآخر وتقبّل الآخر في ثقافته.

3- أي موقع للغة العربية في الألفية القادمة؟

إنّ العوثقافية* جزء من العولمة ككل، ومن هنا فإنّها تعني: تعميم ثقافة واحدة وسيادتها وهيمنتها على غيرها من الثقافات بمضمون تلك الثقافة ومحتواها من أساليب تفكير وأنماط السلوك والمعاملة والنظرة للمستقبل.

صحيح إنّ العولمة نعيشها يومياً، وفي الحقيقة نتعامل بلغة العولمة، ونلبس لباس العولمة ونأكل أكل العولمة، ونبزنس بالعولمة، وليس في استطاعتنا أن نرفض لغة من اللغات، لأنّ الأجهزة العصرية وفرت لنا كل ما يمكن أن يعمل في هذا المجال. العولمة قدر علينا وسبيلنا هو التفعيل داخلها، والعمل على التنّوع الثقافي في إطارها، والتعامل معها من موقف الثقة بالنفس "ومجبر علينا أن نتعايش في ركاب المجموعة الدولية وفي هذه القرية الكونية ولكن كل هذا لا يمنعنا من الصلاة، ولا تهدّد طريقنا نحو أداء مناسك الحجّ"[3]. وهنا لا تكون لنا هويّة إلا إذا توافرت بدلها خصائص الوحدة والثبات والمغايرة، وهذا ما يجب أن يتوفّر في التنوّع اللغوي، وليس ضرورياً أن نذوب ونقضي على ثوابت هويّتنا، لأنّ العولمة

---

* - نحت اسمي أقصد بها العولمة الثقافية.

[3]- عبد الهادي التازي "هل في استطاعة العولمة أن تهدر الهوية" مجلة الأكاديمية الملكية. الرباط: 1997 عدد (العولمة والهوية) ص 67.

لا تتناقض مع الديمقراطية ومع التعدّدية الثقافية والتنوع الحضاري[4]. ولنكن مثل الدول الآسيوية (اليابان وكوريا وإندونيسيا وتايوان) التي فرضت عليها العولمة أنماطاً من السلوك، لكنّها تعاملت بثقة فاعلة فأبدعت في إطارها وما هدرت هويّتها، رغم أنّ مفهوم العولمة لا وجود للهويّة[5]. ومع ذلك فإنّ العصر الحالي يستدعي مشاركة العالم في بعض الخصائص، والتفرّد عنه في بعضها الآخر، ولا يمكن البعد عن الحوار والتقارب وأخذ الأفكار من الغير وإن كان لا يجاريك في الرأي، وهذا هو النمط الجديد للعولمة الثقافية التي لا تقف أمامها الطابوهات، ومن خلال ذلك "نستطيع في ضوء ما تقدّم أن ندرك مدى حاجة الإنسانية إلى وجود معرفة علمية قائمة على تصوّر كوني للعالم يمكنها من ارتياد آفاق رحبة ودفع مخاطر وتوفير ضوابط. ويتّضح في ضوء ما تقدّم أنّ الإسلام قادر على تلبية هذه الحاجة بما يوفّره من رؤية مؤمنة للكون والحياة والإنسان. ومن

---

[4]– ناصر الدين الأسد "العولمة والهوية" مجلة الأكاديمية الملكية المغربية. الرباط: 1997، عدد (العولمة والهوية) ص 58.

[5]– ينظر في هذا المجال الكتاب القيّم: لماذا احترقت "النمور" الآسيوية. وهو موضوع الندوة العلمية التي أقامتها الأكاديمية الملكية المغربية في فاس أيام: 4–6 مايو 1998. بعد الأزمة المالية التي عصفت ببعض البلدان العملاقة في آسيا، جرّاء عولمة الاقتصاد والمصالح ووسائل الاتّصال وارتباط البورصات، كل ذلك ينذر بأنّ أي شيء يحصل في منطقة معيّنة ستكون له عواقد تمسّ جهات أخرى في العالم، بل تمسّ الأفراد أنفسهم لأنّ الأضرار التي تقع على الناس من جرّاء البطالة، وانخفاض الدخل النقدي والقوة الشرائية وقيمة العملة المتعامل بها، قد تكون وخيمة. كما عرض هذا الكتاب بشكل جيّد كيفيات تمسّك الآسيويين بالهوية المحلية في إطار العولمة والأزمات المادية ونتائجها. مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية سلسلة "الدورات". الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، 1998.

هنا تبرز مسؤولية المسلمين في الدعوة لهذه الرؤية المؤمنة[6]". ولكن أية دعوة أمام الضعف المستشري فينا والانهيار النفسي؟ أضف إلى ذلك عدم الاهتمام بقيمنا الحضارية وبعدم تجديد أنماط السلوك الحضاري والاجتماعي في إطار من العالمية والخصوصية. تلكم هي أنماطنا التي يجب تحسينها والتفعيل ضمنها قبل أن نقع فريسة هذه العولمة اللغوية.

وإنّ مسألة العولمة اللغوية، كان يجب أن نطرح السؤال الآتي: ما موقع تعدّد اللغات ضمن العولمة العاملة على فرض لغة واحدة؟ أو بمعنى آخر: كيف نعمل على إثبات هويتنا في إطار العولمة؟ وكيف نعمل على تصدير هذه اللغة أمام هذه العولمة؟

إنّ العولمة أحد التحديات التي بدأت تواجه كثيراً من الدول الضعيفة، بل حتى القوية منها فلقد أنشأت فرنسا وزارة الفرانكفونية لحماية نفسها من التبعية الأمريكية في إطار العولمة اللغوية التي تفرض النمط الأمريكي، وهي تعرض دائماً هذه المسألة وتعتبرها إمبريالية ثقافية أمريكية، وسبق للرئيس ميتران أن قال: من ذا الذي يستطيع أن يتعامى اليوم عن التهديد الذي يواجهه العالم الذي تغزوه بالتدريج ثقافة واحدة؛ ثقافة أنجلوسكسونية تتحرّك تحت غطاء الليبرالية الاقتصادية؟ كما رفضت فرنسا التوقيع على الجزء الخاص بالسلع والمواد الثقافية في اتفاقيات الكاط GATT وتشمل السينما والتلفاز والفيديو وما يلحق هذا من وسائل التثقيف الأخرى، في الوقت الذي نعرف أنّ خط الإنترنيت تسيطر عليه اللغة الإنجليزية بنسبة 88% واللغة الألمانية تملك فيه 9 % والفرنسية 2%

---

[6] – أحمد صدقي الدجاني "الإسلام والعلوم وكونية المعرفة العلمية"، مجلة الأكاديمية الملكية المغربية. الرباط: 1999، العدد 16، ص 146.

ويتـوزّع 1 % علـى اللغـات الغربيـة[7]، فمـا موقـع اللغـة العربيـة في هـذه الشبكة؟ وأؤكد على موقعية اللغة العربيـة باعتبارهـا لغـة رسميـة في كـل البلاد العربية، ثم لغة عمل في الأمم المتحـدة، وفي وكالاتـها المتخصّصـة، ويترجم منـها وإليـها بالترجمـة الفوريـة في الاجتماعـات العالميـة، وكـان الأحرى أن يكون لها وجود وحضور مكثّف في هذه الشبكة ولكن ذلـك لم يحصل، فأين الخلل؟

وأمام هذه الإشكاليات الحيّة بصُرت بأنّ التركيز في لاحق من أعمالنـا يكون بتفعيل الوسائط التالية بغية البقاء، وهي:

1/3– المثاقفة: باب من أبواب العولمة الثقافية، وإنّ من لا يثبت علمياً وصناعياً يذوب وتضمحل هويته، ولذا علينا مقارعة هـذا الميـدان بالإنتـاج العلمي المتمـيّز أولاً، وبالنديـة ثانيـاً ويسـميها شـحادة الخـوري **المثاقفـة المتكافئة**؛ أي الوقوف على قدم المساواة، وعلى قاعدة المشـاركة في صنـع الثقافة والحضارة الإنسانيتين، وكذلك بلغـة أهـل القـوم دون غيرهـا، وفي هذه النقطة نتحدّث عن التعريب الذي يخدم مقوم شخصيتنا، ويتطلب أن تكون العربية لغة التفكير وأداة التعبير في كل مجال من مجالات الحياة " ليس التعريب تعريب التعليم والبحث العلمي عملاً لغوياً أو علمياً أو ثقافياً فحسب، بل هو أبعد مدى، فهو عمل يقع في سياق حركة الإنسان العربي للتخلّص من الجهل والتخلّف اللذين أورثته إياهما عهود الغربة التي نأت

---

[7] – صـالح بلعيـد، محـاضرات في قضايـا اللغـة العربيـة. قسـنطينة: 2000 منشـورات جامعـة قسنطينة، ص 302.

بع عن حقيقته وموقعه[8]"، وأهمّ قناة تعتمده المثاقفة هي الترجمة، والتي هي نقل الآثار والمؤلفات من مجتمع لآخر.

2/3– الترجمة: نعرف جميعاً أنّ أسّ الحضارة كانت الترجمة، فطه حسين عندما سئل في مجمع اللغة العربية بالقاهرة: كيف تحصل الترقية اللغوية للغة العربية؟ أجاب: **ترجموا ترجموا ثمّ ترجموا**، وقال بوشكين قبله: **المترجمون خيول بريد التنوير**. وعلينا في هذا المقام أن نستذكر الأعمال الجليلة التي قام بها حنين بن اسحاق وابن رشد وفِعْل رفاعة الطهطاوي وغيرهم، فهم بناة النهضة الفكرية، تركوا لنا قبس المعرفة الذي لا يخبو. ولكن في هذا الوقت الحالي نسجّل انحسار الترجمة إذ يبلغ عدد الكتب التي تترجم في كل البلاد العربية سنوياً نصف ما يتبلغر[9]. وإنّ الغيور يتحسّر كثيراً على هذا التقهقر، وعدم توفر المترجمين المتخصصين الأكفاء، فمن الواجب الدعوة إلى تكوين أجيال من العلماء مزدوجي اللغة للتمكّن من ناصية العلم الذي لا حدود له.

وإنّ الترجمة بدورها تتطلّب نقل المصطلحات العلمية إلى اللغة العربية، والمصطلح مشكلة اللغة العربية التي زرعت في نفوس الناطقين بها قلة الثقة، على أنّها لغة قاصرة عن الوفاء بحاجات أهلها في ميادين شتى. والحقيقة إنّ العربية تشكو تخمة مصطلحية لكنّها تحتاج إلى غربلة لجعلها موحّدة، ووضع خطّة جديدة للعمل المصطلحي، لتفادي ذلك البطء الكبير والطرائق التقليدية التي تقوم بها بعض المؤسسات، علماً أنّه

---

[8] – شحادة الخوري، دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب. دمشق: 2000، دار الطليعة الجديدة، ج2، ص 167.

[9] – نسبة إلى بلغاريا.

"يدخل ساحة المعرفة في العالم ما يربو على 7300 مصطلح جديد سنويا. أي بمعدل 20 مصطلحاً كل يوم، وأما المقابلات العربية التي توضع فلا يتجاوز عددها سنوياً 2500 مصطلح على وجه التقريب[10]" . **فكم مصطلحاً تتبنّاه العربية؟ وكم مصطلحاً يتوحّد؟ وكم مصطلحٍ يعود حيث أتى.**

أيها العلماء، ما أحوجنا إلى مشروع نهضة قومية على غرار فعل الأرناؤوطي محمد علي والطهطاوي، ووضع خطّة الانقلاب العلمي الجديد موضع التطبيق، كالتي دعت إليها الأليسكو في خططها الثقافية[11]. وأكرِمْ بعلماء عربيتنا العاملين على ترقيتها، ولم تعجزهم صعوبات المصطلح، وأقترح في هذا المقام:

1- العناية بتدريس اللغات المتميّزة في كل مراحل التعليم.

2- اختيار ما نترجم، ومراعاة الحداثة وأمهات الكتب، والبدء حيث توقّف السابقون.

وأدعو من خلال هذا المحفل العلمي ذوي القرار إلى تجسيد مؤسسة عربية تختصّ بالترجمة في الوطن العربي، ويكون مقرّها الجزائر.

3/3- **البحث اللغوي**: وهو السبيل إلى المشاركة في حضارة هذا العصر، والإسهام في إغناء المعرفة البشرية، كما أنّه يشكّل ثقافة الأمة العلمية ويرمز إلى نشاطها الفكري والذي لا يقوم التقدّم والرقي دونه، بل هو سبيلنا إلى المشاركة في إغناء العلوم، والانتقال من المستهلك إلى المنتج الفاعل. وفي هذه النقطة أرغب في التركيز على اعتماد اللغة العربية

---

[10] - شحادة الخوري "التعريب والمصطلح" مجلة مجمع اللغة العربية. دمشق: المجلد 73، ج 4، ص 811-812.

[11] - انظر: الأليسكو، الخطة الشاملة للثقافة العربية. تونس: 1990.

العلمية. أو التقنية التي تجمع بين طلاوة الأدب ودقة العلم في علوم المجتمع والإنسان. ومن هنا كان عليّ القول بأنّه لا بدّ من تدارس المعيقات اللغوية للغة العربية أمثال: تثبيت أبنية وأساليب وألفاظ ودلالات هجينة، غلبة التنظير والتقعيد على التطبيق والتحليل ، فصل النحو عن النصوص الإبداعية، الاعتماد في صناعة المعاجم التي تضبط دلالات اللغة على الشعر القديم، طبع العقلية العربية المعاصرة بطابع تقليدي، معالجة ظواهر الحضارة الحديثة من خلال لغة قديمة... الخ. فما أحوج عالَمنا وطالبَنا لأن يتأسّى مما آلت إليه هذه السفاسف ليكون نِعْم الخلف لذلك السلَف الذي ما أقعدته حوائج الدنيا عن التجديد. وأرى أيها العلماء أن ينظر الأكاديميون في اللغة العربية من حيث:

/ تحرير العقل من النقل، وقصر التجديد اللغوي على أرباب اللغة العاملين بها.

/ تيسير المادة اللغوية بتصنيف التراث اللغوي في كل العلوم حسب المعاني، والاستعانة بالأجهزة الحديثة لتذليل ذلك، تصنيفاً وإحصاء واسترجاعاً.

/ تبسيط نحو العربية حسب مراحل التعليم، وإخضاع فكرة التبسيط لضوابط موضوعية حتى لا يؤول الأمر إلى التخلّي عن أصالة العربية وأسسها. والتركيز على النحو الوظيفي واستقراء النصوص واستخلاص الأحكام بالتأمّل والمحاكمة، لا بالوعظ والإرشاد.

/ تحسين طرائق تدريس العربية لأهلها ولغير الناطقين بها.

/ تطوير رسم حروفها.

/ الارتقاء بالعامية تجاه الفصحى الميسّرة.

/ العدول عن فصل النحو والصرف عن النصوص الأدبية، ودراسة اللغة من خلال نصوص أدبية مختارة تلائم الأذواق الحديثة.

/ معالجتها علاجاً آلياً بحيث تكون في مستوى اللغات الأخرى الحاملة للرصيد المعرفي من خلال المعلوميات وشبكات الاتصال والترجمة الآلية ووجود المنطاقيات.

/ الفصل بين السياسة التي تنتهجها الدول، والمتطلّبات العلمية الحضارية لهذه الأمة في معركة السباق التقني على المستوى العالمي.

4/3– توظيف التقنيات العصرية: أقصد هنا معانقة العلوم لوسائل العصر، لأنّ العولمة تقول: **انهضوا أيها النيام واستحدثوا أنفسَكم**. فهل استجبنا نحن العرب لهذا النداء؟ أقول من موقع السيطرة العلمية الخاصة بتقنيات الإعلام على المستوى الكوني: إنّ الوقت سيتجاوزنا وقد يصبح من المتعذر تلافي هذا التأخير، وإنّنا في بيات طال أمده ونحن نعيش عصر الإعلام بمباهجه التي تثير فينا السخرية، ونعيش عصر التلفاز الذي يمارس فينا حالة من غياب وعينا العام، في الوقت الذي تعيش نخبنا أسيرة العولمة وننسى من نحن، وماذا قدّمنا من أجل النهوض والحداثة.

وهنا أدعو إلى الإقبال وبقوة على استخدام التقنيات الحديثة كالكِبتار والمخابر اللغوية وبرامج المعلوماتية الحديثة في الترجمة وتخزين أو تصنيف القواعد. ولا يفوتني هنا التركيز على ضرورة تطبيق استراتيجية تطوير العلوم والثقافة التي أقرّتها الأليسكو عام 1987 وخلاصتها: رمي كل الثقل العربي من أجل سرعة التطوّر وتسارع وتيرة الاكتشاف والاختراع

والتطبيق، وتقليص الفارق الزمني بين الاختراع وتطبيقه، وتزايد الارتباط بين التقدّم العلمي والثقافي من جهة، والتطوّر الاقتصادي والاجتماعي من جهة أخرى، وتعاظم قدرة الدول والجهات المتفوقة علمياً وثقافياً على التحكّم في توجيه مسارات التطوّر بما يخدم مصالحها. ومن باب جمع ذخيرتنا اللغوية أنادي وبقوة بضرورة العمل على تجسيد المشروع القومي الجبّار.

5/3- لغة الإعلام: إنّ ضعف الأداء في الإعلام جعلني أعرج على هذا الجانب باعتباره من التحديات الكبرى التي تواجهنا الآن ولاحقاً، حيث لم تعمل هذه المؤسسات على إرساء تقاليد الأداء اللغوي السليم، وعدم تعميم الخطاب بالعربية السليمة، حتى استفحل الخطأ في وسائل الإعلام الجماهيرية. وكان يجب أن تعمل على الترقية اللغوية وإشاعة المصطلح وتقريبه وتقديم الجديد في حركة تطوّرية، وتسهيل العربية في المجال الإعلامي من العصر قدر ما تستطيع، مع الحرص على الثوابت الأساس فيها. وبكل أسف نجد السلاح الرابع هذا تستغلّه العاميات. ومن هنا ننادي بإعداد الصحافيين إعداداً لغوياً لتعزيز السليقة اللغوية عبر استخدام الفصحى في الإعلام المرئي والمسموع بشكل واسع خاصة في الحوارات والمسلسلات، وفي صقل الإعلانات، بالإضافة إلى تزويدهم بالمواد الإعلامية بحيث يكون الصِحافي متمكناً من مواجهة قضايا المصطلح الأجنبي.

6/3- تفعيل المؤسسات الثقافية: هناك مؤسسات كثيرة تعمل، ولكنّ جهودها مشتة وبطيئة وبعض المؤسسات ينفق عليها ولكنّها عاطلة أو

تقرب من هذا. تصوّروا ذلك الروتين الذي يمرّ به المصطلح العلمي عبر هذه المؤسسات إلى أن يتوحّـد، ومـا يـأتي زمـن توحيـده إلا واسـتقر المصطلـح الأجنبي أو العامي في أذهان الناس وتداولوه دون حرج كأنّه عربـي. هـذه المؤسسات تحتاج إلى رجّة كبرى ونقلة نوعية، وإلى تقويـم فعلـي، كـي لا تعيد القول المكرور ولا تعيش على التوصيات التي لا تتابعـها، أو تحتمـي بالأبراج بعيدة عن الواقع؛ حيث تشرّع ولا يعمل بتشريعاتها.

4- توصيات: وأخـيراً أعـود لأؤكد الإشـكالات الـتي يجـب الوقـوف عندها كثيراً، وأطرح على الحضور النظر في مصداقيـة هـذه اللغـة الـتي لا نتعامل بها إلا في أقسامنا بعد أكثر مـن أربعـة عشـر قرنـاً مـن تقنينـها، وأطرح ما أصبنا به من ثقافة هشّة وسطحية، فلماذا هذا التدهور الفعلي في ثقافتنا؟ ولماذا شـدة الحديـث عـن قـوة العربيـة وواقعـها مدعـاة للأسـى؟ وأعرف أنّ بعض الأخوة سوف يعيبون عليّ هذا الطرح، لكنّني أعرف أنّه يعمل على تحريك الغيوريـن في هـذا المحفـل لتفعيـل اللغـة العربيـة مـن ذاتها، ومن سيرورتها وصيرورتها الذي لا يعرف الثبـات، ولا يجـب أن نُوقف التاريخ فيها عند لحظة معيّنة هي قرون الاحتجاج، أو قل ولا تقل أو هذا ما قالت به القدامى وقياس الحاضر على المـاضي ومصـادرة العقـل والاجتهاد، وتفويض الآخر بالتفكير. وأكتفي بذكـر هـذه الهمـوم، **كما أوصي بما يلي**:

1 – التأكيد على أنّ البحث اللغوي يعود للمستوى الأكاديمي والعملية التعليميـة، وليـس لأي شـعار بـرّاق مـهما كـان مغريـاً، وتضـافر جـهود

الأكاديميين في كل مكان ممن يتقنون ليس فقط لغةَ العلم، بل ومنهجَه أيضاً.

2- بذل مزيدٍ من العناية في إعداد مدرسي اللغة العربية والكتاب المدرسي وتقويمِ أساليب تعليم العربية باستغلال الوسائل التقنية المتطوّرة.

3- مطالبة المجلس الأعلى للغة العربية للسعي لدى الوزارات المعنية قصد تنسيق الجهود في مجال ترقية اللغة العربية المبسّطة.

4- العمل بلغتا العربية أولاً وفي ذاتها، ومن خلال مناهجها، واعتماد اللغات الأجنبية المتطوّرة.

5- دخول المنافسة العلمية والإعلامية مهما كانت العواقب والنتائج، والتفعيل داخل المنظومة الاجتماعية للكون، خاصة داخل شبكة الإنترنيت، وأخذ المواقع النشطة المتجدّدة.

7- دعوة أكاديمية اللغة العربية بالجزائر إلى عقد ندوات لمعالجة قضايا اللغة العربية.

اللغـــة العربيـــة
في تحديات العصرنة

الأستاذ الدكتور يوسف الصيداوي

دمشق - سوريا

السلام عليكم ورحمة الله.

هـذه هـي المـرة الأولى الـتي أرى فيـها أرض الجزائـر عِيانـاً، وكنـت تخيّلتها بعدد شهدائها مليون مرة. وكان والدي رحمه الله أخذ يوماً بيدي وأنا ابن عشر سنين إلى زقاق نقيب الأشراف بدمشق، فقال لي وهـو يشـير إلى باب هناك: يا بنيّ هذا بيت عبد القادر الجزائري، ولقد باهيت يوما أندادي بعد حِصة التاريخ بما أعرف، وسرت أمامهم أرشدهم، حتـى إذا صرت من باب بيته قاب قوسين، توقّفت مزدهياً متّخذاً سَـمت العلمـاء: هذا هو!! ولكم خاب ظني إذ رأيتهم ينظرون إليّ منكريـن، شـاكّين فيمـا أزعم. فقد كان في مخيلتهم أنّ بيت البطل لا بدّ أن يكون بطل البيوت!! وأن بيتاً يسكنه عبد القادر، لا بدّ أن يكون قائمـاً بـين الأرض والسـماء، يأخذ بالعقول بناؤه، كما أخذ بالعقول ساكنه.

وإذا كان من طبائع الأمور أن يُنقل رُفاتـه مـن دمشـق إلى أرض وطنـه حيث أشـعل الثـورة، وقـاتل المسـتعمر، فـإنّ شـعوري ورُفاتـه يُحمـل إلى الطائرة ليُنقَل إلى عرينه، كان شعور الطفل يجعل من حبّـه للشـيء الـذي يحبه، قانوناً للمُلك.

وتمرّ السنون، ويشبّ عمرو عـن الطـوق، فـإذا حديـث ثـورة الجزائـر ومعجزاتِ رجالِها واستشهادِ أبطالها، وغار انتصارها، يغـدو خـبزَ عمـرو اليومي.

تلك أفكارٌ هبّت دُفعةً واحدة، ساعةَ قيل لي على غير توقّـع: أنـت في المدعوّين للحديث في الجزائر. وإنني لأَراني اليوم مدينـاً لرئاسـة المجلـس الأعلى للغة العربية ديناً ذا شعبتين، أولاهما: أن أنشقتني أنسـاماً يعبَـق

بها عطر البطولة والشهادة. والثانيـة: أن أتـاحت لي الحديـث إلى زمـلاء أفاضل، في أمـر كـان حبيـس ذهـني إلى الأمـس القريـب، حـين أجْـرت صحيفة البعث الدمشـقيةُ حديثـاً معـي، حـول اللغـة العربيـة وتحديـات العصر، نَشَرَتْه يوم الرابع من شهر سبتمبر (أيلول) الماضي.

ولما رأيت المجلس الأعلى الموقر، قد جعل المسألة نفسَها أحدَ محـاور هذه الندوة، لم أتردد لحظةً في الاختيار.

إنّ التحدّيَ لا يَصْدُق فيكون تحدّيـاً، إلاّ إذا كـان هنـاك اعتقـادٌ بـأنّ المتحدَّى عاجزٌ – أو كالعاجز – عن أن يَثبُت لامتحـان النـار في البُوتقـة. وما أرى تحدّي اللغات وامتحانَها في البواتـق يكـون، إلاّ في القـدرة علـى التعبير عن العلوم الإنسانية، من أدب وفلسفة ومنطق واجتمـاع الخ... أو العلوم الأساسية والتطبيقية، من فيزياء وكيمياء وطبٍّ وهندسة ورياضياتٍ ومعلوماتية الخ...

وما أظنّ مدّعياً – مهما يبلغْ به العناد – يدّعي عجز العربية أصلاً عن التعبير والأداء في كلا صنفَي هذه العلـوم، اللّـهمَّ إلاّ أن يكـون مـع عنـاده جاهلاً، أو عدوّاً تغشّي عداوتُه بصيرته. وهذا النمـوذج مـن المكـابرين، لا يستحيل وجودُه، ولكنّ وقار العلم وطمأنينته، يمنعان من الالتفات إليـه، بله محاورتَه في مزاعمه ودعاواه.

فلقد كرَّت القـرون بعـد القـرون، وطاقـة العربيـة علـى التعبـير والأداء عموماً، تعلو على الشكّ والريب، في الأدب شعراً ونثراً، وفي الفكر تفسيراً وتبييناً، وفي القَصّ سرداً وحواراً، وفي الصحة تشريحاً وطبّاً وصيدلـة، وفي الزراعة غرساً ورَيّـاً وتوصيفـاً، وفي الهندسـة حسـاباً وبنـاءً وتشـييداً، وفي

الرياضيات وبعضُها الجبر والصفر، وفي الفيزياء وبعضُها البصريات، وفي الجغرافية وبعضُها قياس محيط الأرض، وفي الفلك وبعضُه رصد الكواكب والنجوم الخ...

كان ذلك يوم كان العرب سادة المشارق والمغارب، يُبدِعون فيعبّرون عمّا أبدعوا، ويخترعون فيصفون ما استحدثوا، ويكتشفون فيُبيّنون أفصح البيان، ما كان خبيئاً فكشفوا عنه غطاءه. وليس هذا بسرّ، وإنكم لَلعارفون العالمون به، وإنما أقوله للذكرى والاعتبار.

ويكرّ الزمان ، فإذا الذين كانوا بالأمس سادة الدنيا، قد عصفت بهم غزوة مغولية، لا تُبقي علماً ولا علماء، ولا بارقة من نور أو ضياء. ولولا أنّ الأمم والشعوب يصعب أن تبيد لبادوا. حتى إذا انزاح الكابوس المغولي وما كاد، أقبل الاستعمار التركي، فأناخ على شعوب الأمة، وظلّ منيخاً على بعضها، أكثر من أربعمئة سنة، حاول خلالها محق اللغة العربية، وإحلال التركية محلّها. حتى لقد كانت دروس النحو العربي تُلقى باللغة التركية. ولولا أن تستعصم الأمة بالقرآن، لقد كادت تُمحق لغة العرب محقاً.

وتبدو مطالع القرن العشرين، فيحلّ الاستعمار الفرنسي والاستعمار البريطاني محل الأتراك، ولكلٍّ زيٌّ يتزيّى به، ولكلٍّ صورة يتّخذها، غير أنّ محق اللغة العربية ظلّ عند كلّ مستعمر منهم غايةً لا يُغفَل عنها.

لكنّ شعباً عريقاً، عدّةُ أبنائه مئتان وخمسون مليوناً من البشر، يتكلّمون لغةً واحدة، ويقيمون على أرض ملأى بالثرَوات، مِساحتها أحدَ عشر مليوناً من الكيلومترات المربعة، لهو شعبٌ، جديرٌ أن يحنّ إلى عهد

كان فيه سيّد الدنيا، وأن ينهض اليوم أو غداً، فيمزّق كفنه وينفض عن نفسه تراب قبره. وشعب كهذا لا بدّ من أن تُخشى يقَظَتُه، وأن يُحال بينه وبين الانبعاث.

وفكّر المستعمرون المحدثون وقدَّروا، فإذا بينهم وبين ما يبتغونه عقبتان: تمزيق وحدة الأرض، وتمزيق وحدة اللغة.

أما تمزيق الأرض فقد حققته المعاهدات السرية والمؤامرات، والخُدَع والمناورات، وهِبات من لا يملك لمن لا يستحق. وإنّ مما يدعو إلى الأسى، أنْ أمسى ذلك واقعاً ملموساً، تنطق به المصورات، وتؤبّده أضابير الأمم المتحدة. فمصر دولة والسودان دولة، وسورية دولة ولبنان أخرى، وتونس دولة والمغرب أخرى. وقِس على ما ذكرنا ما لم نذكر. وما يزال الاستعمار، وإن طُرِدت جحافله، يُعمِل حتى يوم الناس هذا، أدواتِ البتر والتقطيع، في الذي ما زال متماسكاً من هذه الأرض، وما أمْرُ فلسطين بخافٍ ولا بعيد. يقول الشاعر العراقيّ وهو في دمشق، معبّراً عما تتجرّع الأمة العربية من غُصص التفريق:

ببغدادَ أشتاق الشآمَ وها أنا ... إلى الكرخِ من بغداد جَمُّ التشوُّقِ
هما وطنٌ فردٌ وقد فرّقوهما ... رمى اللهُ بالتشتيت شملَ المفرّقِ

اللهمّ آمين!!

وأما العقبة الثانية، التي ما فتئ الاستعمار يعمل على اقتحامها، وسيظلّ يعمل ما دام يستطيع ذلك، فإنها اللغة العربية، فلقد عَلِم أنّ تقطيع أوصال الأرض، قد لا يكلّفه أحياناً أكثر من قرار، فإذا المغرب شِلوٌ هنا، ومصر شِلوٌ هناك، وسورية شِلوٌ هنالك، وهكذا... وأما اللغة فمسألة

أخرى. اللغة ضمير الأمة، وعقلها وفكرها وحضارتها ودينها ومعتقداتـها. وهذا لا يُمحى بقرار، ولا تُزيله خُدعة، ولا تجتاحه الجيـوش. لقـد علـم الاستعمار ذلك أحسن العلم، فعمد إلى التدسُّس، فأتى صرح العربية الممرد من أعاليه وأسافله.

أما إتيانه من أعاليه، فبفرية تزعم أنّ العربية كانت تصلح للتعبير عن شؤون الحياة أيام امرئ القيس وزهير، مِن وصف ناقة، ولوعة عاشق وألَم آلِم. وأما اليوم فكيف؟! إنها اليوم كاللاتينية بالأمس. ولقد حسم التطـور هذه المسألة كما زعموا، فالفصحى تلفظ أنفاسَها، فإن عاشت ففي قصيـدة شاعر أو كتاب ناثر. وأما الذي يحيا ويجدر أن يعيـش، فـهو العاميـة!! وما زالت هذه الدعوى الباطلة تترسّخ في النفوس الضعيفة وتتوطّـد، حتـى صرنا نسمع نشرات أخبار تُقرأ بالعامية، وحتى صرنا نقرأ مجلة مقصـورة على تأييد العامية.

وأضافوا إلى هذه الفرية فريـة أخـرى تزعـم أنّ العربيـة أعجـزُ مـن أن تنهض بنقل علوم العصر، وما يُكتشَف فيه ويُختَرَع، من كيميـاء وفيزيـاء وطبّ وهندسة ومعلوماتيـة الخ... فمـن شاء مـن العـرب أن يتعلّـم هـذه العلوم، فإنما سبيله إلى ذلك، وسبيل الجامعات إلى تعليمه ذلك، هو اللغة الفرنسية أو الإنجليزيـة!! فيـا أبنـاء الأمـة العربيـة، أُنْبُـذوا لغتكـم واطّرحوها، واستمسكوا بإحدى هاتين اللغتين، تواكبوا العصر، وترقَوا إلى مستوى علومه!! وإنّ مِن الطرائف أنهم يذكرون هاتين اللغتين، ويسكتون عـن ذكـر اللغـة اليابانيـة أو الروسية أو الصينيـة. وتحـت هـذا الـبرقع الخبيث، عمدوا إلى الجامعات التي كانت تدرِّس العلومَ باللغـة العربيـة،

فجعلوا التعليم فيها وفيما نشأ بعدها من جامعات، بإحدى اللغتين المذكورتين. هذا، مع أنّ تجارب الأيام كانت أثبتت، وما تزال تُثبت، أنّ التعليم بالعربية قد أجدى على طلاّب العلم، ما لم تُجْدِه اللغتان الأجنبيتان. ولو كان التفصيل والإحصاء من همومنا هنا، لملأنا من ذلك صفحات.

وإنّ المتدسّسين وضعافَ النفوس، ليُعينون على هذه الخطة الخبيثة، ويُشيعون مقوّلاتها، ويعملون على توطيدها. فلقد كان صدور قرار في الشقيقة مصر يجعل التعليم الجامعي باللغة العربية، فكرّ عليه هؤلاء فألغي، وعُرِّب التعليم الجامعي أيضاً في الأردنّ العزيز، ولكن لم يلبث أولئك المتبرقعون أن عملوا على إلغائه فأُلغي، كلُّ هذا مع أنّ التعليم بالعربية، قد بيَّن ارتفاع مستوى العلم عند الطلاب، وازديادَ عدد الناجحين.

ويزعمون أنّ تعريب كتب العلوم، يحول دونه افتقارٌ إلى المصطلحات. وهذه فرية أيضاً، ينقضها سيل من المصطلحات في كلّ علم من العلوم. منها معاجم الأطباء، ومعاجم اتحاد المهندسين، ومعاجم مكتب تنسيق التعريب في الرباط، ومعاجم مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ومعاجم مجمع اللغة العربية في الأردنّ، ومنها معجم هيئة الطاقة الذرية السورية، ومعجم مصطلحات المعلوماتية، ويُتوقّع أن تُصدره الجمعية العلمية السورية للمعلوماتية بين يوم وآخر، ومنها معجم مصطلحات العلم والتكنولوجيا، وقد عمل على ترجمته إلى العربية معهدُ الإنماء العربي فصدر في أربعة

مجلّدات. وما ذكرناه غيضٌ من فيض. فإنّ عدد المصطلحات ما بين مترجم وموضوع، يبلغ مئات الألوف.

فهل يوصف كل ذلك بالفقر؟ إنّنا لا نفتقر إلى المصطلح، فهو في الكفّ، وإنما الذي نفتقر إليه هو توحيد المصطلح. فيا علماء الأمة، وحّدوا المصطلح، وحّدوا المصطلح، نسألكم بالله، وبحقّ أمتكم عليكم، أن توحّدوا المصطلح. إنّ عصرنا هذا الذي نعيش فيه، لا يتحدى اللغة العربية، وإنما يتحدّى المتدسّسين الذين يُروّجون مقوّلة الفقر إلى المصطلح. ويتحدّى المؤلِّفَ العربي، الذي يكسَل عن الرجوع إلى هذه المراجع ونظائرها. ويتحدّى كلَّ جامعة في الوطن العربي، تأبى تدريس العلوم باللغة العربية. ويتحدّى في آخر المطاف كلَّ صانع قرار – كما يقال – يرضى أن يَرى لغة أمته تُنحّى وتنبذ، لتُجلَب لغة أجنبية تحلّ محلّها.

إنّ من أعجب العجب، أنّ مجلة هيئة الطاقة الذرية الفرنسية (CEA) كانت درجت على استعمال مصطلح إنجليزيٍّ مفرنس، هو (réacteur pressurisé) مقابل (pressurized reactor)، فنبّهَتْها أكاديمية اللغة الفرنسية على هذا، وطلبت إليها أن تستعمل بدل ذلك تعبيراً فرنسياً صميماً هو (sous pression) وقد عملت المجلة بذلك من بعدُ، ونشرت به بياناً. لقد أبى القوّامون على اللغة الفرنسية استعمال كلمة مفرنسة، وإنْ كانت من الوجهة اللغوية، صحيحةً لا عيب فيها، فنبذوها حرصاً وحميّة. والقوّامون على العربية عندنا يرونها تُنبذ كلُّها وتُستبدل بها لغةٌ أخرى، فلا يأبون ولا يُنكرون!! فيا لَلعجب!!

كم مؤتمراً من قبل عُقد حول تعريب التعليم، وكم ندوةً؟ وكم كتاباً

أُلِّف من قبل فأوضح وبيّن؟ وكم مجلّةً كَتَبت وأعلنت؟ وكم كِاتباً صاح منذراً ومنبّهاً؟ فإلى متى؟! أما آن؟!

وأما إتيان صرح العربية الممرد من أسافله، فله قصة أخرى. وذلك أنّ التعليم كان يجري على طريقة تهجئة الحروف، حرفاً بعد حرف بعد حرف. والحقّ أنّها طريقة عفا عليها الزمن. ولكنْ ليست المسألة هنا وإنما هي في أننا أُقنِعنا أنّ الطريقة الجملية (الجشتلتية) هي خير طريقة لتعليم أبناء الأمة،كيف يقرؤون لغة أُمّتهم ويكتبونها. ومنذ بدأت كتب التعليم بتطبيق هذه الطريقة في الصف الأول الابتدائي، بدأ انحدار أبنائنا نحو شلل الكتابة وعشى القراءة. وصحِب انحدارَهم شكوى الآباء والأمهات عجزَ أبنائهم، وما يتكبكبون إليه. وكن لا بدَّ من أن ينشأ عن عجز الطفل إحساسُه بالهزيمة، وأن ينكفئ معتقداً في نفسه القصورَ، نافراً من لغته، مبغضاً لها. حتى إذا أُغلِق باب الصفّ على أولئك الأطفال الصغار، وخلا المعلّمُ بهم، كان الشعورُ بالقلقِ والخوف، والكرهُ للمعلم والإعراضُ نفسياً عما يقول، والانصرافُ عقلاً وحسّاً، إلى جَرَس الفرصة متى يُقرَع؟! فإذا انتهى العام الدراسي، ورُقِّيَ الطفل إلى الصفّ الثاني، ارتقى معه عجزُه وقصورُه وإخفاقُه، وظلّ هذا الثالوث يلزمه ما دام طالباً، حتى إذا خرج إلى الحياة العملية–كما يقال– وجد في نفسه حاجة شديدة إلى ما يدفع عنه تهمة هذا الثالوث المزري، فتسلّح بثالوث مقابل، أشاعه أعداء أمتنا ولغتِنا: هو ((العربي صعب، واللغة العربية لا تواكب العصر، والعامية هي الحلّ)).

فأما أنّ اللغة العربية صعبة، فخدعة الصبيّ عن اللبن. إذ اللغة لا

توصَف بأنها صعبة أو سهلة، إلاّ إذا كان من يتعلّمها من غير أبنائها. فالطفل الصيني الذي يكتسب لغة قومه، كما يرضع لبن أمه، ليست الصينية صعبةً عليه. والهندية ليست صعبة على الهندي، والألمانية ليست صعبة على الألماني، فانظر كيف يفترون على العربية!!

وأما أنّ العربية لا تواكب العصر، فكلامٌ ليس بذي معنى، قد صيغ على مبدإخبيث يقول: نحن نقول، فأثبتِ العكس أنت.

وأما أنّ العامية هي الحلّ، فشعار يرفعه أعداء لغتنا وأمتنا. وإذا كانت الصحف والمجلاّت وكتب الأدب شعراً ونثراً، وكتبُ العلوم على اختلاف مناحيها، تعبر عن شؤون الحياة جميعِها بالفصحى، فأين المشكلة إذاً حتى يُسعى إلى حلّها؟! إنّ الفصحى لتطارد العامية في كل ميدان فتهزمها وتدُكّ مواقعها. كنا ونحن صغار نقول بالعامية: أطمبيل، وطردته السيارة، ونقول: تلفون، وطرده الهاتف، ونقول: بوليس، وطرده الشرطي، ونقول: إجزي، وطرده الصيدلي، ونقول: استخانة، وطردها المستشفى، ونقول: بمبة، وطردتها القنبلة، ونقول: بانطو، وطرده المعطف، ونقول: بوصطة، وطردها البريد، ونقول: الطوب، وطرده المِدفع ... كل هذا قطرة من محيط، ومن شاء الإحصاء احتاج إلى كتاب كبير. فأين المشكلة التي يزعمون أنّ العامية تحلّها؟ وكيف تكون العامية حلاً وقد كان الاستعمار في لبنان، يشجّع عليها ليُبعِد هذا البلد عن باقي أشقائه العرب؟! أغلب الظنّ أنّ العامية هي الحلّ لما يكابده المستعمر، في محاولاته تهديمَ وحدة الأمة، بتهديم لغتها!!

ونعود إلى مناهج التعليم، فنقول: لقد فَرضَت علينا مناهجُنا طريقة

تعليمية، تصلح للفرنسية والإنجليزية لما بين اللفظ فيهما والكتابة من فروق واسعة. وأما لغتنا، فبفضلٍ من الله، ليست كذلك. فالحرف هو حيثما جاء في الكلام: فالقاف قاف، والسين سين، والباء باء، والألف ألف الخ... فلمَ نطَّرحُ مِنّةً مَنّ الله بها علينا، ونسعى إلى ما حُرِمت منه اللغات الأخرى فنُرهقَ به أبناءنا جيلاً بعد جيل؟ أبَلَغَ العجزُ بنا ألاّ نعرفَ كيف نعلّمُ ابنَنا لغة أمه وأبيه؟!

لقد كان مجمع اللغة العربية بدمشق عقد قبل أيام قليلة، ندوة للغة العربية والتعليم. وبتكليف منه ألقيت محاضرةً يوم الرابع والعشرين من تِشرين الأول (أكتوبر) وضعت فيها منهجاً تأسيسياً، لتعليم الطفل في المرحلة الابتدائية، وسمّيت ذلك: [الطريقة المقطعية]. وهي قائمة على أنّ الحروف العربية زمرتان: هي حروف صحاح، كالباء والتاء والجيم الخ... وحروفُ علّة، هي الألف والواو والياء، أو أبعاضُها كما يقول سيبويه، وهي: الفتحة والضمة والكسرة. وأنّ الحرف الصحيح، يظلّ ساكناً، حبيسَ مخرجه من الفم، حتى يقترن بحرف علّة أو بعضه فينفجرَ خارجاً من محبسه، فيقال مثلاً: [با بو بي]، أو [بَ بُ بِ]. فإذا لم يقترن الحرف الصحيح بحرف علّة أو بعضه، فإنه يجيء بين مقطعين كأنه منصّة يُقفَز منها إلى المقطع الذي يليه فيكون ساكناً، وقبله مقطع وبعده مقطع. ولقد دفعت بتفاصيل ذلك إلى السادة القائمين هنا على شؤون الطباعة لنشرها في ملحق هذه الكلمة. فاللهمّ اشهد أنني قرّبت قرباني عند مذبح العربية.

ولقد رأى أعداء العربية، ومن يناصرهم من المتدسّسين، أنّ قراءة النحو ودراستَه عسرتان شاقّتان، فاندسّوا من خلال هذه الثغرة، فنصبوا في رياض العربية هُوْلةً كتبوا على صدرها: [اللغة العربية صعبة]. ولوصدقوا لقالوا: [النحو صعب]. وخُدِع الناس عن أنفسهم، فراحوا يردّدون تلك المقوّلة المضحكة: [اللغة العربية صعبة]، وأخذ أكثرهم وعياً، بمقوّلة أخرى تقول: [يسّروا النحو]، [يسّروا النحو]، كأنّ النحو يُيَسَّر!!

أمام ذلك كان لا بدّ من معالجةٍ تنتزع من جعبة قالة السوء سهماً بعد سهم. فانقطعتُ أكثر من ستّ سنين إلى النحو ومؤلّفاته، منذ كَتَبَ سيبويه كتابه، حتى يوم الناس هذا. ومنّ اللهُ علينا فخرجنا من مراجعة هذا التراث الضخم، والمكتبة النحوية العريضة، إلى كتاب سمّيته: [الكفاف]، وهو هذا، أعدت فيه صوغ قواعد اللغة العربية تامة غير منقوصة بحوثاً وأدوات ورتبتها ترتيباً ألفبائياً، وقدّمت بين يدي هذا الكتاب أنّ النحو شيء والقواعد شيء آخر، وأنّ النحو لا يُستطاع تيسيره، وإنما الذي يستطاع هو استلال القاعدة منه وإعادة صوغها. وهو ما أقدرنا الله أن نقوم به. ولقد باعدت بين القواعد وبين عقبات تنبثّ في الطريق النحوي، منها: العامل، والتعليل، والتأويل، والتوهم، والضرورة الشعرية. وخلّصت القواعد مما أحاط بها من آراء للنحاة متضاربة، ومدارس للنحو متدابرة، ونفيت عنها التشقيق والتفريع والاختلاف، وناقشت في جزء من الكتاب مستقل، ما ذهبت إليه كتب الصناعة في معظم البحوث وكثير من الأدوات. وبيّنت أن النحو لا يعلّم اللغة، وإنما الذي يعلّم اللغة هو قراءة

فصيح الكلام شعراً ونثراً. وجعلت تفاصيل ذلك في ملحق ثانٍ في آخر هذه الكلمة.

ولقد عهدت بهذا الكتاب إلى دار الفكر، لتبثّه في الناس، وأنا أقول في نفسي: اللهم اشهد أنني أقرّب هذا القربان، عند مذبح اللغة العربية، لغةِ قرآنك العظيم، وأنني راجع إليك اليوم أو غداً، وقرباني بين يديّ، فتقبّل اللهمّ قرباني.

المحتويات

- مدخـل
- اللغة العربية وثورة المعلومات
- خصوصية اللغة العربية
- الأزمة الداخلية
- لغة السمع ولغة الكتابة
- الترجمة الآلية
- الإنترنت
- العولمة
- اقتصاديات التعليم
- الاستنتاج

مدخل:

يندر أن توضع اللغات أمام مثل هذا الاختبار سواء من حيث الموضوع وهو التحدي أو من حيث التاريخ وهو بداية قرن أو انتهاء آخر. إذ أن العقود والقرون ما هي إلا عملية مستمرة وقطار متواصل من الأحداث لا يعرف التوقف أو الفواصل. فما هو الجديد الذي يجعل القرن الحادي والعشرين على مثل هذه الأهمية وعلى مثل هذا التحديد. ولماذا اللغة واللغة العربية على وجه الخصوص.

إن الاهتمام بالقرن الحادي والعشرين ناشئ عن الأحداث والتغييرات التي اكتنفت القرن العشرين ذاته وليس هناك من مبالغة إذا قلنا إن القرن العشرين شهد أعظم التغيرات في تاريخ البشرية على الإطلاق وما يميز التغير في هذا القرن العشرين أنه ليس مجرد اختلاف عن الماضي وابتعاد عنه بل أنه اقتحام لطبيعة المستقبل الذي ينتظر البشرية ويوشك أن يدخل الإنسان فيه. فلقد شهد القرن العشرون أعظم الحروب والثورات على الإطلاق راح ضحيتها ما يقرب من مائة مليون نسمة وقد رافق هذه الحروب مئات آلاف من الابتكارات والاختراعات أخذت تتسع مع اتساع التقدم العلمي والتكنولوجي لتشمل كل مجال من مجالات الحياة على الإطلاق .

اللغة وثورة المعلومات

وشهدنا في الربع الأخير من القرن العشرين سرعة في التغيير السياسي والاقتصادي والاجتماعي والعلمي والتكنولوجي تجتاح كل شيء وفي

مقدمتها أدوات الاتصال، ونقل المعرفة واللغة جزء منها. الأمر الذي جعل إمكانات المستقبل غير محدودة.

وعندما بدأت ثورة الاتصالات في الربع الأخير ورافقتها ثورة الحواسيب وانفجار تكنولوجيا المعلومات وما فتحته من آفاق جديدة للتواصل والبحث العلمي والتطوير التكنولوجي والتبادل المعرفي أصبحت آنذاك كل صغيرة وكبيرة في حياة الإنسان والمجتمع عرضة للتأثر وعرضة للتغير بسرعة وهو أمر لم تعرفه البشرية قبل ذلك على الإطلاق. فالثورة الصناعية كانت أحداثها بطيئة وإيقاعها واهناً بالمقارنة بسرعة الأحداث والإيقاعات التي تحملها الثورات المعاصرة. فالمعلومة لم تعد المعلومة التقليدية، والكتاب، لم يعد الكتاب والمجلد الضخم أصبح قابلاً للاختصار في بضع سنتمترات مربعة، والموسوعة الكاملة في قرص مدمج. ولأول مرة في تاريخ الإنسانية تصبح الكتابة والصوت والصورة تتحرك معاً وتتفاعل معاً ويستطيع القارئ أن يتفاعل معها إذا أراد. وجاءت شبكات المعلومات الدولية الإنترنت والشبكات الإلكترونية والاتصالات الفضائية وتكنولوجيا التعرف على الأشكال والمسح الإلكتروني للصور والصفحات المكتوبة لتجعل كل مادة لها علاقة بالعلم أو المعرفة أو الاتصال أو الاجتماع أو التباحث أو التخاطب أو التعليم أو التعلم أو الفكر أو الثقافة أو الفنون أو التعاقد أو الإنجاز .... الخ جعلت كل ذلك قابلاً للتبادل الفوري من أقصى الكوكب إلى أقصاه، ومن قطبه الجنوبي إلى قطبه الشمالي، ومن كل فرد إلى آخر دون رقابة ودون إذن من الدولة ومن السلطة ومن المؤسسة. وبالتالي أصبحت اللغة في عمق المعمعة لأن كل هذا

الأمر لا يتم إلا من خلال وعاء لغوي معروف ومتداول. وسواء كانت اللغة العربية أم اللغة الصينية فإن كل هذه التغييرات المتواصلة والتي من المنتظر أن تتضاعف تأثيراتها عشرات المرات عمقاً وانتشاراً خلال السنوات القادمة تضع اللغات الوطنية موضع اختبار وتحدّ.

ولأن هذا الانفجار المعرفي أصبح يشارك فيه ليس فقط مجموعة محدودة من العلماء والمخترعين في بلد معين -كما كان الأمر في الفترات الماضية- وإنما أصبحت ملايين العقول في أنحاء المعمورة مفتوحة على هذا الأمر ومتصلة بمراكز التصنيع والابتكار من خلال الشبكات الإلكترونية وهو ما لم يحلم به أحد في يوم من الأيام. لكل هذا فإن مضاعفاته والآفاق التي ننتظر ولوجها في القرن الحادي والعشرين، أي: في السنوات القادمة ستكون أصعب من أن يحددها خيال.

صحيح أن أنظمة الحواسيب والشبكات الإلكترونية سواء كانت شبكات داخلية (إنترنت) أو شبكات خارجية إنترنت لها لغاتها الرقمية المعقدة والتي لا تعتمد على لغة قومية محددة ... إلا أن المستعمل النهائي سواء كان على الطرف الأول للشبكة الإلكترونية أم على الطرف الثاني فإنه لا يستطيع أن يتعامل إلا من خلال لغته الشخصية، أي: لغته القومية، ومن هنا ورغم كل التعقيدات التكنولوجية تظل اللغة القومية هي مفتاح الدخول ومفتاح الخروج على حد سواء. ستبقى اللغات القومية ولفترة طويلة هي مفتاح العلم ومفتاح الثقافة والفكر والتكنولوجيا وبشكل قطعي هي أداة التواصل بين الأفراد والمجتمعات .

خصوصية اللغة العربية

بغض النظر كيف تقيم كل أمة لغتها وأي درجة من الأهمية تعطيها لهذه اللغة إلا أن اللغة العربية لها موقع خاص في ضمير الأمة العربية وفكرها وثقافتها وتراثها وترتبط اللغة العربية ارتباطا وثيقا بالدين الإسلامي والذي له تأثيره الكبير على فكر الأمة ومواقفها من التطورات الحضارية المدنية التي تحملها أمواج التقدم في العالم... وحقيقة الأمر إن هذه الخصوصية تطورت على مدى السنين والقرون

بأشكال مختلفة لتصبح في العصر الحديث خصوصية معقدة تتطلب الكثير من الجهد والعمل. إن التطورات المعاصرة التي أشرنا بإيجاز إلى بعض ملامحها تطرح السؤال الرئيسي التالي :

"كيف تستطيع الأمة أن تتمسك بلغتها بما لها من خصوصية تاريخية وتراثية في بيئة حضارية وفكرية وعلمية وثقافية تكنولوجية شديدة التغيير سريعة الإيقاع ؟ هل تصلح اللغة في أوضاعها الحالية لمجابهة مختلف التحديات التي تفرضها تكنولوجيا المعلومات؟

وإذا كان التمسك في الماضي بخصوصية اللغة وثباتها كان له دور إيجابي جداً بالمحافظة على هوية الأمة وثقافتها وفي المحافظة على التماسك العربي والتواصل العربي بين أفراد الأمة وليس بالضرورة بين حكامها – فإن القرن الحادي والعشرين يحمل تحديات من نوع مختلف. كانت التحديات في الماضي موجهة للأمة العربية ذاتها ولم يكن شيء مما كان يتداول موجهاً للغة من حيث مرونة بنيتها أو قدرتها على التجاوب. وفي أحيان أخرى كان التحدي موجهاً للأمة من حيث محاولة إلغاء لغتها

أو إحلال لغة أخرى محلها كما كان يفعل المستعمرون في العديد من الأقطار العربية. غير أن " فرض لغة الآخرين بالقوة " كان يولد تحدياً داخلياً يزيد الأمة تمسكاً بلغتها وبتراثها.الإشكالية المعاصرة التي تواجهها اللغة القومية

إن مجمل أحداث السياسة والاقتصاد والإدارة والاتصال والثقافة والعلم والتكنولوجيا والمعلومات؛ هذه الأحداث وأدواتها السريعة المتطورة تظهر اللغة العربية وكأنها غير ملائمة " أو غير فعالة أو ضعيفة المرونة مما يدفع

أ-الأجيال الجديدة

ب- العلماء والباحثين والتكنولوجيين

ج- أهل الأعمال والاقتصاد والتجارة؛ يدفع تلك الفئات الثلاث إلى الابتعاد عن اللغة وعدم الاكتراث بها واستعمال لغة دولية أكثر انتشاراً على الشبكات الإلكترونية كاللغة الفرنسية أو الإنجليزية.

الأزمة الداخلية:

تعاني اللغة العربية ومنذ مطلع النهضة العربية المعاصرة من ثلاثة إشكالات رئيسية داخلية:

الإشكال الأول:_ إن إدارة شؤون اللغة العربية على المستوى الوطني والقومي كانت ولا تزال بعيدة إلى حد كبير عن مفاهيم التنمي ولغة الاقتصاد والأرقام التي تتعامل بها الدول والمؤسسات الدولية، ولذا لم تبرز مسألة اللغة العربية كمسألة تنموية تتطلب الاستثمار والإنفاق والتمويل تماماً كما يتطلبه إنشاء الشوارع أو بناء الملاعب.أو تطوير المرافق الصحية والعلمية. ولذا استقر في ذهن "السياسي "والاقتصادي" أن اللغة العربية

مجرد لغة موجودة وقائمة ويتعلمها الطلاب في المدارس ولاشيء أكـثر مـن ذلك.

وهذا يقودنا إلى القول: "إن موضوع اللغـة العربيـة وإدارتـها (لا أقـول تخصصها العلمي) يجب أن يتحول إلى إدارة عصريـة تتحـرك في إطـار قواعدهـا بحيث تبرز اللغة كواحد من متطلبات التنميـة وعواملـها المسـاعدة وليـس عبئاً إضافياً عليها.

إن تحقيق مثل هـذا الأمـر يتطلـب الأبحـاث والدراسـات الاجتماعيـة والاقتصادية والنفسـية والتعليميـة لكـي تبـين أثـر اللغـة في نجاعـة الأداء الاقتصادي أو الصحي أو التعليمي .. ولكي تبين العلاقة بين اللغة القومية وسرعة التطور والعلاقة بين اللغة وبين الحرية والديمقراطية، ولكي تبـين الخسائر غير المنظورة بملايين الدولارات التي تخسـرها الأمـة في عمليـات التعلم نتيجة للحواجز والإشكالات اللغويـة. إن المجـالات الـتي تتطلـب دراسات تفصيلية وأصيلة لتبيان العلاقة بين اللغة وبين الإنتاجية وكفـاءة الأداء هي أكثر من أن تعد أو تحصر في هذا المقام.

علـى ضـوء نتـائج هـذه الدراسـات يمكـن أن يتغـير موقـف الإدارات الرسمية الوطنية والقومية من اللغة ومن استعدادها للإنفـاق والاسـتثمار في اللغة ليس فقط كرمز قومي وإنما كواحدة من آليات التطور والتقدم.

الإشكال الثاني : إن إدارة شؤون اللغة العربية على المسـتوى الوطـني والقومي لم تستطع أن تقـدم اللغـة كـأداة مـن أدوات العلـم والتكنولوجيـا

والتطور وبالتالي ان تجعل الاستثمار في اللغة جزءا من الاستثمار في العلم وبالتالي جزءا من المشروع النهوضي الشامل للأمة.

يعود ذلك إلى أسباب كثيرة أهمها غياب الدراسات والأبحاث في هذا المجال والدخول في تفاصيل ودقائق تجارب الأمم وتقديم البدائل والمشاريع العملية التي تمكن صاحب القرار من رؤية الصلة المباشرة بين اللغة وبين العلم والتكنولوجيا على شتى المستويات. كما يعود ذلك إلى الفجوة والجفوة بين أهل العلم والتكنولوجيا وبين أهل اللغة . فأهل اللغة يهتمون باللغة كما هي وكما وصلت حتى الخطأ النحوي المتوارث (على شاكلة مكره أخوك لا بطل) يعيدون قراءته. ونصوصهم كلها قديمة لا تمت إلى العصر والى العلم مما يجعل إخراجهم من فضاء المعاصرة والعصرانية سهلاً. فالذي يتحدث عن البلاغة والفصاحة والصرف والنحو والقواعد لا يستطيع أن يمثل لها إلا بنصوص من العهد الجاهلي أو الأموي أو العباسي ونادراً ما يظهر نص عربي جميل أو دقيق يتحدث عن غزو الفضاء أو عالم الأنترنيت أو نظم الاتصالات الحديثة أو كل ماله علاقة مباشرة في جوهر العملية العلمية المعاصرة . ومن هنا ارتبطت اللغة في ذهن الطلاب بأنها لغة الماضي وليس لغة العلم.

الإشكال الثالث: _إن إدارة اللغة العربية تقوم على مفهوم "الحفظ وليس " التطوير" فحفظ اللغة بمفهوم " عدم الضياع " هو تحصيل حاصل فما دام المجتمع قائماً والناس يتواصلون فستبقى اللغة. ولكن الضياع الجزئي يبدأ حين لا يجد الناس في اللغة ما يلبي احتياجاتهم ويتجاوب

مع متطلباتهم المعاصرة. حين ذلك يضطر هؤلاء اضطراراً إلى البحث عن بدائل.

منذ مطلع القرن الحالي وحين انفتح المجتمع العربي على الحضارة الغربية وأصبحت مدخلات العلم والتكنولوجيا جزءا لا يتجزأ من حياة الناس ليس فقط في المدارس والجامعات وإنما في كل مرفق من مرافق الحياة في الصناعة والتجارة والزراعة والسياحة والسياسة والاقتصاد والبيئة والغذاء في كل شيء، كان من الضروري إعادة النظر في إدارة اللغة العربية والتعامل معها.

* فالحياة المعاصرة لا تستقيم دون مصطلحات علمية وتكنولوجية قابلة للتداول.
* عموميات المصطلحات لا تكفي.
* ولا تستقيم اللغة العلمية دون رموز واختصارات ودون مرونة في استعمال الحروف والكلمات والرسوم .
* والحياة المعاصرة لا تستقيم دون ثقافة العلم والتي قوامها لغة العلم وأساليبه ومصطلحاته .
* والحياة المعاصرة لا تستقيم دون حركية واضحة تستطيع اللغة أن تتحرك خلالها وتستقر على ما يتفق عليه ليصبح جزءا أصيلا من اللغة المعاصرة.
* ولا يمكن لقواميس اللغة العربية ومعاجمها أن تتوقف عند القرن العاشر أو الحادي عشر لتصبح بعد ذلك لغة الحياة المعاصرة واقعة خارج هذه القواميس والمعاجم.

وهكذا فإن إدارة اللغة تتطلب آليات حقيقية للتطوير والتحديث. ولا يعني التطوير والتحديث التخلص من التراث أو القضاء على ملامح اللغة وخصائصها وإنما يعني أن نوفق بين سمات هذه اللغة واستعمالاتها المعاصرة والمستقبلية وفق قواعد ومناهج معروفة ومتفق عليها ويمكن القياس عليها واستعمالها من أي شخص. فالمصطلح اللغوي ليس بالضرورة حصراً على مجامع اللغة العربية وإنما يطوره الباحثون والمترجمون والمتخصصون وحتى الأشخاص العاديون. هكذا نشأت اللغات وهكذا تطورت.

بعبارة أخرى فإن مدخلات العلم ومدخلات التكنولوجيا والاقتصاد والإعلام والتسويق ينبغي أن تكون جزء من إدارة اللغة وتطويرها.

لغة السمع ولغة الكتابة

لقد نشأت اللغة العربية وتطورت في الحقبات الماضية باعتبارها لغة مسموعة ومقروءة أكثر منها لغة مكتوبة . وهذا أمر تفرضه طبيعة الحضارة السائدة. فلم يكن الورق من الصناعات العربية القديمة ولم تكن المناطق الصحراوية قادرة على توفير متطلبات الكتابة ولم تكن القراءة منتشرة بين الناس. ولذلك غلب الطابع السمعي على الطابع الكتابي للغة وهذا ما نجده لدى لغات كثيرة. غير أن الإشكال الذي رافق هذه الظاهرة هو أن قواعد اللغة بنيت في كثير منها على أساس من موضوع الإلقاء وجاذبية القراءة ومتعة الاستماع.

وقد أدى ذلك إلي أن تصبح هذه الاعتبارات عميقة التأثير في بنية اللغة. الآن وقد تحول العالم أكثر فأكثر نحو الكتابة وأصبحت الثقافة ثقافة كتابة وتدوين، ثقافة رسم ورمز أكثر منها ثقافة خطابة وفصاحة

فهل ينبغي أن تبقى السمات القديمة تؤثر في اللغة وكأنّ شـيئاً لم يتغـير؟ المطلوب الآن أن تكون الكتابة سهلة والقواعد ميسرة لا تخضع لتـأويلات وحيثيات كثيرة. فتارة تحذف وتارة تنصب وهذا اسم أعجمي وذاك ممنوع من الصرف ...الخ كل هـذه الحيثيـات الـتي يصعـب وضعـها في قـالب منطقي متواصل أو في برمجة حاسوبية فعالة لم يعـد لهـا ضـرورة وينبغـي الاتفاق على بدائل لها. وبمعنى آخـر فـإن لغـة العصـر هـي اللغـة الأكـثر طواعية لمتطلبات التوثيق والمسح الإلكتروني والرقم الدقيق. واللغة العربيـة ينبغي أن تصبح أكثر تجاوباً مع هذه المتطلبات . إن واحداً من الأسـباب التي تجعـل اهتمـام الأجيـال الصـاعدة باللغـة العربيـة ضعيفـاً هـي تلـك التعقيدات القواعدية التي كان منشؤها السمع والحفظ لا الكتابة والتوثيق. وهذا أمر لا نستطيع تجاهله في مرحلة أصبحت اللغات الأخرى "متاحة" و"قريبة" بل وتصل إلى أبنائنا عبر الشبكات الإلكترونية.

الترجمة الآلية

لقد أدى التقدم الهائل والسريع في أنظمـة الحاسـوب وبرمجياتـها وفي تكنولوجيا المعلومات والاتصالات إلى انتشار الترجمة الآلية والتي تتـم مـن خلال برمجيات حاسوبية تترجم من لغة إلى أخرى. وإذا أخذنـا اللغـات الأوروبيـة: الإنكليزيـة والفرنسية والألمانيـة والإسـبانية والإيطاليـة فـإن الترجمة الآلية من وإلى هذه اللغات تصـل دقتـها الآن إلى أكـثر مـن 90٪ ويتوقع خلال فترة قصيرة أن تصبح الترجمة الآلية بين هذه اللغات كاملة وتامة بالإضافة إلى تصحيح الكلمات وضبط التهجئة. وفي نفس الوقت فإن المحاولات والتجارب حول إخضاع اللغة العربية للترجمة الآلية قد قطعت

مراحل جيدة ربما تصل إلى 50 في المئة. وتقوم عدد من شركات البرمجيات بهذه الجهود والسؤال هنا: إذا ما اكتملت البرمجيات اللازمة لترجمة اللغة العربية آليا من والى اللغات الأخرى فما هو دور أهل اللغة في تطوير لغتهم وهل ستنتظر شركات البرمجيات في ترجمة الكتب والوثائق والتقارير حتى تنتهي المؤسسات اللغوية من الاتفاق على قواعد الترجمة والمصطلحات والكتابة والترقيم والاختصار والرسم والرمز وغير ذلك مما تشمله الكتابة العلمية والتكنولوجية.

ومن سوف يضبط دقة ما يترجم ؟ خاصة وأن السرعة في الترجمة ستكون غير محدودة أبداً لأننا نتحدث هنا عن ترجمة فورية وآلية في عين الوقت؟ وهل ستقبل الترجمة الآلية مختلف قواعد النحو والصرف التي تتعامل بها أم أنها ستفرض نوعا آخر من القواعد ؟

كل هذا من شأنه أن يضع أمام العرب تحدياً قائماً بذاته وهو لا بد أن يعمل أهل اللغة وبالتعاون مع أهل البرمجيات لوضع قواعد تصلح للبرامج الحاسوبية وفي نفس الوقت تحافظ على روح اللغة وسماتها وخصائصها دون إجحاف ودون تشدد لم يعد له مبرر أبداً.

ومثل هذه الجهود ينبغي أن تدخل ضمن مشروع قومي للنهوض باللغة العربية تموله وتضطلع بمسؤولية الأقطار العربية بمجموعها أو بعض منها على الأقل.

ومن هذه البرامج هي في رأينا تشكل استكمالاً وتجذيراً لتكنولوجيا المعلومات في الوطن العربي . بل إن مثل هذه البرامج هي الطريق الرئيسي لتحويل المعلومات إلى معرفة وبالتالي إدخالها في صلب العملية الإنتاجية للفرد والمؤسسة والأمة.

الإنترنت:

فرضت شبكات المعلومات الدولية (الإنترنت) حالة على جانب كبير من التعقيد بالنسبة لكثير من الأشياء ومنها اللغة. فقد أصبح المجال مفتوحاً لكل مؤسسة ولكل فرد بشخصه أن يتصل اتصالاً تفاعلياً مع أي مؤسسة أو شخص آخر ويتبادل معه ما شاء من معلومات وأفكار وصور وأصوات وينشئ معه ما يريد من تعاقدات إلى غير ذلك. وهذا جعل من اللغة أداة عالمية بكل معنى الكلمة. فكيف سيتم التواصل عبر الإنترنت إلا بلغات ومعروفة وقابلة للترجمة الفورية الآلية. وفي غياب تطوير العربية فإن لغة أجنبية ستكون هي الوسيط.

لقد أصبحت شبكات المعلومات من أهم الوسائل المعاصرة لتداول المعلومات ولتحقيق الاتصال بين الأفراد ووصلت هذه الشبكة إلى المؤسسات والجامعات والمصالح الحكومية وإلى المدارس والبيوت. وبالتالي أصبحت واحداً من أهم الأدوات الثقافية والتي يمكن أن تؤثر في الأجيال الصاعدة وتؤثر في اتخاذ المواقف في صنع القرار.

إضافة إلى ذلك فقد أتاحت شبكات المعلومات إلى تطوير التعليم وتحويله إلى التعلم الإلكتروني E- Learning حيث يتحول الطالب من التعليم إلى التعلم الذاتي من خلال برامج وحزم تعليمية تقدمها هذه

الشبكة. ولا يكون المتعلم فيها مجرد متلق وإنما يستطيع أن يدخل على الخط ويتفاعل تفاعلاً تاماً مع المحاضر والطلبة الآخرين فيما يسمى بـ التعلم التفاعلي Interactive Learning وفي هذه الحالة يكون المصدر العلمي والمعرفي والثقافي مصدراً عالمياً. إن اللغة العالمية على شبكات الإنترنت هي اللغة الإنكليزية وتليها لغات أوروبية أخرى كالفرنسية والإسبانية وسواها.

والسؤال هو كيف ستتعامل اللغة العربية مع هذا المرفق العلمي المعلوماتي الثقافي الجديد؟ هل سيفرض ذلك على اللغة تغييرات معينة سواء شكلية أم جوهرية؟ هل سيؤثر على قواعد اللغة العربية؟ هل سيكون بالإمكان استعمال اللغة العربية كأداة من أدوات نقل الثقافة والفكر العربي إلى شعوب أخرى؟ لا أحد يدري ما هي التغييرات التي ستفرضها شبكات الإنترنت على اللغة العربية سواء من حيث المفردات أو المصطلحات أو القواعد أو حتى الهيئة العامة للغة بعد مرور بضعة عقود على انتشار الإنترنت.

هل من الممكن وضع خريطة طبوغرافية من خلال مشروعات عربية مشتركة لمعرفة ما ستؤول إليه اللغة والثقافة والفكر بعد عقود؟ الإشكال الذي تواجهه اللغة والثقافة ليس إشكالاً ناشئاً عن احتكاك مع أمم ولغات وثقافات أخرى فقط بل إن الإشكال الأكبر هو دخول شركات البرمجيات وشركات المعلومات في صناعة اللغة والثقافة. إن ضخامة هذه الشركات وإمكاناتها الهائلة وسرعتها في التعامل مع الأشياء على أسس تجارية تضع اللغة العربية أمام تحدّ من الطراز الأول.

وهذا يتطلب تضافر جهود اللغويين والفنيين في مجال البرمجيات لمعالجة الإشكالات اللغوية التي ستواجه العربية على ضوء الانتشار الهائل لشبكات الإنترنت.

العولمة:

تمثل العولمة تياراً هائلاً من مدخلات العلم والتكنولوجيا والمعلومات والاتصالات تجتاح العالم في إطار سياسي واقتصادي وثقافي معقد. ولعل أهم ما في العولمة:

- تجاوزها للحدود التقليدية للأشياء.
- إمكانية اشتراك ملايين العقول في التعامل مع موضوع واحد للخروج بابتكارات جديدة هائلة.

وفي إطار العولمة يتم نقل كل مفردات العصر وتداولها وتبادلها مباشرة من خلال الأجهزة والمعدات ومن خلال الشبكات الإلكترونية التي لا تخضع لأي سيطرة أو رقابة.

وإذا كانت العولمة تمس الاقتصاد والعلم والمعرفة والمعلومات والثقافة فإنها تمس اللغة بكل تأكيد. ما أثر ذلك على اللغة العربية؟ هل تستطيع اللغة من خلال إدارات حصيفة لها ومن خلال تطويرها وإعطائها المرونة الكافية أن تصبح حاملاً ثقافياً كافياً ؟ أم انها ستتراجع لتحل محلها حوامل أخرى للثقافة ؟ والتحدي الذي تفرضه العولمة يمس كثيراً من اللغات القومية للأمم والشعوب. إذ ستكون جميعها أمام اختبار عالمي للتعرف على مدى قدرتها لتكون لغة علم وتواصل وثقافة ذات طبيعة عالمية.

إن العولمة وبما تتضمنه من تكتلات إقليمية وشركات فوق إقليمية ومنظمات للتجارة والثقافة والمال والتنمية ذات طبيعة عولمية وما تحمله من اتفاقيات ومواثيق ومعاهدات منبثقة عنها ومرتبطة بها مثل حقوق الملكية الفكرية وبراءات الاختراع تفرض معها أدبيات خاصة ولغات تعامل خاصة، يقع أغلبها الآن باللغة الإنكليزية والفرنسية. كيف سيتعامل الوطن العربي مع هذه الأدبيات ؟ هل سيتعامل قطر عربي بها على انفراد وإذاك تصبح إمكانات التعريب ضئيلة ومكلفة للغاية؟ أم أن كل قطر سيبقي الأدبيات باللغات الأجنبية وفي ذلك إضعاف اللغة العربية وإضعاف لإمكانات التعميق والتجذر العلمي والتكنولوجي لدى الجزء الأكبر من المجتمع ؟ أم أن مشاريع عربية مشتركة تتولى تعريب هذه الأدبيات والتعامل معها ونشرها على المستوى العربي وتحقق بذلك اقتصاديات الحجم Economy of Scale وتحقق السرعة في الإنجاز والقدرة على اللحاق بالدول المتقدمة؟

إن هذا واحد من التحديات التي يحملها القرن الحادي والعشرون بقوة أمام اللغة العربية ويتطلب أن تقوم المؤسسات اللغوية والتكنولوجية والتنموية بمهمة تحمل أعباء التعريب وفق استراتيجيات بعيدة المدى ووفق خطة عمل متكاملة.

اقتصاديات التعليم

إن انضمام أقطار الوطن العربي إلى منظمة التجارة الدولية والشراكة الأوروبية يفرض على هذه الأقطار الالتزام بحقوق الملكية الفكرية والتقيد التام بالقوانين الدولية التي تحكم نقل المعلومات وتداول مصادر المعرفة.

وهذا من شأنه أن يرفع من كلفة المواد العلمية ارتفاعاً هائلاً. يشمل ذلك الكتب والمراجع والأشرطة المدمجة (C.D.) والبرمجيات وكل وسائط النقل والتسجيل التي لها علاقة بالعلم أو المعلومات أو التعليم. وهذا يعني أنّ أسعار "المعلومات" سوف ترتفع بوتيرة أعلى بكثير من الإمكانات التي يتيحها الدخل القومي والفردي في معظم الأقطار العربية. وهذا من شأنه على مدى بضعة عقود أن يؤدي إلى عجز اقتناء الكتب الحديثة والمصادر الجديدة والمراجع العلمية والبرمجيات. وقد يؤدي ولأسباب اقتصادية أن يقتصر التعليم على عدد محدود من الكتب والمراجع والبرمجيات غير الحديثة وغير المواكبة للتطور العلمي، وقد يؤدي هذا إلى نوع جديد من "الأمية العلمية". ويتطلب هذا الأمر أن تأخذ المؤسسات العلمية والتعليمية موضوع تعريب التعليم العلمي بجد واهتمام ووفق خطط عمل محكمة على مستوى القطر العربي الواحد ومستوى الأقطار العربية مجتمعة.

قد يفرض هذا الوضع على الهيئات التدريسية في الجامعات أن تضاعف جهودها في مجال التأليف وان تتولى مؤسسات علمية وثقافية نشر المواد المؤلفة بأشكال النشر السائدة.

ويتطلب هذا الأمر تدريب كفاءات علمية ولغوية على الترجمة والتعريب وتطوير التعريب الآلي في اللغة العربية كما يتطلب أن توفر المؤسسات اللغوية والعلمية والتعليمية والتكنولوجية كل الوسائل الكفيلة بإنجاح هذه الجهود.

الاستنتاج:

لقد كان القرن العشرون أعظم القرون في تاريخ البشرية بسبب الانفجار المعرفي الذي حمله هذا القرن وقد نتج عن ذلك تيار هائل من المفردات العلمية والتكنولوجية والمعلوماتية والاتصالاتية التي أخذت تدور في العالم محمولة على شبكات إلكترونية لا تعرف حدود الزمان أو المكان أو الفواصل بين الأقطار أو الشعوب أو الأفراد.

وهذا وضع اللغة في قلب المعمعة باعتبارها إحدى أهم أدوات نقل العلم والمعرفة والاتصال.

ولأن اللغة العربية قد حافظت على سماتها وخصائصها الشكلية البنيوية والنحوية على مدى القرون بعيداً عن المتغيرات التي رافقت تلك الحقبات التاريخية فإنها وبفضل العولمة أصبحت الآن معرضة للاختبار والتنافس باعتبار أن الشبكات الإلكترونية أصبحت قادرة على إحضار اللغات الأخرى للمنافسة والإحلال الفوري.

وهذا يضع اللغة العربية أما تحديات عديدة تأتي في مقدمتها تحويل اللغة والنهوض بها إلى مشروع تنموي تستثمر فيه الأموال والجهود، باعتبارها إحدى أدوات التنمية واكتساب المهارات العلمية والمعرفية والتدريبية. وضمن هذا المشروع التنموي يمكن أن تواجه اللغة متطلبات المرونة والتطوير والترقيم والاختصار والترميز التي يقتضيها العصر وتقتضيها التكنولوجيا الحديثة في المعلومات والحواسيب والاتصالات.

وتواجه اللغة تحديات هائلة أمام الإنترنت والعولمة وحوسبة التراث واقتصاديات الثقافة والتعليم ودون أن يتحول النهوض باللغة العربية إلى

مشاريع قومية عربية وقطرية وطنية، فإنّ القرن الحادي والعشرين وما سيرافقه من تطورات في أدوات الاتصال والعلم والثقافة قد يحمل مفاجآت للغة العربية لا يحسن الاطمئنان إلى نتائجها.

المدرسة الرياضية العربية
وعلوم الحاسوب حاضرا ومستقبلا

الأستاذ الدكتور: محمد بطاز

عضو المجلس الأعلى للغة العربية

عميد كلية تكنولوجيا المعلومات

جامعة فيلادليفيا

مشاريع قومية عربية وقطرية وطنية، فإنّ القرن الحادي والعشرين وما سيرافقه من تطورات في أدوات الاتصال والعلم والثقافة قد يحمل مفاجآت للغة العربية لا يحسن الاطمئنان إلى نتائجها.

المدرسة العربية لما وجد الحاسوب الرقمي أو على الأقل بالصفة الـتي هـو عليها الآن.

الجبر وبرمجة الحاسوب: يتكون أي برنامج للحاسـوب مـن نوعـين من البنى: بنية البيانات وبنية المراقبة. وما بنية البيانـات إلا عبـارة عـن إنجاز لعناصر مجموعة حاملة لبنية جبرية بواسطة مـا يعـرف بآلـة فـون نيومان. وما بنية المراقبة إلا عبارة عن إنجاز للعمليات الجارية على نفس البنية الجبرية بواسطة نفس الآلة والتي تعد الآلة الوحيدة المناسبة للوضع التكنولوجي الحالي. والدليل على ذلك التطورات الحديثة التي طرأت على لغات البرمجة والتي أدت إلى استحداث اللغات المسماة بلغـات البرمجـة الغرضية التوجه. وقد حدث هذا بعد محاولة استعمال لغات برمجة مبنية على نماذج خارجية عن إطار النماذج الجبرية من بينها (ليس عن طريق الصدفة) نموذج المنطق والذي يرجع أساسا إلى المدرسة اليونانية القديمـة. وهذا بالرغم من الترويج الهائل لبعض هذه اللغات والتصريحات من بعض الـدول المتطـورة في ميـدان الحاسـوب وتكنولوجيـا المعلومـات لاسـتعمالها كلغات الجيل الخامس.

النماذج الجبرية وهندسـة البرمجيـات: تعنـى هندسـة البرمجيـات بالمنـهجيات والتقنيـات المناسـبة بـالوصف والتصميـم والتدقيـق والـترميز الخاص بصناعة أنظمة البرمجيات المعقدة وذات العلاقة بالزمن الحقيقي. من المعروف عن هذه الأنظمة أن حدوث أبسط الأخطـاء فيـها بإمكانـه أن يسبب أضرارا جسيمة على الصعيدين المادي والمعنوي. وأبرز مثـال لذلـك يتمثل في إشكالية سنة 2000 التي كلفت العالم مالا يقـل عـن 600 مليـار

دولار أمريكي والتي تحملتها البلدان الأكثر تطورا في مجـ الحوسبة. وفي هذا المجال كذلك تم التوجه إلى استعمال النماذج الجبرية بعد أن أثبتت النماذج الأخرى قصورها. والدليل على ذلك الاهتمام البالغ الذي توليه شركة IBM لهذا المجال من خلال استثمارات في بحوث متطورة يقوم بها مركزها المعروف بمركز واتسون للبحوث.

المدرسة العربية والحلول المستقبلية لأزمة البرمجيات: من المعروف أن صناعة البرمجيات تعيش أزمة مزمنة منذ زمن بعيد وهذا بالرغم من التطورات الملحوظة التي شهدها هذا القطاع خاصة في ميدان اللغات وأدوات البرمجة. لكن هذا التطور يبقى ضئيلا مقارنة بالتطور المذهل الذي حدث في ميدان الجانب المتعلق بالبنية المادية للحاسوب. ومن أبرز الآثار لهذه الأزمة الارتفاع المتواصل لأسعار البرمجيات بينما أسعار الحاسبات في انخفاض مستمر. ويبدو أن الحل سيأتي مرة أخرى من المدرسة العربية أي عن طريق النماذج الجبرية. والدليل على ذلك الدعم اللامحدود الذي تتلقاه فرق البحث المتعددة الجنسيات التي اعتمدت المنهجيات الجبرية في خططها البحثية للخروج من الأزمة. ومن هذه الفرق نخص بالذكر فريق ADJ الموجود بمركز بحث واتسون لشركة IBM الذي ابتكر نموذج الجبريات المتعددة الأصناف والفريق المتواجد بمعهد ستانفورد للبحوث بالولايات المتحدة الأمريكية والذي طور النموذج المذكور أعلاه ليشمل النظم الموازية والنظم الموزعة وشبكات الحاسوب. كما نخص بالذكر المشروع المعروف باسم COMPASS والمتكون من باحثين ينتمون إلى أبرز الجامعات الأوربية كجامعة التكنولوجيا ببرلين، جامعة ايدنبرا

ببريطانيا، جامعة جنوا بإيطاليا، جامعة أرهوس بالدانمارك، جامعة برشلونا بإسبانيا، جامعة باريس الجنوبية بفرنسا وجامعات أوروبية أخرى. وقد ساهم هذا المشروع في إثراء وتوضيح مفهوم ما سمي بالمواصفات الجبرية. ويجدر بالذكر أن هذه الجهود والمبادرات توجت بتنظيم ندوة دولية سنوية تحت عنوان التقنيات الجبرية لتصميم البرمجيات. ولنتطرق الآن لبعض الحقائق الخاصة بالجانب التكنولوجي والاقتصادي.

لغات البرمجة ووسائلها: يخص هذا الجانب الأخصائي المعني ببرمجة الحاسوب وهيئته للاستعمال من طرق المستخدم النهائي، استعمال لغة معينة في هذا المجال بما في ذلك اللغة العربية يتطلب من المبرمج التحكم التام في تكنولوجيا الحاسوب وفي التطورات المذهلة التي تحدث يوميا. ولكن جميع البلدان، بما في ذلك البلدان المتمكنة من تكنولوجيا الحاسوب، لا تستعمل إلا اللغة الإنجليزية فيما يخص لغات برمجة الحاسوب. وذلك لأسباب اقتصادية محضة.

الواجهات، خدمة ومواقع الإنترنيت: يمكن في هذا المجال استعمال أي لغة، ولكن كل اللغات تأثرت ببعض المصطلحات الإنجليزية، فمثلا لم يفكر أي أحد في ترجمة مصطلح الانترنيت (Internet) الذي هو اختصار لكلمتي (Interconnection of ,etworks) اللتين تعنيان ربط متبادل لشبكات، واقترح البعض مصطلح شبكة الشبكات كترجمة من الفرنسية لمصطلح (réseau des réseaux)، ولكن لا الفرنسيون يستعملون مصطلح (réseau des réseaux)، ولا العرب يستعملون مصطلح شبكة الشبكات.

وهناك أمثلة أخرى كمصطلح (e-mail) والمشتق من (électronic mail) الذي ترجم إلى الفرنسية ب (courrier électronique)، وبما أن أغلبية الفرنسيين لا تزال تستعمل المصطلح الإنجليزي (e - mail) قررت الأكاديمية الفرنسية إدخال المصطلح كما هو في القاموس الفرنسي. كما أضافت الأكاديمية الفرنسية مصطلح (bookmarking) واشتقت منه فعل (bookmarker) بعد محاولة استعمال المصطلح الفرنسي (signet).

إنشاء مواقع باللغة العربية على الإنترنيت: يتطلب التحكم في الميدان التكنولوجي للحاسوب وخاصة في ميدان الحماية وهذا لأسباب معروفة.

الخلاصة: نستنتج مما سبق أن الأفكار التي أتت بها المدرسة الرياضية العربية لا تزال قائمة وفعالة، بل مواكبة للتطور التكنولوجي المعاصر إذا لم نقل خلاقة من أبرز ميادينه، ألا وهو ميدان الحاسوب وتكنولوجيا المعلومات. وبما أنه يصعب فصل الفكر على اللغة فإن الخلاصة واضحة فيما يخص الجدال القائم حول اللغة العربية.

واقع اللغة العربية
عربيا ودوليا

الأستاذ الدكتور شحادة الخوري
الخبير السابق في المنظمة العربية للتربية
و الثقافة و العلوم

أيها الحضور الكرام

إنه ليسعدني أن نجتمع معاً، في هذه الندوة، بَلْهَ أن أقف بينكم متحدثاً، وأنتم نخبة طيبة من أهل العلم و العِرفان، على أرض الجزائر بلد البطولة و التضحية، البلد الذي سطر شعبها الأبي أروع صفحات الكفاح ضد القهر والظلم والعُدوان، ومن أجل الاستقلال والعدالة والحرية.

وإني لأحسب هذه الندوة، ملتقىً كريماً لنا جميعاً، لمراجعة الذات والتحقق من صواب الاختيار، والتماس المزيد من العزيمة، واستكشاف الضوء لمتابعة المسيرة في الطريق الشاقة، طريق بناء مستقبل زاهر لأمتنا العربية المجيدة في عالم تعصف به رياح التغيرات، وتختلط فيه المطامع والتطلعات، عالم يزداد فيه الأقوياء قوة ويزداد فيه الضعفاء ضعفاً، عالم وضع فيه العقل في يد الإنسان قدرات فائقة على فعل الخير والحق وعلى اجتراح الشر والباطل في آن واحد، قدرات لم تكن ميسورة له قبل عشرات قليلة من السنين.

ولعل في مقدمة المبادئ التي ينبغي لنا التمسك بها، نحن العرب، هو الوئام والتضامن فالاتحاد بكل صوره وأشكاله ومستوياته، لأن الاتحاد قوة ومنعة، والتفرق شتات وضعف. إن ما يجمع العرب من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، على الرغم من تعدد أقطارهم ودولهم، لأقوى مما يجمع أبناء أية منطقة أخرى في العالم.

إن وحدة الثقافة ووحدة التاريخ، والاتصال الجغرافي، والتكامل الاقتصادي، وآصرة القيم الروحية والأخلاقية، ووحدة الهدف والإرادة

والمصير... لخليق بهذا كله أن يجمع ما بيننا ويجعلنا بنياناً مرصوصاً يشدُّ بعضه بعضاً.

ومن هنا، كان من حق اللغة العربية علينا، وهي وعاء ثقافتنا، وحامل تراثنا، ورباط غدنا، وجوهر هويتنا، وصوتنا إلى العالم، أن نقيم لها الندوات لدراسة واقعها في بلادنا، والاطلاع على موقعها خارج الوطن العربي، كيما نزيل من سبيلها ما يعوق نموّها وتنميتها، ونضيف إلى بنيانها لبنة تزيدها قوة وغنىً وجمالا.

1ـ نشأة العربية:

ونبدأ بالتعرف على العربية وخصائصها تعرفاً يسيراً قبل أن نستقرئ أحوالها ونستجلي موقعها عربيا ودوليا.

لقد أثبتت الدراسات التاريخية واللغوية الحديثة أن من كانوا يدعون »الساميين« نسبة إلى سام بن نوح ـ ماهم إلا العرب الأقدمون الذين كان موطنهم الجزيرة العربية. لقد استمر بعضهم بالإقامة فيها بصورة قبائل أو دويلات كعاد وثمود وطسم وجديس وسبأ وحمير، وهاجر بعضهم الآخر، على فترات متعاقبة ومتباعدة، إلى بلاد الشام وبلاد الرافدين كالبابليين والآشوريين والعموريين والكنعانيين والفينيقيين والآراميين والأنباط واللخميين والغساسنة.

لقد كان لهؤلاء وهؤلاء، مَنْ أقام في الجزيرة أو هاجر منها لغات متقاربة هي بمثابة لهجات متفرعة عن لغة عربية قديمة اندثرت معالمها.

أما في عصر الجاهليـة، قبـل الإسـلام فقـد كـان للعـرب، سـكان شـبه الجزيـرة العربيـة، لُغَـىً ولهجـات متعـددة، في ديـار القحطـانيين، في الجنوب، كالسبئية والحميرية والمعينية، وفي ديار العدنـانيين، في الشـمال كالثمودية والصفوية والنبطية.

وخلال بضع مئات من السنين اندثرت هذه اللغات واللهجات وسادت لغة قريش العدنانيـة، في الحجـاز، وإن لم يخـلُ كـلام القبـائل العدنانيـة الأخرى من تباينات قليلة.

وتنزَّل القرآن الكريم، بلغة قريش العدنانية المضريـة، فكـرس سـيادتها وأثراها عقيدة وحكمة وتشريعاً، وأغناها بياناً وبلاغة، وأفسـح لهـا سـبيل الانتشار في أعقاب الفتوح، فغـدت لغـة السياسـة والإدارة والثقافـة، ولغـة العلم والأدب، بل لغة الحياة، بكل وجوهها، من تخـوم الصـين إلى ربـوع الأندلس.

لقد قال المستشرق الألماني بروكلمان: «بلغت العربية بفضل القـرآن مـن الاتساع مدىً لا تكاد تعرفه أية لغة أخـرى مـن لغـات الدنيـا، والمسـلمون جميعاً مؤمنون بأن العربية وحدها اللسان الذي أُحِلَّ لهـم أن يسـتعملوه في صلاتهم».

2ـ مزايا اللغة العربية:

إن الحديث عن مزايا العربية طويل وشائق. بَيْدَ أن مَنْ أمعـن النظـر في مفرداتـها وتراكيبـها وشـعرها ونثرهـا وحكمـها وأمثالهـا أخـذه العجـب بفصاحة الكلِم وعذوبة اللفـظ وجزالـة العبـارة وجـلال المعنـى. وإذا كـانت

عبقرية كل جماعة بشرية قد تجلت في منشط من مناشط الحيـاة كالزراعـة أو البناء أو النحت أو ركـوب البحـر أو تعـاطي الصناعـات، فـإن العـرب الأولين قد تجلتَ عبقريتهم، وقد عاشوا في صحارىً فسيحة وبـوادٍ مديـدة تحت سمـاء صافية في النهار، مرصعـة بـالنجوم في الليـل، في هـذه اللغـة الشاعرة الغنية المتصلة بحياتهم وبالطبيعة من حولهم.

وحسبي في هذا المقام أن أشير إلى خاصتين من خواص العربية:

أولاهما: اتصالها الوثيق بالطبيعة، فكثير من ألفاظها تحـاكي أصـوات الطبيعة والحيوان مثل خرير الماء وصهيل الجواد، ومثلهما كثير.

وثانيتهما: اتصالها المحكم بالمجتمع، فالعرب عاشوا في أفخاذ وبطون وعشائر وقبائل تنداح اتساعاً بالتزاوج والتوالد. وعلى صورة اجتماعهم هـذا كان كلامهم وبين الألفاظ روابط قربى: ثمة مصدر مجـرد يؤخـذ منـه فعـل مجرد فمشتقاته ثم مزيداته ومصادرها ومشتقاتها وهكذا فـإن مجموعـة مـن ألفاظ تقابل مجموعة من بشر! إنـها تقـوم علـى التوالـد الخـلاق والتكـاثر الحي، لا على الإلحاق والتبني.

3ـ واقع اللغة العربية، عربياً:

أ ـ في عصر النهضة القديمة:

لقد نمت اللغة العربية عما كانت عليه في الجاهلية، مع ظهور الإسلام وانتشاره في بلدان المشرق والمغرب. واقتبـس العـرب ألوفـاً مـن الألفـاظ مـن اللغات الأخرى لمعانٍ ومسميات اقتضتـها حياتـهم السياسـية والاجتماعيـة والاقتصادية الجديدة، كما وضعوا ألوفاً أخـرى. ثـم جـاءت ترجمـة علـوم

السابقين في شتى الميادين، ومن لغات الإغريـق والسـريان والهنـد والفـرس لتحملهم على استنباط مفردات جديدة. قال العلامة مصطفى الشهابي«ومن الطبيعي أن تؤدي ترجمة هذه العلوم إلى خلـق مصطلحـات كثـيرة دخلـت اللغة العربية واندمجـت في جملـة ألفاظـها، وأدمـج معظمـها في معجماتنـا القديمة....»

بعد أن جاز العرب مرحلة النقل والاقتباس، انتقلوا إلى مرحلـة الوضـع والكشف والإبداع، واحتلوا مركز الريادة قروناً عديدة، وكانت العربية لغـة العلوم لديهم.

ب ـ في عصر النهضة الحديثة:

وفي مطلع القرن التاسع عشر، دخلت الأمة العربية مرحلة جديـدة مـن اليقظـة والنشـاط، بعد مرحلـة طويلـة من الجمـود والتوقف عن العطـاء ونـهضت لتتـدارك مـا فاتـها، بنشـر التعليـم بكـل مستويـاته، وإصـدار الصحـف والمجـلات، ثـم بترجمـة العلـوم والآداب الحديثـة مـن اللغـات الأجنبية إلى اللغة العربية، وأعاد رفاعة رافع الطهطاوي سيرة حنـين بـن إسحاق، وقامت «دار الألسن »مقام «بيت الحكمة».

بدأ هذا العمل الكبير بجهود فردية بذلها أشخاص نابغون مخلصون ثم تحول مع الزمن ولا سيما في النصف الثاني من القـرن المـاضي إلى مجـهود جماعي نهضت به الحكومات العربية الـتي أنشـأت المـدارس والجامعـات وأحدثت مجامع لغوية ومجالس علمية وجامعات ومعاهد لكل فروع العلوم والآداب والفنون، ثم شاركت فيه منظمات عربية واتحادات نوعية عربية.

ونتيجة ذلك كله، حققت اللغة العربيـة نجاحـات عديـدة في الميـادين كافـة: التعليميـة والعلميـة والإعلاميـة والأدبيـة والعامـة، ولكـن هـذه النجاحـات ظلـت منقوصـة لم تبلـغ الغايـة المنشـودة ولم تحقـق أهـداف المتنورين المخلصين من أبنائها.

ولئن كان مؤلماً أشد الإيلام أن تظهر العربية، في أحيـان عديـدة خـلال القرنين الأخيرين غريبة في موطنها مضطهدة في دارها، تعاني إهمال أهلها إياها وظلمهم لها، يحتفون بلغات الآخرين ويقبلون على استعمالها بديلـة عن لغتهم في مواقع العلم والثقافة، فقد استطاعت هـذه اللغـة، بفضـل مـا بذل أهـل العلـم والعرفـان مـن أهلـها، مـن جـهد مخلـص، الصمـود ضـد الحملات المغرضة والاتهامات الزائفة الظالمة.

ولنرَ في إيجاز وجوه المعركة اللغوية الـتي بـدأت مـع النهضـة العربيـة القومية، قبل حوالي مئتي سنة، وما تزال قائمة حتى اليوم.

1ـ المعركة اللغوية:

أ ـ المحافظة على الوجود والبقاء:

بعد الاحتلال البريطاني لمصر عام 1882 بسنوات قليلـة، شُـنَّت حملـة شديدة على اللغة العربية اشترك فيها عرب وأجانب. زعموا أن العربية لا تصلح لهذا العصر وعلومه وأنها السبب في تأخر العرب وتخلفهم عن ركب الابتكـار والإبـداع، وقـام مـن دعـا إلى هجـر العربيـة الفصيحـة والأخـذ بالعامية، ومن دعا إلى كتابة العربيـة بـالحروف اللاتينيـة، ومـن دعـا إلى ترك العربية واعتماد لغة أخرى... الخ.

كانت الساحة مصر ولبنان، ومـن دعاتـها الأجـانب وليـم سـبيتا وهـو ألماني الجنسية كان يتولى إدارة دار الكتب المصرية، وويلكوكس البريطـاني وكان مهندساً للري بمصر.

نشر سبيتا كتاباً بالألمانيـة في »قواعـد العربيـة العاميـة في مصـر« وتنبـأ بمصـير اللغـة العربيـة الفصحـى إلى الـزوال كمـا زالـت اللاتينيـة، وألقـى ويلكوكس محاضرة في نـادي الأزبكيـة بالقـاهرة داعيـاً إلى إحـلال العاميـة محل الفصحى في الكتابة والتأليف...

وقد شايع هؤلاء في حملتهم على العربية، عرب من أصحاب النزعـات الإقليمية الضيقة أمثال عبـد العزيـز فـهمي وأحمـد لطفـي السـيد وسـلامة موسى بمصر ومارون غصن وروفائيل نخلة وسعيد عقل بلبنان.

قال سـلامة موسـى في كتابـه «البلاغـة العصريـة واللغـة العربيـة»: إن استعمال الخط اللاتيني هو وثبة إلى المستقبل، لو أننا عملنـا بـه لاسـتطعنا أن ننقل مصر إلى مقام تركيا!

ولكن الدعوة إلى هجر العربية إلى غيرها أو كتابتـها بـالحرف اللاتيـني قـد تلاشـت وتسـاقطت بفعـل انتشـار الوعـي القومـي، وافتتـاح المـدارس والجامعات، وصدور المجلات والصحف العربية، وثبوت أن العربية قادرة على أن تكون لغة العصـر، ولغـة الحيـاة بأسـرها، وأن للحـرف العربـي جماليـة لا تضـاهى. أما استبدال العاميـة بهـا فهـو حـل وهمـي، بسـبب فقر العامية وعجزها وتعددها إذ ليس ثمة عامية واحـدة في الوطـن العربـي بل عاميات لا حصر ولا عدلها. أضف إلى ذلك، أن ظاهرة العامية ليسـت خاصة بنا، بل هي ظاهرة مشتركة بين جميع اللغات إذ هي خصوصيـات

في أمور صوتية وبعض المفردات والتعبيرات، ناشئة من التباعد المكاني والزماني بين الناس، والتأثيرات السياسية على الجماعات.

وقد دلت دراسة على أن 8ر72 ٪ من الكلمات الفصيحة المستخدمة في كتب القراءة في الصفين الأول والثاني الابتدائيين مستخدمة في اللهجة العامية بالسعودية، ودلت دراسة ثانية على أن 80٪ من الكلمات التي يستخدمها الطفل المصري في سن دخول المدرسة مشترك بين العامية والفصحى، ودلت دراسة ثالثة على أن 5ر2٪ فقط من مجموع كلمات الأطفال في الصف الثاني الابتدائي و2٪ فقط كلمات الأطفال في الصف الثالث الابتدائي، تمت إلى العامية.

إذاً ليس ثمة قطيعة أو عزلة بين الفصيحة والعامية، بل يمكن العمل على ردم الفجوة بينهما. وهذا التنوع أو الازدواجية ليس من مستحدثات عصرنا، بل كان منذ القديم في الجاهلية، إذ كانت للعشائر والقبائل لهجات، جرى عليها التطور حتى آلت إلى الفصحى صيغة مختارة نقية طيعة تزهو بفصيح الكلام وبليغ العبارة وروعة البيان.

إن اقتراب العامية من الفصحى ملحوظ في نصف القرن الأخير بتأثير مؤسسات التعليم والإعلام، وسهولة الاتصال بين الريف والمدينة، وبين الأقطار العربية، وتراجع العزلة في السكن والمعيشة. ومن الممكن تقريب العامية من الفصحى أكثر فأكثر بزيادة نشر العلم بين الناس وإغناء عقولهم بالمعرفة العلمية والتفكير العلمي، وجعلهم يتذوقون الآداب والفنون، ذلك أن التقدم في التفكير يؤدي إلى التقدم في التعبير.

2ـ السعي للشمول والارتقاء:

إضافة إلى معركة العربية الفصحى ضد العامية لمنع الازدواجيـــة، فثمـة معركة أخرى بينها وبين اللغات الأجنبية لمنع ما يدعى بالثنائية اللغويـة. ففي فجر النهضة العربيـة المعـاصرة، كـانت العلـوم الأساسـية والتطبيقيـة تدرس في مصر باللغة العربية، ونشط التأليف العلمي بـها والترجمـة إليـها مع إغنائها بالمصطلح اللازم، واستمرت هـذه الحـال إحـدى وسـتين سـنة (1826 ـ 1887). ولكـن في عـام 1887 أي بعـد الاحتـلال البريطـاني لمصـر بخمس سنوات، حول هذا التعليم إلى اللغة الإنكليزية. وفي بـلاد الشـام في بيروت ـ لبنان، درست الكلية الأميركية العلوم، بمـا فيـها الطـب باللغـة العربية وبنجاح باهر مدة ثماني عشـرة سـنة (1868ـ 1886). ولم يَنْجُ مـن هذا الخطأ التاريخي، سواء أكان تلقائياً أو مفروضاً، سـوى القطـر العربـي السوري الذي بدأ بتدريس الحقوق والطب بالعربية ابتداءً من عام 1919 ثم تابعـه كذلـك بالنسـبة لكـل العلـوم الأساسـية والتطبيقيـة والاجتماعيـة والإنسانية في جامعات القطر ومعاهده وبنجاعة مؤكدة، بالإضافة إلى سيادة العربيـة المطلقـة في سـورية في الميـادين الأخـرى السياسـية والاقتصاديـة والتشريعية والقضائية والإعلامية والمالية.

وعمل الزمن على ترسيخ استخدام اللغة الأجنبية بـدلاً عـن العربيـة في التدريس العلمي، في أكثر الأقطار العربية، فظهرت الحاجة إلى تحويله إلى العربيـة، إلى تعريبـه، استجابة لـدواعٍ عديـدة: نفسـية وتربويـة، قوميـة وحضارية، بَلْهَ اجتماعية ومهنية. وثمة جـهود مخلصـة ودؤوبـة تبـذل في العراق والجزائر وليبيا والسـودان واليمـن لتعريـب التعليـم العلمـي العـالي

وتعريب الحيِّز الذي تحتله اللغــة الأجنبيــة في هـذا البلـد العربـي أو ذاك على حسـاب اللغــة العربيــة في مجــالات الاقتصــاد والإدارة والتجــارة والإعلام.. الخ

وقد دلت دراســة تحليليـة وضعتــها المنظمـة العربيـة للتربيـة والثقافـة والعلوم، قبل سنوات ثلاث، وشملت خمسة عشر قطراً عربياً بشأن مواضع الخلل في مجال التدريس، على ما يلي:

أ ـ مرحلة التعليم الابتدائي والإعدادي: ثمة مدارس خاصة وتجريبيـة تعلم فيها المواد العلمية والاجتماعية بلغة أجنبية في قطرين.

ب ـ مرحلة التعليم الثانوي: ثمة مـدارس رسميـة وخاصـة وتجريبيـة تعلم فيها المواد العلمية بلغة أجنبية، في ثلاثة أقطار.

ج ـ مرحلة التعليم العالي: تدرس العلوم الأساسية بلغة أجنبية كلياً في ست دول عربية وجزئياً في خمس دول، والعلوم الطبية تدرس بلغة أجنبية كلياً في سبع دول عربية وجزئياً في ثلاث دول، والعـلوم الهندسيـة تـدرس بلغـة أجنبيـة كلياً في عشـر دول عربيـة وجزئيـاً في ثــلاث دول، والعلـوم الاجتماعية والإنسانية تدرس بلغة أجنبية جزئياً في سبع دول.

إن الضرورة تقضي بأن تتابع البلدان التي شرعت بــالتعريب خطواتــها بعزم وتصميم حتى تبلغ الغايـة، وأن تباشـر البلـدان الـتي لم تشـرع بعـد بالتعريب بالعمل لتحقيق التحول اللغوي المنشود.

إن الشعوب والدول التي هي أقل من العرب عدداً وأضأل قدرة، وأفقـر تراثاً، تستخدم لغاتها في التعليم وغــيره مـن مجـالات الحيـاة. فلِمَ يقـف

بعض العرب حيارى مترددين إزاء هـذا الأمـر، يتذرعـون بأسـباب واهيـة لتعطيله أو إبطاله؟

يقول قائلهم: أيـن المصطلـح العربـي الموحـد؟ وأيـن الكتـاب الجـامعي بالعربية؟ وأين المراجع الجامعية، باللغة العربية؟

ولكنني أقول: أين علماء اللغة وأهل الاختصاص القـادرون علـى توليـد المصطلحـات وتنسـيقها وتوحيدهـا؟ وأيـن أسـاتذة الجامعـات وأصحـاب التخصصات العلمية، وهم كثر في جامعات الوطن العربي ومؤسساته العلمية للنهوض بعمل التأليف والترجمة والبحث؟

هل مقدّر لنا أن نجد أنفسنا، في بداية هذه الألفية الثالثة، على موائـد الآخرين: نأخذ عنهم العلم ونكرره ونستعيده بلغتهم؟ أما آن لنا أن نصنـع خبزنا بأيدينا، ونتحـول مـن النقـل إلى الفعـل، ومـن الاتبـاع إلى الإبـداع ونحرر عقولنا وألسنتنا لنكون إلى جـانب الآخريـن لا وراءهـم، أبنـاء لهـذا العصر؟!

لقد عايشت هذه القضية السهلة الصعبة في آن، والكبيرة الجليلة في كل آن، أكثر من ثلاثين عاماً، فقرّ في ذهني أننا لسنا في حاجة إلى المزيـد مـن الرجال والأموال والمراكـز والمجـالس والمؤسسـات، فلدينـا العديـد والوافـر منها، وإنما نحن نفتقر إلى الإرادة والقرار، إرادة الشعب وقرار الحاكم.

4ـ واقع اللغة العربية دوليا:

أ ـ التأثير المتبادل بين العربية واللغات الأخرى:

عبرت اللغة العربية، في العصر الجاهلي، عن أفكار الإنسان العربي ومشاعره وتصوراته ومشاغله، سواءٌ أكان من أهل الوبر، سكان البوادي أم من سكان المدر أي المدن والقرى، كما عبّرت عن أحوال الطبيعة في الجزيرة العربية وما فيها من نبات وحيوان، فكانت لغة حيَة ناشطة شاعرة. ومع ذلك كان لعرب الجاهلية اتصال بالأمم المجاورة جعلهم يقتبسون من لغاتهم الكثير من الألفاظ بداعي الحاجة إليها، فصارت من العربية معربة أو دخيلة.

ومما عربوه عن الفارسية: الإبريق والنرجس، ومن الهندسة: الشطرنج والكافور، ومن اليونانية: الفردوس والترياق، ومن السريانية: الكنيسة والناقوس، ومن العبرية: الأسباط والتوراة ومن الحبشية: المصحف والمنبر...

وفي أيام الراشدين والأمويين نشأت علوم الفقه والكلام والحديث والتفسير، وعلوم اللغة كالصرف والنحو والعروض والبيان. وفي زمن العباسيين نقلوا معارف الأقدمين إلى العربية في مختلف العلوم، ثم طوروها وأغنوها وأضافوا إليها مدة خمسة قرون أو يزيد. وذلك كله قد حمل العربية على الاتساع والاقتراض، فحُمِّلت ألفاظ عربية معاني جديدة تضميناً ومجازاً، واشتقت كلمات جديدة، وترجمت كلمات أعجمية بمعانيها وعربت أخرى وعدت صحيحة.

وبالمقابل، فإن اللغة العربية وهي اللغة التي نزل بها القرآن الكريم قد حملت رسالة الإسلام بكل ما اشتملت عليه من معتقدات وعبادات وتشريعات وأخلاقيات إلى العالم، أثرت في لغات البلدان التي اعتنق أهلها الإسلام أو حلَّت محلها. جرى ذلك في القارتين الآسيوية والإفريقية مثل بلاد الشام ومصر وبلدان المغرب وإيران وتركيا وإندونيسيا، وفي إسبانيا الأندلس في القارة الأوربية.

وجاز العرب مرحلة النقل والترجمة إلى مرحلة الوضع والتأليف وأبدعوا في مختلف أصناف المعرفة، وامتدت فترة الإبداع من منتصف القرن الثامن حتى منتصف القرن الرابع عشر. وخلال هذه الفترة الذهبية من عمر العطاء العربي، بدأت أوروبا بنقل المؤلفات العربية، ولاسيما الفلسفية والعلمية إلى لغاتها اللاتينية والفرنسية والإيطالية والألمانية والإنكليزية خلال قرنين: من منتصف القرن الحادي عشر إلى منتصف القرن الثالث عشر.

وكان من أثر ذلك أن أثرت اللغة العربية في اللغات الأوروبية ودخل العديد من مفرداتها في تلك اللغات. وبداية من مطلع القرن التاسع عشر بدأ العرب نهضتهم المعاصرة، بعد فترة من الجمود والتوقف، فعمدوا إلى نقل العلوم والمعارف عن لغات الغرب الذي سبقهم في مضمار التقدم العلمي والتقني، وشرعوا بالترجمة والتأليف واصطناع المصطلحات الحضارية والعلمية وأنشؤوا المدارس والمعاهد والجامعات والمجامع اللغوية والمجالس العلمية والروابط والاتحادات الثقافية.

وفي هذه المرحلة كان على اللغة العربية، وهي الغنية بمفرداتها والقادرة على توليد الجديد واستقبال الوافد من ألفاظ المعاني والأدوات والمواد المستحدثة، أن تستجيب لذلك، ومازال الشوط بعيداً والجهد المطلوب كبيراً.

إننا لنلحظ من ذلك أن العربية قد حققت علميتها وعالميتها معاً.

حققت علميتها عندما استطاعت أن تستقبل العلوم في عصر النهضتين العربيتين: الأولى والثانية، وبينهما ألف عام، وعندما أغنت العلوم وحملت ثمرات العقول العربية المبدعة عدة قرون. وحققت عالميتها عندما اتصلت باللغات الأخرى، الشرقية والغربية، فأخذت وأعطت، واقترضت وأقرضت، فعرفت أبناءها بما لدى غيرهم وعرفت الآخرين بما عند أبنائها.

لقد فعلت ذلك دون عجز أو قصور، فكانت جسراً ثقافياً وحضارياً بين قارات ثلاث من قارات العالم. ومما يثير الفضول أن يطلع المرء على تأثير العربية على اللغات الشرقية والغربية، إذ يستنتج من الدراسات والتحقيقات التي قام بها علماء اللغات أن نسبة الألفاظ العربية في اللغة التركية 65.30٪ وفي الفارسية 60، 60٪ وفي الأفغانية 57٪ وفي التاجيكية 40، 46٪ وفي الأوردية 42٪، وأما في اللغة الإندونيسية فتبلغ النصف أي 50٪.

هذا في لغات الشرق، وأما في لغات الغرب فيقدر الباحثون أن في اللغة الإسبانية (1500) كلمة من أصل عربي، وفي اللغة الإنكليزية (1000) كلمة، وفي اللغة الفرنسية (280) كلمة واللغة الألمانية (250) كلمة. ويُعَدُّ

إدخال العرب الأرقام العربية والصفر إلى أوروبا مفخرة باقية على الدهر من مفاخر الثقافة والعلم عند العرب.

ب ـ مساعي نشر العربية خارج الوطن العربي:

ودعماً للحضور المتميز للغة العربية في الساحة الدولية، وإسهاماً في نشرها عند غير الناطقين بها، أحدثت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التابعة لجامعة الدول العربية جهازين متخصصين لهذا الغرض:

أولهما: معهد الخرطوم الدولي للغة العربية في السودان، وقد أحدث عام 1974 لتحقيق الأهداف التالية:

* إعداد دارسين لدراسات متخصصة فوق جامعية في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها.

* تدريب المتخصصين على استنباط الطرق العلمية لكتابة اللغات المحلية أو اللهجات وبخاصة المتصلة منها بالحضارة الإسلامية بحروف عربية.

* إعداد وتجريب نماذج من المناهج والكتب والوسائل التربوية الحديثة المعينة على تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها.

* القيام ببحوث لغوية وتقديم الطرق التقنية الحديثة في عملية تدريس اللغة العربية للناطقين بغيرها.

* إجراء ونشر البحوث في الحرف العربي وتكييفه وتطويعه لمختلف اللغات.

* عقد ندوات علمية، وتقديم منح دراسية للطلاب المنتمين للجماعات التي لا تتحدث اللغة العربية.

ثانيهما: جهاز التعاون الدولي لتنمية الثقافة العربية الإسلامية:

أحدث في مقر المنظمة المذكورة بتونس، لتحقيق الأهداف التالية:

* تنمية ونشر اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية خارج الوطن العربي ولدى الجاليات العربية في الخارج.

* المساعدة على إنشاء المدارس خارج الوطن العربي لتدريس اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية.

* تأليف الكتب النموذجية وتنظيم دورات تدريبية وإحداث أقسام للدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الأجنبية.

جـ ـ العربية في الأمم المتحدة:

اتخذت الجمعية العامة للأمم المتحدة عام 1963 قراراً اعترفت فيه بالدور المهم الذي تضطلع به اللغة العربية في صون الحضارة والثقافة الإنسانية ونشرها.

وفي عام 1973 أصبحت اللغة العربية لغة رسمية ولغة عمل للجمعية العامة للأمم المتحدة. وبذلك أكدت اللغة العربية عالميتها إلى جانب اللغات الخمس الكبرى المعتمدة في الهيئات الدولية وهي: الإنكليزية والفرنسية والإسبانية والروسية والصينية. بَيْدَ أن استخدام اللغة العربية في تلك الفترة ظل مقتصراً على المؤتمرات العامة التي تعقدها الجمعية العامة والوكالات المتخصصة.

وبداية من عام 1975 ازداد عدد المؤتمرات التي تستخدم فيها اللغة العربية في هيئة الأمم ومنظماتها ووكالاتها المتخصصة مثل المنظمة العالمية للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) والمنظمة العالمية للأغذية والزراعة ومنظمة الصحة العالمية ومنظمة العمل الدولية... واستجابة لهذه الأمور أحدثت بعض الدول العربية بداية من الستينيات معاهد أو مدارس أو مراكز أو أقساماً جامعية لتدريس أصول الترجمة وتكوين المترجمين.

ومن الجدير بالذكر أن بعض المنظمات العالمية قد أسهمت في وضع معجمات متخصصة للمصطلحات العلمية والفنية باللغة العربية بغية تسهيل عملها في المنطقة العربية:

* أصدرت المنظمة العالمية للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) معجماً دعته «معجم مصطلحات المؤتمرات» بثلاث لغات هي: العربية والإنكليزية والفرنسية، ومدعوماً بتعاريف، ويتألف من (117) صفحة.

* أصدرت المنظمة العالمية للملكية الفكرية (الايبو) معجماً هو معجم «مصطلحات الملكية الصناعية» بأربع لغات بينها العربية ويتألف من (326) مصطلحاً.

* أصدرت المنظمة العالمية للتنمية الصناعية (اليونيدو) كتاب «دليل المترجم» الذي يضم قوائم بالمصطلحات المستخدمة لديها.

* أصدر الاتحاد الدولي للاتصالات السلكية واللاسكية، بالتعاون مع هيئات أخرى عالمية وعربية (مشروع راب) معجماً يضم المصطلحات التي يحتاج إليها في عمله، ويبلغ عددها أكثر من (32) ألف مصطلح.

* إن عالمية اللغة العربية تتطلب اهتماماً متواصلاً بإعداد المترجمين وطبع المعجمات وتأمين المستلزمات، ليكون استخدامها فعلياً وشاملا.

هذا وإن العناية باللغة العربية متصلة أوثق اتصال بالسعي لتطوير الثقافة العربية المعاصرة وباكتساب العلوم والتقانة وتوطينهما، وبمباشرة البحث العلمي وفق خطط مدروسة وأهداف وطنية وقومية واضحة بغية النهوض بمجتمعاتنا العربية والمشاركة في صوغ الحضارة الإنسانية المنشودة؛ إنه الجهاد الأكبر، بناء الذات وبناء الوطن والأمة.

* إن عالمية اللغة العربية تتطلب اهتماماً متواصلاً بإعداد المترجمين وطبع المعجمات وتأمين المستلزمات، ليكون استخدامها فعلياً وشاملا.

هذا وإن العناية باللغة العربية متصلة أوثق اتصال بالسعي لتطوير الثقافة العربية المعاصرة وباكتساب العلوم والتقانة وتوطينهما، وبمباشرة البحث العلمي وفق خطط مدروسة وأهداف وطنية وقومية واضحة بغية النهوض بمجتمعاتنا العربية والمشاركة في صوغ الحضارة الإنسانية المنشودة؛ إنه الجهاد الأكبر، بناء الذات وبناء الوطن والأمة.

المحتوى

المقدمة	1
1 ـ نشأة العربية	1
2ـ مزايا اللغة العربية	2
3ـ واقع اللغة العربية، عربياً:	3
آ ـ في عصر النهضة القديمة	3
ب ـ في عصر النهضة الحديثة	3
جـ ـ المعركة اللغوية:	4
آ ـ المحافظة على الوجود والبقاء	4
بَ ـ السعي للشمول والارتقاء	6
4 ـ واقع اللغة العربية، دولياً:	8
آ ـ التأثير المتبادل بين العربية واللغات الأخرى	8
ب ـ مساعي نشر العربية خارج الوطن العربي	10
جـ ـ العربية في الأمم المتحدة	11
الخاتمة	13

المراجع:

1ـ كتاب «المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث» تأليف العلامة مصطفى الشهابي، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، طبعة ثانية منقحة ومزيدة 1384هـ/1965م.

2ـ كتاب «اللغة العربية والصحوة العلمية الحديثة» تأليف الدكتور كارم السيد غنيم عضو كلية العلوم بجامعة الأزهر، مطبوعات مكتبة ابن سينا، القاهرة 1989م.

3ـ كتاب «التعريب والتنمية اللغوية» تأليف الدكتور ممدوح خسارة، مطبوعات دار الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع بدمشق 1994م.

4ـ كتاب «من قضايا اللغة العربية المعاصرة» الصادر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس 1990م.

5ـ كتاب «دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب» تأليف شحادة الخوري، إصدار دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ط2/1992م.

6ـ كتاب «الترجمة قديما وحديثا» تأليف شحادة الخوري، إصدار دار المعارف بسوسة ـ تونس 1988م.

7ـ مراجع أخرى متعددة من كتب ودراسات حول الموضوع.

التوصيف: مقاربة في حوسبة العربية

الأستاذ الدكتور نهاد الموسى
جامعة عمان - الأردن

أحاول، في هذا البحث، ضرباً من النظر في العربية؛ ينتسب إلى جهود جارية في هذه الأيام تنتحي بالنظر في العربيــة منحــى "موجّــهاً " خاصّــاً؛ ذلك أنّ النظر في العربية قد قام قَبْلاً على وصْفِها لمن يَنُشُــدون تعلّمــها مــن "الناس". وشُغل علماء العربية بذلك الوصف منذ شرعوا في وضــع قواعدهــا في القرن الأول حتى يوم النــاس هــذا. واتخــذ علمــاء العربيــة ،في صــيرورة الوصف، مناهج متباينة. وينطوي تراثُ العَرَبيّة على أنظار بصــيرة في هــذه السبيل، وتغتني دراســات العربيــة، هــذه الأيــام، بملاحــظَ إضافيّــة أُخَــر مستفادة من المناهج التي طورها علم اللسان الحديث.

كان عَمَلُ علماء العربية ـ فيما رأى ـ وصْفاً، وكان ذلك حســبهم منــه؛ إذ كان كافياً لديهم، لتحصيــل العلــم بالعربيّــة. وكــان قصدهــم إلى عَــرْض نظامها الكلّي بمستوياته ومنطوياته لمن ينشد تعلمها من العرب وغيرهم.

أما هذا العمل فهو خطوة على طريق " توصيف" العربيّــة، وإذن يكــون الفرق بينه وبين عملهم أولا، كالفرق بين "الوصف" و "التوصيف". ويُنْبِــئُ الفرق ـ فيما يدلّ عليه معنى التضعيف في "وَصَّف" إذ يقوم التوصيف علــى مضاعفة الوصف، عن فرقٍ محتاجٍ إلى فَضْل بيان.

يتوجه الوصف بكلّ ما ينظمه من عرض النظــام اللغــوي إلى "الإنســان" بما ركب في العقل الإنســاني مــن قابليــة لاســتدخال هــذا النظــام بقواعــده ومعطياته و "آليات" عمله في معالجة ذلك وبرمجته. وهي قابلية كامنــة في العقل الإنساني تزوّده بحدس قادر على مَلْءِ ثغرات "الوصف".

أما في "التوصيف" فإن النظام اللغوي كأنّما يعرض على صفحة بيضاء. ويحاول التوصيف لذلك أن يعوّض الحدس الذي يتمتع به العقل الإنساني.

وهذا الحدس أشبه بالسديم أو هو هذه المسارب المغيبة في العقل الإنساني يصدر عنا دون أن نتبين حقيقته على التعيين.

وإنّما نظن أن "التوصيف" يعوّض هذا الحدس بالكشف عنه؛ لأننا نرى العقل الإنساني يشّف عن عمله من خلال "الإنجاز اللغوي" وهو أعجب إنجازاته إن لم يكن أعجب ظواهر الوجود في عالم الشهادة.

تصدر اللغة عن تلك البنية العقلية وتستوي في نظامها الذي نكتسبه إذا نحن نشأنا في محيطه اللغوي، أو نتعلّمه إذا نحن درسناه درسا منهجيا موجها على الأنحاء المتعارفة. وننظر في اللغة، باللغة، نظرا عقليا فنكتشف نظامها. تكون في حال الاكتساب نظاما نصدر عنه دون أن نتبينه، وتكون في حال التعلم نظاما نتبعه عن وعي صريح. وقد يبلغ بنا التعلم قريبا مما يبلغه بنا الاكتساب، وذلك مؤنس بأن ما يستخرجه نظام الوصف يقترب من "كشف" البرنامج المغيب أو الكامن في العقل الإنساني وهو البرنامج الذي يتشكل لدى من يكتسب اللغة اكتسابا من الطفل والأمّي.

وإذا كان منتهى الهمة في هذا البحث أن يستشف الناظر في اللغة باللغة بعض ما يثوي وراءها من عمل العقل فإنه يحسن أن نجلّي هنا موقفا قد يفضي إلى الاشتباه. وذلك أن تشومسكي ـ مثلا ـ يرى أن ابن اللغة ذا الكفاية في لغته يصدر عن قواعدها في العقل تلقائيا وأنه لا قبل له

بأن ينبىء عن ذلك بالعبارة الصريحة الدالــة علــى وعيــه بتلــك القواعــد[1].

وكان هذا شأن الأعرابي الذي يسأل: أتهمز الفأرة؟ فيجيب: إنما يهمزها القطّ، أو يسأل عن جمع "المحرنجم" فيجيب: وأيْشٍ فرقه حتى أجمعــه[2] لأن الأعرابي إنما يفــهم "الهمــز" و "الجمــع" – وهمــا مــن مصطلــح علمــاء العربية – على معناهما العام المتعارف عليه عند أهــل اللغــة مــن النــاطقين بها. وذلك فرق ظاهر بين اللغوي والاصطلاحي.

فهل يكون عمل اللغوي وصفا كاملا للعمليات العقلية التي يصدر عنــها أبناء اللغة؟

أنظار الأوائل

لقد هَجَس علماء العربية بأن وصفهم للغة إنمــا كــان نموذجــا محاكيــا للنموذج الذي يصدر عنه أهل اللغة. وتلك مقولــة ابــن جــني في أن النحــو انتحاء سمت كلام العرب ليلحق من ليس من أهل العربية بأهلــها[3]. ولكــن هذه المحاكاة أو المماهــاة في انتحــاء سمــت العربيــة إنّمــا تتحصّــل في بــني البشر من الناطقين بلغة أخرى وهم يختزنون حدسهم اللغوي المركب فيهم

---

[1] ـ ينظر :

The Sound pattern of English , p 3,4 The Methodology and Motivation of Ttransformational Grammar, Aspects of the Theory of Syntax p.8, Topics in the Theory of Generative Grammar p.3.

[2] ـ الخصائص 2 / 466

[3] ـ المصدر السابق 1 / 34

ابتداء، ولعلّه يعوّضهم فوائت الوصف الـتي لا يصـرح بـها مصمّمـو سَـمْتِ العربية وراسمو قواعدها.

على أن بعض علماء العربية قد أوغلوا في هذا إلى حدّ الدعوى بأنهم بما يستخرجون من نواميس اللغة وعللها إنّما كانوا يصيبون ما كان يصدر عنه العربيّ. وذلك متـأَوَّلُ عمل ابن الأنبـاري في "أسـرار العربيـة" ومـفهوم عبـارة ابـن جـنّـي فـي "الخصـائص" أنّ "العـرب أرادت مـن العلـل والأعراض ما نسبناه إليها وحملناه عليها"[4].

ولعل مما أغرى ابن جنّي بهذه الدعوى ما لحظه من جـري العربـي في كلامه على سمْت مطّرد. ولكنها تظل دعوى بأن قواعد علماء العربيـة تما هي ما يجري في عقول أبنائها. ولعـلّ الخليـل كـان أقـرب إلى النّصفـة إذ تمثل أن العرب قد جرت في كلامها على سلائقها وأنه قام في عقولها علـل ذلك، ولكن ذلك لم ينقل عنـها، وإنمـا يجتـهد هـو في تفسـيره أو تعليلـه مقدّرا أن يستشف ما قام في عقولها علل ذلك، ولكنّ ذلك لم ينقل عنـها، وإنما يجتهد هو في تفسيره أو تعليله مقـدرا أن يستشـف مـا قـام في عقـول أبناء العربية غير قاطع بأنه يبلغ في ذلك كلمة الفصل والحقيقة الكاملـة إذ فسح لغيره أن يلتمس لذلك تفسـيره لَعَلَّـه يبلـغ منـه مـا لم يبلـغ الخليـلُ نفسه.[5]

وقد فتش علماء العربية في وصفهم عن " نظـام " وتحـروا في عملـهم أن يردّوا المفردات (أو الفروع) إلى أصول كلية "ناظمة". بـل إنّـه يتفـق لـدى

---

[4] المصدر نفسه / 237

[5] الإيضاح في علل النحو ص 66

بعضهم مثل ما يجـرّده الحاسـوبي الـذي إذا أراد أن يقـرّب الدلالـة علـى منهجه وطريقة مقاربته للمادّة (أو الموضوع) الـذي يعالجـه نظـر في الغرفـة مثلا، فأشار إلى ما فيها مـن خزانـة ومنـاضد وكراسـيّ . . . قـائلا إنـه لا يتوقف إلى أعيانها المتباينة وإنّما ينظر إليها من جهة أنّـها جميعـا تـؤوب إلى "أصل" واحد مشترك جامع هو "الخشب"، مثلا.

وهذا المثال على التعيين مما كان اتفق لبعض علماء العربية؛ فقد وقـف ابن السراج إلى اشتقاق الكلـم في العربيـة بعضـها مـن بعـض؛ كيـف يتفـق المشتق (وهو فرع) والمشتق منه (وهو الأصل) " ولا يقـع فـرق بينـهما – إذا وقـع – إلاّ بـاختلاف الحركـات أو بـالزوائد، فيكـون البنـاء غـير البنـاء والأصول واحدة."[6] ثم عقّب على ذلك بمقارنـة كاشـفة قـائلا: "ونضـرب لذلك مثلا ما يتخذه الناس من الذهب كالخاتم والحلقة وغير ذلك فـالصور مختلفة والجنس واحد"[7].

وأفاض ابن يعيش في هذه المقارنة عند شرحه لقول ابن جنّي في الأصـل والزائد وأن "الأصل عبارة عن الحروف التي تلزم الكلمة في كل موضع مـن تصرفها"[8]. فقـد قـرر ابـن يعيـش، ثمـة، أن هـذه "الحـروف – الأصـل" تجري مجرى الجنس للأنواع، نحو الحياة للإنسـان والفـرس والطـائر، لا بد مـن وجودهـا في كـلّ واحـد مـن هـذه الأنـواع، وإن اختلفـت حقائقـها وكالمادة للمصنوعات نحو: الخشب للباب والكرسيّ والسرير وغير ذلك من

---

[6] ـ رسالة الاشتقاق لابن السرّاج ص 20

[7] ـ رسالة الاشتقاق لابن السرّاج ص 20

[8] ـ شرح الملوكي في التصريف لابن يعيش ص 108 ـ 109

الصور، لا بد من الخشب في جميع ضروب هذه الصور. فكذلك الحروف الأصول هي مادة لما يبنى منها من الأبنية المختلفة موجودة في جميعها من نحو ضرب يضرب فهو ضارب ومضروب. ف "ض ر ب" موجود في جميع هذه الأبنية . . . ومثله الذهب، تصاغ منه ضروب الصور، نحو الحلقة والخاتم وغيرهما على ما تقدم. الفروع كثيرة، والأصل الذي هو الذهب واحد، موجود في كل فرع منها . ."[9]

وكثيرا ما نجد لديهم ما يشبه عيارا (Template) لظاهرة لغوية على مثال ما يقتضيه برنامج يعد للحاسوب من الدقة والضبط والاكتمال.

ومن ذلك ما يورده الزمخشري في المفصل عند كلامه على زيادة الحروف؛ " فالهمزة يحكم بزيادتها إذا وقعت أولا بعدها ثلاثة أحرف أصول كأرنب وأكرم . . . "ويحكم بأصالتها إذا وقع بعدها حرفان أو أربعة أصول". "والألف لا تزاد أولا" و" لا تقع إلا زائدة" إذا لم تقع في أول الكلمة و "كان معها ثلاثة أحرف أصول فصاعدا كقولهم خاتم وكتاب". و الياء إذا حصلت معها ثلاثة أحرف أصول فهي زائدة أينما وقعت . . كيضرب . . . "والواو كالألف لا تزاد أولا" فإذا لم تقع أولا "فلا تكون إلا زائدة كعوسج وحوقل وقسور ودهور وترقوة وعنفوان وقلنسوة . . . " والميم إذا وقعت أولا وبعدها ثلاثة أصول فهي زائدة نحو مقتل ومضرب ومكرم ومقياس . . . " فإذا لم تقع أولا فهي أصيلة. "والنون إذا وقعت آخرا بعد ألف فهي زائدة" "وكذلك الواقعة في أول المضارع والمطاوع نحو نفعل وانفعل . . " "و التاء اطردت زيادتها أولا

---

[9] ـ المصدر السابق ص 108 – 109

في تفعيل وتفعال وتفعُّل وتفاعُل وفعليهما وآخرا في التأنيث والجمع . . ."
و"السين اطردت زيادتها في استفعل" . "واللام جاءت مزيدة في ذلك وهنالك وألا لك . . وفي عَبْدَل وزَيْدَلٍ . . ."

وقد حصر الزمخشري هذه الحروف على نهج سابقيه؛ إذ "هي التي يشملها قولك اليوم تنساه أو وأتاه سليمان أو سألتمونيها أو السّمان هويت" ثم قرر أنه إنما يذكر "ما يميز به بين مواقع أصالتها ومواقع زيادتها."[10]

ونظير ذلك ما بسطه ابن السراج في الأصول تحت عنوان (مواقع الحروف)؛ فهو يمضي في ذلك الفصل على هذا النحو:

"وأعلم أن الحرف لا يخلو من ثمانية مواضع. إما أن يدخل على الاسم وحده مثل (الرجل) أو الفعل مثل (سوف)، أو ليربط اسما باسم، (جاءني زيد وعمرو)، أو فعلا بفعل، أو فعلا باسم، أو على كلام تام، أو ليربط جملة بجملة، أو يكون زائدا. أما دخوله على الاسم وحده فنحو لام التعريف إذا قلت: الرجل، والغلام فاللام أحدث معنى التعريف، وقد كان رجل وغلام نكرتين، أما دخوله على الفعل فنحو سوف والسين إذا قلت: سيفعل أو سوف يفعل فالسين وسوف بهما صار الفعل لما يستقبل دون الحاضر . . . وأمّا ربطه الفعل بالفعل (ف) نحو قولك: قام وقعد وأكل وشرب. وأما ربطه الاسم بالفعل فنحو: مررت بزيد، ومضيت إلى عمرو. وأما دخوله على الكلام التام والجمل فنحو قولك: أعمرو أخوك؟

---

[10] ـ المفصل (طبعة بروخ) ص 170 ـ 172 . وقد اقتصرنا على ذكر مواقع من الزيادة والأصالة فحسب إبانة عن مقولتنا وقصدا إلى الإنصاف، وتركنا أن نشير إلى سائر المواقع و الأمثلة التي خرجت على ضوابط المواقع التي بينها الزمخشري ذلك أنه كان يشفع كل قاعدة من قواعده في تعيين موقع الزيادة أو تقرير الأصالة بالألفاظ المسموعة أو الشواذ عن تلك القواعد.

وما قام زيد، ألا ترى أن الألف دخلت على قولك (عمرو أخوك) وكان خبرا فصيرته استخبارا، و(ما) دخلت على (قام زيد)، وهو كلام تام موجب، فصار بدخولها نفيا. وأما ربطه جملة بجملة فنحو قولك، إن يقم زيد يقعد عمرو . . . وأما دخوله زائدا فنحو قوله تعالى: فبما رحمة من الله . . . "[11]

منزلة الحدس

ولكن عمل علماء العربية، على كل حال يظل أدنى إلى الوصف؛ ذلك أنه يظل يعول على حدس المتعلم؛ إذ تدع كتب العربية للمتعلم مواضع تمثل " فراغا " يتعين أن يسده المتعلم بحدسه.

ومن ذلك أن كتب الصرف تحد المثنى وتدل على طرق صوغه، وكتب النحو تذكر حكمه في الإعراب رفعا ونصبا وجرا، عند الكلام على المعربات بالعلامات الفرعية، وتذكر حكم اسم "كان" في الرفع، وجواز تأخير اسمها عن خبرها (في باب كان وأخواتها)، وتذكر حكم حذف نون المثنى عند الإضافة (في باب الإضافة)، ولكنها تدع للمتعلم أن يستثمر هذه القواعد الموزعة على أبواب عدة في تركيب جملة واحدة أو تحليلها كما في:

---

[11] ـ أصول النحو 1 / 44، 45

كان في المجلس صديقاك

ومثل هذا أمر يعيا به المتعلمون أنفسهم.

ومن ذلك أن سيبويه، مثلا، عرف الاسم هكذا: "فالاسم رجل وفرس وحائط "[12] مجتزئا بثلاثة من أعيان أمثلته تاركا للمتعلم أن يجرد منها "عيار" الاسم. ومثل ذلك، أيضا، مما قد يعيا به المتعلمون.

ومما لا تقوله قواعد النحاة أنها حين ترسم شروط صياغة " أفعل" في التفضيل والتعجب تنسقها على النحو المتعارف: أن يكون له فعل ثلاثي تام، مثبت، متصرف، مبني للمعلوم، قابل للتفاوت، ليس الوصف منه على وزن "أفعل" الذي مؤنثه "فعلاء".

فإذا تخلف من ذلك شرط تعين التفضيل أو التعجب بوساطة مما استوفى الشروط، فيقال، مثلا: ما أعذب معاملته، أو: هو أحسن معاملة من شريكه.

ولكن القواعد لا تحفل بأن تصرح بأنه يمكننا التفضيل أو التعجب مما استوفى الشروط بتلك الوساطة.

فهل يسوغ لنا أن ندع التفضيل مباشرة ونستعمله بوساطة في مثل العذوبة، والحدة، والطول ـ وهي وغيرها مما استوفى الشروط، فندع: أعذب، وأحد، وأطول ونقول: أكثر عذوبة، وأكثر حدة، وأكثر طولا؛ وكان هذا الوجه، وجه التعجب مما استوفى الشروط بوساطة، مما كنت أجده وأنا أقرأ تجارب الطبع لكتاب العصر الإسلامي للدكتور شوقي ضيف، ولعله كان يختاره بحدس ابن اللغة حينا ورعاية لإيقاع العبارة

---

[12] ـ الكتاب (هارون) 1 / 12

حينا. وهو وإن كان وجها من السعة تعبر به اللغة عن المعنى الواحد بمبنيين، أو كان جائزا من باب أولى كما تهدي إليه بداهة العقل يظل مسكوتا عنه لا تصرح به قواعد الصرفيين وتدعه لحدس المتعلم.

وتمثل تلك العبارة الذائعة لدى علماء العربية ومعلميها (وعليه قس) مدى ما يعولونه على "حدس" المتعلم.

ومهما يكن من أمر فإن " التوصيف " المقصود هنا الآن ليس قسيما للوصف، وإنما التوصيف للوصف رديف. وإذا كان الوصف تخطيطا إجماليا دالا دلالة كافية أو قريبة من الكفاية في الدلالة على ملامح صورة اللغة لمن يتعلمها من الناس فإن التوصيف تخطيط تفصيلي مضاف قد يهدي إلى خطى التدرج في اكتساب اللغة لدى الطفل وتعلمها لدى الناشئة وقد يفضي إلى كشف بعض مسارب الحدس الخفي، ولكنه يمثل النموذج اللغوي المقتضى إيداعه في !الحاسوب؛ ذلك أن الحاسوب ـ في العبارة السائرة المتداولة في دوائر الحاسوبيين، على الرغم من إمكاناته الفائقة الحاسوب مخرجه هو مدخله أومستخرجه هو مستخدله؛ فهو يخرج إليك ما تدخل فيه أو هو (Garbage in Garbage out) أو كما قالوا.

الإنسان والحاسوب بين الوصف والتوصيف: عود إلى منزلة الحدس

ومبلغ القول أن الوصف للإنسان وأن التوصيف للحاسوب؛ فللإنسان حدس، وليس للحاسوب حدس، وللإنسان فهم وليس للحاسوب، حتى الآن، فهم.

يسمع العربي جملة: دخل موسى المستشفى، فيحللها إلى عناصرها ويعرف علائقها، فإذا سمع جملة: دخل المستشفى موسى، أدرك أن موسى هو الفاعل مع تأخره ولم يحتج إلى بيان أن المستشفى لايصح في الفهم أن يكون فاعلا (داخلا) في هذا التركيب. أما الحاسوب فإنه يحتاج إلى قائمة من البيانات المعجمية حول كل كلمة تحدد سلوكها في الجملة حتى يدرك أن "المستشفى" لا يدخل "موسى".

وإذا سمع المتعلم جملتي:

رأى الحصان السوط

سمع الحصان الصوت

أدرك أن المنطوق في الأولى (السوط) غير المنطوق في الثانية (الصوت) على الرغم من أنهما متماهيان في السمع، ولم يكن بحاجة إلى بيان مهما يكن لإدراك الفرق. أما الحاسوب فإنه محتاج إلى دليل مستقصى من الدوال لإقامة الفرق وإدراك المراد في كلتا الجملتين، وهي دوال معجمية في المقام الأول تفضي إلى إيضاح العلائق الممكنة بين الكلم، وإذا كان في البيان عن الحصان أنه حي يسمع ويرى، فإن ينبغي أن يفضي البيان عن "سمع" و "رأى" و "السوط" و "الصوت" أن الصوت لا يرى وأنه يسمع.. . إلخ.

وإذا سمع المتعلم (الواو) في مثل:

عاد المسافر وأهله

عاد المسافر وأهله نائمون

عاد المسافر والغروب

عـرف أن الـواو في الأولى (عاطفـة) وفي الثانيـة (حاليـــة) وفي الثالثـــة (للمعية) معولا علـى "مرجـع" مـن "الحـدس" يكـون دليلـه إلى "الفـهم" وإقامة "الفرق". أما الحاسوب فهو محتاج إلى ثبـت مـن القرائـن الإضافيـة والبيانات الضافية حول كل مفردة في الجمل إلى جـانب "عيـار" مسـتوفى للواو يعين معناها في كل جملة ويدل علـى الفـرق بـين كـل واو وغيرهـا في هذه الجمل.

بل إن هذا الفرق بين الوصف والتوصيف يشـبه أن يكـون مؤشـرا علـى الفرق في الكفاية اللغوية لدى من يتعلمون اللغة من أبنـاء البشـر أنفسـهم؛ ذلك أننا نراهم يتفاوتون في مدارج الكفاية على طريـق التعلـم. فقـد يذهـب بعض المتعلمـين إلى أن (ينجمـان)، مثـلا، مثنـى أخـذا بـالعنصر الشـكلي الظاهر من الحد وهوانتهاء الصيغة بـألف ونـون (دون أن يمضـي إلى سـائر عناصر الحد)، ومثل ذلـك أن يظـن المتعلـم أن اليـاء في (أمسـي) هـي يـاء المتكلـم غـافلا عـن تأصيلـها في التصريـف. ومـن ذلـك أن يوهـم أحـد مـن يحاولون تمثيل اللغة للحاسوب ذاهبا، مع الخاطر الأول، إذ يجعـل دليـل الفعل المضارع من الكلم أن يكون في أوله الهمزةأو التاء أو النـون أو اليـاء، غافلا عن أن هذا "العيار" غير كاف؛ إذ يدخل عليه وقـوع الهمـزة أولا في (أنـا وأنـت وأنتـم وأنتمـا) و(أمسـى وأصبـح . . .) ووقـوع التـاء أولا في (ترك..) ووقوع النون أولا في (نحـن) و(نسـي) ووقـوع اليـاء أولا في (يبـس ويئس) من ضروب الكلم غير الفعل المضارع.

ولذلك تصبح أخطاء المتعلمين ومراحل نمو اللغة لدى الطفل معالم دالـة على منهج التوصيف؛ ذلك أن أخطاء المتعلمين تومـيء إلى الإقتصـار علـى

ملاحظ قاصرة عن تحليل اللغة وتركيبها، كما يمثل نمو اللغة عند الطفل على معارج متنامية في تحقيق الكفاية ويومىء في الوقت نفسه إلى مثل حاجة الحاسوب "الآلة الصماء" أو "الذاكرة البيضاء" من بناء الكفاية اللغوية لديه في معارج متناميةإلى الغاية العليا؛ إذ ينبئنا تنامي الكفاية لدى الأطفال كما تنبئنا نواحي قصور الكفاية لدى المتعلمين بمدارج التوصيف للحاسوب لأنها تقترب بنا من البدايات الأولى لتشكيل اللغة.

ولكن هذا الأمر ليس على إطلاقه بل يتخذ في بعض الأمثلة وجها عكسيا؛ فإن الناشىء حين يبدأ تعلم اللغة كما في قاعدة الفاعل والمفعول في المثال الشهير "ضرب زيد عمرا" يكون التماهي بين معنى الفاعل ومعنى المفعول في اللغة والاصطلاح معا تدبيرا مساعدا له على استيعاب القاعدة؛ ذلك أن "الفهم " المتحصل لديه يجعله قادرا على إدراك المراد بالفاعل والمفعول، إنما يصعب عليه في مرحلة مبكرة أن يتمثل كيف يكون (زيد) فاعلا في مثل: لم يضرب زيد عمرا، وفي مثل: هل ضرب زيد عمرا؟ ويكون الإسناد مفهوما مجردا يقتضيه فهما متقدما في نموه العقلي.

أما الحاسوب فإنه يفتقر إلى مثل هذا الفهم الأولي ابتداء، ويحتاج، من أول، إلى " عيار " محدد يعين له الفاعل والمفعول؛ إذ أن مفهوم الفاعل في اللغة –مثلا– محتاج عنده إلى بيان ينتظم أدلة من مثل أن يكون "اسما" وأن يقع بعد الفعل . . الخ على أن الاسمية والفعلية أنفسهما محتاجان إلى أدلة صرفية ومعجمية ونظمية ينبغي إزجاؤها.

وإذ صح أن أول ما وضع من النحو العربي كان باب الفاعل والمفعول انضاف إلى أدلتنا المستأنسة في التوصيف ما يكون من بواكير وعي اللغوي

نفسه ببدايات اكتشاف نظام النحو على أساس من التماهي بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي.

وحقا أن العقل الإنساني حين يبلغ درجة الكفاية اللغوية يكون قد استدخل قواعدها (بأنظمتها المختلفة) ومعطياتها. إنه يكون قادرا على إنشاء اللغة إنشاء تاما على وفق قواعدها الصوتية والفونولوجية والصرفية والتركيبية والإعرابية والمعجمية والأسلوبية والكتابية، كما يكون قادرا على تحليل اللغة وفق تلك القواعد. يشكل مرجعا للإنشاء والتحليل ومرجعا للصواب والخطأ في أداء ذلك كله أو تقويم ذلك كله.

يستطيع ذو الكفاية في العربية أن يصحح النطق إذا عثر اللسان فقال: صوت "مزعج"، ويستطيع أن يكتشف الإخلال بإخراج الصوت من مخرجه أو تغيير صفته إذا سمع قائلا يقول: سباح الخير بدل صباح الخير، ويستطيع أن يصح أداء الأصوات مجتمعة إذا سمع قائلا يقول: الجامعة (بلفظ اللام جيما)، ويستطيع أن يتبين الخروج على قواعد الصرف إذا قال قائل: مفتاح بضم الميم بدل مفتاح بكسرها أو قال: معجم بفتح الميم بدل ضمها، ويستطيع أن يتبين الخطأ في النظم إذا سمع قائله تقول: الحفلة متى؟ والخطأ في الإعراب إذا سمع مذيعا أو مذيعة تقرأ: أجرى الوفدان مفاوضات مكثفة أمس (بتنوين الكسر في (مكثفة) بدلا من تنوين الفتح). إنه يكون قادرا على القيام بدور المصحح الإملائي فيعرف مثلا أن (سعا) على هذه الصورة خطأ وأن (أرجوا) على هذه الصورة خطأ، كما يكون قادرا على القيام بدور المحرر اللغوي بكل ما يقتضيه ذلك من العلم بمرجع التصحيح.

وإن مشاريع "المصحح الإملائي" و"المعرب" و"المحلل الصرفي" . . . إنما هي نماذج من محاكاة ما يختزنه "الإنسان" من أدلة الكفاية اللغوية.

التوصيف وتمثيل الحدس المنهجي

وتدل هذه التطبيقات "المشروعات"، وأضرابها مما يعلن محوبو اللغة أو يحاول محوسبو اللغة إنجازه، على أن الوصف الذي أنجزه علماء اللغة لم يصرح بكثير من القواعد والأدلة اللازمة عند "التوصيف" و "تمثيل اللغة" للحاسوب. فقد تسأل العربي، كما سئل العربي قديما، عن مسائل في اللغة يدركها بالحدس فلا يستطيع الإجابة، وقد تسأل بعض المشتغلين

استيعاب معجمات اللغة ونصوصها بل تراثها جميعا، فإذا رتب له المرء مفاتيح ذلك أمكنه استدعاء كل ما شاء من المعطيات التي يشتمل عليها بأسرع وأوسع مما تطيقه الذاكرة الفردية.

إن استحضار الشروح والاستعمالات المتعلقة بكلمة " أب "، مثلا، قد يقتضي من يعرف اللغة أن يستشير المعجمات متخذا معرفته بمناهج ترتيبها، كما يقتضيه أن يراجع كتب التفسير مستعينا بمعرفته بأساليب الوصول إلى موقع الكلمة من القرآن وموقعها من كتب التفسير، ويقتضيه أيضا أن يعود إلى طبقات الصحابة . . . إلخ. أما الحاسوب فإنه إذا استودع ذلك كله كان قادرا على أن يستدعي ذلك جميعا بمجرد ان تعين له الكلمة. فهو يتفوق على الإنسان الفرد في الاستيعاب الكمي للبيانات، ولكن الإنسان يتفوق عليه في معالجة البيانات التي استدخلها وذلك بعض ما يستلزمه التوصيف على مستوى إضافي.

أما البعد المنهجي ـ وهو ما يستلزمه التوصيف ـ فيتعلق بالبعد الأول من جهة أنه يمثل سياقا لازما لتحقيق الكفاية. إنه إذا أمكن الإنسان أن يستودع الحاسوب المعطيات والقواعد التي يختزنها العقل الإنساني فتتحقق له بها الكفاية اللغوية سيظل محتاجا إلى رصيد إضافي من المعطيات وأدلة منهجية لاستدعائها ومعالجتها قصد الانتفاع بها لاستيفاء شروط الكفاية اللغوية (الخارجية) ـ إن صح الوصف. وذلك أن كفايتنا اللغوية من جهة معرفة اللغة في ذاتها غير كافية. ففي حال العربية الممتدة في عمر الزمان ستة عشر قرنا حتى الآن تكون بنا حاجة إلى مراجعات منهجية كثيرة مما لايختزنه العقل ولا تستوعبه الذاكرة. وإذا عرض لنا

بيت من الشعر لا نعرف قائله أو لانتحقق من نصه، مثلا، فقدرنا أنه جاهلي فإننا نسعى للبحث عنه في دواوين الجاهليين والمجموعات الشعرية وكتب الأدب الجامعة مما نقدر أنه مظنة لوروده، فإذا أعيانا أن تجده ثمة التمسناه في كتب شواهد النحاة، مثلا، وذلك تفكير منهجي يعد شرطا من شروط الكفاية فينا، وهو مثال وحسب. ولذلك فإن من تمام التوصيف أن يرفد بالأدلة المنهجية اللازمة للإجابة عن مثل هذا المطلب. وهو يتعلق بسياق العربية الذي تمثل معرفته شرطا وضرورة في استكمال أسباب الكفاية لدى العربي والحاسوب معا.

تمثيل "الحدس" لدفع اللبس

مثل من الصفة والعلم

قد يعرض للعربي اللفظ الواحد يستعمل على وجهين أو أكثر؛ يعرض له اللفظ الواحد يكون " علما " ويكون " صفة " كما في : عادل، نادر، سالم، صالح، محمود، مبارك، سعيد، كريم، سليم، . . .

ولكن أدنى قرينة تجعله قادرا على تمييز "العلم" من "الصفة" يكفيه أن يجد مثلا:

ـ كان عادل محبوبا

حتى يتبين أن "عادل" اسم علم،

ويكفيه أن يجد، مثلا:

ـ كان عمر عادلا محبوبا

حتى يتبين أن " عادل" : ليس اسم علم

إن ما استودعه العربي من ألفاظ العلم ومفهوماته وأنحـــاء اسـتعمالها في وظائفها النحوية يمثل عدة وأداة تلقائية حاضرة تسعفه على تمييز العلم.

أما توصيف هذا الفرق فإنه يقتضينا تصميم " عيار " تفصيلي على مثل هذا النحو:

تكون الكلمة المشتقة علما:

ـ إذا وقعت مبتدأ في أول الكلام:

ـ عادل رجل فاضل

ـ إذا وقعت فاعلا (بعد فعل):

ـ تخرج فاضل هذا العام

ـ إذا وقعت نائبا عن الفاعل (بعد فعل مبنى للمجهول):

ـ انتخب عادل رئيسا للجمعية

ـ إذا وقعت اسما لكان وأخواتها:

كان عادل محبوبا

ـ إذا وقعت بعد كاد وأخواتها:

كاد عادل يغرق

ـ إذا وقعت اسما ل إن وأخواتها:

ـ إن عادلا مسافر

ـ إذا كانت خالية من أل التعريف بعد اسم معرف ب "ال":

ـ حضر القاضي عادل

ـ إذا وقعت بعد حروف الجر:

ـ أعتمد على عادل

وتكون الكلمة المشتقة غير علم:

ـ إذا كانت نكرة مذكرة مفردة بعد نكرة مذكرة مفردة:

ـ نريد سلاما عادلا

ـ إذا كانت معرفة ب ال مذكرة مفردة بعد معرفة ب ال مذكرة مفردة:

ـ السلام العادل مطلبنا

ـ إذا وقعت حالا:

ـ عاش عمر عادلا

ـ إذا وقعت خبرا للمبتدأ:

ـ الحكم عادل

ـ إذا وقعت خبرا لكان وأخواتها:

ـ أعتقد أن الحكم عادل

ـ إذا وقعت مفعولا به ثانيا لـ ظن و أخواتها:

ـ ظننت الحكم عادلا

* يندر أن تكون الكلمة المشتقة علما إذا وقعت في أول الجملة.

* يندرأن تكون الكلمة المشتقةعلما إذا كانت معرفة ب " ال ".

ويظل هذا التوصيف تقريبيا لأن بعض أمثلته كما في:

ظننت الحكم عادلا، تحتمل "العلم" كما تحتمل "الوصف ـ الصفة" إلا أن تقوم قرائن خارج سياق المقال.

مثل من المثنى

إن تمييز المثنى، مثلا، من بين "أبنية الكلم" في النص العربي بتعريف الصرفيين، لا يتأتى للحاسوب؛ ذلك أن تعريف الصرفيين للمثنى بأنه مـا

دل على اثنين بزيادة ألف ونون أو ياء ونون، يحيل إلى "المعنى" وهو أمر لا يسعف به إلا "الفهم" الذي يستدخله أبناء اللغة ومن تعلموها من بني البشر. وقد يبدو لمن يتأمل هذه المسألة أن تمييز الحاسوب للمثنى ممكن وذلك بأن يحيل كل "كلمة" تعرض له في النص على معجم "كامل" للغة العربية ينتظم بيانه عن كل كلمة بوصفها "الصرفي"، إذ عند ذلك يمكنه أن يعثر على الكلمة المعنية المعينة وقد ورد في بيانها المعجمي أنها "مثنى"، وإذن يصبح المعجم الكامل في استيعابه لمفردات اللغة جميعا الشامل في انتظامه لصفات كل كلمة من كل وجه هو "التدبير" الوحيد المتاح لتعقيل الحاسوب. وهذا بعض شأن "النحو المعجمي الوظيفي" حقا. ولكن تحقيق هذا الإنجاز يقضي بإلقاء النظام الصرفي في سلة هذا الضرب من المعجم وهو يفضي إلى مطلب ضخم - إن تيسر تحقيقه بحصر مفردات اللغة جميعا حتى الآن - يظل يقصر بالحاسوب عن تمييز "المثنى" فيما يستحدث من أبنيته. وقد يبدو للمتأمل، أخرى، أنه إذا كان المعجم الكامل مستودعا مفتوحا لكل مستحدث من الكلم فإنه يستطيع أن يفي بهذه الغاية.

على أنه لا بأس أن نحاول نهجا مختلفا في تمثيل المثنى للحاسوب حتى نظفر بالمعجم الكامل المتكامل باستمرار.

يسهل، طبعا، أن نبدأ بقاعدة شكلية خالصة هي أن المثنى يتعين، للخاطر الأول، بأنه يكون منتهيا ب "ألف ونون" أو "ياء ونون". فإذا قام برنامج الحاسوب على هذه القاعدة أمكنه أن يميز عددا غير قليل من أبنية المثنى السائدة.

ـ القائدان، الرئيسان، المجلتان، الدولتان، الكتابان

ـ الأخوين، الخصمين، المجلتين، الدولتين، الكتابين.

ولكنه سيلقي إلينا بعد ذلك مثل هذه الكلم:

ـ يعقدان

ـ تحضرين

ـ مكان

ـ كان

ـ استبان

ـ والدان

ـ أخدان

ـ غضبان

ـ الصحفيين (جمع المذكر السالم في حالي النصب والجر غير مشكول وهو السمة الغالبة على الكتابة العربية)

وإذن تتخلف القاعدة الشكلية الأولى وتكون غير كافية، ونصبح بحاجة إلى قاعدة أخرى أو أمر آخر بعد تحويل القاعدة الأولى نفسها إلى أمر: عين الكلمة التي تنتهي بألف ونون أو ياء ونون. ويكون الأمر الثاني: اعزل: ما بقي من الكلمة، فيتحصل لدينا، من الأمثلة السابقة:

ـ تعقد

ـ تحضر

ـ مك

ـ ك

ـ استب

ـ أخد

ـ الصحفي

ويكون المعجم هو المرجع في هـذه الحـال بـالضرورة إذ بـه نسـتطيع أن نتبين هل الكلمة المتبقية اسم مفـرد. وإذن يكـون الأمـر الثـالث هـو: هـل الكلمة المتبقية اسم مفرد؟ وقد يسعفنا بأن "يعقد" و"تحضـر" ليسـا اسمـين مفردين، وإذن لا يكونان مثنيـين. ثـم نحتـاج إلى أمـر رابـع: هـل الكلمـة المتبقية موجودة، بصفـة مسـتقلة، في مـواد المعجـم، وإذن يسـتبعد، فيمـا نؤمل، مك، ك، استب، أخد. على أننا ينبغي أن لا نتجاهل أنـه يمكـن أن يلقي إلينا "ك" منفصلة في مثل "سماك". وإذن نحتـاج إلى أمـر خـامس هو: هل الكلمة المتبقية على حرف واحد[13]؟ فإذا كـان ذلـك كذلـك ألقينـا إليه أمرا سادسا: هل تؤلف الكلمة (الحرف) مع ما قبلها كلمة (اسما)[14]؟ فإن لم تكن كذلك اسما لم تكن الصيغة مثنى.

وفي كلمـة (الصحفيـين) ـ وهـي كلمـة لا يتـأتى لنـا أن نسـتفتي فيـها المعجـم؛ لأنـه ـ وإن يكـن المعجـم مشـكولا شـكلا تامـا ـ سيسـتوي لـدى الحاسوب فيها صيغتنا المثنى والجمع إذا مر بها غـير مشـكولة. وسـتكون عنده "ملبسة" تحتمل أن تكون إحدى الصيغتين. وهكذا نحتاج إلى محـدد

---

[13] ـ واضح أن جوانب هذا السؤال يكون بالإحالة إلى ثبت الحـروف الهجائيـة بأشـكالها المسـتقلة المختلفة (ب ك . . .) مثلا.

[14] ـ ذلك أن نظام الكتابة العربية يقتضينا التنبه إلى مواضع الاتصـال والانفصـال في نسـق حـروف الكلمة؛ إذ قد يقرأ الحاسوب كلمة كتابان على أنها كلمتان.

إضافي يتخذ شكل أمر سابع، وهو محدد يحلينا إلى "النظم" وعلاقات الكلم بل فضاء السياق. وقد يتألف هذا المحدد من:

ـ تعيين الكلمة اللاحقة (فإذا كانت اللذين تعين المثنى)

ـ تعيين الضمير العائد (فإذا كان "هما" في مثل: طرد الرئيس الصحفيين لأنهما قاطعاه، تعين المثنى).

وفي "ولدان" نحتاج إلى أن نتحرى موقعها فإذا وقع بعدها "اثنان" أو فعل مسند إلى ألف الاثنين "يلعبان" تعينت مثنى أو وقع بعدها جمع (ولدان مخلدون) كانت جمعا.

وفي أخذان يكون المعجم مرجعنا لأن المعجم لن يجد (أخد) اسما مفردا، وكذلك الحال في غضبان إذ سيكون المستفاد به أنها صفة مشبهة (حتى في معجم من المعجمات السائدة على النهج التقليدي) ثم إنه لن يجد (غضب) اسما وسيكون البيان عنه في العادة أنه مصدر،والمصدر في السائد لا يثنى ولا يجمع على عمومه إلا إذا دل على متعدد من الأحداث.

بل يحتاج عيار "المثنى" أو "توصيفه" هذا الذي نجهد في تشكيله إلى رعاية أمر آخر ينبني عليه أمر أخير، ذلك أن مثل "يزيدان" قد يقع مثنى وهو بناء لحقت الألف والنون فيه صيغة فعلية ولكنها مما يسمى به (في حال الإفراد) ويثنى. وإذن يقتضينا الاحتراس إلى منتهاه أن نحدد المثنى بمحددات إضافية من علامات الاسم، فنجعل من ذلك أن تدخله "ال" (فاليزيدان مثنى)، أو يكون بعد "يا" أو "هيا" أو غيرهما من أدوات النداء، أو يقع بعد حرف جر، أويقع بعد فعل ماض أو مضارع. وذلك كله تقريب ولا يبلغ أن يكون حاسما؛ إذ يمكن أن يقع بعد الهمزة، وهي

مما يعد في أدوات النداء، وتكون حرف استفهام؛ فإذا وردت علينا مجردة العبارة: أيزيدان؟! احتجنا إلى التماس كواشف أُخَر من السياق تعيينا لميز المثنى من الفعل المضارع المسند إلى ألف الاثنين.

ويظل ما يسبق إلى الخاطر الأول لدى (ذي الكفايــة) وهـو (Default) عند الحاسوبيين مستأنسا في تتحدّد المراد الراجح، ويظل المعطى المذيل به العيار من "الأنماط" و "الاحتمالات" مادة "سماعيــة" لازمـة لتمـام تحديـد العيار وتعيين الوجه المراد حين تتعدّدا احتمالات "الوجه"!

أما أبناء اللغة الذين استدخلوا "فهم" المراد بالمثنى في دلالته على اثنين فإنهم لا يعييهم أن يتبينوا أن "يعقدان، تحضرين، مكان، كــان، استبان غضبان" ليست من المثنى، كما أن أدنى أدلـة السـياق تهديـهم إلى تميـيز "الصحفيين" أمثنىّ جاءت أم جميعا، كما يسعفهم حـدس اللغـة فيـهم أن "أخدان" ليست مثنى؛ لأنهم لا يجدون "أخد" في مستودع الذاكرة لديهم من ألفـاظ الأسمـاء ولا مفـردا. ونكـون محتـاجين، في الحـالين، إلى قائمـة إضافية من تلك الألفاظ الملحقــة بـالمثنى، وهـي قائمـة تـردف بـها قواعـد المثنى السابقة في "مسـتردع" الصـرف ـ الأبنيـة، أو تُشَكِّل توجيـها بـأمر (تاسع!) يحيل إلى المعجم إن لم تسعف الأوامر الثمانية الأول.

وتتمثل في كلتا الحالين بمثل الأسئلة التالية:

هل الكلمة هذان؟

هل الكلمة هاتان؟

هل الكلمة هذين؟

هل الكلمة هاتين؟ . . . إلخ

مثل آخر من الضمير المنفصل

إن التوصيف، كما أسلفنا، يعني رسم الأدلة إلى نهج الإنشاء (أو التركيب) بالبيان عن كيفيات استعمال "المكون" اللغوي، ونهج التحليل بالبيان عن كيفيات تمييزه.

ولنجتزىء بالجانب الثانى،[15] إيجازا، في البيان عن أدلة تعيين الضمير المنفصل في سياق الكلام، وهو مطلب يبدو كالمفروغ منه؛ إذ إن الضمائر المنفصلة تعيّن بأفراد ألفاظها: (أنا، نحن، أنت، أنتما، أنتم أنت، أنتما، أنتن، هو، هما، هم، هي، هما، هن).

إننا سنكون محتاجين، مع البيان عن المواضع التي تقع فيها هذه الضمائر والمواضع التي لا تقع فيها، وكل منهما يمثل ثبتا طويلا (مثلا واحدا: تقع "أنا" بعد إلا ولا تقع بعد إن) . . سنكون محتاجين إلى مثل هذه المحددات الخطية:

- لا يقع بعد أنا (ب) المنفصلة
- لا يقع بعد أنا (ت) المنفصلة
- لا يقع بعد أنا (خ) المنفصلة
- لا يقع بعد أنا (م) المنفصلة
- لا يقع بعد أنا (ل) المنفصلة

وهكذا؛ حتى لا يوهم (الحاسوب) وهو يتقرّى أشكال الكلم أن (أنا) في مثل (أناب وأنات وأناخ وأنام وأنال) تكون ضميرا.

---

[15] ـ قد استوعبنا أدلة الجانب الأول (جانب الإنشاء للضمائر المنفصلة والضمائر المتصلة وشطر وافر م الأبواب النحوية) في سياق آخر لا يتسع له ولا يستدعيه هذا المقام.

وذلك أيضا شأن "هو"؛ فإن توصيفه أجل تعيينه في سياق الكلام يقتضينا أن ننبه على أنه:

- لا يقع بعده (س) - هوس
- لا يقع بعده (ش) - هوش
- لا يقع بعده (ج) - هوج
- لا يقع بعده (د) - هود
- لا يقع بعده (ز) - هوز
- لا يقع بعده (ن) - هون

حتى لا يوهم الحاسوب وهو يتقرى أشكال الكلم في النص أن (هو) في مثل هذه الكلم ضمير.

بل إن هذا التحديد يظل محتاجا إلى احترازات سياقية إضافية؛ ذلك أنه قد يحدث أن يعرض في الكلام مثل: هو زعم ذلك، هو دفع الأمور نحو الأزمة، فتكون "هو" ضميرا! ! إلا أن يكون الفراغ بعد "هو" دليلا يحل الإشكال في هذه الحال.

ولعله يحسن أن أستدرك هنا بأن هذه الأمثلة في تمثيل الحدس إنما هي نماذج على منهج "التوصيف" المقتضى للحاسوب، وحسب. ولعل مِحَكّ كفايتها (في اكتمالها ودقتها) هو في عرضها على النصوص الجارية في الاستعمال ومواقف الأداء والتطبيق.

ثبت المصادر والمراجع

بالعربية

ـ الإحكام في أصول الأحكام، لابن حزم، قدّم لـه إحسـان عبـاس، دار الآفاق الجديدة ـ بيروت 1403 هـ ـ 1983م.

ـ استخدام اللغة العربية في المعلوماتية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس 1996.

ـ أسرار العربية، لابن الأنباري، تحقيق محمد بهجة البيطـار، دمشـق 1377هـ ـ 1957م، وطبعـة خريسـتيان فريديـرخ سَـيْبُلد، ليـدن (مطبعـة بريل) 1886م ـ 1303هـ.

ـ أصول النحو، لابن السراج، تحقيق عبـد الحسـين الفتلـي، النجـف الأشرف 1973.

ـ إعراب القرآن، لأبي جعفـر النحّـاس، تحقيـق زهـير غـازي زاهـد، بغداد 1977 ـ 1980م.

ـ أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، (طبعة) محمـد محـي الديـن عبـد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة 1375هـ ـ 1956م.

ـ الإيضاح في علل النحو، للزجاجي، تحقيق مازن المبارك، مكتبـة دار العروبة ـ القاهرة 1378هـ ـ 1959م.

ـ بحوث المؤتمر الثـاني حـول اللغويـات الحسـابية العربيـة، الكويـت 1989م

ـ تقـدم اللسـانيات في الأقطـار العربيـة، وقـائع نـدوة جهويـة، أبريـل (نيسان) 1987ـ الرباط، دار الغرب الإسلامي

ـ الحاسوب واللغة العربية، لعبد ذياب العجيلي، جامعة اليرموك، إربد، 1996.

ـ الخصائص لابن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، 1371 ـ 1376هـ، 1952 ـ 1956م

ـ دائرة الحوار (اللغة العربية والحاسوب)، قاسم السارة ونبيل علي، مجلة عالم الفكر، المجلد التاسع عشر، العدد الثاني 1988م

ـ الرد على النحاة، لابن مضاء القرطبي، تحقيق شوقي ضيف، دار الفكر العربي، القاهرة 1366هـ 1947م

ـ رسالة الاشتقاق، لابن السرّاج، طبعة محمد علي الدرويش ومصطفى الحدري، دمشق 1972

ـ السجل العلمي لندوة استخدام اللغة العربية في تقنية المعلومات، ذو القعدة 1412هـ ـ مايو (أيار) 1992م، مكتبة الملك عبد العزيز العامّة بالرياض 1414هـ ـ 1993م

ـ شذا العرف في فن الصرف، لأحمد الحملاوي، الطبعة السابعة عشرة 1388هـ ـ 1968م

ـ شرح شافية ابن الحاجب، للرضى الأستراباذي، تحقيق محمد نور الحسن ومحمدالزفزاف ومحمد محيى الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي، بالقاهرة 1356هـ

ـ شرح الملوكي في التصريف، لابن يعيش، تحقيق فخر الدين قباوة، المكتبة العربية بحلب 1393 هـ ـ 1972م

ـ الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها لابـن فـارس، المكتبـة السلفية بالقاهرة 1328 هـ ، 1910م

ـ صعوبات تدقيق الإمـلاء آليـا في العربيـة، لـداود عبـده، نسـخة مـن صورة معدلة ومزيدة لبحث قدم في مؤتمر الحاسوب الثنائي اللغة في جامعة كمبردج ـ المملكة المتحدة 1990م

ـ كتاب سيبويه، طبعة بولاق 1316ـ 1317 هـ، وتحقيق عبـد السـلام هارون 1385هـ ـ 1966م . . .

ـ كتاب العربية: نظام البنية الصرفية، لمحمود السمرة ونـهاد الموسـى عمان، الطبعة الأولى 1405هـ ـ 1985م

ـ كتـاب العربيـة: نظـام الجملـة والإعـراب، لمحمـود السـمرة ونـهاد الموسى، عمان، الطبعة الأولى 1404هـ ـ 1984م

ـ اللسانيات العربية والإعلامية، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية (الجامعة التونسية)، تونس 1989م

ـ اللغة العربية وأبناؤها: أبحـاث في قضيـة الخطـأ وضعـف الطلبـة في اللغة العربية، لنهاد الموسى، دار العلوم (الرياض) 1404 هـ ـ 1984م

ـ اللغة العربية والتقنيات المعلوماتية المتقدمة، أعمـال المنـاظرة المنظمـة بمؤسسـة الملـك عبـد العزيـز آل سـعود للدراسـات الإسـلامية والعلـوم الإنسانية، الدار البيضاء 8 و9ديسمبر (كانون الثاني) 1993م

ـ اللغة العربية والحاسوب (دراسة بحثية)، لنبيل علي، تقديم أسـامة الخولي، مؤسسة تعريب، الكويت، 1988م

ـ اللغة العربية والحاسوب، لنبيل علـي، مجلـة عـالم الفكـر، المجلـد الثامن عشر، العدد الثالث 1987م

ـ اللغة العربية والحاسوب، تأليف نبيل علي، مراجعة نهاد الموسـى، المجـل العربيـة للعلـوم الإنسـانية (جامعـة الكويـت)، العـدد الثـامن والثلاثون، المجلد العاشر ربيع 1990 (ص 244 ـ 251).

ـ المؤتمر الثاني حول اللغويات الحسابية العربية، الكويـت، 27 ـ 29 نوفمبر (تشرين الثاني) 1989م

ـ مؤتمر قضايا اللغة العربية وتحدياتـها في القـرن الحـادي والعشـرين، الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا، آب 1996م

ـ مجلة عالم الفكـر، المجلـد الثـامن عشـر (العـدد الثـالث)، الكويـت 1987م، والمجلد التاسع عشر (العدد الثاني)، 1988م

ـ المصطلح النحوي: نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري، لعوض حمد القوزي، عمادة شؤون المكتبـات ـ جامعـة الريـاض، الريـاض 1501هـ ـ 1981م

ـ معجم قواعد اللغة العربية في جداول ولوحـات، لأنطـوان الدحـداح، مكتبة لبنان، الطبعة الرابعة 1989م

ـ معجم المصطلحات اللغوية، لرمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايـين، بيروت، 1990م.

ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام، تحقيق مـازن المبـارك ومحمد علي حمد الله، راجعه سعيد الأفغاني، دار الفكر الحديث ـ لبنان

ـ المفصل، للزخشري، طبعة (بروخ)، ليبزج، . . . (1879)م

ـ الموسم الثقافي الرابع عشر لمجمع اللغة العربية الأردني، عمان 1417 هـ ـ 1996م

ـ ندوة الحاسبات واللغة العربية، تشرين الثاني 1992م، العراق.

ـ ندوة حول إنشاء قاعدة معجمية عربية مولّدة، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، جامعة محمد الخامس، الرباط، شوال 1418 هـ شباط 1998م

ـ ندوة اللغويات الحسابية العربية؛ ذو الحجة 1412هـ ـ حزيران 1992م، القاهرة.

ـ نظام حاسوبي نحوي صرفي للعربية (الاشتقاق والتصريف)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم والمعهد العالي للعلوم التطبيقية والتكنولوجيا بدمشق، تونس 1998م

ـ نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، لنهاد الموسى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت 1980م

ـ نقل الأديب، لمحمد إسعاف النشاشيبي، دار ريحاني للطباعة والنشر ـ بيروت

ـ وقائع مؤتمر الكويت الأول للحاسوب، مارس (آذار) 1989

ـ وقائع مختارة من ندوة استخدام اللغة العربية في الحاسب الآلي (إبريل ـ نيسان 1985)، دار الرازي ـ بيروت 1989.

بغير العربية

- Applications of the Mathematical theory of Linguistics, by Richard Timon Daly, Mouton
- The Hague – Paris 1974
- Applied Arabic Linguistics & Signal & Information Processing, Edited by Raymond Descout, Hemisphere Publishing Corporation, Washington, New York, London 1987
- Aspects of the Theory of Syntax, by Chomsky N, The MIT Press 1965
- Automated Language processing, by Harold Barko. John Wiley and Sons, Inc New – York – London – Sydney 1967
- Challenges in Natural Language processing, Edited by Madeleine Bates and Ralph M. Weischedel, Cambridge University Press 1993
- Computational Linguistics (An Introduction), by Ralph Grishman, Cambridge Univ. Press 1986
- Die Syntaktische Terminologie bei Sibawaih, by Ulrike Mosel, Munchen 1975
- En Carta 95 :
  - Alphabet
  - World Language (Arabic – compare phrases)

- A Grammar of the Arabic Language, by W. Wright, Cambridge Univ. Press 1971
- Linguistics : an interdisciplinary journal of the language sciences, volume 23, 1985
- The Methodology and Motivation of Transformational Grammar, by Fidelhotz, j., in Some New Directions in Linguistics, Georgetown University 1973
- The Sound Pattern of English, by Chomsky N., and Halle M., Harper and Row , New – York . . . 1968
- Topics in the Theory of Generative Grammar, by Chomsky N., Holt . . . New York 1969

مواقع على الإنترنيت

- Models of Natural Language Processing, www. ai. mit. edu/
- Natural Language Processing (FAQ) (What is Computational Linguistics ?), www. cs. Columbia. Edu/ acl/nlpfaq. txt

مكانة اللغة العربية ضمن اللغات الحية في فرنسا

الأستاذ الدكتور علي بوعمامة
جامعة ستر اسبورغ (للعلوم الإنسانية)

أود أن أتحدث إليكم، خلال الوقت المتاح لي، عن مكانة اللغة العربية في فرنسا، وبشكل خاص عن مجال المناهج التعليمية الفرنسية، ومن ثم نرى معا المسألة والغاية من تعليم هذه اللغة في بلد غير عربي! عارضا عليكم آراء زملائي في الناحية المنهجية أو التربوية.

أولا، على مستوى الدراسات الجامعية، اللغة العربية تدرس بذات المستوى الذي تدرس فيه اللغات الأجنبية الأخرى وذلك في جامعات فرنسية متعددة بما يقرب اتنتي عشرة جامعة وهذا في أهم الجامعات الفرنسية: باريس وستراسبورغ وليل ونانسي وليون وإكس- مرسيليا وبوردو إلخ... وهذا التعليم يبدأ من مرحلة المبتدئين إلى الليسانس فالمتريز (الإجازة) فالشهادات العليا في التعمق (D.E.A) فرسالة الدكتوراه. والبرامج أو المناهج تغطي كافة المستويات من الآداب واللسانيات والفلسفة والحضارة منذ الجاهلية حتى العصر الحاضر! بالإضافة إلى ذلك هنالك برامج مخصصة للمبتدئين! وعدد هؤلاء الطالبات والطلاب، المختصين وغير المختصين باللغة العربية يقرب حوالي خمسة آلاف طالب وطالبة. ويأتي تدريس اللغة العربية في الجامعات الفرنسية في الدرجة الرابعة مباشرة بعد الإنكليزية والألمانية والإسبانية.

في مجال تدريس اللغة العربية في المدارس الابتدائية، فإن فرنسا هي البلد الوحيد، على المستوى الأوربي الذي يدرس اللغة العربية في مدارسها الرسمية في المرحة الابتدائية والإعدادية والثانوية Ecoles, Collèges et Lycées.

في مدخل العام الدراسي هذا، أي: سبتمبر /أيلـول2000 تـدرس اللغـة العربيـة كلغـة حيـة أولىLV1 أو ثانيـة LV2 أو ثالثـــة LV3 أو كمـادة اختياريـة Option منـذ السـنة الأولى في المرحلـة الإعداديـة، أي: القسـم السادس وحتى الشهادة الثانوية، البكالوريـا أو التوجيهيـة، بالإضافـة إلى المعـــاهد المتوســـطةB.T.S BREVET DE TECHNICIEN SUPERIEUR

في 216 مدرسة، منها 94 مدرسة إعداديـة و 114 مدرسـة ثانويـة و8 مدارس مهنية. وفي كل عام يزداد عدد التلاميذ الذين يختارون هـذه اللغـة وبالنتيجة يزداد عدد المدارس التي تفتح أبوابها لتدريس العربية.

أما عدد التلاميـذ الذيـن يدرسـونها فـهو حـوالي 7500 تلميـذ، وعـدد المدرسين هـو 168 مدرسـا، منـهم 112 يحملـون شـهادة الكفـاءة للتعليـم CAPES و44 بدرجـة التـبريز AGREGATION وأربعـة كمدرسـين مؤقتـين و4 مدرسـين للمـدارس التقنيـة و14 مدرسـا مـن الخارج ASSISTANTS ETRANGERS

عـدد التلاميـذ المرشـحين للشـهادة الثانويـة/ البكالوريـا العامـة والتكنولوجية والتقنية حوالي 3600 تلميذ ويزداد عددهم من عام إلى آخر.

هنـالك شـكل آخـر لنشـر اللغـة العربيـة وتعليمـها بواسـطة (إلكـو) ENSEGNEMENT

ELCO = DES LANGUES ET CULTURES D'ORIGINE

ويعني: تدريس لغـة البلـد الأصـل، وهـذا الشـكل مـن التعليـم تم وضعـه تدريجيا، عن طريق دول المغـرب العربـي الثـلاث، منـذ عـام 1970، وتم توقيع اتفاقيات ثنائية خلال عام 1980.

منـد البـدء، كـانت الفكـرة لتنظيـم هـذه الطريقـة مـــن التعليـــم لأولاد المهاجرين في فرنسا، في حالـة عـودة الآبـاء إلى وطنـهم. هـذا الشـكل مـن التعليم توسع بشكل كبير خلال السنوات الأخـيرة. ولم يعـد الهـدف منـه تحضير أبنـاء المـهاجرين للعـودة إلى بلدانـهم، فقـد أصبـح هـدف مشـروع (إلكو) ELCO توثيق العلاقة باللغة والثقافة التي ليست غريبـة عنهـــم لكن في ذات الأوان ليست باللغة الأولى والثقافة الأولى للتلاميذ.

التعليم ضمن اتفاقية ELCO يتوجه إلى التلاميذ مـن جـذور عربيـة في المرحلة الابتدائية، أي: عندما يكون أحد الوالديـن مـن مواطـني أو رعايـا هذه البلاد التي وقعت على هذه الاتفاقية.

وكما أسلفت، فإن هذه الدروس منظمة من قبل بلـدان المغـرب الثـلاث وتستقبل أيضا تلاميذ يحملون جنسيات أخـرى...فخـلال العـام الدراسـي الماضي كان عدد الطـلاب المسـجلين حـوالي 732000 فيمـا يسـمى بتعليـم ثقافة بلادهم الأصلية، من بينهم 407330 تلميذا يتعلمون اللغـة العربيـة، أي: بنسبة 55%، من بينهم 23181 من المغرب و 119000 من الجزائر و57250 من تونس.

المدرسون المغاربة والتوانسة هم معلمـون مثبتـون مـن قبـل دولهـم يتـم إرسالهم من قبل وزاراتهم التابعين لها في بلادهـم للتعليـم في فرنسـا لفـترة غير محدودة، بينمـا تختلـف حالـة المدرسين الجزائريـين، حيـث أنـهم مدرسون مؤقتون يتم توظيفهم في فرنسا.

أما عـن أوقـات التدريـس، في المرحلـة الابتدائيـة فـهو يجـري خـارج ساعات الدوام الرسمي، وغالبا ما يكون يومي الأربعاء والسبت بعد الظهر.

اللغة التي تـدرس هـي اللغـة الفصحـى، ويسـتخدم المدرسـون العربيـة الدارجة أو اللغة الفرنسية للشرح، مع تخفيف الحركات حسب تعليمـات البرامج الرسمية.

أما عن البرامج التي تتعلق بالثقافة أو الحضـارة، فـإن أكـثر المدرسـين يلفتون أنظـار التلاميـذ إلى الجـانبين: التـاريخي والجغـرافي للبلـد الأصـل ومنهم من يهتم بفتح نشاطات تتعلق بالحياة الاجتماعية في البلد الأم.

وتجـدر الإشـارة إلى تعليـم اللغـة العربيـة للفرنسـيين الكبـار في أغلبيـة جامعات فرنسا، وهذا التعليم يدخل في إطار ما يسمى بالجامعات الشعبية الأوربية Universites Populaires Européennes.

هـذا هـو الجـانب الأول مـن محـاضرتي، والـذي يتعلـق بتعليـم اللغـة العربية في المناهج التدريسية الفرنسية اعتبارا من المرحلة الابتدائيـة حتـى الجامعة. الجانب الثاني، يتعلق بتقدم التعلم، وأعني بذلك برمجـة تعليـم اللغة العربية في فرنسا. وأبدأ هذا بالملاحظة التالية، وهي أن اللغة العربية هي لغة أجنبية في فرنسا كأية لغة أخرى كالإنكليزية والألمانيـة، فليسـت هي اللغة الأولى أو لغة ثقافة البلاد.

إذا كان المنهاج أو البرنامج الرسمي يفرض قائمة واضحة ومحددة لكـل مستوى ومرحلة على مسؤولية المدرسـين للغـة العربيـة، فـإن عـدم وجـود كتـب منـاهج التدريـس الـتي تتـلاءم مـع البرنـامج المحـدد تفـرض علـى المدرسين أن يبحثوا بأنفسهم لسد هـذا الفـراغ. وهـذا مـا يدعونـا لنتوقـف حول موضوع بدأ التفكير حول إشكالية تعليم اللغات الحية وخاصة التقـدم والبرمجة في التعلم عند المبتدئين. وإذا كان استيعاب الثقافة يلـتزم بقضيـة

السن أو العمر وبمركـز اهتمـام التلميـذ لمـا يدرسـه وبمـا يتـلاءم مـع المـواد الأخرى التي تلفت اهتمامه، كالمناسبات التي يعيشها كـل عـام كالأعيـاد مثلا والأحداث التي تؤثر فيه، فإن متابعة دراسة النحو، تتطلب مثلا مـن كل مدرس أن يحدد تقدم التلميذ ضمن هذا المجال في كل قسم.

إن غايـة التقـدم بشـكل حلزونـي Progression en spirale أو دائـري، هو الحصول على الكفاءات المطلوبة من الطالب، وهذا التقـدم في التعلم لا يتم بنظر أغلبية مدرسي اللغة العربية في فرنسا، وفق نمـط مسـطر أو تقدم مسطر En Progression Lanière ولكن بفضـل إعـادة مـا درس من قبل مع إشباعه بمعطيات جديدة في كـل مرحلـة مـن مراحـل التعليـم وإغنائـه وتعميـق فهمـه، وبـالنظر إلى تقـدم مسـتوى التلاميـذ في القسـم – وللوصول إلى الاستيعاب الإيجابى، الفعال، يجب حفظ عـدد مـن الأمثـال وأبيات شعرية وعبارات من النثر وبعض السور القرآنيـة – وهـذه الطريقـة تشكل جزءا من التحليل الـذي يـؤدي بـالتلميذ إلى الفـهم، وهكـذا يكـون النحو في خدمة اللغة والمخاطبة وليس العكس.

إن استيعاب اللغات الحية يستلزم اسـتخدام القـراءة والكتابـة والتكلـم ضمن إطار متكامل للتمكن من اللغة– وتعلم النحو ضمن هذا الإطار الشـامل يكون في الداخل وليس جانبيا حسب هذه المنهجية. وبهذه الطريقـة يجـد علـم النحـو قيمتـه مـن جديـد، تلـك القيمـة الـتي وضعـت في بـرج عاجـي، فيبقى على اتصال دائم بعمليـة فـهم المعـاني، كـي يصبـح واسطة وليس غاية– أما عن المفردات النحوية فإنها تؤخـذ بعـين الاعتبـار مع تقدم الاستيعاب. فهنالك نقطة متفق عليها في تعليـم اللغـات الأجنبيـة

وهو أن دراسة أية لغة يجب أن تؤدي إلى استخدامها في المحادثـة، ودور المدرس أن يوفق بين أمرين: الوصول إلى قلب الهدف والوصول إلى جوانب الهدف. وذلك بالانتقال من الأبسط إلى الأقل تعقيدا ثم إلى المعقد.

إن التقدم المنطقي المتعارف عليه لتعلم اللغة، يكون عادة من الكلمة إلى الجملـة إلى النـص. إلاّ أننـا لا نتحـادث لا بالكلمـة ولا بالجملـة ولا بالنـص، ولكن نتحادث بالخطاب والمخاطبـة. هـذا مـا يفـرض علينـا أن نتداول قواعد المخاطبة. والمخاطبة.

وفيما يتعلق باللغة العربية نتساءل أحيانا كيف نبدأ، بالجملة الاسمية أو الفعليـة؟ بعـض المنـاهج تضـع حـاجزا أمـام الجملـة الفعليـة وتحـاول الهروب من تدريس تصريف الأفعال ويمكن أن نعطـي الكثـير مـن الأمثـال حول هذا الموضوع، وكما تعلمون أن الجملة الاسمية في اللغة العربيـة ترمـز بشكل عام إلى التسمية أو النعت، وبالنتيجة إلى الوصف. فهل من المعقـول التوقف في مجال المخاطبة على هذه النوعية من الجمل ولو لفترة محدودة؟

وإذا كان العكس صحيحا، حيث نجد في اللغـة العربيـة أن الجملتـين الاسمية والفعلية متداولتـان بشـكل غـير شـعوري، فالمستحسـن والأنسـب تقديـم الشـكلين معـا. ففـي محادثـة بسـيطة نريـد أن نشـرح أمـرا مـا مثـلا، ضمـن الحـوار، فإننـا نحتـاج أولا إلى اسـتخدام الصفـة قبـل استخدام اسم التفضيل، ونعني بذلك أنه لا يمكن فهم كلمة أكبر قبل فـهم كلمة كبير أو كلمـة أحلـى قبـل فـهم كلمـة حلـو إلخ... إن التدريـس هنـا يتطلب الانتقال من مرحلة إلى أخرى ثم العودة إلى كل مرحلة حتى ترسـخ الفكرة عن طريق قواعد المخاطبة.

أما تقدم الاستيعاب، فيجب بناؤه اعتبارا مما استوعبه التلميذ فعلا. وبعض المسائل التي لم يتم استيعابها يمكننا ملاحظتها أثناء التقييم، فمن المفروض العودة إليها قبل المتابعة في أمور أخرى ضمن نظرية العلاقة بين درجات استخدام النحو ومسألة استيعاب التلميذ للقاعدة. فعلى المدرس أن يختار بإتقان المراجع والنصوص التي تطرح مباشرة تعلم لغة المخاطبة. وليس عن طريق الصدفة عندما ننتقل من حديث المخاطبة إلى حديث السرد. وإذا بدأنا بالتعليم عن طريق المخاطبة البسيطة لدى المبتدئين، فإننا سنؤسس بذلك عنده بنية الجملة الاسمية والفعلية، وعن طريق المحادثة سنصل بشكل طبيعي إلى الظروف والمفاعيل والصفات حيث إنها موجودة تلقائيا في السرد. ومن جانب آخر هناك مسائل أخرى تفرض نفسها في قضية التفكير حول المنهجية تتعلق بمسألة التشكيل في تعليم اللغة. ومع الأسف، الوقت لا يسمح لي بطرحه هنا. إذ أود الآن أن أذكر مظهرا آخر حول هذا التدخل في الجانب المنهجي يتعلق بقضية الإعراب، وأعني التشكيل في نهاية الكلمات.

في الجمل الأولى من تعليم اللغة العربية كلغة حية أولى LV1 في القسم الأول من المرحلة الإعدادية، نركز عادة على التشكيل مع التنوين المفتوح وكما تعلمون أن هذا يستخدم مع العبارات: أيضا، أهلا وسهلا، شكرا جزيلا، إلخ... هذه التعابير نقدمها دون التوقف عند شرح نحوي...

إلا أن هذا التنوين يعترضنا أيضا مع خبر الأفعال الناقصة وخبر ليس، فهل من المفروض شرح هذه الحالات ضمن قاعدة نحوية؟ وبما أن التلاميذ، عندما يستمعون إلى من يتحدث باللغة العربية ولا يلفظ هذا

التنوين، فمن المستحسن عدم الإصرار على هذه القاعدة في المرحلة الأولى من تعلم اللغة كي لا تصبح عبئا على التلميذ وخاصة في مجال المخاطبة. ولكن في مجال الكتابة يجب شرح هذه القواعد من السنة الثانية، حتى يستطيع التلميذ في السنة الأخيرة من المرحلة الإعدادية التمكن من كافة المشاكل الناتجة عن مسألة التنوين. وهناك مسائل أخرى يمكن طرحها. مثلا، هل من المفروض أن يكون التلميذ في سنة البكالوريا متمكنا من تنوين بعض الأسماء بالفتحتين إذا وقعت في الجملة مفعولا به كقولنا: رأيت كمالا ورافقت سليما ونبهت منيرا، وهو في ذات الوقت لا يجد هذا التنوين في اللغة المتداولة في الصحافة، فمن المفيد التنبيه إلى هذه القاعدة مع العلم بأن الصحافة تحاول أن تبسط اللغة على حساب أسس خاصة بها.

هذه سيداتي، سادتي، بعض تساؤلات معلمي اللغة العربية في بلد أجنبي. وقد يقول قائل: إن هذه التساؤلات لا تدخل مباشرة في مجال البحث العلمي المحض. إذا كان الأمر كذلك فإشكالية تعلم اللغة العربية تبقى مطروحة.

ترى، ما هو هدفنا؟ السؤال بسيط، هل الغاية المنشودة هي لغة نخبة مخصصة لطبقة معينة من المجتمع، لغة نخبة تستولي على المعنى وبالتالي على السلطة، أم الغاية المنشودة هي لغة مفتوحة للكل، ولجميع أفراد المجتمع؟

إن مكانة اللغة العربية إزاء أو ضمن اللغات العالمية الأخرى مرتبطة ارتباطا وثيقا بالرد الذي يعطى لهذا السؤال. وقد يبقى الإنسان أصمَّ

وأعمى إلا إن زحف التاريخ وقوى التطور تبقى سائرة- الفرق بين التقدم والتأخر يكمن هنا.

وكخلاصة لكلامي هذا، أود أن أقول إني لا أرى تناقضا بين ما سمي في بعض المحاضرات باللغة العامية واللغة الفصحى- وأعني بهذا أني أرفض التقديس الإيديولوجي وضغطه، أرفض النظريات التي تكتفي بإنشاد الماضي مهما كان مجد ذلك الماضي، وتنسى في نفس الوقت الحاضر، أرفض الآراء التي تنفي الواقع فتهرب منه وهي تعيش في خيال أو تخيل لا رسوخ له في حقيقة عالم اليوم.

الحديث عندما نتكلم عن اللغة العربية، موجه للعرب وغير العرب. إني مقتنع بجمال وفصاحة لغتنا، غير أن مرادى اليوم هو أن أقنع الفرنسي غير الناطق بهذه اللغة، مرادي أن أقنعه بجمال هذه اللغة وأسرارها، لكن كيف الوصول إلى هذا؟ ما هي الوسائل التعليمية التي تمكنني من تحقيق وإنجاز هذه الغاية.

كما أنني أرفض فيما يخص اللغة العامية أن أنكر أو أستنكر لغة أمي وأبي وأبناء قريتي، أرفض أن أحط من شأنها، لقد كانت غذائي وميدان تفكيري وأحلام طفولتي، فبواسطتها وبفضلها توصلت إلى لغة الجاحظ وابن المقفع.

إن لغة الأم تكون بذورا تزرع في حقل اللغة الفصحى.

ذلك هو رأي، التكامل الكامل إن صح التعبير وشكرا جزيلا.

هذه العربية: واقع وآفاق

الأستاذ الدكتور عبد الجليل مرتاض

عضو المجلس الأعلى للغة العربية

إشكالية لغوية أم أزمة لسانية

لا أحد من أبسط المطلعين على واقع اللغة العربية يستطيع أن ينكر أن المجتمع العربي الراهن يعاني شبحا مخيفا متجليا فيما يسمى عادة بـ "الإشكالية اللغوية" وكأن هذا المجتمع لا يريد أن يعترف بكل موضوعية بأنه يقاسي أزمة لسانية، لأن هذه الإشكالية اللغوية المتعددة الأشكال والتوجهات ليست لغة أبدية، إذا ما نظرنا إليها، بمنظار لا يعكس في أذهاننا سلفا أفكارا صوفية، وأحكاما قيمية وأوصافا جمالية غالبا ما ينسينا ولعنا وهُيَامُنَا بها ما ينقص هذه اللغة من فعاليات تستجيب لاحتياجاتها الآنية.

إن علاج أزمة واقع اللغة العربية ينبغي أن يعالج علاجا لسانيا وعلميا لا علاجا عاطفيا أو إيديولوجيا أسوة برواد هذه اللغة الغابرين، وقدوة بشعوب اعتراها نفس الوهن والإشكالية ذاتها، لم تكن إلى عهد قريب شيئا مذكورا.

ومما نعتقده أن من إحدى الصفات المميزة للغة أدبية وحضارية مثل اللغة العربية أن هذه اللغة تحفل قبل أي شيء بما يعايشه صاحبها، ويحيط به، ويوظفه لأدنى احتياج من احتياجاته الحسية والمعنوية في حله وترحاله عبر الزمان والمكان، في حربه وسلمه، في جده وهزله، في انحطاطه وازدهاره. واللغة العربية في جاهليتها وإسلامها لا تعدم مثل هذه الصفة، ولا نقول هذا بعقلية سطحية أو تحت تأثير منومات قومية، بل بتراثها اللغوي والحضاري العام.

لغتنا لا تجديها عواطف:

أشرنا إلى ما أشرنا إليه أعلاه ؛لأن الدرس اللغوي الحديث لم يعد يسمح لباحث في حقل اللغة أن يعجب إعجابا مفرطا بلغة من اللغات ؛حتى و لو كان الشعور الداخلي ينم بعكس ذلك ؛ما دام هذا الإعجاب لا يزيد في قيمة لغة أو ينقص منها شيئا ؛ومادامت كل اللغات الإنسانية متشاكلة في قدرتها البنيوية آليا لأن تكون رهن إشارة مجتمعها المتواصل بها ؛إلا أنه بالمقابل ينبغي ألا نتخذ هذه الأمور ذريعة لقلب ظهر المجن لإنجازات كل ما له صلة بالماضي وطي تراثه كطي السجل للكتاب؛لأنه يستحيل لجيل لاحق أن يبتكر لغة خاصة بعصره ابتكارا مختلفا كليا عما تقدمه من إنجازات رائدة ؛ما عدا بعض المصطلحات أو الرموز الإشارية الجافة التي ستلحق في يوم من الأيام برموز اللغة الطبيعية؛أي حين تنسى كونها حدثا أو تاريخا؛ وحين يتحول الشعور بها عبر أجيال وأزمنة إلى اللاشعور واللاأجيال. وإذا كانت اللغة العربية اليوم أشدّ سقما من أي وقت مضى؛ بفعل تنامي متكلميها؛ وتنمية قاموسها من أخلاط لغوية شتى وامتداد فضائها؛ ومحاولة تطبيقها في حقول علمية وتقنولوجية لا قبل لها بها من ذي قبل بكل تخصصاتها المعقدة. فضلا عن افتقاد أصحابها السيطرة اللسانية و الديالكتولوجية في مدى مستويات استعمالاتها. إذا كانت العربية تتصف بكل هذا وغيره مما لا يكاد يحصى هنا من عوامل داخلية وخارجية متشابكة، فإن مرضها يكمن أيضا فيما تحاط به من هالات عاطفية جوفاء ؛وأهواء ذوويّة ونفسية ضيّقة وإدخالها إلى عوالم من الصراعات الإيديولوجية الغرض منها قد يكون نابعا من رؤية

بصيرة، وقد يكون مطية شعبية مـأمورة لا يرضـى صاحبـها بغـير مبركـها بديلا.

حظ العربية من العولمة:

و إذا كانت العربية قد سـادت العولمـة الثالثـة حضاريـا وثقافيـا وفنيـا وتجاريا وعلميا بشهادة مئات المصطلحات التي غزت كل اللغـات العالميـة بعد العولمتين القديمتين لذي القرنين والرومان؛ فلم تسـدها عبثـا ولا بكـاء بل تفانيا وإبداعا وطاقة.

وليست الأجيال العربية الآنية وحدها تتحمل اليوم مسؤولية ضياعـها، حتى ينطبق علينا ما انطبق على شاعرنا المغرم:

تُبَكيَّ على لُبْنَى وأنت تَركتْها وكنتَ عليها بالملا أنْتَ أقْدَرُ

ولكن هذا لا يجعلنا اليوم نتنصّل من مسؤولياتنا التاريخيـة، وواجباتنـا القومية، ونحن ننعم بكامل حريتنا وسيادتنا، مع أنه لا حريـة ولا سـيادة ولا هوية بـدون لغـة، لأن الشـعوب والأمـم لا تتمـايز بالصفـات والقامـات والألوان، بل باللغات وما يتصل بها من مقومـات روحيـة وثقافيـة أخـرى وإلا صرنا في عداد معنى قول شاعرنا القديم:

هلمي لابن عمك لا تكونـي كمختار على الفرس الحمارا.

إن اللغة كما تجمع كثير مـن النظريـات اللسـانية الحديثـة، لا تفصـل وظيفتـها الرئيسـية عـن جانبـها الاجتمـاعي لهـا، أي ليسـت إلا صـورة

منعكسة للمجتمع الذي يتبناها، ونحن لا نستطيع أن ندرك كنه مجتمع إلا سطحيا، إذا لم نتخذ لغته سبيلا لذلك.

وكم وقفني قول وورف الشهير: "إن لكل لغة ميتافيزيقيا خاصة بها" كثيرا، لكن هذه الفكرة نسبية وليست مطلقة، وإلا فهل كان بإمكان المخترعين والمبدعين أن يصلوا إلى ما وصلوا إليه لو كان الواحد منهم يفكر بغير اللغة التي اخترع أو أبدع بها؟

لا أحد يستطيع اليوم أو غدا أن يضع خطوطا حمراء للعربية أمام مواكبة العصرنة والتحديات المستقبلية لأن تكون إحدى اللغات القادمة التي يمكن لها أن تشارك في التربع على عرش العولمة الرابعة لأن هذه اللغة بفضل تجربتها في محاورة الحضارات واستيعابها إياها في لمح البصر إبان تتويجها على رأس العولمة الثالثة لقادرة خلال هذه الألفية الثالثة أن تتربع العولمة الرابعة:

غير أن هذا التربع لن يكون بالخطابات الرنانة؛ ولا بتبادل الاتهامات فيمن هو العامل والمخلص؛ ومن هو المتهاون والمقصر؛ بل باقتناع داخلي من أصحابها لتطبيقها من الشارع إلى الجامعة والمعمل؛ على أن تستحدث هيئة تابعة لجامعة الدول العربية مهمتها التنسيق والاتصال بين مجامع اللغة العربية والمؤسسات الأكاديمية الفاعلة؛ وأن تكون توصياتها وقراراتها؛ فيما يتفق عليه علميا، محترمة ونافذة بالنسبة للاستعمالات اللغوية الجديد في إطار العوامل الداخلية والخارجية لتطوير اللغة العربية.

وإذا كان أحد النبهاء قد صرح بأن اللغة دالة الفكر ؛فإن خطورة أحادية الفكر أعظم من ثنائية اللغة أو تعدداتها ؛ما دامت ظاهرة بعينها من ظواهر العالم تتخذ لها اللغات المختلفة مسميات مختلفة.

واللغة بقدر ما هي متساوية مع نفسها؛ فهي متقلصة أو متباينة مع استعمالات أصحابها لها؛ مما قد يضطر مستعملا من مستعميلها إلى الاقتراض من لغات أخرى؛ ليست أكثر منها تطورا أو أفضلها ديناميكية؛ بل لأنها أكثر منها تداولا واستعمالا في مجالات حية.

إشكالية العربية ذات أبعاد خلفية بعيدة:

إنّ من يجعل الإشكالية اللغوية في الوطن العربي قصرا على الوضع اللغوي الراهن يكون قد ارتكب خطأ منهجيا ومعرفيا جسيما، لأنّ هذه الإشكالية ذات أبعاد لسانية تاريخية خلفية قديمة قدم اللغة العربية نفسها؛ ثم ما لبثت أن صار فضاؤها أشد رحابة و أكثر سعة من العربية نفسها؛ وأضحى من الصعب؛ بل من المستحيل أن يهيمن على هذا الفضاء الشاسع الذي بدا منذ أربعة عشر قرنا ونيفا يموج ما بين جزر ومد.

ويظهر لي أن معالجة الإشكالية اللغوية في بلد عربي دون غيره تظل معالجة عقيمة لا يجنى من نتائجها إلا جدالات ورؤى لا جدوى من ورائها. وهذا من ناحية الإشكالية العامة؛ ولكن من ناحية التطبيق؛ لا بد من تحديد الفضاء و المدونة تبعا لكل بلد عربي على حدة؛ ويلي هذه

العمليـة التقـابلات و المقارنـات؛ وأخـيرا رصـد الأشـباه و النظـائر لضبـط النتائج.

وإذا أردنـا أن نكـون منطقيـين مـع ذواتنـا؛ فيجـب أن نعـترف بـأن الإشكالية اللغوية في الوطـن العربـي ليسـت وليـدة اليـوم أو حتـى الأمـس القريـب؛ ودون أن ندخـل في التفـاصيل التاريخيـة للغـة العربيـة وذويـها الأوائل؛ فإنّ هذا لا يمنعنا من الإشارة على أن هذه الإشـكالية نشـأت أول ما نشأت هذه اللغة؛ وكلمـا كـانت هـذه اللغـة تنمـو وتـترعرع وتتطـور إلا ونمت وترعرعت وزادت استفحالا مع هذه الإشكالية.

ماذا نريد أن نقول؟ إن أي تناول لهذه المسـألة يجـب أن يـأخذ بعـين الاعتبار الخلفيات اللسانية التاريخية وعوامـل أخـرى شـتى؛ وألا ينسـيه الوضع الراهن الذي هو في حقيقة أمره لم يتولد إلا عن وضع غائب، لكنـه لم يغب إلا بعدما ترك بصماته هذه البصمات هي نفسها التي نعاني منـها اليوم في الوطن العربي. إنها الإشكالية اللغوية.

تفاعل اللغة العربية مع جديد عصرها:

ولعل ما بقي سائدا في أذهان غير قليل من الناس ردحـا مـن الزمـن أن اللغة العربية ظلت أسيرة الأطلال ووصف الطبيعة والتشبيب، إلى أن جـاء عهدها الجديد الذي يشاربه عادة إلى مجيء الإسـلام ونشـأة الإمبراطوريـة العربية، وتفشي القراءة والكتابة، وامتزاج الثقافات والحضـارات الأجنبيـة بما وجد لدى العرب من مظاهر مماثلة.

خطأ جسيم من يظن هذا أو حتى قريبا من هذا، لأن اللغة العربية الجاهلية بعيدة التاريخ، ولا نعلم عن نشأتها وتطورها ووصولها إلى ما وصلت إليه من نضج وبناء واشتقاق وتعبير على مختلف المعاني وأدقها إلا الشيء القليل، وهو علم لا يكفي لبلورة رؤية واضحة عن ماضيها ومراحل استعمالها، والعقول السليمة لا تقبل أن ما وصلنا من تراثها الأدبي المحكم في نسجه وبنائه، الجامع الشامل في ليونته اللغوية و تكيفه حسب المقام على الأداء والتبليغ حول أي شأن من شؤون الإنسان العربية البسيطة والمعقدة، يرجع إلى بضعة قرون، وبضعة أجيال، لأن جاد به من الزمان من حقول دلالية اجتماعية وفنية وعمرانية وكلمات حضارية يستبعد مثل هذه الطروحات الهشة، بل إن استيعاب العربية للقرآن الكريم وحده دليل على أن هذه اللغة تعود إلى تاريخ أبعد مما اعتاد الدارسون أن يحددوه تبعا لما وصلهم من معطيات مادية، هي في حقيقة أمرها أقرب حداثة إلى عصرهم منها إلى عصر اللغة العربية وأجيالها الموغلين في القدم البعيد معها، والذي لا يخلو من طلاسم.

إن اللغة العربية التاريخية لم تنتظر انتظارًا إلى غاية أفول العصر الجاهلي وطلوع الفجر الإسلامي لتنهض وتعبر عن نفسها، بل عرفت هذه النهضة معرفة مبكرة، لأن النصوص التي وصلتنا لا تمثل إلا التسجيل الجزئي لتلك النهضة، ولا تمثل النهضة نفسها، بمعنى أن النص الذي يحوي كلمات ليس هو الكلمات ذاتها، إنه ليس أكثر من وصف لها، لأن هذه الكلمات وجدت قبل وجود النص نفسه، وحتى قبل صاحبه، ولكن

النص يبقى مع ذلك وثيقة حية لها، وتعبيرا صادقا عنها، رغم ما يشوب النص الشفوي عادة من شكوك وتحفظات.

تشابه اللغات في أنظمتها لا في تاريخها:

وإذا كنا من أنصار الرؤية القائلة بتضاهي اللغات في استعداد أنظمتها اللسانية الداخلية على الترجمة بما يجيش ويعتمل في خلد وأفكار متكلميها، فإنه، فيما يبدو لنا، ليس عدلا أن نساوي تاريخيا بين صمود لغة، وسقوط لغة، ولا يمكن وضع ثلاثة آلاف لغة على محك واحد وبالمقابل يمكن لكل لغة من اللغات أن تتنوع وتتطور. لكن كيف؟ وفي أي اتجاه؟. المتكلمون على مستوى لغة لا يتشاورون قبل أن يتكلموا، وكل ما يعرفه الواحد منهم عن الآخر فيما يتباينون فيه، وبعد فوات الأوان، وهذا سبب من أسباب نشأة الإشكالية اللغوية التي نراها اليوم ممتدة وفارضة وجودها عبر كل الفضاءات العربية من محيطها إلى خليجها، لكن الخلفيات التاريخية لهذه اللغة تؤكد لنا أنها برزت أول ما برزت من الخليج نفسه؟ وليس الغرب العربي إلا فرعا لها، لأننا ما عهدنا ظاهرة من الظواهر تطفر أول ما تطفر مجزأة الزمان والمكان.

عدم شمولية التهيئة اللغوية في العربية:

ومما لفت فضولنا بعد ثلاثة عقود من البحث في اللغة العربية ولهجاتها فصيحها و عاميها و علومها أن الفقلغيين (فقهاء اللغة) العرب المبكرين بوصفهم علمغيين (علماء اللغة) روادا فيها؛ تغاضوا عن كثير من

الحقائق اللغوية بالنسبة للعربية؛ ولم يعيروها كبير اهتمام بخصوص التهيئة اللسانية و التقعيد الصارم الذي عرفوا به إزاء العناصر التي قعدوا لها؛ مما جعل ورثتهم من بعدهم لا يجرؤون على نقد ما سبق أو فتح باب الاجتهاد العلمي لما لحق؛ ولئن وجد الواحد منهم جرأة لمراجعة قضية من القضايا اللغوية التي تركها سلفه أو أستاذه معلقة فبكثير من الورع والحياء؛ وقليل من المواجهة و الاجتهاد.

ما أكثر الإشكالات اللغوية التي أثارها المنظرون المبكرون العرب في ظرف قرن ونيف من الزمن، ولا تبرح؛ ونحن نطرق باب الألفية الثالثة؛ مثار جدال عقيم تارة أو سكوت رهيب تارة أخرى؛ كأنما ولجت عالم المقدسات؛ مع أنها ليست أكثر من عناصر لسانية قارة ومتحركة من خلال بقائها واستمرار توظيفها .

وغير قليل مما بث فيه أولئك المنظرون الرواد؛ ومن سار بعدهم على نهجهم عاد مثار أخذ ورد بين المتأخرين؛ وكان المتعلم دائما هو الذي يدفع ضريبة خلاف هذا الفريق بذاك أو سكوت التربويين جميعا؛ لأن الإشكالية تكمن أساسا في فصل التربية عن التعليم؛ وغالبا ما ينظر إليهما و كأنهما عمليتان مختلفتان؛ فالمتعلم عادة ما لا يكون تربويا ؛والتربوي غالبا ما لا يكون متعلما ؛ومن هنا نلاحظ أن قرارات المجامع العلمية واللغوية في الوطن العربي تبقى نظرية لأن أرضية أكثر من تسعة أعشار منها الحقول التربوية لا التعليمية ؛ثم كيف نقنع الناس باستعمال ما يستحدث أو يقترح في هذا المجمع أو ذاك؟ أليست كثرة هذه المجامع

ظاهرة سلبية في طريق نمو وتطور العربية أكثر مما هي عامل مساعد لها؟ وما هو المبرر الميداني الملموس الذي يدل على استثمار نسبة ضئيلة مما هي يصدر هنا و هناك من قرارات و تزكيات في مختلف المجامع و المعاهد و المراكز والمكاتب و الفروع؟

غياب علم اللغة التطبيقي في الدراسات اللغوية العربية:

إن الإشكالية اللغوية في الوطن العربي نابعة من ظاهرة التواصلات اليومية التي صار من المستحيل السيطرة عليها؛ على الرغم مما جد في عالم العقول الإلكترونية التي بإمكانها أن تقدم عونا كبيرا لهذه المراقبة في ظرف دقائق معدودة؛ على الأقل بالنسبة للنصوص المكتوبة؛ وتساعدنا هذه الأجهزة في تجميع المعاجم اللكسيكية التكرارية؛ وذلك مهما كان جنس هذا النص و ميدانه؛ ومهما كان طوله أو قصره؛ وتفيدنا هذه المراقبة التقنية بالاطلاع على أنواع المستويات اللغوية التي يوظفها المبدعون بهذه اللغة؛ بل تساعد فضولنا حتى على موضعة الكلمات النحوية والمعجمية وتحديد معناها في سياق التركيب وكذا إعرابها أو تحليلها.

قد يستعمل المبدعون بهذه اللغة ما يستعملون من مفردات و عناصر نحوية في سياقات وتراكيب بنيوية شتى؛ ولكنا لا نعرف نسبة الكلمات المكررة أكثر من الأخرى؛ وهل الكمية التي يقتضيها عمل روائي أو مسرحي أو قصصي لدى هذا الكاتب في هذا الفضاء الجغرافي الشاسع هي ذات الكمية التقريبية التي يتطلبها نفس العمل الأدبي عند مبدع آخر

تحت نفس الفضاء؟ لقد عرف الغربيون و الشرقيون مثلا أن الشاعر الإنجليزي ميلتون وظف في كتاباته زهاء ثمانية آلاف كلمة مختلفة؛ واستعمل دانتي في كومدياه الإلهية 5860 كلمة مختلفة؛ وتضمنت أعمال الشاعر الروماني هوراس 6084 كلمة مختلفة؛ واشتملت قصائد هوميروس نحو تسعة آلاف كلمة؛ وتباينوا في تدقيق الكلمات التي استعملها شكسبير: أهي خمسة عشر ألف كلمة أم أربعة وعشرون ألف كلمة؟ وعرف الروس كذلك أن الأعمال الكاملة لبوشكين تضمنت ما يقرب من ستمائة ألف كلمة، منها 21200 كلمة مختلفة، وعرفوا أن 720 كلمة منها فقط تكررت أكثر من مائة مرة، ووحددوا ما هو عدد الكلمات التي استعملها بوشكين مرة واحدة من تلك الكلمات التي استعملها مرتين او ثلاث مرات[1].

للعرب كلهم أديب واحد حتى الآن وُفِّقَ في تشريفهم وتشريف اللغة العربية بتسجيل أسمهم بفضل جائزة نوبل، ولا نعرف عن إبداعه الذي نشر مؤخرًا كاملًا بعضًا من هذه التفاصيل، وحتى الدراسات التي أقيمت حوله يغلب عليها طابع الإنشائية والخطاب التلقائي دون أن ننسى التنويه ببعض الأعمال الجادة التي اطلعنا عليها حديثا حول هذه الشخصية، و إذا كان الأدباء والنقدة لهم عذرهم، فليس للسانين عذر في شيء بل هؤلاء بتسخيرهم علم اللغة التطبيقي يقدمون مساعدة تقنية لفئات عريضة من القراء، بإمكاننا أن نقف على كمية الكلمات المستعملة من الكلمات المختلفة، وعلى المفردات الأكثر تكرارا، وعلى حالات الإعراب

---

[1] ــ راجع الأصوات والإشارات ص: 89-90

والجمل القصيرة من الطويلة، والوقوف على خصائص أسلوب الكاتب، ....إلخ.

لا نهوض للغة العربية بدون إعرابها: وتبقى مع ذلك ظاهرة التواصل بالعربية الفصحى ظاهرة معقدة وشائكة في الوطن العربي كله منه في أوطان أجنبية أخرى، ذلك أننا ما سمعنا مواطنا عربيا رسميا خارج الرسميات ولا مواطنا عربيا شعبيا خارج المدارس والجامعات تنحل عقدة لسانه بجملة عربية واحدة مستقيمة إلا نادرا ولفتة مما حافظت علمية البنية السليمة للغة العربية الطبيعية، حتى أضحى اليوم العجب باديا على ألسنة قلة ممن يتحفظون في اللحن في المحافل والمنتديات والقمم من متحدث عربى يراقب لسانه من اللحن، ومعنا بعض حملة الدكتوراه في علوم اللغة العربية لا يتقنون استعمال صيغ التعجب !، وهالني منذ يومين، وأنا أتابع بكل جوارحي قمة ملوك ورؤساء الدول العربية، أن بعض الرؤساء العرب تكلم بلهجة بلده المحلية؛ و هي لهجة عامية بعيدة جدا عن الفصحى؛ ولاحظت أن بعض الحاضرين كان مشمئزا مثل اشمئزازي لصعوبة التلقي المباشر؛ وكان سياق الخطاب المعروف سلفا هو الذي ساعد الناس من غير منطقته على الفهم اللامباشر؛ بمعنى أن هذا المسؤول العربي قد خاطبنا بلغة مسقط رأسه التي خلق و إياها معا بتعبير همبولدت، واللغة عند هذا المتكلم العربي أكثر من أداة اتصال، لأنها عكست لديه العقلية الطبيعية التي يريد من خلالها أن يرى العالم من حوله وصوغه لنا، ولعل هذا يذكرنا بما حدّث به قطرب بأن الفراء لما دخل على هارون الرشيد، وبحضرته وزيره جعفر بن يحيى، تكلم بكلام

فلحن فيه مرات، مما جعل الوزير يصيح: "إنه لحن يا أمير المؤمنين فقال الرشيد للفراء: أتلحن؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن طباع أهل البدو الإعراب، وطباع أهل الحضر اللحن؛ فإذا تحفظت لم ألحن، وإذا رجعت إلى الطبع لحنت".[2] مما جعل هارون الرشيد يستحسن كلام الفراء الذي عبّر عن لغة مسقط رأسه بـ "الطبع"، بينما عبر عن اللغة الطبيعية الفصيحة لدى القبائل البدوية قبل فساد سليقتها بـ "الإعراب" أي اللحن يمثل مستوى آخر أدنى بالنسبة للإعراب الذي يمثل مستوى أرقى وأصح، ولا يقصد الفراء بالإعراب الحركات الإعرابية التي تظهر كلها في التواصل الشفوي، بل يقصد به الحالات الإعرابية المتبادلة التموضع، ولذلك وصف الكسائي بأنه كان فصيح اللسان "لا يُفْطَن لكلامه، ولا يُخَيَّل إليك أنه يعرب، وهو يعرب".[3]

الواقع اللساني الموروث في اللغة العربية:

ومما هو راسخ في ذهننا أن الإشكالية اللغوية في الوطن العربي عموما ليست وليدة الساعة أو الأمس القريب، ولا علاقة لها بازدهار العرب في فترة أو انحطاطهم في فترة أخرى، إنها ترجع إلى طبيعة العربية نفسها من وجهات:

---

[2] ــ طبقات النحو يين واللغويين ص: 131. الزبيدي.

[3] ــ نفسه ص: 129.

1 ـ الطبيعة اللسانية الداخلية للغة العربية.

2 ـ التهيئة اللغوية للعربية، كما أومأنا آنفا، لم تكن تهيئة لسانية مستقصية لكل عناصرها.

3 ـ العامل الزمني.

4 ـ الانفتاح المستمر لفضائها على لغات وشعوب أخرى.

إن العربية، كما يعلم كل فقلغي من فقلغيّيها، خليط من لهجات قبلية عربية، وإذا لم يكن لذلك التعدد اللهجاتي المعجون في لغة مشتركة عامة عائق كبير بالنسبة لعربية الآداب الجاهلية وما وصلنا من تراث عام بها فإن القرآن عمل على كشف ذلك العائق، وبين أنّ العربية التي نزل بها لا تخلو من فوارق لهجية شملت معظم القبائل العربية بنسب متفاوتة حيث كان للهجة حظ أوفر من لهجة أخرى.

غير أن الأمر أضحى مختلفا بعيد ظهور الإسلام واختلاط العرب بغيرهم من الأمم والشعوب في فضاءات لم يعد ممكنا التحكم فيها على كل مناحي التعاملات الشائكة بهذه اللغة وتسجيل ما يطرأ على كل حالة منها شذت أو انحرفت انحرافا عن سلامتها الفطرية، وهذا دون أن يغيب عنا ما فرض عليها التعامل الثقافي والاجتماعي والتفاعل الحضاري الجديد من تشعبات لا تخلو من إشكال وتعقيد تجليا بشكل أخص في الاتصال الذي كان كلما عظم الاختلاط بين العرب والأعاجم ازداد تنوعا في مستوياته تمخض عنها هذه العاميات العربية التي لا يعرف عددها

وقواعدها الآن أحد من الديالكتولوجيين إلا معرفة بضعية أو سطحية فضلا عن تلك العاميات القديمة التي زالت بزوال متكلميها أو جلائـهم بـالحديد والنار من أما كن لطالما استوطنوها وطاب لهـم المقـام بـها، مثـل الأندلـس وصقلية وسواهما.

ولسـنا بصـدد رصـد فسـاد عنـاصر العربيـة الفصحـى وبيـان تكسـير محاصيلها الصوتية والنحوية والصرفية والفونولوجية وغيرها، ولكننا نرجو ألا نزيغ عما نحن فيـه إذا قلنـا بـأن هـذه الإشـكالية اللغويـة وتعدديتـها عرفت أوجها داخل حواضر عربية، ومنها توزعـت وانتقلـت إلى فضـاءات حديثة العهد بهذه اللغة.

فهذا الأصمعي الذي يصفه الرواة والعلماء المعـاصرون لـه، والـذي كـان يجيب في ثلث اللغة العربية[4]، ويـروي أربعـة عشـر ألـف أرجـوزة[5]، وهـو العالم الصادق الورع يقول: "أقمت بالمدينة زمانـا، مـا رأيـت بـها قصيـدة واحدة صحيحة إلا مصحفة أو مصنوعـة"[6]، والشـيء نفسـه ألمـح إليـه أبـو الطيب اللغوي (351هـ) بأنه لا يوجد علـم[7] للعـرب إلا في مدينـتي البصـرة والكوفة: "فأما مدينة الرسول (ص) فلا نعلم بها إماما في العربيـة"[8] حتـى أصبح اللحن ظاهرة مستملحة على ألسنة شريحة معينة مثـل الجـواري في

---

[4] ـــ مراتب النحويين ص : 73 لأبي الطيب اللغوي

[5] ـــ نفسه ص : 95

[6] ـــ نفسه ص : 156

[7] ـــ يعني بالعلم علم العربية

[8] ـــ مراتب النحويين ص : 155

البيوتات العربية منذ صدر الإسلام، حتى قال أحدهم[9]: منطق صائب وتلحن أحيانا، وأحلى الحديث ما كان لحنا.

وفضلا عما فصله الجاحظ ووصفه من تكلمات هجينه ومكسرة وملحونة في غير موضع وموضوع من آثاره، فإنه كان أصدق ما يكون، وأكثر إحساسا وموضوعية فيما ذكره في البخلاء: "وإن وجدتم في هذا الكتاب لحنا، أو كلاما غير معرب، ولفظا معدولا عن جهته، فأعلموا أنا إنما تركنا ذلك، لأن الإعراب يبغض هذا الكتاب، ويخرجه من حده، إلا أن أحكي كلا ما من كلام متعا قلي البخلاء وأشحاء العلماء كسهل بن هارون وأشباهه"[10]. وكأننا أمام أحد أقوال ثعلب (291 هـ) الشهير: "العرب تخرج الإعراب على اللفظ دون المعاني"[11]، ولذلك لم يكن ثعلب يخرج عن طبع العامة إذا كتب كتابا إلى بعض أصحاب السلطان، وهم الموصوفون في قمة العلماء[12]:

يا طالب العلم لا تجهلنْ وعُذْ بالمبّرد أو ثعلب

تجد عند هذين علم الورى فلا تك كالجمل الأجرب

ولم يقتصر اللحن بمعنى الخطأ في أحد وجوه اللغة على الشعبويين والعامة من القوم، بل سرى سريان الوباء حتى على ألسنة الأعيان،

---

[9] ــ راجع هذه الإشكالية في بوادر الحركة اللسانية الأولى عند العرب ص : 79

[10] ــ البخلاء ص : 50 الجاحظ

[11] ــ طبقات النحويين واللغويين ص : 131

[12] ــ نفسه ص : 143

وفضلا عما أشير آنفا، فإننا نجد نصا مؤلما لابن فارس (395هـ) يؤكد رثاء العربية: "وقد كان الناس قديما يجتنبون اللحـن فيمـا يكتبونـه أو يقرؤنـه اجتنابهم بعض الذنوب. فأما الآن فقد تجوزوا، حتى إن المحدث يحدّث فيلحن، والفقيه يؤلف فيلحن، فإذا نُبّها قالا: ما ندري مـا الإعـراب! أو إنما نحن محدثون وفقهاء، فهما يسران بما يساء به اللبيب"[13].

وكان المتبني ذو النزعة القومية واحدا ممن نعى اللغة العربية نعيا يدلنا علـى أن سـلامة الاتصـال بـها صـار مرهونـا بمراعـاة مـا تفسـخ منـها إلى مسـتويات متدنيـة، مـن جـراء أن شعوبـا وأقليـات غـير عربيـة راودهـا الحنين والتوق إلى لغات وخطابات مساقط آبائها وأجدادها :

مغاني الشعب طيبا في المغاني بمنزلة الربيع من الزمـان

ولكن الفتـى العربي فيهـا غريب الوجه واليد واللسان

ملاعب جنة لوسـار فيهـا سليمـان لسـار بترجمـان

وما أكثر النصوص التي تشخص هـذا الواقـع اللغـوي المتبـاين في مـدن وحواضر وحتى قبائل عربيـة قديمـة في كـل مسـتوياته التواصليـة الـتي لا نراها اليوم تمثل خطورة كبيرة علـى العربيـة مـادامت الدراسـات اللغويـة المعاصرة أضحت نظرياتها واعية منهجيا، بحيث توصلت منـذ زهـاء قـرن ونصف على وضع معالم صارمة وحـدود بينـة لتصنيـف كـل مسـتوى مـن مستويات التواصل اللغوي وفق حظ كل واحد من الاستحقاق العلمي.

---

13 ـ الصاحبي في فقه اللغة ص : 66 أبو الحسين أحمد بن فارس

غلبة الفطرة اللسانية على اللغة العربية:

ومع ذلك، فإن التلميح السابق لا يجعلنا متفائلين بحل لساني علمي عاجل للغة العربية، لأن ما هو أعم لا ينطبق ضرورة على كل ما هو أخص، إذ ليس كل ما استحدث في مجال اللسانيات التاريخية والوصفية حلا مناسبا من الخارج للغة العربية وشبكات علومها المتداخلة والمعقدة من الداخل، أي الإشكالات التي تخص بنيات لغوية لا تحل إلا بعلومها الذووية، واللغة العربية، لا تبرح من اللغات التي لا تزال الفطرة اللسانية تغلب عليها، وما وضع لها من قواعد ليس جامعا مانعا، لأن نسبة كبيرة منها لا تزال تفتقر إلى تهيئة لغوية تكملة لما شرع فيه المنظرون اللسانيون المبكرون، ولكن ثراء اللغة العربية من جهة، وجهلنا بكل خلفيات عناصرها من جهة ثانية، غالبا ما يجعلاننا لا نأبه بتلك العناصر غير المهيأة فيها تهيئة علمية صارمة، وما ذلك إلا لقصورنا وتقليدنا وتقليص الاستعمالات فيها، حيث صرنا نلهف وراء وحداتها القاموسية والسعي إلى علاج ما هو مستعجل فيها مثل المصطلح العلمي والتقنولوجي أزيد مما تضطرنا تلك العناصر غير المهيأة بَعْدُ بصورة علمية دقيقة إلى الالتفات إليها، إلى درجة أننا كثيرا ما نوظف بعضا منها ولا ننتبه إلى التساؤل حولها.

نماذج تركيبية من واقع اللغة العربية:

إننا لا ننكر عاملي الزمان والمكان وأثرهما في هلهلة اللغة العربية وانحلالها إلى الصور التي آلت إليها، ولكن إذا تمعنا هذه الإشكالية بعمق

ودراسة وتحليل، فإن الزمان والمكان لم يكونا إلا عاملين، ولا يمثلان كل العوامل، بل حتى باقي العوامل الخارجية الأخرى التي لا يستبعد دارس سطوتها ومسؤوليتها فيما حدث للغة العربية، لم تكن هي كل شيء أو السبب الوحيد، لأن المسألة متعلقة ـ كما أشرنا ـ بالعربية نفسها، وما يوجد فيها من إشكالات لغوية متشعبة وغامضة، ولسنا بحاجة إلى إثبات نصوص ووحدات لغوية وآراء متباينة بين أرباب العربية في هذا الموضوع وإذا كان لا بد من ذلك، حتى لا يظل كلامنا ضربا من الوهم لدى المتلقين غير المختصين، فإننا نورد بعض الأمثلة إيرادًا عفويًا تمثل مختلف العناصر والمستويات الإرادية والتركيبية فيها.

مما جاء مختلفًا فيه قولهم: "أجِدّك وأجَدَّك"، بمعنى واحد، وذُكِرَ أنه لا يُتَكَلّم بهذا التركيب إلا مضافًا، لكن تأويلاته متباينة بين علماء العربية وأربابها، فهذا الأصمعي يقول: معناه أبجِدٍّ منك هذا، ويرى أن نصبهما تم بطرح الباء، بينما يرى أستاذة أبو عمرو: معناه مَالَكَ أجِدًا منك، ونصب على المصدر، في حين أن ثعلباً ذهب مذهبًا آخر: "ما أتاك في الشعر من قولك: أجِدّك فهو بالكسر، فإذا أتاك بالواو: وَجَدِّك فهو مفتوح".[14]

ومن الواضح أن تأويلي الأصمعى وأبي عمرو تأويلان نحويان، بينما كلام ثعلب لا يعدو أن يكون رؤية أو رواية صوتية تبعا لما روى، وهو يريد أن يقول لنا إن هناك لغة شعرية تستعمل أجدك بكسر الجيم قبلها همزة

---

[14] ـ الصحاح: 2/ 453

ولغة أخرى (غير شـعرية) لا نسـتعمل الجيـم إلا صوتًـا مفتوحًـا قبلـه واو وكأننا بثعلب هنـا لا يأبـه بـالفرق بـين كـون الكلمـة تـارة معجميـة ومـرة نحوية، لأنه سواء كـانت "جـدك" بكسْـر الجيـم وقبلـه همـزة أم بفتحـها وقبله واو، فإنها تبقى شيئا مجردًا لا علاقة له بـتركيب سانتسـكي مـا لم يدخل فيه ويمثل شكلًا من أشكاله "وهذا الشكل هو الذي يسـمى بالكلمـة النحوية".[15]

وكان عبد اللّه بن أبي إسحاق يقرأ:

ـ "يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَ لاَ نُكَذِّبُ بآياتِ رَبّنا وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين". بالنصب في الفعل: "نكذب".

ـ "الزّانِيَةَ والزَانِيَ" "والسـارقَ والسّـارقةَ" بنصـب التـاء واليـاء والقـاف خلافا لما قرأ به القراء[16]، ما عدا عيسى بـن عمـر الـذي تبعـه في قراءتـه، وتأثر به تأثرا في هذا الباب، إلى درجـة أنـه كـان يـنزع إلى النصـب كلمـا اختلفت العرب[17]، ولذلك لما سـئل سـيبويه: كيـف الوجـه عنـدك؟ قـال: الرفع، قلت: فالذين قرأوا بالنصب؟ قال: سمعوا قراءة ابـن أبـي إسـحاق فاتبعوه"[18].

---

15 ـــ اللسانيات العامة ص: 38. مصطفى حركات.

16 ـــ طبقات النحويين واللغويين ص :33

17 ـــ أنظر طبقات فحول الشعراء، السفر : 19/1 لابن سلام

18 ـــ نفس ص : 20

ولربما تلفظ متلقطان تركيبا عربيا تلفظا صوتيا أو إعرابيا واحدا واختلفا في التأويل، أي بالطريقة القواعدية المتلفظ بها، من ذلك أن أبا عمرو وعيسى كانا يقرآن: "يا جبالُ أوبي معه والطيرَ"، ويختلفان في التأويل، فعيسى يقول: على النداء، وأبوعمرو يقول على إضمار: "وسخرنا الطير" بدليل ما بعده: "ولسليمان الريح"، أي سخرنا الريح"[19] وتباين اللغويون في استحضار القواعد التي حللوا بها سبب رفع الفرزدق "مجرف" في قوله:

إليك أميرَ المؤمنين رَمَتْ بنا ... همومُ المنى والهَوْجَلُ المتعسّفُ

وعضٌّ زمانٍ يا ابنَ مروانَ لم يَدَعْ ... من المالِ إلا مُسْحَتًا أو مُجَرَّفُ

فابن أبي إسحاق (117 هـ) يرى للرفع وجها لم يشرحه لنا أو على الأقل لم تنقله لنا مصادر الخبر، بينما أقر أبو عمرو العالم الجليل بأنه لا يعرف للرفع وجها، ومثله يونس بن حبيب، ولكن ابن سلام سأل هذا الأخير: "لعل الفرزدق قالها على النصب، ولم يأبه؟ فقال: لا، كان ينشدها على الرفع، وأنشدنيها رؤبة على الرفع"[20].

ولذلك لما سأل سائل أبا عمرو: "أخبرني عما وضعت مما سميته عربية، أيدخل فيها كلام العرب كله؟ فقال: لا"[21]، ثم سئل: "كيف

---

19 ــ نفسه ص : 20-21

20 ــ نفسه ص: 21

21 ــ طبقات النحويين واللغويين ص: 39

تصنع فيما خالفتك فيه العرب، وهم حجة ؟ قال: أعمل على الأكثر وأسمي ما خالفني لغات"[22].

ونفس السؤال الذي وجه إلى أبي عمرو بن العلاء (154 هـ)، ولربما في نفس الوقت، لكن من سائلين مختلفين، ووُجّه به عيسى بن عمر (149 هـ)، حيث سألـــه سائل: "خبّرني عن هذا الذي وضعت، يدخل فيه كلام العرب كله ؟ فقال: لا"[23].

مما جعل السائل يقول له: "فمن تلكم بخلافك، واحتذى على ما كانت العرب تتكلم به، أتراه مخطئا؟ قال: لا"[24].

إن هذين الموقفين لكل من هذين العالمين اللغويين الجليلين المتعاصرين يدلاننا دلالة قاطعة على أن العاملين على هذه اللغة لم يحصروا كل العناصر اللغوية حصرا قواعديا شاملاً ويشير موقفاهما في الوقت نفسه على أنهما لم يكونا متعصبين لما جمعاه مقابل ما تغافلا عنه لأسباب ليس المكان هنا مناسبا للخوض فيها، ولكن ما أراه جديرا بالتلميح أن الكوفيين بدل أن يستقصوا ما أهمله البصريون دخلوا في صراعات مذهبية تعصبية لم تفد علوم اللغة العربية فائدة كبيرة.

وكان العلماء لا يتفقون، ومثلهم القراء، في كل حال على ما يواجههم من تراكيب لغوية إذا خرجت عن الفطرة حرنت عليهم، من ذلك أن

---

[22] ـــ نفسه ص: 39

[23] ـــ نفسه ص : 45

[24] ـــ نفسه ص :45

عيسى بن عمر لما طرح على الكسائي مسألة لغوية مشهورة: "هَمُكَ ما أهَمَّكَ " فذهب الكسائي يقول: "يجوز كذا ويجوز كذا. فقال له عيسى: عافاك الله ! إنما أريد كلام العرب، وليس هذا الذي تأتي به كلام العرب"[25]. مما جعل تعلبا يعلق قائلا: "وليس يقدر أحد أن يخطئ في هذه المسألة، لأنه كيف عُرِّب فهو مصيب، وإنما أراد عيسى من الكسائي أن يأتيه باللفظة التي وقعت إليه"[26].

والواقع أن دفاع ثعلب على الكسائي لأسباب مذهبية لا تغيب عن أحد ليس حجة علمية مقنعة، لأن التركيب لا يشرح بمواضعات جديدة أساسها المقابلة في السياق أو الاجتهاد الفردي ثقة بغزارة ما يملك من حفظ ودربة لغوية ، ولذلك حين كان بعض العلماء يستفزون الأعراب صرفا لهم عن جهة ما رسخ فيهم من طبع لغوي بغية اختبارهم أو التأكيد أو من صحة ما يسمعون، كان الأعراب لا ينقادون لهم، ولربما قال الواحد منهم: "ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين".[27]

أو: "ليس هذا من لحني ولا لحن قومي".[28]

ولا أحسب أن كل ما قُعِّد من قواعد يمثل نهاية اللغة العربية، وأن كل ما قعد كان مستعملا ومعروفا قبل بزوغ الفجر العلمي لهذه اللغة وليس هدفنا تبيان (بكسر التاء) هذه المسائل في هذا العمل الذي لم يرصد لها،

---

[25] ــ نفسه ص: 42

[26] ــ نفسه ص: 42

[27] ــ الصحاح : 3 / 982

[28] ــ طبقات النحويين واللغويين ص : 43

وهي مسائل شائكة ومعقدة وعميقة تتطلب مراجعة ما هو مستعمل مما هو غير مستعمل في العربية برمتها منذ استوائها كلغة طبيعية إلى وقتنا هذا، ولكن العينات اللغوية التي وقفنا عليها في بعض المدونات التراثية لا تدعم هذا الاتجاه دعما لسانيا أقرب إلى اليقين منه إلى الشك والتخمين.

من الأمثلة على ما ألمحنا إليه في الفقرة السابقة أن ابن الأعرابي قال: "لم يسمع قط في كلام الجاهلية ولا في شعرهم فاسق. قال: وهذا عجب وهو كلام عربي"[29].

وسأل يونس أبا الدقيس: ما الدقيس؟ فقال لا أدري، هي أسماء نسمعها فنتسمّى بها[30]. وجاءت عنهم كلمات ذكر بعض علماء اللغة الفطاحل أنهم ما وجدوا أحدا يدري أصولها كقولهم: "ما عنده قُرْطَعُبَةٌ ولا قُذَ عْمِلَةٌ ولا سَعْنَةٌ ولا مَعْنَةٌ أي شيء"[31].

---

[29] ــ الصحاح :4 / 1543

[30] ــ نفسه : 3 / 1006

[31] ــ نفسه : 1 / 201

خـــاتمة:

حاولنا في هذه المداخلة أن نمزج بين واقع اللغة العربية مـن جهـة ومـا يتحداها من آفاق من جهة ثانية، حتـى وإن لوحـظ أن ثقـل الواقـع كـان أغلب على هذه المداخلة وأكـثر هيمنـة عليـها، لأن عـلاج الواقـع اللغـوي وتشخيصه لدى أية جماعة لغوية مـن شـأنهما أن يطرحـا إشـكالية اللغـة على محك واقعها الملموس، ولا يمكن التنبؤ بمستقبل ظاهرة ثقافية، ومنـها اللغة الإنسانية بوصفها منظومة لسانية من هذه الظاهرة، إذا لم نلتجئ إلى بضعـها وتشـريحها انطلاقـا مـن مسـتوياتها الخلفيـة، وطبيعـة جذورهـا التاريخية.

عبثا، ونحن أمام موضوع كهذا، أن نقف جهودنا في وصف لغتنا وصفا تزامنيا دون أن نحفل بـالوقوف أولا علـى ملامحـها الخطابيـة، وأن نثـير عينات من أشكالها التواصلية، وهذا ما حاولنا أن نذيل به هذه المداخلـة، على الرغم مـن التقديـر الـذي يخامرنـا بـأن إثـارات مثـل هـذه لا تتصـل منهجيا بطبيعة نية الموضوع، ولكننا كثيرا ما ننسـاق مورطـين مـن محيـط الموضوع بشكل عام، ولا نشعر بهذا التورط إلا ونحن قد قطعنا شوطا كبيرا من إنجازه، وهذا لا يؤلمنا بقدر ما يسعدنا، لأننا بهذا التطـور اللاشـعوري نكون قد بدأنا نلمس الموضوع، وإن لم نوفق كثير التوفيق في جعله ينكشف لنا كليا، فإننا لا نخيب في استفزاز ما يكنفـه ويتخللـه مـن نقـاط مركزيـة وجوهرية متصلة به اتصالا وثيقا، وفي هذه الحالة يبقى الملتقـي لإنتـاج أي موضوع من هذا القبيل أهم بكثير من منتجه الأول، وهو الذي سيكمل آليـا كثيرا مما فات صاحبه.

مراجع البحث:

1 ـ الأصوات والإشارات.أ. كندراتوف .ترجمة شوقي جلال.

ط: 1972. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

2 ـ طبقات النحويين واللغويين. الزبيدي. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف مصر.

3 ـ مراتب النحويين. أبو الطيب اللغوي. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الفكر العربي.

4 ـ بوادر الحركة اللسانية الأولى عند العرب. د.عبد الجليل مرتاض ط: 1988 دار الأشرف: بيروت.

5 ـ البخلاء. الجاحظ.

6 ـ الصاحبي في فقه اللغة. أحمد بن فارس. تحقيق. د. مصطفى الشويمي. ط: 1963 مؤسسة أ. بدران للطباعة والنشر: بيروت.

7 ـ الصحاح. إسماعيل بن حماد الجوهري. تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. دار العلم للملايين بيروت.

8 ـ اللسانيات العامة وقضايا العربية د. مصطفى حركات دار الآفاق (الجزائر).

9 ـ طبقات فحول الشعراء. محمد بن سلام الجمحي. تحقيق: محمود محمد شاكر. مطبعة المدني ـ القاهرة.

10 ـ اللغة والتواصل د. عبد الجليل مرتاض ط: 2000 دار هومة الجزائر.

رحلة اللغة والثقافة
العربية إلى فرنسا تعليمها
في المعاهد العليا والجامعات

الأستاذ الدكتور زكا نجيب
جامعة ليل - فرنسا

حرصا مني على احترام الدقة الأكاديمية أرجوكم ـ سلفا ـ اعتبار مداخلتي نوعا من الشهادة الحية لاختبار المعاش أكثر مما هي عملية تقنية صرف، لأن مثل هذه البحوث يقرأ مجدولا ومثبتا بالوثائق أكثر مما يعول عليه شفهيا.

نقرأ لابن خلدون ما معناه:

بعدما بسط العرب سيادتهم على الشعوب الغربية، أضافت تلك الشعوب العربية عنصرا هاما من رهافتها، علوم العرب التي كانت في الماضي القريب شفهية، أصبحت فيما بعد صناعة حيث ألفوا بعد ذلك الوقت أعدادا لا يستهان بها من المجلدات وتلقفوا علوم الآخرين وترجموها وقوّموها حسب حاجاتهم وآرائهم وتفوّقوا بذلك على من سبقهم. كانت جميع العلوم تدرس وتدرس باللغة العربية وكان من المحتّم على العلماء معرفة هذه اللغة تكلما وكتابة (...) وبما أن عملية التعرف إلى لغة ما هي وكغيرها من العمليات تقوم على التأقلم، إذا هي ممكنة.

دخلت العلوم أوربا من إسبانيا وصقلية وإيطاليا، ففي نهاية الربع الأول من القرن الثاني عشر بدأت حركة الترجمة في طليطلة ونقلت أهم كتب العرب إلى اللغة اللاتينية.

لم يتوان الغرب في أمر تلك الترجمة في النصف الثاني من القرن الثاني عشر وحتى القرن الرابع عشر. لم يقتصر عمل الغرب على ترجمة مؤلفات علماء العرب كالرازي وأبي القاسم وابن سينا وابن رشد، بل نقلت أيضا كتب علماء اليونان التي كان المسلمون قد ترجموها إلى لغتهم ككتب جالينوس وسقراط وأفلاطون وأرسطو وإقليدس وأرخميدس وبطليموس.

عرب الأندلس هم الذين صانوا في القرن العاشر الميلادي العلوم والآداب ولم يكن في العالم في ذلك الزمان بلاد يمكن الدرس فيها غير الأندلس العربية، وذلك خلا الشرق الإسلامي طبعا. فإلي بلاد الأندلس كان يذهب طلاب العلم من المسحيين.

ولم يظهر في أوربا قبل القرن الخامس عشر عالم لم يقتصر على استنساخ ما في كتب العرب، فعلى كتب العرب عوّل روجيه بيكون ROGER BACON اللاهوتي والفيلسوف الإنكليزي المتوفي في OXOFORD سنة 1294 وLEONARD DE PISC المتوفى سنة 1240 والذي كان عالم رياضيات إيطاليا عمّم المعارف الحسابية العربية وخاصة الصفر العربي ARNAULD DE VILLEUNEUVE المتوفى بالقرب من مدينة MONTPELLIER الفرنسية، ذلك الطبيب والكيميائي الذي علم في باريس ومونبيليه وترك عدة مقولات وملاحظات طبية بالإضافة إلى بعض المعطيات الفلكية.وRAYMOND DE LULL اللاهوتي والفيلسوف والشاعر والكيميائي المولود في منطقة CATALAN سنة 1235 والمتوفى في مدينة بوجي سنة 1315. أراد Lull تعميم تدريس اللغة العربية بهدف نشر المسيحية في ديار إفريقيا الشمالية وALBERT LE GRAND اللاهوتي والفيلسوف الألماني المتوفى في مدينة COLOGNE سنة 1280 والذي أدخل في نظام تدريسه في باريس فلاسفة العرب الذين شرحوا أرسطو، ومن طلابه القديس توما الاكويني.

ظلت ترجمات كتب العرب، ولا سيما الكتب العلمية، المصدر الوحيد، تقريبا، للتدريس في الجامعات الأوروبية لمدة خمسة أو ستة

قرون، ويمكننا القول إن تأثير العرب في بعض المجالات، كالطب مثلا، دام إلى نهاية القرن التاسع عشر، حيث كانت لا تزال تشرح كتب ابن سينا في جامعة مونبيلييه .

وبلغ تأثير العرب في الجامعات الأوروبية من الاتساع ما شمل أغلب المعارف، فكان ابن رشد الحجة البالغة للفلسفة في جامعات فرنسا منذ أوائل القرن الثالث عشر ولما حاول الملك لويس الحادي عشر تنظيم أمور التعليم في أواخر القرن الخامس عشر، أمر بتدريس مذهب ابن رشد ومذهب أرسطو .

أما عن تأثير ابن خلدون في علم الاجتماع فحدث دون حرج. وكانت العلاقة قد تعمقت بين الإسلام وأوروبا في القرون الوسطى، علاقة نشأت بفعل اقتراب حملات الدعوة والفتح، وسنة1815 كانت قد تمت السيطرة الكاملة على شبه الجزيرة الإيبسيرية وصولا إلى مدينة نربون NARBONE جنوبي فرنسا.

إن العرب لم يحملوا إلى أوروبا جيوشا فقط، ولا حتى العامل الديني وحسب، وإنما حملوا، إلى ذلك،مظاهر تحضر وتمدن ومقدمات أمكن لها أن تسهم مباشرة في النهوض الأوروبي.ففي تلك المرحلة الزمنية كان العرب يحملون أعظم ثقافة ومدنية في المنطقة الواسعة، الممتدة بين الأطلسي وأفغانستان.

كانت أوروبا لحظة وصول العرب إلى أسبانيا في القرن الثامن ومن ثم إلى صقلية وجنوب إيطاليا، ترقد عميقا فيما شاعت تسميتة ب "ظلام القرون الوسطى".

كيف حصل تطور تعليم اللغة العربية في فرنسا؟

لا بد لنا من الرجوع إلى رجل كان له الدور الفصل في هذا المجال: إنه Savary de Breves رجل علم ومعرفة كان قد عمل حوالي ربع قرن سفيرا لفرنسا في القسطنطينية ثم بعد تعيينه سفيرا للملك هنري الرابع في روما سنة 1908 راودته فكرة تثبيت مطبعة عربية في العاصمة الإيطالية. وكان DE Breves قد جلب معه من تركيا حوالي مئة مخطوطة عربية وفارسية تعتبر حتى اليوم جزاء من الكنوز التي تحتويها المكتبة الوطنية الفرنسية. كانت قناعة De Breves وطيدة في فتح الطريق أمام الأوروبيين إلى تعلم اللغة العربية، هذه اللغة التي لها، على حد قوله، فائدة كبرى للعلوم. لذلك أراد أن تستعمل الأحرف الشرقية لطبع قاموس عربي - لاتيني - إيطالي.

كانت هناك أيضا نية تنفيذ مشروع طبع كتاب العهد القديم (التوراة) بلغات ثلاث بينها اللغة العربية. وفي سنة 1911 بدأت مرحلة تعاون De Breves مع بعض رجال الدين المسيحيين الموارنة اللبنانيين، قدامى المدرسة المارونية في روما. هذه المرحلة هي بداية الاستشراق في فرنسا.

إن الاهتمام الذي أظهره الغرب تجاه حركة الاستشراق، كان في بداياته، قد تمحور كالتالي:

أولا: استقدام بعض المتضلعين بلغاتهم الأم إلى الغرب للبحث والتدريس.

ثانيا: دعوة بعض رجال الدين الغربيين إلى تعلم اللغات الشرقية.

على أي حال كانت تلك المرحلة تتويجا لرغبة الغرب بالتعرف إلى الكتب الدينية الشرقية والتي كانت قد بدأت بترجمة القرآن إلى اللغة اللاتينية ولأول مرة سنة 1146 على يد الكاهن pierre le venerable de cluny غير أن السبق يعود في مجال إدخال العلوم الإسلامية إلى أوروبا وكما أشرنا سابقا، إلى Rymond lull الذي أنشأ في مدينة Miramar في جزيرة مايورك Majorque سنة 1287 معهد اللغات الشرقية.

في السنة الأخيرة من القرن الثالث عشر،كتب lull ثلاث رسائل إلى ملك فرنسا يناشده تأسيس معهد لتدريس اللغات العربية والتشادية واليونانية. كان هاجسه إضافة كل نواة معرفية إلى عصره، تلك النواة التي كانت تحتضنها الكتب اليونانية والعربية والتي لا يجوز أن تبقى مجهولة بالنسبة للقارئ الغربي لعدم وجود العدد الكافي من المترجمين.

كان رد ملك فرنسا إيجابيا قبل أن يقرر مجمع فيينا الكنيسي سنة 1312 تأسيس مراكز لتعليم اللغات العربية والعبرية واليونانية والكندانية في أهم جامعات الكثلكة : في باريس، بولونيا، روما، أو كسفورد وسلمانكا.

بعد انقضاء القرون الوسطى، كانت أوروبا لا تزال تدرس ابن سينا وابن رشد وما تفرّع عن مدرستيهما بالرغم من الصعوبات المتأتية عن عدم إتقان اللغة العربية.

تسهيلا لمهمة التقدم الطبي قرر الملك هنري الثالث سنة 1587 تأسيس كرسي للغة العربية في المعهد الملكي college royal الذي يحمل حاليا اسم college de France .

إن أول من شغل هذا الكرسي كان طبيبا وقد حمل لقب معيد وأستاذ الملك للغة العربية وكان اسمه Aroult de lisle ، هذا الأخير كان قد أقام في المغرب مدة احدى عشرة سنة(1588 ـ 1599) بصفة طبيب خاص للملك المغربي مولاي أحمد منصور. بقي هذا المنصب شاغرا حتى سنة 1600 إذ شغله المدعو Jean Martin ثم جاء من بعده اللبناني جبرائيل الصهيوني Gabrielle Sioniste ومع وصول الصهيوني سنة 1614 أخذت اللغة العربية مكانتها المطلوبة في الكولاج الملكي college Royal. وقد تعاقب على هذا الكرسي بعد الصهيوني، إبراهيم الحاقلاني، سركيس الجمري، وبيار ديبي، وذلك حتى سنة 1668. ومع وصول هؤلاء إلى هذا المستوى من المسؤولية، بدأ ظهور الكتب بالعربية في فرنسا (كتب قواعد اللغة وترجمات كتب دينية). هكذا بدأ الاستشراق يأخذ منحى جديدا وبدأ تعليم اللغة العربية يدخل رحاب الاختصاص إلى جانب حركة الترجمة من اللاتينية إلى العربية أو عكس ذلك.

بدايات الإطلالة الأوروبية على العلوم العربية.

قبل القرن الثاني عشر الذي عرف ازدهارا كبيرا للترجمات، حصلت بعض المحاولات للمضي قدما في مجال العلوم. هناك بعض المؤشرات التي تظهر أن الترجمة عن اللغة اللاتينية كانت قد بدأت مع حلول القرن التاسع. إن أول محاولة جدية لدراسة العلوم العربية قام بهاGilbert D'aurillac الذي أصبح رأس الكنيسة الكاثوليكية تحت اسم البابا Sylvester II (999ـ 1003) تعلم الرياضيات في مقاطعة Catalagne كما أظهر اهتماما بعلم الفلك.

المؤرخون يجزمون أن Ripoll في مقاطعة Catalagne كان يملك مكتبة تحتوي على الكثير من ترجمات الكتب العربية المتخصصة في مجال العلوم. ففي مجال الرياضيات أتى Gilbert D'aurillac بجدول حسابي جديد. وكانت هنا أول إشارة لاستعمال الأرقام العربية في أوروبا. وقد تم تعميم استعمال الأرقام العربية في أوربا إبتداء من القرن الثالث عشر. هناك أيضا بعض المؤشرات التي تجزم بتدريس العلوم الفلكية العربية في منطقة lorrraine في القرن العاشر. ومن منطقة اللورين كان امتداد التعريف بالعلوم الفلكية العربية في بلجيكا ـ منطقة liége حيث كان يوجد أسطر لاب أتى به أحد العلماء الألمان في نهاية الربع الأول من القرن الحادي عشر. هذه هي بدايات نقل المعرفة في مجالات الرياضيات والعلوم الفلكية من إسبانيا المسيحية. أما علم الطب فقد دخل أوروبا بواسطة قنوات مختلفة أهمها تلك التي تفرعت من مدرسة الطب القديمة في مدينة Salerne الإيطالية والتي كانت قد أخذت ببعض الأفكار الطبية العربية في القرن العاشر. أما التفاعل الصريح للطب العربي في أوروبا فقد حصل في القرن الحادي عشر. وهنا يبرز اسم Constantin L'Afriquin الذي كان يتنقل بين تونس وsalerne والذي مهد السبيل لعملية ترجمة الكتب الطبية العربية إلى اللاتينية.

إن النهضة الحقيقية للترجمة من العربية إلى اللاتينية قد أتت ثمارها بعد سقوط طليطلة Toléde عام 1085. مناطق أخرى من إسبانيا كانت قد شرعت في عملية الترجمة في القرن الثاني عشر خاصة في مدينتي سرغسطة Saragosse وبرشلونة Barcelone. ومع قدوم القرن الثالث عشر كانت أوروبا قد أصبحت شبه مهيئة، بفضل نهضة فكرية نشيطة أن تتقبل ما كان

المؤرخون يجزمون أن Ripoll في مقاطعة Catalagne كان يملك مكتبة تحتوي على الكثير من ترجمات الكتب العربية المتخصصة في مجال العلوم. ففي مجال الرياضيات أتى Gilbert D'aurillac بجدول حسابي جديد. وكانت هنا أول إشارة لاستعمال الأرقام العربية في أوروبا. وقد تم تعميم استعمال الأرقام العربية في أوربا إبتداء من القرن الثالث عشر. هناك أيضا بعض المؤشرات التي تجزم بتدريس العلوم الفلكية العربية في منطقة lorrraine في القرن العاشر. ومن منطقة اللورين كان امتداد التعريف بالعلوم الفلكية العربية في بلجيكا ـ منطقة liége حيث كان يوجد أسطر لاب أتى به أحد العلماء الألمان في نهاية الربع الأول من القرن الحادي عشر. هذه هي بدايات نقل المعرفة في مجالات الرياضيات والعلوم الفلكية من إسبانيا المسيحية. أما علم الطب فقد دخل أوروبا بواسطة قنوات مختلفة أهمها تلك التي تفرعت من مدرسة الطب القديمة في مدينة Salerne الإيطالية والتي كانت قد أخذت ببعض الأفكار الطبية العربية في القرن العاشر. أما التفاعل الصريح للطب العربي في أوروبا فقد حصل في القرن الحادي عشر. وهنا يبرز اسم Constantin L'Afriquin الذي كان يتنقل بين تونس وsalerne والذي مهد السبيل لعملية ترجمة الكتب الطبية العربية إلى اللاتينية.

إن النهضة الحقيقية للترجمة من العربية إلى اللاتينية قد أتت ثمارها بعد سقوط طليطلة Toléde عام 1085. مناطق أخرى من إسبانيا كانت قد شرعت في عملية الترجمة في القرن الثاني عشر خاصة في مدينتي سرغسطة Saragosse وبرشلونة Barcelone. ومع قدوم القرن الثالث عشر كانت أوروبا قد أصبحت شبه مهيئة، بفضل نهضة فكرية نشيطة أن تتقبل ما كان

جامعات بولونيا وباريس ومونبيليه لم تكـن موجـودة بالتـأكيد قبـل القـرن الثاني عشر.

ونقرأ في جريدة le monde الفرنسية مقالـة بعنـوان "أهـم العـرب الذيـن اخترعوا الجامعة؟" وفي هذه المقالة تكثر الحجج التي تثبت ريـادة العـرب في هذا المجـال ومـدى تـأثر الـتركيب الجـامعي الأوروبـي بـالنمط العربـي لإدارة مراكز العلم .

في القرن السابع عشر، فـترة حكـم الملـك لويـس الرابـع عشـر، بـدأت ظهور نواة جديدة لتدريس اللغـات الأجنبيـة في فرنسـا ومـن بينـها اللغـة العربية. ففي تلك المرحلة برز الاهتمام بإقامة علاقات مباشـرة بـين فرنسـا وبلدان المشرق دون المرور بوسطاء. ولتحقيق هذا الهدف أنشأ Colbert سنة 1669 مؤسسة كان من مهماتها الأساسية التخصص في مجال الترجمة(ففي ذلك الوقت كان يقال Drogma والكلمة متأتية من الاستعمال العربي لكلمة (Traducteur –Interprèt)، هـذه المدرسـة حملـت اسـم، مدرسـة الشـباب للغات ثم ألحقت في القرن الثامن عشر بمدرسة اليسـوعين الـتي أصبحـت فيما بعد تعرف بثانوية louis le grand. مع الثورة الفرنسـية أضيفـت علـى هذه المؤسسة مدرسة جديدة لتعليم الترجمة والاختصاص باللغات الشـرقية L'école spéciale des langues orientales وكان ذلك في بـاريس سـنة 1795. كانت مهمة هذه المدرسة تدريس اللغات الشرقية الحية التي كانت تشـكل حينئذ أهمية كبرى للسياسة والتجارة. اللغات الثلاث التي بـدأ التدريـس بها، اللغة التركية، اللغة العربية واللغة الفارسـية. هـذه المؤسسـة تحمـل

اليـوم اسـّم (LINALCO Institut National des langues et Civilisations orientalesJ ـ) .

المعهد الوطني للغات والحضارات الشرقية. هـذه المؤسسـة العامـة ذات الطابع العلمي والثقافي والمهني ولأهميتها في مجالها، هي مرتبطـة مباشـرة بوزارة التعليم الوطني. طلابها يفوقون العشرة آلاف عـددا، واللغـات الـتي تدرّس فيها هي حوالي الثمانين لغة تمثل جميع القارات.

واقع تدريس اللغة العربية في فرنسا:

في خطاب ألقاه في الرابع عشر من شهر تموز (يوليو) من عام 1998 عبر رئيس جمهورية فرنسا عن رغبته في تطوير تعليم اللغات الأجنبيـة ليصبـح في متناول أي تلميذ فرنسي تعلم لغات ثلاث. وهذا الاهتمام بتعليم اللغـات الأجنبية يندرج في خانة إطار يحدد الأولويات التالية:

أولا: إن االعولمة يمكن أن تفتح المجـال أمـام خطـر النـهج الواحـد في هيكلـة التفكـير، والحفـاظ علـى التعدديـة اللغويـة هـو احـد الضمانـات الأساسية لتدعيم التعددية الثقافية.

ثانيا: إن التمكن من عدة لغات هو اليوم ضمانة لانفتـاح الـدارس علـى العالم وفي ذات الوقت هو عامل مقرر في تهيئة الظـروف الإيجابيـة لفـرص العمل.

ثالثا : إن تعليم اللغات الأجنبية في فرنسا يدعم الهدف الأعلـى الـذي يمثله تدريس اللغة الفرنسية في العالم. فعلى فرنسا أن تعطـي المثـال علـى أرضها بتنفيذ برنامج تعليمي متقـدم للغـات الأجنبيـة إذا أرادت أن تنمـي الفرنكوفونية اللغوية على أرض الاخرين.

ألم يقل أحد أعضاء مجلس الشيوخ الفرنسي في جلسة عقدت في الثلاثين من شهر أيار (مايو) سنة 2000 ما ترجمته " أعلن الرئيس بوتفليقة مؤخرا بأن اهتمامه سيكون أكبر بتدريس اللغة الفرنسية في الجزائر عندما يصبح اهتمام الدولة الفرنسية جديا في تدريس اللغة العربية في فرنسا (...) ليس باستطاعة أحد أن يرفض هذه الحتمية".

وفي إطار خطة شاملة لتحسين القدرات اللغوية عند التلاميذ، خاصة في مجال التخاطب، قرّر تعميم، وبصفة تدريجية، تدريس لغة أجنبية حيّة في المدارس الابتدائية.

واعتمادا على تقارير وضعتها المديرية العامّة للتعليم في الوزارة الفرنسية للتربية والبحوث والتكنولوجيا لسنة 1989–1999، نجد أن اللغة الإنكليزية تدرس بنسبة 72٪، اللغة الألمانية 23٪، الإسبانية 2٪ ، أما اللغات المتبقية، كالإيطالية والبرتغالية والعربية، فهي نادرة التدريس، ونصيب العربية لايتعدى 0.19 ٪ (أي ما يقارب الألفي تلميذا).

أما في المرحلتين المتوسطة والثانوية، فتدريس اللغة الأجنبية إجباري وأمام التلميذ حرية الاختيار بين اثنتي عشرة لغة هي (الإنكليزية، الألمانية، العربية، الصينية، الإسبانية، العبرية المعاصرة، الإيطالية، اليابانية، الهولندية، البولونية، البرتغالية و الروسية. وقد أضيفت مؤخرا إمكانية اختيار لغة مناطقية فرنسية).

أما إحصائيات إدارة البرمجة والتنمية في وزارة التربية الفرنسية، فيما يخص اللغة العربية على صعيد المرحلتين المتوسطة والثانوية، فتشير إلى أن هناك 7650 تلميذا يدرسون هذه اللغة في المدارس الرسمية.

هناك أيضا اتفاقيات ثنائية بين الدول الفرنسية وبعض الحكومات المعنية بوجود رعاياها في فرنسا لمساعدتهم على استمرارية التواصل اللغوي والثقافي مع الوطن الأم. واسم هذه الإدارة " تدريس لغات وثقافات بلدان المنشأ"E.L.C.O. Enseignement Des Langues et Des Cultures D'origine

على مستوى الجامعات والمعاهد العليا: إن اللغة العربية تدرّس كلغة اختصاص وكلغة انفتاح ثقافي، وذلك في أكثر من عشرين جامعة فرنسية. بعض هذه الجامعات يكتفي بتدريس DEUG Le Diplôme D'études universitaires Générales شهادة الدراسات الجامعية العامّة. ومنها يدرس حتى مستوى الدكتراه. بين أهم هذه الجامعات، Aix , Bordeaux, Toulouse, paris, Lile, Strasbourg, Lyon +Inalco

هناك هيكلة لتدريس اللغة العربية في الجامعات الفرنسية وهذه الهيكلة تضبطها نصوص رسمية وهي تتمحور حول: اللغة، الحضارة الأدب و الإسلاميات.

أما ميكانكية التدريس حتى الإجازة فهي كالتالي:

- فقه اللغة
- الفهم والتعبير في مجال اللغة العربية
- الأداب العربي الكلاسيكي
- الأداب العربي المعاصر

- اللغة العربية كلغة حية .
- منهجية دراسة النصوص العربية.
- ترجمات
- العلم العربي الإسلامي.
- الحضارة العربية الإسلامية القديمة
- الحضارة العربية الإسلامية الحديثة

بدأ الآن تدريس اللغة العربية في بعض المدارس العليا polytechnique, EDHEC , HEC , ponts et chaussés, Mines. هذه السنة حوالي 500 طالب اختاروا اللغة العربية كلغة أولى في امتحان الدخول إلى هذه المدارس الكبرى. يصل عدد اللغات الأجنبية التي تدرس في الجامعات الفرنسية إلى 34 لغة، ونصيب اللغة الإنكليزية والأسبانية والألمانية والإيطالية 98،02% وما تبقى من نسبة مئوية هو للغات الأخرى أي: 02.98% والعربية بينها.

من التعليم العشوائي علينا الوصول إلى التعليم المنظم والمنهجي الذي يجمع بين الأبعاد الثقافية والآليات التربوية. إن تدريس اللغة العربية في فرنسا أو في أي بلد أوربي يستدعي التأقلم مع دورة الزمن. علينا المشاركة في صنع قرار يحدد الأهداف التربوية التي تمهد للانتشار وطرق تقديم أدوات التنفيذ. الدراسات المتخصصة في فرنسا تستند إلى خلفية العمق الثقافي والعمق الحضاري لكن العمق الاقتصادي يبقى حاضرا. إن من شروط التعليم في الجامعات (على مستوى الإجازة خاصة) التوافق بين الدراسة والحياة المهنية. ينقصنا مشروع عربي ثقافي مدعم على أرض الواقع بمنشورات، بوسائل إعلام، بمكتبات، بجمعيات مدنية مساندة، بسياسة

عربية ثقافية متناسقة التدبير، بمرجعية عربية ثقافية علـى صعيـد فرنسـا وليس على صعيد طبقية ثقافية تتمحور في باريس.

إنشاء مراكز للترجمة: إن الفكر العربي المعاصر شبه مجهول في أوروبـا وعلى الفكر الغربى أن يقرأ بالعربية في البلدان العربية.

نسأل لماذا يتعلم الفرنسـي اللغـة العربيـة؟ لمـاذا يتعلـم العربـي الأصـل العربية؟

إن أغلب الذين يسجلون في الدراسات العليا وفي الدكتـوراة (اختصـاص عربـي وإسـلامي) يـأتون مـن العـالم العربـي، لنتسـاءل: ألم تصـل بعـد الجامعـات العربيـة إلى سـن الرشـد كـي تتمكـن مـن احتـواء طـلاب الاختصاص؟

يبدي الاتحاد الأوروبي اهتماما خاصا بتعليـم اللغـات الأجنبيـة وذلـك منذ اتحاد القرارات سنة 1995 الداعية إلى تنويع تعلم اللغات مع التشـديد على نوعية هذا التعليم. إن السنة 2001 ستكون في أوربا سنة اللغات وذلك بقرار من المجلس التنفيذي الأوربي وبتزكية مـن الاتحـاد الأوروبـي. عـدة نشاطات ستنظم بهدف تحسين القدرات اللغويـة وتهيئـة الـرأي العـام إلى أهمية الانفتاح اللغوي الذي هو بحد ذاته تنمية للشخصية الثقافية ودعامة في إطار حوار الثقافات والتبادل الإنساني. إن تعلم وتعليم العربية اليوم هو بحاجة إلى إستراتيجية مستقبلية، بحاجة إلى قرار سياسي عربي- عربـي وعربي فرنسي. علنا نكون على الموعد في مجال التعريـف بلغتنـا الجميلـة وبثقافتنا المجيدة على أرض العروبة وفي قارات العالم أجمع.

اهدانا الله درب الصواب، وهو يهدي من يشاء.

انجـــاز منشـــورات ثـــالـــة

حي بوعتّورة – عمارة 2، رقم 5، الأبيار – الجزائر العاصمة.

هاتف: 012.92.36.58 - 021.92.42.11 - 021.79.29.59

فاكس: 021.79.29.59



المجلس الأعلى للّغة العربية
06، شارع العقيد محمد بوقرة، الجزائر.
الهاتف: 23.07.24 / 023.07.25 021 الفاكس: 80.99.23 021
ص.ب.575 الجزائر، ديدوش مراد.
www.csla.dz